موسوعة السير 9

الخليفة الراشد والمصلح الكبير

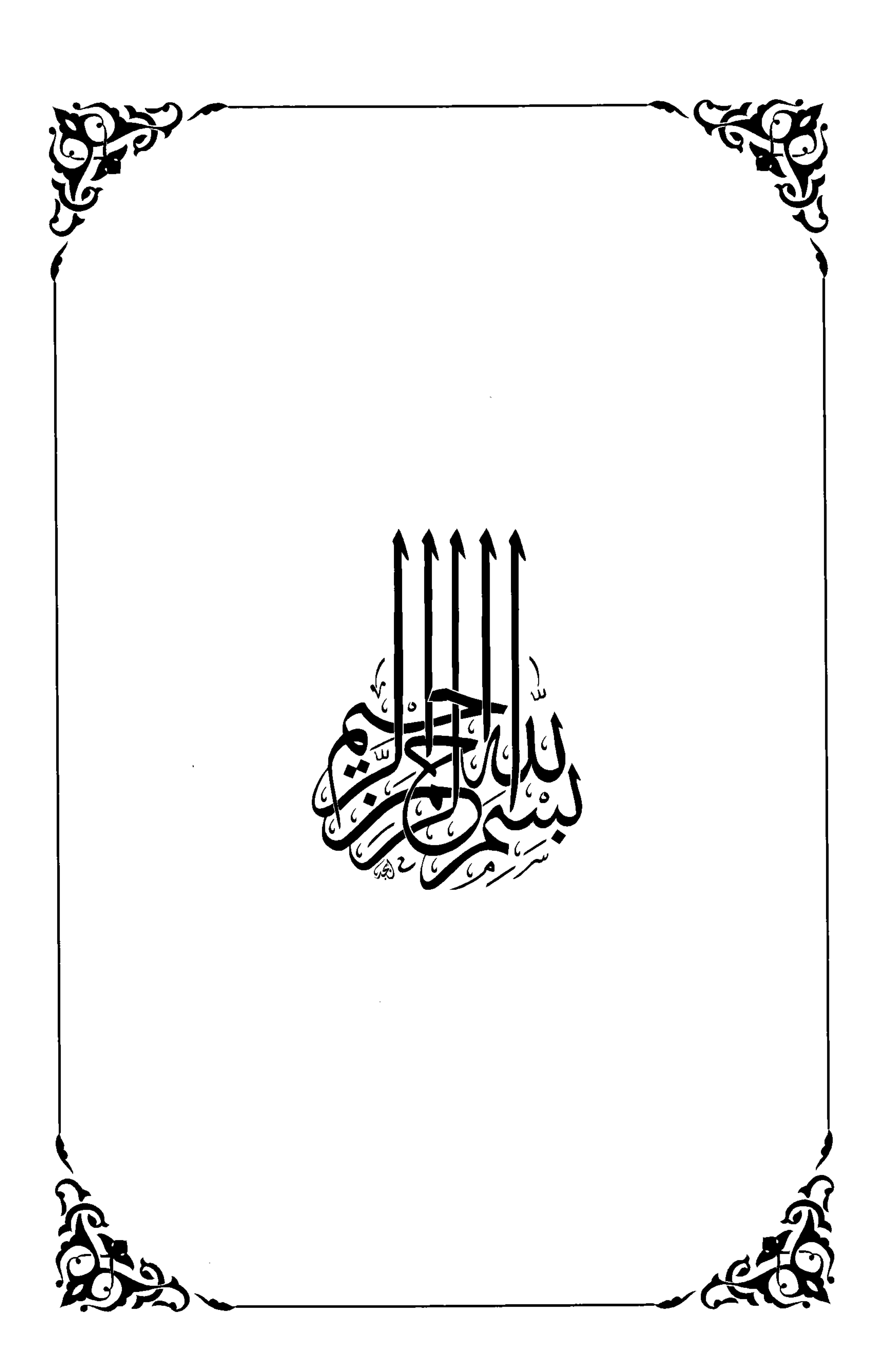


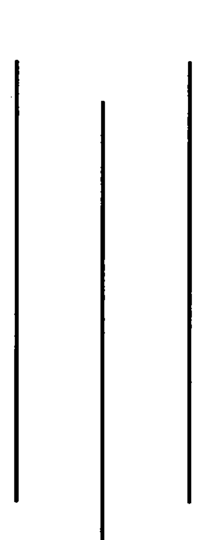
ومعالم التجديد والإصلاح الراشدي على منهاج النبوة

تأليف

الدكتور علي محمد محمد الصلابي




بسم الله الرحمن الرحيم

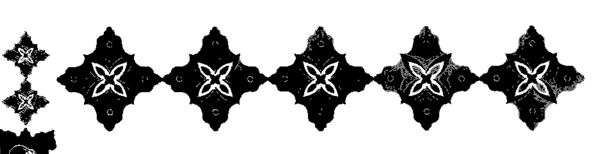


الخليفة الراشد والمصلح الكبير

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

ومعالم التجديد والإصلاح الراشدي
على منهاج النبوة





الموضوع: سيرة - تراجم

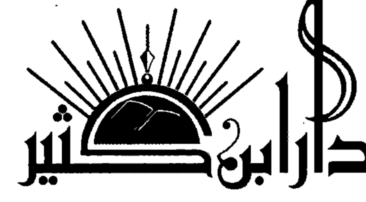
العنوان: موسوعة السير 1\10

التأليف: الدكتور علي محمد محمد الصلابي

الطبعة الثانية

1430 هـ - 2009 م

الورق: كريم
ألوان الطباعة: لونان
عدد الصفحات: 5558
القياس: 17×24
التجليد: كرتونيه
الوزن: 10 كغ



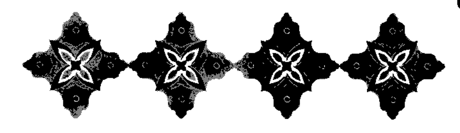
للطباعة و النشر و التوزيع

التنفيذ الطباعي:
مطبعة 53dots - بيروت
التجليد:
مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشق - سوريا - ص.ب : 311
حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com

ISBN: 978-9953-520-38-4





المقدمة

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه وتستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب] .

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، ولك الحمد حتى ترضى ، ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا ، أما بعد :

هذا الكتاب جزء من الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار ، يتحدث عن عهد الإصلاحي عمر بن عبد العزيز ، فتحدثت عن حياته وسيرته وطلبه للعلم وعن أهم أعماله في عهد الوليد وسليمان ، وعن خلافته وبيعته ومنهجه في إدارة الدولة ، واهتمامه بالشورىٰ والعدل وسياسته في رد المظالم وعزل جميع الولاة الظالمين ، ورفع المظالم عن الموالي وأهل الذمة ، وإقامة العدل لأهل سمرقند وعن الحريات في دولته ، كالحرية الفكرية والعقدية والسياسية والشخصية ، وحرية التجارة والكسب ، وذكرت أهم صفاته ، كشدة خوفه من الله تعالى ، وزهده ، وتواضعه ، وورعه ، وحلمه وصفحه وعفوه ، وصبره ، وحزمه ، وعدله وتضرعه ودعائه واستجابة الله له ، وتحدثت عن معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز ، كالشورىٰ ، والأمانة في الحكم وتوكيل الأمناء ، وإحيائه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومبدأ العدل ، وعن شروط المجدد ، كأن يكون معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج وأن يكون عالماً مجتهداً ، وأن يشمل تجديده ميدان الفكر والسلوك ، وأن يعم نفعه أهل زمانه ، وتكلمت عن

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة والجماعة في توحيد الألوهية وفي باب أسماء اللهِ الحسنىٰ وصفاته العلى ، وفي مفهوم الإيمان والإيمان باليوم الآخر والمعتقدات الغيبية ، كعذاب القبر ونعيمه والمعاد ، والميزان والحوض والصراط والجنة والنار ورؤية المؤمنين ربهم في الجنة والدعوة للاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين ، وموقفه من الصحابة والخلاف بينهم وموقفه من أهل البيت ، وتحدثت عن معاملته للخوارج والشيعة والقدرية ، وعن حياته الاجتماعية ، واهتمامه بأولاده وأسرته ومنهجِهِ في تربيته لأولاده كاختيار المعلم والمؤدب الصالح ، وتحديد المنهج العلمي وتحديد طريقة التأديب والتعليم ، وتحديد أوقات وأولياتِ التعليم ، ومراعاة المؤثرات التعليمية ، وعن نتائج ذلك المنهج وتأثر ابنه عبد الملك به ، وتكلمت عن حياته مع الناس ، واهتمامه بإصلاح المجتمع ، وتذكيره الناس بالآخرة ، وتصحيح المفاهيم الخاطئة ، وإنكاره العصبية القبلية ، وتقديره لأهل الفضل وقضائه على ديون الغارمين ، وفك أسرىٰ المسلمين ، وإغنائه المحتاجين عن المسألة ، ودفع المهور من بيت المال ، وجهوده في التقريب بين طبقات المجتمع ، ومعاملته للشعراء ، واهتمامه الكبير بالعلماء ، ومشاركتهم الفعّالة معه لإنجاح مشروعه الإصلاحي ، فترقبوا منه وشدوا أزره للسير في منهجه التجديدي ، وتعهدوه بالنصح والتذكير بالمسؤولية ، واستعدادهم لتولي مختلف مناصب الدولة وأعمالها، وتحدثت عن المدارس العلمية في عهده وعهد الدولة الأموية، كمدرسة الشام والحجاز ، والعراق ومصر . . إلخ ، وعن منهج التابعين في تفسير القرآن الكريم ، وجهودهم في خدمة السنة ودور عمر بن عبد العزيز في تدوينها ، وأشرتُ إلى منهج التزكية والسلوك عند التابعين ، وأخذت مدرسة الحسن البصري مثالاً على ذلك فتحدثت عنها وعن تلاميذها كأيوب السختياني ، ومالك بن دينار ، ومحمد بن واسع ، وبينت براءة الحسن البصري من الاعتزال ، وتحدثت عن علاقة الحسن البصري بعمر بن عبد العزيز ورسائله إليه ، التي يبين فيها صفات الإمام العادل في نظره ، وذكرت موقف عمر بن عبد العزيز وأسباب رفعه لحصار القسطنطينية واهتمامه بالدعوة الشاملة ، ووضعه لقانون التفرغ للدعاة والعلماء ، وحضه على نشر العلم وتعليمه وتوجيه الأمة إلى أهميته، وإرسال العلماء الربانيين في شمال إفريقية وغيرها لتعليمِ الناس وتربيتهم على الكتاب والسنة ، وإرساله الرسائل الدعوية إلى الملوك بالهند وغيرها ، وتشجيعه غير المسلمين على الدخول في الإسلام ، وأفردت مبحثاً لإصلاحاته المالية وسياسته الحكيمة في ذلك ، وحرصه على ترسيخ قيم الحق والعدل ورفع الظلم ، فبينت أهداف السياسة الاقتصادية عنده من إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل ، وتحقيق التنمية الاقتصادية والرفاه الاجتماعي ، وأشرت لتحقيق تلك الأهداف كتوفير المناخ المناسب للتنمية ورد الحقوق لأصحابها وفتح الحرية الاقتصادية بقيود ، واتباع سياسة زراعية جديدة تمنع بيع الأرض الخراجية ، وتعتني بالمزارعين وتخفف الضرائب عنهم ، وحث الناس على الإصلاح

والإعمار وإحياء أرض الموات ، وتوفير مشاريع البنية التحتية ، وتحدثت عن سياسته في الإنفاق العام ، كإنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية وترشيد الإنفاق في مصالح الدولة ، كقطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين ، وترشيد الإنفاق الإداري والحربي وتكلمت عن المؤسسة القضائية في عهده وبعض اجتهاداته الفقهية كرأيه في الهدية لولاة الأمر ونقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية ، وغير ذلك من الاجتهادات الفقهية والقضائية. وتحدثت عن سياسته الإدارية وأشهر ولاته وحرصه على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح ، وإشرافه المباشر على إدارة شؤون الدولة ، وعن قدراته في التخطيط والتنظيم ، وعن أسلوبه في الوقاية من الفساد الإداري ، كالتوسعة على العمال في الأرزاق وحرصه على الوقاية من الكذب ، والامتناع عن أخذ الهدايا والهبات ، والنهي عن الإسراف والتبذير ، ومنع الولاة والعمال من ممارسة التجارة ، وفتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية ، ومحاسبته للولاة من قبله عن أموال بيت المال ، وتطرقت إلى مفهومِ المركزية واللامركزية في إدارة عمر بن عبد العزيز واهتمامه بمبدأ المرونة ، وتوظيفه للوقت في خدمة الدولة والرعية ، وممارسته لمبدأ تقسيم العمل في الإدارة ، وحرصت على بيان بواعث عمر بن عبد العزيز في إصلاحه وتجديداته المالية والسياسية والإدارية.. إلخ ، وأشرت إلى حرصه على تنفيذ أحكام الشريعة على الدولة والأمة والمجتمعات والأفراد ، وأشرت إلى آثار التمسك بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية وهدي الخلافة الراشدة على دولتِهِ من التمكين والأمن والاستقرار ، والنصر والفتح ، والعز والشرف وبركة العيش ورغده ، وعشت مع الأيام الأخيرةِ من حياة هذا المصلح الكبير حتى وفاته.

إن ظهور عمر بن عبد العزيز في تلك المرحلة التاريخية الحرجة من تاريخ الأمة ، ومحاولته العظيمة للعودة بالحياة إلى تحكيم الشريعة وآفاق الخلافة الراشدة الملتزمة بمعطيات القرآن والسنة ظاهرة فذة تحمل في دلالتها ليس على بطولة القائد فحسب ، وإنما على قدرة الإسلام نفسه على العودة باستمرار لقيادة الحياة السياسية والتشريعية والحضارية في نهاية الأمر ، وصياغتها بما ينسجم ومبادئه الأساسية(١).

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد الكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات وعرضه للانهيار في كل ساعة ، وإنها ليست إلا حُلماً من الأحلام ، ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم: ﴿ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: ١١١].

ولقد سار نور الدين زنكي المتوفى عام ٥٦٨ هـ على منهج عمر بن عبد العزيز ، وأخذه نموذجاً ومثالاً له في القدوة والتأسي ، فآتت محاولته الإصلاحية ثمارها للأمة ، وساهمت في

(١) في التأصيل الإسلامي للتاريخ ، د. عماد الدين خليل ، (ص ٦٢).

نهوضها وعودة الوعي لها ، وتغلبت على أعدائها الصليبيين ، وطهرت بيت المقدس على يدي تلميذه ، القائد الأشم ، البطل المغوار صلاح الدين الأيوبي ، كثر الله من أمثاله في جيلنا! .

إن الإصلاح ـ كما يفهمه المسلمون الصادقون لا كما يروّج أعداء الإسلام ـ هو الغاية من إرسال الله تعالى الرسل إلى الناس. قال شعيب ـ عليه السلام ـ لقومه الغارقين في الضلال والفساد في العقيدة والسلوك : ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] .

وقد اضطلع بمهمة الإصلاح لشؤون البشر ـ بعد مصلح الإنسانية الأعظم محمد صلوات الله عليه وسلامه ـ وسار على منهج النبوة خلفاؤه الراشدون ، وعلماء الأمة الأبرار كعمر بن عبد العزيز ، والأمة الآن في أشد الحاجة لمعرفة هدي المصلحين ابتداء من النبي الكريم ﷺ ، فقد أصابها التخلف والتيه والتفرق والضعف والاستكانة . إن فقه حركة التاريخ الإسلامي يرشدنا إلى أن عوامل النهوض وأسباب النصر كثيرة منها صفاء العقيدة ، ووضوح المنهج ، وتحكيم شرع الله في الدولة ، ووجود القيادة الربانية التي تنظر بنور الله وقدرتها في التعامل مع سنن الله في تربية الأمم وبناء الدول وسقوطها ، ومعرفة علل المجتمعات وأطوار الأمم ، وأسرار التاريخ ، ومخططات الأعداء من الصليبيين واليهود والملاحدة والفرق الباطنية ، والمبتدعة ، وإعطاء كل عامل حقه الطبيعي في التعامل معه ، فقضايا فقه النهوض ، والمشاريع النهضوية البعيدة المدى متداخلة متشابكة لا يستطيع استيعابها إلا من فهم كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، وارتبط بالفقه الراشدي المحفوظ عن سلفنا العظيم ، فعلم معالمه وخصائصه وأسباب وجوده وعوامل زواله ، واستفاد من التاريخ الإسلامي وتجارب النهوض ، فأيقن بأن هذه الأمة ما فقدت الصدارة قط وهي وفية لربها ونبيها ﷺ وعلم بأن الهزائم العسكرية عرض يزول ، أما الهزائم الثقافية فجرح مميت ، والثقافة الصحيحة تبني الإنسان المسلم ، والأسرة المسلمة ، والمجتمع المسلم ، والدولة المسلمة على قواعدها المتينة من كتاب الله وسنة رسوله ، وهدي الخلفاء الراشدين ، ومن سار على نهجهم ، وعبقرية البناء الحضاري الصحيح هي التي أبقت صرح الإسلام إلى يومنا هذا بعد توفيق الله وحفظه .

إن سيرة عمر بن عبد العزيز تمدنا بالمفهوم الصحيح لكلمة الإصلاح للمفهوم القرآني الأصيل ؛ الذي فهمه علماؤنا المصلحون فهماً صحيحاً وطبّقوه تطبيقاً سليماً ، لا المفهوم الغربي الحديث الذي تسرَّب إلى أبنائنا اليوم أن الثورة أعمّ وأشمل وأعمق من الإصلاح الذي يرادف في الغرب معنى التغيير الخفيف الذي يحدث بتدرج ومن دون عنف ، بينما الثورة هي عندهم انقلاب جذري دون تدرّج عنيف ومفاجىء ، وما دروا أن الإصلاح بالمفهوم القرآني

الصحيح له معنى أشمل وأعمّ وأكبر من الثورة ، فهو دائماً يتَّجه نحو الأحسن والأكمل ، بينما الثورة قد تكون من الصالح إلى الفاسد أصلاً ، ويتم ذلك بتغيير سلطة بسلطة وحاكم بحاكم[1] .

إن عمر بن عبد العزيز نموذج إصلاحي لمن يريد السير على منهاج النبوة وعهد الخلافة الراشدة ، ولقد أخلص لله تعالى في مشروعه الإصلاحي ، فتولى الله توفيقه ، وأطلق ألسنة الناس بمدحه والثناء عليه ، قال الشاعر أحمد رفيق المهدوي الليبي :

فإذا أحب الله باطن عبده ظهرت عليه مواهب الفتاح
وإذا صفت لله نية مصلح مال العباد عليه بالأرواح

وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً ، وأن يثيبني وإخواني الذين ساعدوا على نشره بمنه وكرمه وجوده ، ونرجو من كل مسلم يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه من دعائه ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل : ١٩]. قال تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر : ٢]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك . وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

علي محمد محمد الصَّلاَّبي

(١) آثار الإمام محمد بشير الإبراهيمي (٢/ ٦).

عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز

المبحث الأول
من الميلاد إلى خلافته

أولاً: اسمه ولقبه وكنيته وأسرته:

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الإمام الحافظ العلامة المجتهد الزاهد العابد، السيد أمير المؤمنين حقاً أبو حفص القرشي الأموي المدني ثم المصري، الخليفة الزاهد الراشد أشج بني أمية(١)، كان من أئمة الاجتهاد ومن الخلفاء الراشدين(٢)، وكان حسن الأخلاق والخُلق، كامل العقل، حسن السمت، جيِّد السياسة حريصاً على العدل بكل ممكن، وافر العلم، فقيه النفس، طاهر الذكاء والفهم، أوّاهاً منيباً، قانتاً لله حنيفاً، زاهداً مع الخلافة، ناطقاً بالحق مع قلة المعين، وكثرة الأمراء الظلمة الذين ملُّوهُ وكرهوا محاققته لهم، ونقصه أُعطياتهم، وأخذه كثيراً مما في أيديهم مما أخذوه بغير حقٍّ، فما زالوا به حتى سقوه السم فحصلت له الشهادة والسعادة، وعُد عند أهل العلم من الخلفاء الراشدين والعلماء العاملين(٣)، وكان رحمه الله فصيحاً مُفوَّهاً(٤).

١ ـ والده:

هو عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وكان من خيار أمراء بني أمية، شجاعاً كريماً، بقي

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٤).

(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ١١٤).

(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٢٠).

(٤) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٣٦).

أميراً لمصر أكثر من عشرين سنة ، وكان من تمام ورعه وصلاحه : أنه لما أراد الزواج قال لقيمه : اجمع لي أربعمئة دينار من طيب مالي ، فإني أريد أن أتزوج إلى أهل بيت لهم صلاح[(١)] ، فتزوج أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهي حفيدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وقيل : اسمها ليلى[(٢)] ، كما أن زواجه من آل الخطاب ما كان ليتم لولا علمهم بحاله وحسن سيرته وخلقه ، فقد كان حسن السيرة في شبابه ، فضلاً عن التزامه وحرصه على تحصيل العلم ، واهتمامه بالحديث النبوي الشريف؛ فقد جلس إلى أبي هريرة وغيره من الصحابة وسمع منهم ، وقد واصل اهتمامه بالحديث بعد ولايته مصر ، فطلب من كثير بن مرة في الشام أن يبعث إليه ما سمعه من حديث رسول الله ﷺ إلا ما كان من طريق أبي هريرة فإنه عنده[(٣)] .

وقد كان والد عمر بن عبد العزيز ذا نفس تواقة إلى معالي الأمور ، سواء قبل ولايته مصر أو بعدها؛ فحين دخل مصر أيام شبابه تاقت نفسه إليها وتمنى ولايتها ، فنالها[(٤)] ، ثم تاقت إلى الجود فصار أجود أمراء بني أمية وأسخاهم[(٥)] ، فكانت له ألف جفنة كل يوم تنصب حول داره ، وكانت له مئة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل[(٦)] ، ومن جوده كان يقول: إذا أمكنني الرجل من نفسه حتى أضع معروفي عنده فيده عندي أعظم من يدي عنده[(٧)] .

وقد أكثر المؤرخون من الثناء عليه لجوده، وهذا الجود كان ممتزجاً باليقين بأن الله سبحانه وتعالى يخلف على من يرزقه، فيقول: عجباً لمؤمن يؤمن أن الله يرزقه ويخلف عليه كيف يحبس ماله عن عظيم أجر وحسن ثناء ؟! وكان ذا خشية من الله، ونستقرئ هذه الخشية من قوله حين أدركه الموت : وددت أني لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولوددت أني أكون هذا الماء الجاري ، أو نبتة بأرض الحجاز[(٨)]! .

٢ ـ أمه :

أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ووالدها عاصم بن عمر بن الخطاب ، الفقيه ، الشريف أبو عمرو القرشي العدوي ، ولد في أيام النبوة وحدّث عن أبيه ،

---

(١) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٣١)؛ الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، (ص ١١).

(٢) عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره في أحداث العصر الأموي ، (ص ٥٨).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧).

(٤) الولاة وكتاب القضاة ، للكندي ، (ص ٥٤).

(٥) معجزة الإسلام ، خالد محمد خالد (ص ٥٥).

(٦) الخطط للمقريزي (١/ ٢١) وبدائع الزهور (١/ ٢٨).

(٧) عبد العزيز بن مروان ، (ص ٥٥).

(٨) المصدر السابق نفسه، (ص ٥٦)؛ نقلاً عن البداية والنهاية .

وأمه هي جميلة بنت ثابت بن أبي الأقلح الأنصاريّة ، وكان طويلاً جسيماً وكان من نبلاء الرجال ، ديّناً ، خيِّراً ، صالحاً ، وكان بليغاً ، فصيحاً ، شاعراً ، وهو جد الخليفة عمر بن عبد العزيز لأُمِّه ، مات سنة سبعين ، فرثاه ابن عمر أخوه:

فليتَ المنايا كُنَّ خلَّفْنَ عاصماً فعِشْنَا جميعاً أو ذهبن بنا معا[١]

وأما جدته لأمه فقد كان لها موقف مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فعن عبد الله بن الزبير بن أسلم ، عن أبيه ، عن جده أسلم قال: بينما أنا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو يَعُسُّ[٢] بالمدينة ، إذ أعيا فاتكأ على جانب جدار في جوف الليل ، فإذا امرأة تقول لابنتها: يا بنتاه! قومي إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء ، فقالت لها: يا أمتاه أو ما علمت ما كان من أمير المؤمنين اليوم؟ قالت: وما كان من عزمته يا بنية؟ قالت: إنه أمر منادياً ، فنادى ألاَّ يشاب اللبن بالماء ، فقالت لها: يا بنتاه قومي إلى اللبن فامذقيه بالماء فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادي عمر ، فقالت الصبية لأمها: يا أمتاه! والله ما كنت لأطيعه في الملأ وأعصيه في الخلاء ، وعمر يسمع كل ذلك ، فقال: يا أسلم عَلِّم الباب واعرف الموضع ، ثم مضى في عسه ، فلما أصبحا قال: يا أسلم امضِ إلى الموضع فانظر من القائلة؟ ومن المقول لها؟ وهل لهم من بعل؟ فأتيت الموضع فنظرت فإذا الجارية أيِّم لا بعل لها ، وإذا تيك أمها ، وإذا ليس بها رجل ، فأتيت عمر وأخبرته ، فدعا عمر ولده ، فجمعهم ، فقال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة أزوجه؟ فقال عاصم: يا أبتاه لا زوجة لي فزوجني ، فبعث إلى الجارية ، فزوجها من عاصم فولدت لعاصم بنتاً ، وولدت البنت عمر بن عبد العزيز[٣].

ويذكر أن عمر بن الخطاب رأى ذات ليلة رؤيا ، ويقول: ليت شعري من ذو الشين[٤] من ولدي الذي يملؤها عدلاً ، كما ملئت جوراً[٥] ، وكان عبد الله بن عمر يقول: إن آل الخطاب يرون أن بلال بن عبد الله بوجهه شامة ، فحسبوه المبشر الموعود ، حتى جاء الله بعمر بن عبد العزيز[٦].

٣ ـ ولادته (٦١ هـ) ، ومكانها (المدينة):

اختلف المؤرخون في سنة ولادته ، والراجح أنه ولد عام ٦١ هـ ، وهو قول أكثر

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩٧).
(٢) العَسُّ: السير في الليل للكشف عن أهل الريبة. معجم مقاييس اللغة (٤/ ٤٢).
(٣) سيرة عمر لابن الحكم ، (ص ١٩ ـ ٢٠)؛ و: سيرة عمر ، لابن الجوزي ، (ص ١٠).
(٤) الشين: العلامة.
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٢).
(٦) المصدر السابق نفسه.

المؤرخين، ولأنه يؤيد ما يذكر أنه توفي وعمره أربعون سنة؛ حيث توفي عام ١٠١ هـ[١] ، وتذكر بعض المصادر أنه ولد بمصر ، وهذا القول ضعيف لأن أباه عبد العزيز بن مروان بن الحكم إنما تولى مصر سنة خمس وستين للهجرة ، بعد استيلاء مروان بن الحكم عليها من يد عامل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ، فولّى عليها ابنه عبد العزيز ولم يعرف لعبد العزيز بن مروان إقامة بمصر قبل ذلك ، وإنما كانت إقامته وبني مروان في المدينة[٢] ، وذكر الذهبي أنه ولد بالمدينة زمن يزيد[٣] .

٤ ـ أشج بني أمية:

كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يلقب بالأشج ، وكان يقال له: أشج بني مروان ، وذلك أن عمر بن عبد العزيز عندما كان صغيراً دخل إلى إصطبل أبيه عندما كان والياً على مصر ليرى الخيل ، فضربه فرس في وجهه فشجه ، فجعل أبوه يمسح الدم عنه ويقول: إن كنت أشج بني أمية إنك إذاً لسعيد[٤] ، ولما رأى أخوه الأصبغ الأثر قال: الله أكبر! هذا أشج بني مروان الذي يملك ، وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: إن من ولدي رجلاً بوجهه أثر يملأ الأرض عدلاً[٥]. وكان الفاروق قد رأى رؤيا تشير إلى ذلك ، وقد تكررت هذه الرؤيا لغير الفاروق حتى أصبح الأمر مشهوراً عند الناس ، بدليل ما قاله أبوه عندما رأى الدم في وجهه ، وما قاله أخوه عندما رأى الشج في وجهه؛ كلاهما تفاءل لعله أن يكون ذلك الأشج الذي يملأ الأرض عدلاً[٦] .

٥ ـ إخوته:

كان لعبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز عشرة من الولد؛ وهم: عمر وأبو بكر ومحمد وعاصم وهؤلاء أمهم ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وله من غيرها ستة؛ وهم: الأصبغ وسهيل وسهيل وأم الحكم وزبّان وأم البنين[٧] ، وعاصم هو من تكنى به والدته ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، فكنيتها أم عاصم[٨] .

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٧٦).
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٥٤).
(٣) تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨ ـ ١٢٠).
(٤) البداية والنهاية نقلاً عن فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٠).
(٥) المعارف ، لابن قتيبة ، (ص ٣٦٢).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز د. محمد شقير (١/ ٢٠).
(٧) المعارف لابن قتيبة ، (ص ٣٦٢).
(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٢).

٦ ـ أولاده:

كان لعمر بن عبد العزيز رحمه الله أربعة عشرة ذكراً؛ منهم: عبد الملك وعبد العزيز وعبد الله وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وبكر والوليد وموسى وعاصم ويزيد وزبان وعبد الله[١]، وبنات ثلاث: أمينة وأم عمار وأم عبد الله، وقد اختلفت الروايات عن عدد أولاد وبنات عمر بن عبد العزيز؛ فبعض الروايات تذكر أنهم أربعة عشر ذكراً كما ذكره ابن قتيبة، وبعض الروايات تذكر أن عدد الذكور اثنا عشر وعدد الإناث ست كما ذكره ابن الجوزي[٢] والمتفق عليه من الذكور اثنا عشر.

وحينما توفي عمر بن عبد العزيز لم يترك لأولاده مالاً إلا الشيء اليسير، ويروىٰ: أنه أصاب الذكر من أولاده من التركة تسعة عشر درهماً فقط، بينما أصاب الذكر من أولاد هشام بن عبد الملك ألف ألف (مليون)، وما هي إلا سنوات قليلة حتى كان أحد أبناء عمر بن عبد العزيز يحمل على مئة فرس في سبيل الله في يوم واحد، وقد رأى بعض الناس رجلاً من أولاد هشام يتصدق عليه[٣]. فسبحان الله رب العالمين!

٧ ـ زوجاته:

نشأ عمر بالمدينة وتخلق بأخلاق أهلها، وتأثر بعلمائها وأكب على أخذ العلم من شيوخها، وكان يقعد مع مشايخ قريش ويتجنب شبابهم، وما زال ذلك دأبه حتى اشتهر، فلما مات أبوه أخذه عمه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان فخلطه بولده، وقدمه على كثير منهم، وزوَّجه ابنته فاطمة بنت عبد الملك[٤]، وهي امرأة صالحة تأثرت بعمر بن عبد العزيز، وآثرت ما عند الله على متاع الدنيا، وهي التي قال فيها الشاعر:

بنتُ الخليفةِ والخليفةُ جَدُّها ... أختُ الخلائِفِ والخليفةُ زوجُهَا

ومعنى هذا البيت أنها بنت الخليفة عبد الملك بن مروان والخليفة جدها مروان بن الحكم، وأخت الخلائف فهي أخت الخلفاء الوليد بن عبد الملك وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وهشام بن عبد الملك، والخليفة زوجها فهو عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، حتى قيل عنها: لا نعرف امرأة بهذه الصفة إلى يومنا هذا سواها[٥]. وقد ولدت لعمر بن عبد العزيز إسحاق ويعقوب وموسى، ومن زوجاته لميس بنت علي بن الحارث، وقد ولدت له

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٣).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٣٣٨ وفقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٤).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، (ص ٣٣٨).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٠).
(٥) المصدر السابق نفسه.

عبد الله وبكر وأم عمار ، ومن زوجاته أم عثمان بنت شعيب بن زيان ، وقد ولدت له إبراهيم . وأما أولاده: عبد الملك والوليد وعاصم ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة وأم عبد الله؛ فأمهم: أم ولد[١] .

٨ ـ صفاته الخلقية:

كان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أسمر رقيق الوجه أحسنه ، نحيف الجسم حسن اللحية ، غائر العينين بجبهته أثر نفحة دابة وقد وخطه الشيب[٢] ، وقيل في صفته: إنه كان رجلاً أبيض دقيق الوجه ، جميلاً ، نحيف الجسم ، حسن اللحية[٣] .

ثانياً: العوامل التي أثرت في تكوين شخصية عمر بن عبد العزيز:

١ ـ الواقع الأسري:

نشأ عمر بن عبد العزيز في المدينة ، فلما شبَّ وعقل وهو غلام صغير كان يأتي عبد الله بن عمر بن الخطاب لمكان أمه منه ، ثم يرجع إلى أمه فيقول: يا أمه ! أنا أحب أن أكون مثل خالي ـ يريد عبد الله بن عمر ـ فتؤفف به، ثم تقول له: اغرب؛ أنت تكون مثل خالك! وتكرر عليه ذلك غير مرة. فلما كبر سار أبوه عبد العزيز بن مروان إلى مصر أميراً عليها ، ثم كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه وتقدم بولدها ، فأتت عمها عبد الله بن عمر فأعلمته بكتاب زوجها عبد العزيز إليها فقال لها: يا بنة أخي هو زوجك فالحقي به ، فلما أرادت الخروج قال لها: خلفي هذا الغلام عندنا ـ يريد عمر ـ فإنه أشبهكم بنا أهل البيت ، فخلفته عنده ولم تخالفه ، فلما قدمت على عبد العزيز اعترض ولده فإذا هو لا يرى عمر ، قال لها: وأين عمر؟ فأخبرته خبر عبد الله وما سألها من تخليفه عنده لشبهه بهم ، فسرّ بذلك عبد العزيز ، وكتب إلى أخيه عبد الملك يخبره بذلك ، فكتب عبد الملك أن يجري عليه ألف دينار في كل شهر ، ثم قدم عمر على أبيه مسلِّماً[٤] ، وهكذا تربى عمر رحمه الله تعالى بين أخواله بالمدينة من أسرة عمر بن الخطاب ، ولا شك أنه تأثر بهم وبمجتمع الصحابة في المدينة[٥] .

٢ ـ إقباله المبكِّر على طلب العلم وحفظه القرآن الكريم:

فقد رزق منذ صغره حب الإقبال على طلب العلم وحب المطالعة والمذاكرة بين العلماء ،

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ٣١٤ ـ ٣١٥).
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٥٨).
(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ١١)؛ الآثار الواردة (١/ ٥٨).
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٢٤ ـ ٢٥).
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٥٦).

كما كان يحرص على ملازمة مجالس العلم في المدينة ، وكانت يومئذ منارة العلم والصلاح زاخرة بالعلماء والفقهاء والصالحين ، وتاقت نفسه للعلم وهو صغير ، وكان أول ما استبين من رشد عمر بن عبد العزيز حرصه على العلم ورغبته في الأدب[١] ، وجمع عمر بن عبد العزيز القرآن وهو صغير ، وساعده على ذلك صفاء نفسه وقدرته الكبيرة على الحفظ وتفرغه الكامل لطلب العلم والحفظ .

وقد تأثر كثيراً بالقرآن الكريم في نظرته لله عز وجل والحياة والكون والجنة والنار ، والقضاء والقدر ، وحقيقة الموت ، وكان يبكي لذكر الموت بالرغم من حداثة سنه ، فبلغ ذلك أمه فأرسلت إليه وقالت : ما يبكيك؟ قال : ذكرت الموت . فبكت أمه حين بلغها ذلك[٢] ، وقد عاش طيلة حياته مع كتاب الله عز وجل متدبراً ومنفذاً لأوامره ، ومن مواقفه مع القرآن الكريم :

أ ـ عن ابن أبي ذيب :

قال : حدثني من شهد عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة ، وقرأ عنده رجل : ﴿ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ [الفرقان : ١٣] . فبكى عمر حتى غلبه البكاء وعلا نشيجه ، فقام من مجلسه فدخل بيته ، وتفرق الناس[٣] . ومفهوم هذه الآية : إذا ألقي هؤلاء المكذبون بالساعة من النار مكاناً ضيقاً ، قرنت أيديهم إلى أعناقهم في الأغلال ﴿ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ . والثبور في هذا الموضوع دعاء هؤلاء القوم بالندم على انصرافهم عن طاعة الله في الدنيا والإيمان بما جاء به نبي الله ﷺ حتى استوجبوا العقوبة[٤] .

ب ـ وعن أبي مودود :

قال : بلغني أن عمر بن عبد العزيز قرأ ذات يوم : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا ﴾ [يونس : ٦١] . فبكى بكاءً شديداً حتى سمعه أهل الدار ، فجاءت فاطمة ـ زوجته ـ فجعلت تبكي لبكائه ، وبكى أهل الدار لبكائهم ، فجاء عبد الملك ، فدخل عليهم وهم على تلك الحال يبكون فقال : يا أبه ، ما يبكيك؟ قال : خير يا بني ، ودَّ أبوك أنه لم يعرف الدنيا ولم تعرفه ، والله يا بني لقد خشيت أن أهلك ، والله يا بني لقد خشيت أن أكون من أهل النار[٥] !

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٧٩) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١٢/ ٦٧٨) .
(٣) الرقة والبكاء ، لابن أبي الدنيا ، رقم (٨٣) .
(٤) دموع القراء ، محمد شومان ، ص ١٠٧ ؛ نقلاً عن تفسير ابن جرير .
(٥) الرقة والبكاء ، لابن أبي الدنيا ، رقم (٩٠) .

ومعنى الآية: إن الله تعالى يخبر نبيه ﷺ أنه يعلم جميع أحواله وأحوال أمته وجميع الخلائق في كل ساعة وأوان ولحظة، وأنه لا يعزب عن علمه وبصره مثقال ذرة في حقارتها وصغرها في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر منها ولا أكبر إلا في كتاب مبين كقوله: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]. فأخبر تعالى أنه يعلم حركة الأشجار وغيرها من الجمادات، وكذلك الدواب السارحة في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وإذا كان هذا علمه بحركات هذه الأشياء؛ فكيف علمه بحركات المكلفين المأمورين بالعبادة؟! كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء]. ولهذا قال تعالى: إذ تأخذون في ذلك الشيء نحن مشاهدون لكم راؤون سامعون[١].

جـ- وعن عبد الأعلى بن أبي عبد الله العنزي:

قال: رأيت عمر بن عبد العزيز خرج يوم الجمعة في ثياب دسمة، ووراءه حبشي يمشي، فلما انتهى إلى الناس رجع الحبشي، فكان عمر إذا انتهى إلى الرجلين قال: هكذا رحمكما الله، حتى صعد المنبر، فخطب فقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، فقال: وما شأن الشمس؟ ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾، حتى انتهى إلى ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير] فبكى وبكى أهل المسجد، وارتج المسجد بالبكاء حتى رأيت أن حيطان المسجد تبكي معه[٢]. وهذه السورة جاء فيها الأوصاف التي وصف بها يوم القيامة من الأوصاف التي تنزعج لها القلوب، وتشتد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحث أولي الألباب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾[٣]. بل ثبت مرفوعاً من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ و: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾»[٤].

د- وعن ميمون بن مهران:

قال: قرأ عمر بن عبد العزيز: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فبكى ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ ما أرى

---

(١) تفسير ابن كثير.
(٢) دموع القراء، (ص ١١١، ١١٢).
(٣) تفسير السعدي، (ص ٩١٢).
(٤) أخرجه الترمذي، رقم (٣٣٣٣)؛ والحاكم (٢/ ٥١٥) و: (٤/ ٥٧٦) وصححه، ووافقه الذهبي؛ والألباني في الصحيحة (٣/ ٧٠).

المقابر إلا زيارة ، ولابد لمن يزورها أن يرجع إلى جنة أو إلى النار[١] ، هذه بعض المواقف التي تبين تأثير القرآن الكريم على شخصية عمر بن عبد العزيز.

٣ ـ الواقع الاجتماعي:

إن البيئة الاجتماعية المحيطة لها دور فعال ومهم في صناعة الرجال وبناء شخصيتهم ، فعمر بن عبد العزيز عاش في زمن ساد فيه مجتمع التقوى والصلاح والإقبال على طلب العلم والعمل بالكتاب والسنة ، فقد كان عدد من الصحابة لا زالوا بالمدينة ، فقد حدث عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، والسائب بن يزيد ، وسهل بن سعد ، واستوهب منه قدحاً شرب منه النبي ﷺ ، وأمّ بأنس بن مالك ، فقال: ما رأيت أحداً أشبه صلاة برسول الله ﷺ من هذا الفتى[٢] ، فكان للإقامة بالمدينة آثار نفسية ومعانٍ إيمانية ، وتعلق روحي ، وكان لذلك المجتمع قوة التأثير في صياغة شخصية عمر بن عبد العزيز العلمية والتربوية[٣].

٤ ـ تربيته على أيدي كبار فقهاء المدينة وعلمائها:

اختار عبد العزيز والد عمر صالح بن كيسان ليكون مربياً لعمر بن عبد العزيز ، فتولى صالح تأديبه وكان يلزم عمر الصلوات المفروضة في المسجد ، فحدث يوماً أن تأخر عمر بن عبد العزيز عن الصلاة مع الجماعة ، فقال صالح بن كيسان: ما يشغلك؟ قال: كانت مرجّلتي[٤]تسكن شعري ، فقال: بلغ منك حبك تسكين شعرك أن تؤثره على الصلاة؟! فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك ، فبعث أبوه رسولاً فلم يكلمه حتى حلق رأسه[٥] ، وحرص على التشبه بصلاة رسول الله ﷺ أشد الحرص ، فكان يتم الركوع والسجود ويخفِّف القيام والقعود ، وفي رواية صحيحة: أنّه كان يسبح في الركوع والسجود عشراً عشراً[٦] ، ولمّا حج أبوه ومرّ بالمدينة سأل صالح بن كيسان عن ابنه فقال: ما خبرت أحداً الله أعظم في صدره من هذا الغلام[٧].

ومن شيوخ عمر بن عبد العزيز الذين تأثر بهم: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، فقد كان عمر يجله كثيراً ، ونهل من علمه ، وتأدب بأدبه؛ وتردد عليه حتى وهو أمير المدينة ،

---

(١) الرقة والبكاء ، لابن أبي الدنيا ، رقم (٤٢٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١١٤).
(٣) الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز ، (ص ٢٣).
(٤) مرجّلتي: مسرحة شعري.
(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٦٧٨).
(٦) المصدر السابق نفسه (١٢/ ٦٨٢).
(٧) المصدر السابق نفسه (١٢/ ٦٧٨).

ولقد عبّر عمر عن إعجابه بشيخه وكثرة التردد إلى مجلسه؛ فقال: لمجلس من الأعمى: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود؛ أحب إليّ من ألف دينار[١] ، وكان يقول في أيام خلافته لمعرفته بما عند شيخه من علم غزير: لو كان عبيد الله حياً ما صدرت إلا عن رأيه ، ولوددت أن لي بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا[٢] . وكان عبيد الله مفتي المدينة في زمانه ، وأحد الفقهاء السبعة[٣] ، قال عنه الزهري: كان عبيد الله بن عبد الله بحراً من بحور العلم[٤] ، وكان يقرض الشعر ، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز هذه الأبيات:

بسمِ الذي أُنْزِلَتْ من عنده السورُ ... والحمدُ لله أمَّا بعدُ يا عُمَرُ
إن كنتَ تعلمُ ما تأتي وما تذرُ ... فكنْ على حذرٍ قَدْ ينفعُ الحَذَرُ
واصبرْ على القَدَرِ المحتومِ وارْضَ به ... وإن أتاك بما لا تَشْتهي القَدَرُ
فما صَفَا لامرئٍ عيشٌ يُسرُّ بِهِ ... إلا سيتبع يوماً صَفْوَهُ كَدَرُ[٥]

وقد توفي هذا العالم سنة ٩٨ هـ ، وقيل: ٩٩ هـ[٦] .

ومن شيوخ عمر: سعيد بن المسيب ، وقد تحدثت عن سيرته في عهد عبد الملك بن مروان ، وكان سعيد لا يأتي أحداً من الأمراء غير عمر[٧] . ومن شيوخه: سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب الذي قال فيه سعيد بن المسيب: كان عبد الله بن عمر أشبه ولد عمر به ، وكان سالم أشبه ولد عبد الله به[٨] ، وكان ابن عمر يحب ابنه سالماً ، وكان يلام في ذلك ، فكان يقول:

يلومونني في سالمٍ وألومُهُمْ ... وجلدةُ بينَ العينِ والأنفِ سالمُ[٩]

كانت أمه أم ولد ، وقال فيه ابن أبي الزناد: كان أهل المدينة يكرهون اتخاذ أمهات الأولاد حتى نشأ فيهم الغُرُّ السادة: علي بن الحسين ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله؛ ففاقوا أهل المدينة علماً وتقىً وعبادة وورعاً ، فرغب الناس حينئذ في السراري[١٠] ، وقال عنه الإمام

(١) عمر بن عبد العزيز لـ: عبد الستار الشيخ، (ص٥٩) و: الطبقات (٥/ ٢٥٠) و: تهذيب التهذيب (٧/ ٢٢).
(٢) عمر بن عبد العزيز لـ: عبد الستار الشيخ ، (ص ٥٩).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٧٥).
(٤) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٧٧).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٧٨ ، ٤٧٩).
(٧) الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر ، (ص ٢٥).
(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٩).
(٩) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٦٠).
(١٠) المصدر السابق نفسه.

مالك: لم يكن أحد في زمان سالم أشبه بمن مضى من الصالحين في الزهد والفضل والعيش منه، كان يلبس الثوب بدرهمين، ويشتري الشمال[١] ليحملها. قال: فقال سليمان بن عبد الملك لسالم ورآه حسن السّحنة: أي شيء تأكل؟ قال: الخبز والزَّيت، وإذا وجدت اللحم، أكلته. فقال له عمر: أو تشتهيه؟ قال: إذا لم أشتهه تركته حتى أشتهيه[٢].

وذات يوم دخل سالم بن عبد الله على سليمان بن عبد الملك، وعلى سالم ثياب غليظة رثَّة، فلم يزل سليمان يرحب به، ويرفعه حتى أقعده معه على سريره، وعمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال له رجل من أُخريات الناس: ما استطاع خالك أن يلبس ثياباً فاخرة أحسن من هذه، يدخل فيها على أمير المؤمنين؟ وعلى المتكلم ثياب سريّة، لها قيمة، فقال له عمر: ما رأيت هذه الثياب التي على خالي وَضَعَتْهُ في مكانك، ولا رأيت ثيابك هذه رفعتك إلى مكان خالي ذاك[٣].

وتربى وتعلم عمر بن عبد العزيز على يدي كثير من العلماء والفقهاء، وقد بلغ عدد شيوخ عمر بن عبد العزيز ثلاثة وثلاثين، وثمانية منهم من الصحابة، وخمسة وعشرون من التابعين[٤]، فقد نهل من علمهم وتأدب بأدبهم ولازم مجالسهم، حتى ظهرت آثار هذه التربية المتينة في أخلاقه وتصرفاته[٥]، فامتاز بصلابة الشخصية والجدية في معالجة الأمور، والحزم وإمعان الفكر وإدامة النظر في القرآن، والإرادة القوية والترفع عن الهزل والمزاح[٦]، هذه هي أهم العوامل التي أثرت في تكوين شخصيته، ومن الدروس المستفادة؛ هو: أن العلماء الربانيين يقع على عاتقهم مسؤولية كبيرة؛ وهي: الاهتمام بأولاد الأمراء والحكام وأهل الجاه والمال؛ ففي صلاحهم خير عظيم للأمة الإسلامية.

ثالثاً: مكانته العلمية:

اتفقت كلمة المترجمين له على أنه من أئمة زمانه، فقد أطلق عليه كل من الإمامين: مالك وسفيان بن عيينة وصف إمام[٧]، وقال فيه مجاهد: أتيناه نعلمه؛ فما برحنا حتى تعلَّمنا منه[٨]،

---

(١) المصدر السابق نفسه. والشمال مفردها: شملة وهي كساءٌ دون القطيفة يشتمل به.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٦١).

(٤) مسند أمير المؤمنين عمر، (ص ٣٣).

(٥) الجوانب التربوية في حياة عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٧).

(٦) عمر بن عبد العزيز للزحيلي، (ص ٣٠).

(٧) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٧).

(٨) تهذيب التهذيب (٧/ ٤٠٥) و: الآثار الواردة (١/ ٦٧).

وقال ميمون بن مهران: كان عمر بن عبد العزيز معلِّم العلماء[١] ، قال فيه الذهبي: كان إماماً فقيهاً مجتهداً ، عارفاً بالسنن ، كبير الشأن ، حافظاً ، قانتاً لله أوَّاهاً منيباً ، يعد في حسن السيرة والقيام بالقسط مع جده لأمه عمر ، وفي الزهد مع الحسن البصري ، وفي العلم مع الزهري[٢] .

وقد احتج الفقهاء والعلماء بقوله وفعله ، ومن ذلك رسالة الإمام الليث بن سعد إلى الإمام مالك بن أنس رضي الله عنهما؛ وهي رسالة قصيرة وفيها يحتج الليث ـ مراراً ـ لصحة قوله بقول عمر بن عبد العزيز على مالك فيما ذهب إليه في بعض مسائله[٣] .

ويرد ذكر عمر بن عبد العزيز في كتب الفقه للمذاهب الأربعة المتبوعة على سبيل الاحتجاج بمذهبه ، فاستدل الحنفية بصنيعه في كثير من المسائل ، وجعلوا له وصفاً يتميَّز به عن جدّه لأمه: عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال القرشي في الجواهر المضيئة: فائدة: يقول أصحابنا في كتبهم في مسائل الخلاف: وهو قول عمر الصغير. يريدون به عمر بن عبد العزيز الإمام الخليفة المشهور[٤] ، ويكثر الشافعية من ذكره في كتبهم ، ولذلك ترجم له الإمام النووي ترجمة حافلة في تهذيب الأسماء واللغات ، وقال في أولها: تكرر في المختصر والمهذب[٥]. وأما المالكية فيكثرون من ذكره في كتبهم أكثر من غيرهم ، ومالك إمام المذهب ذكر في (الموطأ) محتجاً بفتواه وقوله في مواضع عديدة في موطئه[٦] ، وأما الحنابلة فكذلك يذكرونه كثيراً ، وعمر هو الذي قال فيه الإمام أحمد: لا أدري قول أحد من التابعين حجة إلا قول عمر بن عبد العزيز ، وكفاه هذا[٧] ، وكفانا قول الإمام أحمد أيضاً: إذا رأيت الرجل يحب عمر بن عبد العزيز ويذكر محاسنه وينشرها فاعلم أن من وراء ذلك خيراً إن شاء الله[٨] .

ومن أراد أن يتبحر في علم عمر بن عبد العزيز ويعرف مكانته العلمية ، فليراجع الكتب الآتية: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة ، للأستاذ حياة محمد جبر ، والكتاب في مجلدين ، وهي رسالة علمية ، وكذلك فقه عمر بن عبد العزيز ، للدكتور محمد سعد شقير في مجلدين ، وهي رسالة علمية نال بها المؤلف درجة الدكتوراه ، وموسوعة فقه عمر بن عبد العزيز ، لمحمد رواس قلعجي ، وسوف نرى في بحثنا فقه عمر بن عبد العزيز بإذن الله

---

(١) تاريخ أبي زرعة ص ٢٥٥ ، و: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٦٧).
(٢) تذكرة الحفاظ ، (ص ١١٨ و ١١٩).
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٧٠).
(٤) الجواهر المضيئة (٤/ ٥٥٢) و: الآثار الواردة (١/ ٧١).
(٥) المختصر والمهذب من كتب الشافعية المشهورة.
(٦) انظر: الموطأ الأرقام الآتية: (٣٠٥ ، ٥٩٢ ، ٥٩٤ ، ٦١٤).
(٧) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ٧٢).
(٨) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، (ص ٦١).

تعالى في العقائد والعبادات والسياسة الشرعية ، وإدارة الدولة ، والنظم المالية والقضائية والدعوية ، وتقيده بالكتاب والسنة والخلفاء الراشدين في خطواته وسكناته .

رابعاً: عمر في عهد الوليد بن عبد الملك :

يعد عمر بن عبد العزيز من العلماء الذين تميزوا بقربهم من الخلفاء ، وكان لهم أثر كبير في نصحهم وتوجيه سياستهم بالرأي والمشورة ، ويحتل عمر بن عبد العزيز مكانة متميزة في البيت الأموي ، فقد كان عبد الملك يجله ويعجب بنباهته أثناء شبابه ، مما جعله يقدمه على كثير من أبنائه ويزوجه من ابنته ، ولكن لم يكن له مشاركات في عهد عبد الملك بسبب صغر سنه واشتغاله بطلب العلم في المدينة ، ومع ذلك فقد أورد ابن الجوزي أنه كتب إلى عبد الملك كتاباً يذكره فيه بالمسؤولية الملقاة على عاتقه ، وقد جاء فيها : أما بعد : فإنك راعٍ ، وكل راعٍ مسؤول عن رعيته ؛ حدثنا أنس بن مالك : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «كل راعٍ مسؤول عن رعيته»[1] .
﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء : ٨٧] .

ويقال بأن عمر بن عبد العزيز ولّاه عمه عبد الملك خناصره لكي يتدرب على الأعمال القيادية في وقت مبكر[2] ، وقد قيل : إن سليمان بن عبد الملك هو الذي ولاه على خناصره ، وهناك من رجح القول الأول ، وقد تأثر عمر بن عبد العزيز لموت عمه وحزن عليه حزناً عظيماً ، وقد خاطب عمر ابن عمه مسلمة بن عبد الملك فقال له : يا مسلمة إني حضرت أباك لما دفن ، فحملتني عيني عند قبره فرأيته قد أفضى إلى أمر من أمر الله ، راعني وهالني ، فعاهدت الله ألا أعمل بمثل عمله إن وليت ، وقد اجتهدت في ذلك[3] .

١ ـ ولايته على المدينة :

في ربيع الأول من عام ٨٧ هـ ولاه الخليفة الوليد بن عبد الملك إمارة المدينة المنورة ، ثم ضم إليه ولاية الطائف سنة ٩١ هـ ، وبذلك صار والياً على الحجاز كلها .

واشترط عمر لتوليه الإمارة ثلاثة شروط :

الشرط الأول : أن يعمل في الناس بالحق والعدل ولا يظلم أحداً ، ولا يجور على أحد في أخذ ما على الناس من حقوق لبيت المال ، ويترتب على ذلك أن يقل ما يرفع للخليفة من الأموال من المدينة .

الشرط الثاني : أن يسمح له بالحج في أول سنة ؛ لأن عمر كان في ذلك الوقت لم يحج .

---

(١) أثر الحياة السياسية ، (ص ١٥٩) .
(٢) الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز (١/ ٩٣) .
(٣) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، لـ: بشير كمال عابدين ، (ص ١٠) .

الشرط الثالث : أن يسمح له بالعطاء أن يخرجه للناس في المدينة .

فوافق الوليد على هذه الشروط ، وباشر عمر بن عبد العزيز عمله بالمدينة وفرح الناس به فرحاً شديداً[١] .

٢ ـ مجلس شورى عمر بن عبد العزيز : مجلس فقهاء المدينة العشرة :

كان من أبرز الأعمال التي قام بها عمر بن عبد العزيز تكوينه لمجلس الشورى بالمدينة ، فعندما جاء الناس للسلام على الأمير الجديد بالمدينة وصلى ، دعا عشرة من فقهاء المدينة ، وهم: عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وأبو بكر بن سليمان بن أبي خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وأخوه عبد الله بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد بن ثابت ، فدخلوا عليه فجلسوا ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال: إني دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعواناً على الحق ، إني لا أريد أن أقطع أمراً إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحداً يتعدى ، أو بلغكم عن عامل لي ظلامة ، فأحرّج الله على من بلغه ذلك إلا أبلغني[٢] .

لقد عرفت أن عمر بن الخطاب كان يجمع المجلس للأمر يطرأ ، فيرى ضرورة الشورى فيه، أما عمر بن عبد العزيز ، وهو سبط عمر بن الخطاب ، فقد أحدث مجلساً ، حدّد صلاحياته بأمرين :

أ ـ أنهم أصحاب الحق في تقرير الرأي ، وأنه لا يقطع أمراً إلا برأيهم. وبذلك يكون الأمير قد تخلى عن اختصاصاته إلى هذا المجلس ، الذي نسميه (مجلس العشرة) .

ب ـ أنه جعلهم مفتشين على العمال ، ورقباء على تصرفاتهم ، فإذا ما اتصل بعلمهم أو بعلم أحدهم أن عاملاً ارتكب ظلامة ، فعليهم أن يبلغوه ، وإلا فقد استعدى الله على كاتم الحق .

ونلاحظ كذلك أن هذا التدبير قد تضمن أمرين :

أحدهما : أن الأمير عمر بن عبد العزيز لم يخصص تعويضاً لمجلس العشرة؛ لأنهم كانوا من أصحاب العطاء ، وبما أنهم فقهاء ، فما ندبهم إليه داخل في صلب اختصاصهم .

الثاني : أن عمر افترض غياب أحدهم عن الحضور لعذر من الأعذار ، ولهذا لم يشترط في

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٦٣)؛ و: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، (ص ٤١ ـ ٤٢).
(٢) الطبقات (٥/ ٢٥٧) وموسوعة فقه عمر بن عبد العزيز لـ: محمد روّاس قلعجي ، (ص ٥٤٨).

تدبيره حضورهم كلهم ، وإنما قال: «أو برأي من حضر منكم»[١] ، إن هذا المجلس كان يستشار في جميع الأمور دون استثناء[٢].

ونستنتج من هذه القصة أهمية العلماء الربانيين وعلو مكانتهم ، وأنه يجب على صاحب القرار أن يدنيهم ويقربهم منه ويشاورهم في أمور الرعية ، كما أنه على العلماء أن يلتفوا حول الصالح من أصحاب القرار؛ من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن للمصالح وتقليل ما يمكن من المفاسد ، كما أن عمر بن عبد العزيز لم يختصر في شوراه على هؤلاء فحسب ، بل كان يستشير غيرهم من علماء المدينة ، كسعيد بن المسيِّب ، والزهري ، وغيرهم ، وكان لا يقضي في قضاء حتى يسأل سعيد ، وفي المدينة أظهر عمر بن عبد العزيز إجلاله للعلماء وإكباره لهم ، وقد حدث أن أرسل ـ رحمه الله تعالى ـ رسولاً إلى سعيد بن المسيِّب يسأله عن مسألة ، وكان سعيد لا يأتي أميراً ولا خليفة ، فأخطأ الرسول فقال له: الأمير يدعوك ، فأخذ سعيد نعليه وقام إليه في وقته ، فلما رآه عمر قال له: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا ، فإنا لم نرسله ليدعوك ، ولكنه أخطأ ، إنما أرسلناه ليسألك[٣].

وفي إمارته على المدينة المنورة وسع مسجد رسول الله ﷺ بأمر من الوليد بن عبد الملك ، حتى جعله مئتي ذراع في مئتي ذراع ، زخرفه بأمر الوليد أيضاً ، مع أنه رحمه الله تعالى كان يكره زخرفة المساجد[٤] ، ويتضح من موقف عمر بن عبد العزيز هنا أنه قد يضطر الوالي للتجاوب مع قرارات ممن هو أعلى منه ، حتى وإن كان غير مقتنع بها إذا قدر أن المصلحة في ذلك أكبر من وجوه أخرى.

وفي إمارته على المدينة في سنة ٩١ هـ حج الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فاستقبله عمر بن عبد العزيز أحسن استقبال ، وشاهد الوليد بأم عينيه الإصلاحات العظيمة التي حققها عمر بن عبد العزيز في المدينة المنورة[٥].

٣ ـ الحادث المؤسف في ولاية عمر:

قال العلماء في السير: كان خبيب بن عبد الله بن الزبير قد حدَّث عن النبي ﷺ: أنه قال: «إذا بلغ بنو أبي العاص[٦] ثلاثين رجلاً اتخذوا عباد الله خولاً ، ومال الله

---

(١) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (١/ ٥٦١ ، ٥٦٢).
(٢) نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق ، (ص ٣٩١).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن عبد الحكم ، (ص ٢٣).
(٤) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٦٧) و: موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز ، (ص ٢٠).
(٥) موسوعة فقه عمر بن عبد العزيز ، (ص ٢٠).
(٦) بنو أبي العاص: أي بنو العاص بني أمية الجد الثالث لكل من الوليد وعمر بن عبد العزيز.

دولاً»[١] وهو حديث ضعيف ، فبعث الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ـ واليه على المدينة ـ يأمره بجلده مئة سوط وبحبسه ، فجلده عمر مئة سوط ، وبرد له ماءً في جرّة ثم صبه عليه في غداة باردة فكزّ[٢] ، فمات فيها . وكان عمر قد أخرجه من السجن حين اشتد وجعه ، وندم على ما صنع منه ، وحزن عمر على موت خبيب ، فقد روى مصعب بن عبد الله عن مصعب بن عثمان : أنهم نقلوا خبيباً إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ببقيع الزبير ، واجتمعوا عنده حتى مات ، فبينما هم جلوس ، إذ جاءهم الماجشون يستأذن عليهم وخبيب مسجى بثوبه . وكان الماجشون مع عمر بن عبد العزيز في ولايته على المدينة . فقال عبد الله بن عروة : ائذنوا له . فلما دخل قال : كأن صاحبكم في مرية من موته اكشفوا له عنه ، فكشفوا عنه ، فلما رآه الماجشون انصرف . قال الماجشون : فانتهيت إلى دار مروان ، فقرعت الباب ودخلت ، فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائماً وقاعداً ، فقال لي : ما وراءك ؟ فقلت : مات الرجل . فسقط على الأرض فزعاً ، ثم رفع رأسه يسترجع ، فلم يزل يعرف فيه حتى مات .

واستعفى من المدينة ، وامتنع من الولاية . وكان كلما قيل له : إنك قد صنعت كذا فأبشر ، فيقول : كيف بخبيب[٣] ؟! ولم يزل يذكرها ويتصورها أمام عينه حتى مات[٤] .

ومن الأدلة على صلاح عمر بن عبد العزيز وقت ولايته على المدينة غير ما ذكر : ما رواه أبو عمر مولى أسماء بنت أبي بكر قال : فأتيته في مجلسه الذي يصلي فيه الفجر والمصحف في حجره ، ودموعه تسيل على لحيته[٥] . وحدّث ابن أبي الزناد عن أبيه ، قال : كان عمر بن عبد العزيز وهو أمير على المدينة إذا أراد أن يجود بالشيء قال : ابتغوا أهل بيت بهم حاجة[٦] .

٤ ـ عظة مزاحم مولى عمر بن عبد العزيز له :

حبس عمر رجلاً بالمدينة ، وجاوز عمر في حبسه القدر الذي يستحقه ، فكلّمه مزاحم في إطلاقه ، فقال له عمر : ما أنا بمخرجه حتى أبلغ في الحيطة عليه بما هو أكثر مما مرّ ، فقال مزاحم مغضباً : يا عمر بن عبد العزيز ! إني أحذرك ليلة تمخض بالقيامة ، وفي صبيحتها تقوم

---

(١) الحديث رواه البيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٥٠٧) عن أبي سعيد وأبي هريرة ، قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ بعد ذكر طرق أخرى ورد بها هذا الحديث : وهذه الطرق كلها ضعيفة . انظر : البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٩٨) .

(٢) كزَّ الرجل : فهو مكزوز : أصابه داء الكزاز ، وهو يبس وانقباض من البرد .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٤٣ ، ٤٤) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) المصدر السابق نفسه .

(٦) المصدر السابق نفسه؛ الآثار الواردة (١/ ٦٦) .

الساعة ، يا عمر ! ولقد كدت أنسى اسمك مما أسمع : قال الأمير قال الأمير قال الأمير ، قال عمر : إن أول من أيقظني لهذا الشأن مزاحم ، فوالله ما هو إلا أن قال ذلك ، فكأنما كشف عن وجهي غطاء[١] . وهذه القصة تبين لنا أهمية الصديق الصالح المخلص الذي يذكرك بالله حين الغفلة.

٥ ـ بين عمر بن عبد العزيز والحجّاج في خلافة الوليد:

ذكر ابن الجوزي أن عمر بن عبد العزيز قد استعفى من المدينة كما مرّ ذكره ، ولكن ذكر غيره أنه عزل عنها ، ففي سنة ٩٢ هـ عقد الخليفة الوليد لواء الحج للحجاج بن يوسف الثقفي ليكون أميراً على الحج ، ولما علم عمر بن عبد العزيز بذلك ، كتب رحمه الله تعالى إلى الخليفة يستعفيه أن يمرَّ عليه الحجاج بالمدينة المنورة ، لأن عمر بن عبد العزيز كان يكره الحجّاج ولا يطيق أن يراه ، لما هو عليه من الظلم ، فامتثل الوليد لرغبة عمر ، وكتب إلى الحجّاج : إن عمر بن عبد العزيز كتب إليَّ يستعفيني من ممرك عليه ، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك فتنحَّ عن المدينة[٢] .

وقد كتب عمر بن عبد العزيز وهو والٍ على المدينة إلى الوليد بن عبد الملك يخبره عما وصل إليه حال العراق من الظلم والضيم والضيق بسبب ظلم الحجّاج وغشمه ، مما جعل الحجّاج يحاول الانتقام من عمر لاسيما وقد أصبح الحجاز ملاذاً للفارين من عسف الحجاج وظلمه ؛ حيث كتب الحجّاج إلى الوليد : إن من قبلي من مُرّاق أهل العراق وأهل الثقاف قد جلوا عن العراق ، ولجؤوا إلى المدينة ومكة ، وإن ذلك وهن . فكتب إليه يشير عليه بعثمان بن حبان ، وخالد بن عبد الله القسري ، وعزل عمر بن عبد العزيز[٣] .

وقد كان ميل الوليد لسياسة الحجّاج واضحاً ، وكان يظن بأن سياسة الشدة والعسف هي السبيل الوحيد لتوطيد أركان الدولة ، وهذا ما حال بينه وبين الأخذ بآراء عمر بن عبد العزيز ونصائحه ، وقد أثبتت الأحداث فيما بعد أن ما كان يراه عمر أفضل مما كان يسير عليه الوليد ، وذلك بعد تولي عمر الخلافة وتطبيقه لما كان يشير به[٤] .

٦ ـ عودة عمر بن عبد العزيز إلى دمشق:

خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة المنورة وهو يبكي ومعه خادمه مزاحم ، فالتفت إلى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ١٤٠).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن الحكم ، (ص ٢٤).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٣٨٣).
(٤) أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ١٦٥).

مزاحم وقـال: يا مزاحم! نخشى أن نكون ممن نفت المدينة[١]، يشير بذلك إلى قول رسول الله ﷺ: «ألا وإن المدينة كالكير يخرج الخبث، لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شرارها، كما ينفي الكير خبث الحديد»[٢]. وقال مزاحم: ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظرت فإذا القمر في الدبران[٣] ـ كأنه تشاءم من ذلك ـ فقال: فكرهت أن أقول ذلك له، فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة! فنظر عمر فإذا هو بالدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران! يا مزاحم! إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر ولكن نخرج بالله الواحد القهار[٤].

وسار عمر حتى وصل السويداء، وكان له فيها بيت ومزرعة، فنزل فيها فأقام مدة يرقب الأوضاع عن بعد، ثم رأى أن مصلحة المسلمين تقتضي أن تكون إقامته في دمشق، بجوار الخليفة، لعله بذلك يستطيع أن يمنع ظلماً، أو يشارك في إحقاق حق، فانتقل إلى دمشق فأقام بها[٥].

ولم يكن عمر بن عبد العزيز على وفاق تام مع الخليفة الوليد بن عبد الملك، ولذلك فإن إقامته في دمشق بجوار الوليد لم تخلُ من مشاكل، فالوليد يعتمد في تثبيت حكمه على ولاة أقوياء قساة يهمهم إخضاع الناس بالقوة، وإن رافق ذلك كثير من الظلم، بينما يرى عمر أن إقامة العدل بين الناس كفيل باستقرار الملك وائتمارهم بأمر السلطان، فكان رحمه الله يقول: الوليد بالشام، والحجّاج بالعراق، ومحمد بن يوسف ـ أخو الحجّاج ـ في اليمن، وعثمان بن حيان بالحجاز، وقرة بن شريك في مصر، .. امتلأت والله الأرض جوراً[٦].

٧ ـ نصح عمر للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل:

سلك عمر بن عبد العزيز بعض الطرق والوسائل لإصلاح هذا الوضع، فمن ذلك نصحه للوليد بالحد من صلاحيات عماله في القتل، وقد نجح في بادئ الأمر في استصدار قرار يمنع أي والٍ من القتل إلا بعد علم الخليفة وموافقته على ذلك.

فيذكر ابن عبد الحكم: أن عمر بن عبد العزيز دخل على الوليد بن عبد الملك، فقال:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ومناقبه لابن الحكم، (ص ٢٧).
(٢) مسلم، كتاب الحج، باب: المدينة تنفي شرارها.
(٣) الدبران: نجم بين الثريا والجوزاء، ويقال له: التابع والتويبع، وهو من منازل القمر، سمي دبراناً لأنه يدبر الثريا؛ أي: يتبعها.
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٢٧).
(٥) البداية والنهاية(١٢/ ٦٨٣).
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، (ص ١٤٦) و: أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٦٢).

يا أمير المؤمنين إن عندي نصيحة ، فإذا خلا لك عقلك ، واجتمع فهمك فسلني عنها ، قال: ما يمنعك منها الآن؟ قال: أنت أعلم ، إذا اجتمع لك ما أقول؛ فإنك أحق أن تفهم؛ فمكث أياماً ثم قال: يا غلام! من بالباب؟ فقيل له: ناس وفيهم عمر بن عبد العزيز ، فقال: أدخله ، فدخل عليه فقال: نصيحتك يا أبا حفص ، فقال عمر: إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند الله من الدم ، وإن عمالك يقتلون ، ويكتبون: إن ذنب فلان المقتول كذا وكذا ، وأنت المسؤول عنه والمأخوذ به ، فاكتب إليهم ألا يقتل أحد منهم أحداً حتى يكتب بذنبه ثم يشهد عليه ، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك. فقال: بارك الله فيك يا أبا حفص ومنع فقدك. عليَّ بكتاب ، فكتب إلى أمراء الأمصار كلهم ، فلم يحرج ذلك إلا الحجّاج؛ فإنه أمضَّه ، وشق عليه وأقلقه. وظن أنه لم يكتب إلى أحد غيره، فبحث عن ذلك ، فقال: من أين ذهبنا؟ أو من أشار على أمير المؤمنين بهذا؟ فأخبر أن عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك ، فقال: هيهات! إن كان عمر فلا نقض لأمره.

ثم إن الحجّاج أرسل إلى إعرابي حروري ـ من الخوارج ـ جافٍ من بكر بن وائل ، ثم قال له الحجّاج: ما تقول في معاوية؟ فنال منه. قال: ما تقول في يزيد؟ فسبه. قال: فما تقول في عبد الملك؟ فظلَّمه. قال: فما تقول في الوليد؟ فقال: أجورهم حين ولاك وهو يعلم عداءك وظلمك. فسكت الحجّاج وافترصها منه[1] ، ثم بعث به إلى الوليد وكتب إليه: أنا أحوط لديني، وأرعى لما استرعيتني وأحفظ له من أن أقتل أحداً لم يستوجب ذلك ، وقد بعثت إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأي فشأنك وإياه. فدخل الحروري على الوليد وعنده أشراف أهل الشام وعمر فيهم ، فقال له الوليد: ما تقول فيّ؟ قال: ظالم جبار. قال: ما تقول في عبد الملك؟ قال: جبار عاتٍ. قال فما تقول في معاوية؟ قال: ظالم. قال الوليد لابن الريان: اضرب عنقه ، فضرب عنقه ، ثم قام فدخل منزله وخرج الناس من عنده ، فقال: يا غلام اردد عليّ عمر ، فرده عليه فقال: يا أبا حفص! ما تقول بهذا؟ أصبنا أم أخطأنا؟ فقال عمر: ما أصبت بقتله ، ولغير ذلك كان أرشد وأصوب ، كنت تسجنه حتى يراجع الله عز وجل أو تدركه منيته ، فقال الوليد: شتمني وشتم عبد الملك وهو حروري ، أفتستحل ذلك؟ قال: لعمري ما أستحله ، لو كنت سجنته إن بدا لك أو تعفو عنه ، فقام الوليد مغضباً ، فقال ابن الريان لعمر: يغفر الله لك يا أبا حفص ، لقد رادرت أمير المؤمنين حتى ظننت أنه سيأمرني بضرب عنقك[2]! وهكذا احتال الحجّاج على الوليد ليصرفه على الأخذ برأي عمر في الحد من سرف الحجّاج وأمثاله في القتل[3].

---

(١) افترصها: انتهزها.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، (ص ١١٩ ـ ١٢١) و: أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٦٤).

(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٦٤).

٨ ـ **رأي عمر بن عبد العزيز في التعامل مع الخوارج:**

فبالإضافة إلى الموقف الذي مرّ ذكره آنفاً ـ في شأن الحروري الذي بعث به الحجّاج ـ وردت روايات توضح الموقف نفسه؛ فعن ابن شهاب: أن عمر بن عبد العزيز أخبره أن الوليد أرسل إليه بالظهيرة، فوجده قاطباً بين عينيه، قال: فجلست وليس عنده إلا ابن الريان، قائم بسيفه، فقال: ما تقول فيمن يسبُّ الخلفاء؟ أترى أن يقتل؟ فسكت، فانتهرني، وقال: ما لك؟ فسكت، فعاد لمثلها، فقلت: أَقَتَلَ يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، ولكنه سب الخلفاء، قلت: فإني أرى أن ينكل، فرفع رأسه إلى ابن الريان، فقال الوليد: إنه فيهم لتائه.

٩ ـ **نصحه الوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه:**

ومن آخر المواقف التي ذكرت لعمر بن عبد العزيز في عهد الوليد بن عبد الملك نصحه للوليد عندما أراد خلع سليمان والبيعة لابنه عبد العزيز من بعده، فوقف عمر من ذلك موقفاً حازماً؛ حيث لم يستجب لأمر الوليد في ذلك، وقال حين أراده على ذلك: يا أمير المؤمنين إنما بايعنا لكما في عقدة واحدة؛ فكيف نخلعه ونتركك؟! فغضب الوليد على عمر، وحاول استخدام الشدة معه لعله يوافقه على ما أراد، فيذكر أنه أغلق عليه الدار وطين عليه الباب حتى تدخلت أم البنين أخته وزوجة الوليد ففتح عنه بعد ثلاث وقد ذبل ومالت عنقه[١].

خامساً: عمر في عهد سليمان بن عبد الملك:

في عهد سليمان تهيأت الفرص لعمر بن عبد العزيز بقدر كبير، فظهرت آثاره في مختلف الجوانب، فبمجرد تولي سليمان الخلافة؛ قرّب عمر بن عبد العزيز وأفسح له المجال واسعاً؛ حيث قال: يا أبا حفص إنا ولينا ما قد ترى، ولم يكن بتدبيره علم، فما رأيت من مصلحة العامة فمر به[٢]. وجعله وزيراً ومستشاراً ملازماً له في إقامته أو سفره، وكان سليمان يرى أنه محتاج له في صغيره وكبيره، فكان يقول: ما هو إلا أن يغيب عني هذا الرجل فما أجد أحداً يفقه عني[٣]. وفي موضع آخر قال: يا أبا حفص ما اغتممت بأمر ولا أكربني أمر إلا خطرت فيه على بالي[٤].

١ ـ **أسباب تقريب سليمان لعمر:**

والذي دفع سليمان إلى إفساح المجال أمام عمر بهذه الصورة يعود في نظري إلى عدة أسباب؛ منها:

---

(١) سير أعلام النبلاء(٥/١٤٨، ١٤٩) و: أثر العلماء، (ص ١٦٧).
(٢) المصدر السابق نفسه نقلاً عن العلماء، (ص ١٦٨).
(٣) المعرفة والتاريخ للفسوي (١/٥٩٨).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، (ص ٢٨) و: أثر العلماء ص ١٦٨.

أ ـ شخصية سليمان بن عبد الملك: حيث لم يكن مثل أخيه الوليد معجباً بنفسه معتداً برأيه وواقعاً تحت تأثير بعض ولاته، بل كان سليمان على العكس من ذلك؛ غير معتد برأيه خالياً من التأثيرات الأخرى عليه.

ب ـ قناعة سليمان بما يتمتع به عمر من نظرات وآراء صائبة.

جـ ـ موقف عمر من محاولة الوليد لخلع سليمان، مما جعل سليمان يشكر ذلك لعمر، وقد أشار لهذا الذهبي، حيث قال بعد عرضه لموقف عمر: فلذلك شكر سليمان عمر وأعطاه الخلافة بعده[١].

٢ ـ تأثير عمر على سليمان في إصدار قرارات إصلاحية:

فقد كان لعمر أثر كبير على سليمان في إصدار عدد من القرارات النافعة، ومن أهمها: عزل ولاة الحجّاج، وبعض الولاة الآخرين، كوالي مكة خالد القسري، ووالي المدينة عثمان بن حيان[٢]، ومنها: الأمر بإقامة الصلاة في وقتها، فأورد ابن عساكر عن سعيد بن عبد العزيز: أن الوليد بن عبد الملك كان يؤخر الظهر والعصر، فلما ولي سليمان كتب إلى الناس ـ عن رأي عمر ـ أن الصلاة كانت قد أميتت فأحيوها[٣]، وهناك أمور أخرى أجملها الذهبي بقوله: مع أمور جليلة كان يسمع من عمر فيها[٤].

٣ ـ إنكاره على سليمان بن عبد الملك في تحكيمه كتاب أبيه:

كلّم عمر بن عبد العزيز سليمان بن عبد الملك في ميراث بعض بنات عبد العزيز من بني عبد الملك، فقال له سليمان بن عبد الملك: إن عبد الملك كتب في ذلك كتاباً منعهن ذلك، فتركه يسيراً ثم راجعه فظن سليمان أنه اتهمه فيما ذكر من رأي عبد الملك في ذلك الأمر، فقال سليمان لغلامه: ائتني بكتاب عبد الملك، فقال له عمر: أبالمصحف دعوتَ يا أمير المؤمنين؟ فقال أيوب بن سليمان: ليوشكن أحدكم أن يتكلم الكلام تضرب فيه عنقه، فقال له عمر: إذا أفضى الأمر إليك فالذي دخل على المسلمين أعظم مما تذكر، فزجر سليمانُ أيوبَ، فقال عمر: إن كان جهل فما حلمنا عنه[٥].

فهذا موقف من مواقف الجرأة في قول الحق الذي يُحمد لعمر؛ حيث اعتبر سليمان بن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٩).
(٢) أثر العلماء على الحياة السياسية، (ص ١٦٩).
(٣) تاريخ دمشق نقلاً عن أثر العلماء على الحياة السياسية (ص ١٧٠).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٢٥).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٣١).

عبد الملك كتابة أبيه شرعاً لا يمكن تغييره ، فنبهه عمر إلى أن الكتاب الذي لا ينقض ولا يغيّر هو كتاب الله تعالى وحده ، وهكذا يصل الطغيان بضحاياه إلى تعظيم شأن الآباء والأجداد الذين ورّثوا ذلك المجد الزائل لأبنائهم إلى الحد الذي يعتبرون فيه قضاءهم شرعاً نافذاً من غير نظر في موافقته لحكم الإسلام أو مخالفته ، وموقف يذكر لسليمان حيث وبّخ ولده الذي هدد عمر أن قال كلمة الحق ، وهذا يدل على ما يتصف به سليمان من سرعة الرجوع إلى الحق إذا تبين له[١].

٤ ـ إنكاره على سليمان بن عبد الملك في الإنفاق :

قدم سليمان بن عبد الملك المدينة فأعطى بها مالاً عظيماً ، فقال لعمر بن عبد العزيز : كيف رأيت ما فعلنا يا أبا حفص؟ قال : رأيتك زدت أهل الغنى غنى ، وتركت أهل الفقر بفقرهم[٢]. فهذا تقويم جيد من عمر بن عبد العزيز لعمل سليمان بن عبد الملك ، فقد كان سليمان ـ لجهله بدقائق أحكام الشريعة في مجال الإنفاق ـ يظن أنه بإنفاقه ذلك المال الكثير على الرعية قد عمل صالحاً ، فأفاده عمر بن عبد العزيز بأنه قد أخطأ حينما صرف ذلك المال لغير مستحقيه وحرم منه أهله[٣] ، فقد بيَّن عمر ـ رحمه الله ـ أهمية التفريق بين بذل الخير وصرفه لمستحقيه .

٥ ـ حث عمر سليمان على رد المظالم :

خرج سليمان ومعه عمر إلى البوادي ، فأصابه سحاب فيه برق وصواعق ، ففزع منه سليمان ومن معه ، فقال عمر : إنما هذا صوت نعمة ؛ فكيف لو سمعت صوت عذاب؟! فقال سليمان : خذ هذه المئة ألف درهم وتصدق بها ، فقال عمر : أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال : وما هو؟ قال : قوم صحبوك في مظالم لم يصلوا إليك ، فجلس سليمان فرد المظالم[٤] ، ويظهر عند عمر وضوح فقه ترتيب الأولويات ، فرد المظالم مقدم على بذل الصدقات .

٦ ـ أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً :

أقبل سليمان بن عبد الملك وهو أمير المؤمنين ، ومعه عمر بن عبد العزيز على معسكر سليمان ، وفيه تلك الخيول والجمال والبغال والأثقال والرجال ، فقال سليمان : ما تقول يا عمر في هذا؟ قال : أرى دنيا يأكل بعضها بعضاً ، وأنت المسؤول عن ذلك كله . فلما اقتربوا من المعسكر ، إذا غراب قد أخذ لقمة في فيه من فسطاط سليمان وهو طائر بها ونعب نعبة[٥] ،

---

(١) التاريخ الإسلامي (١٥/ ٣٠ ، ٣١).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، (ص ١٣١).
(٣) التاريخ الإسلامي (١٥/ ٢٩).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص ٣٣) و: أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ١٧٠).
(٥) نعب الغراب : صوَّت أو مد عنقه وحرك رأسه في صياحه .

فقال له سليمان: ما تقول في هذا يا عمر؟ فقال: لا أدري. فقال: ما ظنك أنه يقول؟ قال: كأنه يقول: من أين جاءت؟ وأين يذهب بها؟ فقال له سليمان: ما أعجبك ! فقال عمر: أعجب مني من عرف الله فعصاه، ومن عرف الشيطان فأطاعه[١].

٧ ـ هم خصماؤك يوم القيامة:

لما وقف سليمان وعمر بعرفة جعل سليمان يعجب من كثرة الناس، فقال له عمر: هؤلاء رعيّتُك اليوم، وأنت مسؤول عنهم غداً، وفي رواية: وهم خصماؤك يوم القيامة، فبكى سليمان وقال: بالله أستعين[٢].

٨ ـ زيد بن الحسن بن علي مع سليمان:

كان زيد بن الحسن بن علي قد أجاب الوليد بن عبد الملك في مسألة خلع سليمان خوفاً من الوليد، وكتب بموافقته من المدينة إلى الوليد، فلما استخلف سليمان وجد الكتاب، فبعث إلى واليه على المدينة أن يسأل زيداً عن أمر الكتاب، فإن هو اعترف به فليبعث بذلك إليه، وإن أنكر عليه اليمين أمام منبر رسول الله ﷺ، فلما بعث باعترافه إلى سليمان، كتب سليمان إلى والي المدينة أن يضربه مئة سوط ويمشيه حافياً. فحبس عمر الرسول وقال: لا تخرج حتى أكلم أمير المؤمنين فيما كتب في زيد بن حسن لعلي أطيب نفسه فيترك هذا الكتاب. فجلس الرسول فمرض سليمان، فقال للرسول: لا تخرج فإن أمير المؤمنين مريض، فلما توفي سليمان وأفضى الأمر إلى عمر دعا بالكتاب ومزقه[٣].

وظل عمر بن عبد العزيز قريباً من سليمان طيلة مدة خلافته يحوطه بنصحه ويشاركه مسؤولياته[٤]، ويرى الدكتور يوسف العش أن سياسة عمر بن عبد العزيز ومنطلقاتها بدأت منذ بداية خلافة سليمان، نعم إن سليمان كان يشتط حيناً في سياسته، فيتخذ تدابير لعل عمر لا يقرها، لكن عمر بن عبد العزيز كان بالرغم من ذلك راجح القوة في خلافته، وسياسة عمر لم تتغير، فهو في دمشق مثله في المدينة، على أنه في دمشق يستطيع أن يفعل أكثر من المدينة، والأمر المهم عنده هو منع الجور[٥] والظلم والعسف، ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز تعامل مع سنة التدرج وفقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في رد المظالم ومنعها، وعندما وصل للخلافة ازداد في إحقاق العدل ومحاربة الظلم؛ لأن الصلاحيات المتاحة كانت أكبر، فهو نصح

---

(١) البداية والنهاية (١٢/ ٦٨٥).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، (ص ١٠٤).
(٤) أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٧٣).
(٥) الدولة الأموية لـ: يوسف العش (ص ٢٥٤).

عمه عبد الملك وذكره بالآخرة مع جبروته وظلمه ، ولم يتقاعس في عهد ابن عمه الوليد ، وتقدم خطوات ووفق حسب الإمكان في عهد سليمان ، وأتيحت له الفرصة في خلافته ، وبالتالي لا نقول إن ما حدث لعمر على مستواه الشخصي انقلاب وإنما الانقلاب في توظيف الدولة لخدمة الشريعة في كافة شؤون الحياة ولو كان على حساب العائلة الحاكمة، التي كانت لها مخصصاتها وصلاحياتها ، والتي اعتبرها عمر بن عبد العزيز حقوقاً للأمة يجب ردها إلى بيت المال أو إلى أصحابها الأصليين .

سادساً: خلافة عمر بن عبد العزيز:

ومن حسنات سليمان عبد الملك قبوله لنصيحة الفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي الذي اقترح على سليمان في مرض موته أن يولي عمر بن عبد العزيز ، وكانت وصية لم يكن للشيطان فيها نصيب[١] ، قال ابن سيرين: يرحم الله سليمان ! افتتح خلافته بإحياء الصلاة ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز .

وكانت سنة وفاته سنة ٩٩ هـ ، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز ، وكان منقوش في خاتمه: (أؤمن بالله مخلصاً)[٢] .

وتعددت الروايات في قصة استخلاف سليمان لعمر ، وقد ذكرت بعضها في حديثي عن عهد سليمان ، ومن الروايات أيضاً ما ذكره ابن سعد في طبقاته ، عن سهيل بن أبي سهيل قال: سمعت رجاء بن حيوة يقول: لما كان يوم الجمعة لبس سليمان بن عبد الملك ثياباً خضراً من خز ، ونظر في المرآة فقال: أنا والله الملك الشاب ، فخرج إلى الصلاة يصلي بالناس الجمعة فلم يرجع حتى وعك ، فلما ثقل كتب كتاب عهده إلى ابنه أيوب ، وهو غلام لم يبلغ ، فقلت: ما تصنع يا أمير المؤمنين؟ إنه مما يحفظ به الخليفة في قبره أن يستخلف الرجل الصالح ، فقال سليمان: كتاب أستخير الله فيه ، وأنظر ، ولم أعزم عليه ، فمكث يوماً أو يومين ، ثم خرقه ثم دعاني ، فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقلت: هو غائب بقسطنطينية ، وأنت لا تدري أحي هو أم ميت. قال: يا رجاء فمن ترى ؟ قال: فقلت: رأيك يا أمير المؤمنين ! وأنا أريد أن أنظر من يذكر. فقال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ فقلت: أعلمه والله فاضلاً خياراً مسلماً. فقال: هو على ذلك ، والله لئن وليته ولم أولِّ أحداً من ولد عبد الملك لتكونن فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده - ويزيد بن عبد الملك غائب على الموسم - قال: فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده ، فإن ذلك مما يسكنهم ويرضون به ، قلت:

---

(١) عصر الدولتين الأموية و العباسية ، للصَّلابي ، (ص ٣٧).
(٢) سير أعلام النبلاء(٥/ ١١١ ، ١١٢).

رأيك ، قال: فكتب بيده: بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز ، إني وليته الخلافة من بعدي ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له وأطيعوا ، واتقوا الله ، ولا تختلفوا ، فيطمع فيكم . وختم الكتاب .

فأرسل إلى كعب بن حامد صاحب الشرطة أن مرْ أهل بيتي فليجتمعوا ، فأرسل إليهم كعب ، فجمعهم ، ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابي هذا إليهم ، فأخبرهم أنه كتابي ، ومرهم فليبايعوا من وليت. قال: ففعل رجاء ، فلما قال لهم ذلك رجاء قالوا: سمعنا وأطعنا لمن فيه ، وقالوا: ندخل فنسلم على أمير المؤمنين ، قال: نعم. فدخلوا فقال لهم سليمان: هذا الكتاب ـ وهو يشير لهم وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة ـ هذا عهدي ، فاسمعوا ، وأطيعوا وبايعوا لمن سميت في هذا الكتاب. قال: فبايعوا رجلاً رجلاً. قال: ثم خرج بالكتاب مختوماً في يد رجاء .

قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: يا أبا المقدام ، إن سليمان كانت لي به حرمة ومودة ، وكان بي براً ملطفاً ، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلي من هذا الأمر شيئاً ، فأنشدك الله وحرمتي ومودتي إلا أعلمتني إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتي حال لا أقدر فيها على ما أقدر الساعة. فقال رجاء: لا والله ما أنا بمخبرك حرفاً واحداً. قال: فذهب عمر غضبان .

قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك ، فقال: يا رجاء ، إن لي بك حرمة ومودة قديمة وعندي شكر ، فأعلمني أهذا الأمر إليّ؟ فإن كان إلي علمت ، وإن كان إلى غيري تكلمت ، فليس مثلي قصر به ، ولا نُحِّيَ عنه هذا الأمر ، فأعلمني فلك الله لا أذكر اسمك أبداً. قال رجاء: فأبيت وقلت لا والله لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسر إلي ، فانصرف هشام؛ وهو يضرب بإحدى يديه على الأخرى ، وهو يقول: فإلى من إذا نُحيت عني؟ أتخرج من بني عبد الملك؟ فوالله إني لعين بني عبد الملك .

قال رجاء: ودخلت على سليمان بن عبد الملك ، فإذا هو يموت . قال: فجعلت إذا أخذته سكرة من سكرات الموت ، حرفته إلى القبلة ، فجعل يقول وهو يفأق: لم يأنِ ذلك بعد يا رجاء. حتى فعلت ذلك مرتين. فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء ، إن كنت تريد شيئاً أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. قال: فحرفته ، ومات ، فلما أغمضته سجيته بقطيفة خضراء وأغلقت الباب ، وأرسلت إليَّ زوجته تنظر إليه ، كيف أصبح ؟ فقلت: نام وقد تغطى ، فنظر الرسول إليه ، مغطى بالقطيفة فرجع ، فأخبرها ، فقبلت ذلك وظنت أنه نائم .

قال رجاء: وأجلست على الباب من أثق به ، وأوصيته أن لا يريم حتى آتيه ، ولا يدخل على

الخليفة أحداً. قال: فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد العنسي، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين، فاجتمعوا في مسجد دابق، فقلت: بايعوا، قالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى؟! قلت: هذا أمير المؤمنين، بايعوا على ما أمر به، ومن سمى في هذا الكتاب المختوم، فبايعوا الثانية رجلاً رجلاً.

قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان، رأيت أني قد أحكمت الأمر، قلت: قوموا إلى صاحبكم فقد مات. قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقرأت عليهم الكتاب، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام: لا نبايعه أبداً. قال: قلت: أضرب والله عنقك، قم فبايع. فقام يجر رجليه.

قال رجاء: وأخذت بضبعي عمر، فأجلسته على المنبر وهو يسترجع لما وقع فيه، وهشام يسترجع لما أخطأه! فلما انتهى هشام إلى عمر، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ـ أي حين صار هذا الأمر إليك على ولد عبد الملك ـ قال: فقال عمر: نعم، فإنا لله وإنا إليه راجعون، حين صار إلي ـ لكراهتي له[(١)].

وقال أبو الحسن الندوي على موقف رجاء بن حيوة: وكان لرجاء مأثرة لا ينساها الإسلام، ولا أعرف رجلاً من ندماء الملوك ورجالهم انتفع بقربه ومنزلته عند الملوك مثل انتفاعه، وانتهز الفرصة مثل انتهازه، وأسدى للإسلام خدمة مثله[(٢)]، فرحم الله رجاء بن حيوة فقد رسم منهجاً لمن يجلس مع الملوك من العلماء كيف يعز الإسلام ويذكر الخلفاء بالله وينتهز الفرص المناسبة لخدمة دين الله.

١ ـ منهج عمر في إدارة الدولة من خلال خطبته الأولى:

صعد عمر المنبر، وقال في أول لقاء مع الأمة بعد استخلافه: أيها الناس! إني قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأي كان مني فيه، ولا طلبة له، ولا مشورة من المسلمين، وإني قد خلعتُ ما في أعناقكم من بيعتي، فاختاروا لأنفسكم. فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين، ورضينا بك، فلِ أمرنا باليُمن والبركة.

وهنا شعر أنه لا مفر من تحمُّل مسؤولية الخلافة، فأضاف قائلاً يحدد منهجه وطريقته في سياسة الأمة المسلمة[(٣)]: أما بعد؛ فإنه ليس بعد نبيكم نبي، ولا بعد الكتاب الذي أنزل عليه كتاب، ألا إن ما أحل الله حلال إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاضٍ، ولكني منفذ، ألا وإني

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٤٥) و: الطبقات (٥/ ٣٣٥ ـ ٣٣٨).
(٢) رجال الفكر والدعوة للندوي (١/ ٤٠).
(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم لـ: ماجدة فيصل (ص ١٠٢).

لست بمبتدع ولكني متبع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاع في معصية الله ، ألا إني لست بخيركم ، ولكني رجل منكم ، غير أن الله جعلني أثقلكم حملاً .

أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس ، و إلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير بجهده ، ويدلنا من الخير على ما نهتدي إليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترض فيما لا يعنيه .

أوصيكم بتقوى الله ، فإن تقوى الله خلف من كل شيء وليس من تقوى الله عز وجل خلف ، واعملوا لآخرتكم ، فإنه من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه ، وأصلحوا سرائركم ، يصلح الله الكريم علانيتكم ، وأكثروا من ذكر الموت ، وأحسنوا الاستعداد قبل أن ينزل بكم ، فإنه هادم اللذات . . . وإن هذه الأمة لم تختلف في ربها عز وجل ، ولا في نبيها ﷺ ، ولا في كتابها ، وإنما اختلفوا في الدينار والدرهم ، وإني والله لا أعطي أحداً باطلاً ، ولا أمنع أحداً حقاً!

ثم رفع صوته حتى أسمع الناس فقال : يا أيها الناس! من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعت الله ، فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم . وإن من حولكم من الأمصار والمدن فإن هم أطاعوا كما أطعتم فأنا وليكم ، وإن هم نقموا فلست لكم بوالٍ[(١)] ، ثم نزل .

وهكذا عقدت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في ذلك اليوم ، وهو يوم الجمعة لعشر خلون من صفر سنة تسع وتسعين[(٢)] .

ويظهر لنا من هذه الخطبة السياسة التي قرر عمر بن عبد العزيز اتباعها في الحكم؛ وهي :

أ ـ التزامه بالكتاب والسنة ، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أي جدل في مسائل الشرع والدين على أساس أنه حاكم منفذ ، وأن الشرع بيِّن من حيث تحليل ما أحل الله وتحريم ما حرم الله ، ورفضه للبدعة والآراء المحدثة .

ب ـ حدد لمن يريد أن يتصل به ويعمل معه من رعيته أن يكون اتصاله معه لخمسة أسباب :

ـ أن يرفع إليه حاجة من لا يستطيع أن يصل إلى الخليفة ، أي أنه جعل المقربين منه همزة وصل بينه ، وبين من لا يستطيعون الوصول إليه ، فيعرف بذلك حوائج الناس ، وينظر فيها .

---

(١) انظر مع بعض الاختلاف : الطبقات(٥/ ٣٤٠) و: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، (ص ٣٥و٣٦) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، (ص ١٠٤) .

(٢) البداية والنهاية(١٢/ ٦٥٧) .

ـ أن يعينه على الخير ما استطاع ، أي أن علاقة هؤلاء به تقوم على أساس نزعة الخير يعين الخليفة عليه ، وبالتالي يحذره من أي شر .

ـ فرض على من يقترب إليه فريضة أن يرشده ، ويهديه إلى ما فيه خير الأمة ، وخير الدين .

ـ نهى من يريد أن يتقرب إليه ، عن أن يغتاب إليه أحداً .

ـ ألاّ يتدخل أي متقرب منه في شؤون الحكم ، وفيما لا يعنيه عامة .

لقد كان يدرك مدى تأثير البطانة والمقربين من الحاكم على الحاكم وعلى الرعية ، وعلى أسلوب الحكم ، فآثر أن ينبه الناس حتى يتركوه يحكم بما ارتضى في نطاق شرع الله ، دون أن يبعدهم نهائياً؛ لأنه أجاز لهؤلاء المقربين أن يدلوه على الخير ، ويعينوه عليه ، وأن ينقلوا إليه حاجة المحتاج[١] .

جـ ـ كما أنه حذر الناس من عواقب الدنيا لو أساؤوا فيها ، وطلب إليهم أن يصلحوا سرائرهم ويحذروا الموت ، ويتعظوا به .

د ـ قطع على نفسه عهداً بأن لا يعطي أحداً باطلاً ، ولا يمنع أحداً حقاً ، وأنه أعطاهم حقاً عليه ، وهو أن يطيعوه ما أطاع الله ، وأنه لا طاعة له عليهم إذا عصاه سبحانه وتعالى .

هذه هي الخطوط العريضة لسياسة عمر ، ذكرها في أول لقاء له مع الرعية وأهل الحل والعقد في المسجد بعد بيعته ، فدولته قد حدّدها بالسير على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، وقد آثر ألاّ يدع لأي عامل من عماله حجة عليه بعد ذلك ، ففصل ما أجمل في خطبته الأولى في كتب أرسلها إلى عماله ، وقد كانت هذه الكتب نوعين :

ـ كتب إلى العمال يبصِّرهم بما يجب عليهم أن يلتزموا به في مسلكهم الشخصي ، والخاص إزاء الرعية ، وسوف نتحدث عن ذلك بإذن الله .

ـ وكتب إلى عماله القواعد التي حددت سياستهم ، وطريقة تعاملهم مع أفراد الرعية من المسلمين ، وغير المسلمين ، ممن كانوا يسكنون دار الإسلام .

وعمر في هذه الكتب ـ كما سيظهر بإذن الله ـ تكلم عن موقفه كفقيه متبحر في أصول الدين[٢] ، وسيأتي الحديث عن منهجه من خلال أعماله .

٢ ـ الحرص على العمل بالكتاب والسنة :

من أهم ما يميز منهج عمر في سياسته حرصه على العمل بالكتاب والسنة ونشر العلم بين

---

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ١٠٥) .

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ١٠٦) .

رعيته وتفقيههم في الدين وتعريفهم بالسنة ، ومنطلق عمر في ذلك فهمه لمهمة الخلافة ، فهي حفظ الدين وسياسة الدنيا به[١] ، فهو يرى أن من أهم واجباته تعريف رعيته بمبادئ دينهم وحملهم على العمل بها ، فورد عنه أنه قال في إحدى خطبه : إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً ؛ فمن عمل بها استكمل الإيمان ، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان ، فلأن أعش أعلمكموها وأحملكم عليها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[٢] . وقال أيضاً : فلو كان كل بدعة يميتها الله على يدي وكل سنة يعيشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً . وفي موضع آخر قال : والله لولا أن أنْعِشَ سُنَّةً ، أو أسير بحق ، ما أحببت أن أعيش فواقاً[٣] .

لهذا بادر عمر في تنفيذ هذه المسؤولية المهمة ، فبعث العلماء في تعليم الناس وتفقيههم إلى مختلف أقاليم الدولة وفي حواضرها وبواديها ، وأمر عماله على الأقاليم بحثِّ العلماء على نشر العلم ، فقد جاء في كتابه الذي بعث إلى عماله : ومر أهل العلم والفقه من جندك فلينشروا ما علمهم الله من ذلك ، وليتحدثوا به في مجالسهم[٤] ، ومما كتب به إلى بعض عماله : أما بعد فأومر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم ، فإن السنة كانت قد أميتت[٥] .

كما أمر عماله أن يجروا الرواتب على العلماء ليتفرغوا لنشر العلم[٦] ، وانتدب العديد من العلماء لتفقيه الناس في الدين ، فبعث يزيد بن أبي مالك الدمشقي والحارث بن يمجد الأشعري يفقهان الناس والبدو[٧] ، وذكر الذهبي أن عمر ندب يزيد بن أبي مالك ليفقه بني نمير ويقرئهم ، وبعث نافع مولى ابن عمر إلى أهل مصر ليعلمهم السنن[٨] ، وكان قد بعث عشرة من الفقهاء إلى إفريقية يفقهون أهلها وسيأتي الحديث عنهم بإذن الله .

ولم تنحصر مهمة هؤلاء العلماء في التعليم فحسب ، بل منهم من أسند إليه بعض الولايات ، ومنهم من تولى القضاء ، وأسهم أكثرهم بالإضافة إلى نشر العلم في مجال الدعوة والجهاد في سبيل الله ، وهذا الاهتمام الذي تميز به منهج عمر لتعليم الناس وتفصيلهم لأمور دينهم له أبعاد سياسية وآثار أمنية ، ذلك أن نشر الوعي الديني الصحيح والفقه فيه بين أفراد الرعية

---

(١) الأحكام السلطانية والولايات الدينية (ص ٥).

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، (ص ٦٠).

(٣) الفواق : مابين الحلبتين من الوقت ، أو ما بين فتح اليد وقبضها على الضرع .

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، (ص ٧٣).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، (ص ٧٦).

(٦) البداية والنهاية ؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٧٩).

(٧) مختصر تاريخ دمشق (٦/ ١٧٥) و : أثر العلماء (ص ١٧٩).

(٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣٨).

له أثر في حماية عقول أبناء الأمة من عبث الأفكار التي ينعكس خطرها على الاستقرار السياسي والأمني ، كأفكار الخوارج[(١)] وغيرهم .

٣ ـ الشورى في دولة عمر بن عبد العزيز :

قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى : ٣٨] . وقال تعالى : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بتفعيل مبدأ الشورى في خلافته ، ومن أقواله في الشورى : إن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة لا يضل معهما رأي ، ولا يفقد معهما حزم[(٢)] ، وكان أول قرار اتخذه عمر بعدما ولي أمر المدينة للوليد بن عبد الملك يتعلق بتطبيق مبدأ الشورى ، وجعله أساساً في إمارته ، حين دعا من فقهاء المدينة وكبار علمائها ، وجعل منهم مجلساً استشارياً دائماً[(٣)] ـ كما مر معنا ـ حري بمن جعل الشورى أحد مبادئ إمارته حين كانت مسؤوليته جزئية أن يطبقه وقت المسؤولية الكاملة ، والمهمة العظمى ، ألا وهي ولاية أمر المسلمين كافة، وقد تبنَّىٰ مبدأ الشورى من أول يوم في خلافته ، وقال للناس : أيها الناس ، إني قد ابتليت بهذا الأمر ، من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، (فاختاروا لأنفسكم) ، فصاح الناس صيحة واحدة : قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك فَلِ أمرنا باليمن والبركة[(٤)] .

وبذلك خرج عمر من مبدأ توريث الولاية الذي تبناه معظم خلفاء بني أمية إلى مبدأ الشورى والانتخاب ، ولم يكتفِ عمر باختياره ومبايعة الحاضرين ، بل يهمه رأي المسلمين في الأمصار الأخرى ومشورتهم ، فقال في خطبته الأولى ـ عقب توليه الخلافة ـ: . . وإن من حولكم من الأمصار والمدن إن أطاعوا كما أطعتم ، وإن هم أبوا فلست لكم بوالٍ ، ثم نزل[(٥)] .

وقد كتب إلى الأمصار الإسلامية فبايعت كلها ، وممن كتب لهم يزيد بن المهلب يطلب إليه البيعة بعد أن أوضح له أنه في الخلافة ليس براغب ، فدعا يزيد الناس إلى البيعة فبايعوا[(٦)] .

وبذلك يتضح أنه لم يكتف بمشورة من حوله ، بل امتد الأمر إلى جميع أمصار المسلمين ، ونستنتج من موقف عمر هذا ما يلي :

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٨٠) .
(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي (ص ١٨٩) .
(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز (ص ٢٨٣) .
(٤) سيرة مناقب عمر بن عبد العزيز (ص ٥٦) .
(٥) البداية والنهاية (١٢/ ٦٥٧) .
(٦) تاريخ الطبري نقلاً عن النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، (ص ٢٨٥) .

أ ـ أن عمر كشف النقاب عن عدم موافقة الأصول الشرعية في تولي معظم الخلفاء الأمويين.

ب ـ حرص عمر على تطبيق الشورى في أمر يخصه هو ، ألا وهو توليه الخلافة.

جـ ـ أن من طبق مبدأ الشورى في أمر مثل تولي الخلافة حريٌّ بتطبيقه فيما سواه.

وكان عمر يستشير العلماء ، ويطلب نصحهم في كثير من الأمور؛ أمثال: سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب القُرظي ، ورجاء بن حيوة وغيرهم ، فقال: إني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا عليّ[١]. كما كان يستشير ذوي العقول الراجحة من الرجال[٢].

وقد حرص عمر على إصلاح بطانته لما تولى الخلافة ، فقرب إلى مجلسه العلماء وأهل الصلاح ، وأقصى عنه أهل المصالح الدنيوية والمنافع الخاصة ، ولم يكتفِ ـ رحمه الله ـ بانتقاء بطانته ، بل كان زيادة على ذلك يوصيهم ويحثهم على تقويمه ، فقال لعمر بن مهاجر: إذا رأيتني قد ملت عن الحق فضع يدك في تلبابي ثم هزني ، ثم قل: يا عمر ما تصنع[٣]؟! وقد كان لهذا المسلك أثر في تصحيح سياسته التجديدية ونجاحها ، حيث كان لبطانته أثر في شد أزره ، وسداد رأيه وصواب قراره[٤] ، فمن أسباب نجاح عمر بن عبد العزيز تقريبه لأهل العلم والصلاح وانشراح صدره لهم ومشاركتهم معه لتحمل المسؤولية ، فنتج عن ذلك حصول الخير العميم للإسلام والمسلمين.

٤ ـ العدل في دولة عمر بن عبد العزيز:

قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] ، وأَمْرُ اللهِ بفعلٍ كما هو معلوم يقتضي وجوبه. قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥] ، وللعدل صورتان:

صورة سلبية: بمنع الظلم وإزالته عن المظلوم ، أي: بمنع انتهاك حقوق الناس المتعلقة بأنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، وإزالة آثار التعدي الذي يقع عليهم ، وإعادة حقوقهم إليهم ، ومعاقبة المعتدي عليها فيما يستوجب العقوبة[٥].

وصورة إيجابية: وتتعلق أكثر ما تتعلق بالدولة ، وقيامها بحق أفراد الشعب في كفالة

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز (ص ١٦).

(٢) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز (ص ٢٨٥).

(٣) أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٧٥ إلى ١٧٧).

(٤) المصدر السابق نفسه (ص ١٧٨).

(٥) عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين لـ: عبد الستار الشيخ (ص ٢٢٢).

حرياتهم وحياتهم المعاشية ، حتى لا يكون فيهم عاجز متروك ، ولا ضعيف مهمل ، ولا فقير بائس، ولا خائف مهدد ، وهذه الأمور كلها من واجبات الحاكم في الإسلام[١] .

وقد قام أمير المؤمنين عمر بهذا الركن العظيم والمبدأ الخطير على أتم وجه ، وكان يرى أن المسؤولية والسلطة هي القيام بحقوق الناس والخضوع لشروط بيعتهم ، وتحقيق مصلحتهم المشروعة ، فالخليفة أجير عند الأمة ، وعليه أن ينفذ مطالبها العادلة حسب شروط البيعة[٢] ، وقد أحب الاستزادة من فهم صفات الإمام العادل وما يجب أن يقوم به ليتصف بهذه الخصلة الفريدة الحميدة ، فكتب إلى الحسن البصري يسأله في ذلك فأجابه الحسن: الإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأب الحاني على ولده يسعى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها، حملته كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتمّ بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصيّ اليتامى، وخازن المساكين؛ يربِّي صغيرهم ، ويمون كبيرهم. والإمام العدل يا أمير المؤمنين كقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده. والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكك الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله ، فبدَّد ، وشرَّد العيال ، فأفقر أهله وفرَّق ماله[٣] .

أ ـ سياسته في ردِّ المظالم:

ـ أمير المؤمنين يبدأ بنفسه:

تنفيذاً لما أراده عمر من رد المظالم مهما كانت صغيرةً أو كبيرةً بدأ بنفسه ، روى ابن سعد: أنه لما رد عمر بن عبد العزيز المظالم ، قال: إنه لينبغي أن أبدأ بأول من نفسي[٤] . وهذا الفعل جعله قدوة للآخرين ، فنظر إلى ما في يديه من أرض ، أو متاع ، فخرج منه حتى نظر إلى فص خاتم. فقال: هذا مما كان الوليد بن عبد الملك أعطانيه مما جاءه من أرض المغرب ، فخرج منه[٥] . وكان ذلك لإصراره على قطع كل شك بيقين ، وحتى يطمئن إلى أن ما في يده لا شبهة فيه لظلم أو مظلمة حتى ولو كان ورثه ، خصوصاً وأن القصص والحكايات كانت كثيرة يتناقلها

---

(١) المصدر السابق نفسه و: نظام الإسلام ، محمد المبارك (ص ٤٥ ـ ٤٦).

(٢) عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء لـ: عبد الستار (ص ٢٢٣).

(٣) عمر بن عبد العزيز لـ: عبد الستار الشيخ (ص ٢٢٤).

(٤) الطبقات (٥/ ٣٤١).

(٥) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٤١ ـ ٣٤٢).

الناس عن مظالم ارتكبت على عهد خلفاء بني أمية ، وعمالهم وقد بلغ به حرصه على التثبت أنه نزع حلي سيفه من الفضة ، وحلاه بالحديد ، قال عبد العزيز بن عمر: كان سيف أبي محلى بفضة ، فنزعها وحلاه حديداً(١) ، وكان خروجه مما بيده من أرض أو متاع بعدة طرق كالبيع ، ذلك أنه حين استخلف نظر إلى ما كان له من عبد ، وإلى لباسه وعطره وأشياء من الفضول ، فباع كل ما كان به عنه غني ، فبلغ ثلاثة وعشرين ألف دينار ، فجعله في السبيل(٢). أو عن طريق ردها إلى أصحابها الأصليين ، وهذا ما فعله بالنسبة للقطائع التي أقطعه إياها قومه.

يروي ابن الجوزي عن إسماعيل بن أبي حكيم أنه قال: كنا عند عمر بن عبد العزيز حتى تفرق الناس ودخل إلى أهله للقائلة ، فإذا منادٍ ينادي: الصلاة جامعة. قال: ففزعنا فزعاً شديداً مخافة أن يكون قد جاء فتق من وجه من الوجوه أو حدث. قال جويرية: وإنما كان أنه دعا مزاحماً فقال: يا مزاحم! إن هؤلاء القوم قد أعطونا عطايا والله ما كان لهم أن يعطوناها ، وما كان لنا أن نقبلها ، وإن ذلك قد صار إليَّ ليس علي فيه دون الله محاسب. فقال له مزاحم: يا أمير المؤمنين ، هل تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا ، قال: فذرفت عيناه ، فجعل يستدمع ويقول: أَكِلهم إلى الله!

قال: ثم انطلق مزاحم من وجهه ذلك حتى استأذن على عبد الملك ، فأذن له ـ وقد اضطجع للقائه ـ فقال له عبد الملك: ما جاء بك يا مزاحم هذه الساعة؟ هل حدث حدث؟ قال: نعم، أشد الحدث عليك وعلى بني أبيك. قال: وما ذاك؟ قال: دعاني أمير المؤمنين ـ فذكر له ما قاله عمر ـ فقال عبد الملك: فما قلت له؟ قال: قلت له: يا أمير المؤمنين ، تدري كم ولدك؟ هم كذا وكذا قال: فما قال لك؟ قال: جعل يستدمع ويقول: أَكِلهم إلى الله تعالى. قال عبد الملك: بئس وزير الدين أنت يا مزاحم ! ثم وثب فانطلق إلى باب أبيه عمر ، فاستأذن عليه، فقال له الآذن: أما ترحمونه ليس له من الليل والنهار إلا هذه الوقعة؟! قال عبد الملك: استأذن لي ، لا أم لك. فسمع عمر الكلام ، فقال: من هذا؟ قال: هذا عبد الملك. قال: ائذن له. فدخل عليه ـ وقد اضطجع عمر للقائلة ـ فقال: ما حاجتك يا بني هذه الساعة؟ قال: حديث حدثنيه مزاحم. قال: فأين وقع رأيك من ذلك؟ قال: وقع رأيي على إنفاذه. قال: فرفع عمر يديه. ثم قال: الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي من يعينني على أمر ديني. نعم يا بني أصلي الظهر ، ثم أصعد المنبر فأردها علانية على رؤوس الناس. فقال عبد الملك: يا أمير المؤمنين ، ومن لك إن بقيت إلى الظهر أن تسلم لك نيتك إلى الظهر. قال عمر: قد تفرق الناس ورجعوا للقائلة ، فقال عبد الملك: تأمر مناديك ينادي: الصلاة جامعة ، فيجتمع الناس. فنادى المنادي: الصلاة

(١) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٥٥) و: عمر وسياسته في رد المظالم (ص ٢٠٥).
(٢) المصدر السابق نفسه.

جامعة. قال: فخرجت فأتيت المسجد فجاء عمر فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا، والله ما كان لهم أن يعطوناها وما كان لنا أن نقبلها. وإن ذلك قد صار إلي ليس علي فيه دون الله محاسب، ألا وإني قد رددتها، وبدأت بنفسي وأهل بيتي: اقرأ يا مزاحم.

قال: وقد جيء بسفط قبل ذلك، أو قال: جرنة فيها تلك الكتب. قال: فقرأ مزاحم كتاباً منها، فلما فرغ من قراءته ناوله عمر ـ وهو قاعد على المنبر وفي يده جلم ـ قال: فجعل يقصه بالجلم. واستأنف مزاحم كتاباً آخر... فجعل يقرؤه، فلما فرغ منه دفعه إلى عمر فقصه، ثم استأنف كتاباً آخر... فما زال حتى نودي بصلاة الظهر[١].

ومن بين ما ردَّه عمر مما كان في يده من القطائع جبل الورس باليمن، وقطائع باليمامة[٢]، إلى جانب فدك وخيبر[٣]، والسويداء، فخرج منها جميعاً إلا السويداء، فقد قال عمر فيها: ما من شيء إلا وقد رددته في مال المسلمين إلا العين التي بالسويداء؛ فإني عمدت إلى أرض براح ليس فيها لأحد من المسلمين ضربة سوط، فعملتها من صلب عطائي الذي يجمع لي مع جماعة المسلمين، وقد جاءت غلَّتُها مئتي دينار[٤].

وأما قرية فدك ـ التي تقع شمال المدينة ـ فقد كانت تغل في السنة عشرة آلاف دينار تقريباً، فلما ولي عمر الخلافة سأل عنها وفحصها، فأخبر بما كان من أمرها في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان... فكتب ـ بناء على ذلك ـ إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاباً قال فيه: أما بعد فإني نظرت في أمر فدك وفحصت عنه، فإذا هو لا يصلح لي، ورأيت أن أردها على ما كانت عليه في عهد رسول الله وأبي بكر وعمر وعثمان، وأترك ما حدث بعدهم، فإذا جاءك كتابي هذا فاقبضها وولِّها رجلاً يقوم فيها بالحق والسلام[٥].

وأما الكتيبة فهي حصن من حصون خيبر، وعندما تولى عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله على المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يقول: افحص لي عن الكتيبة، أكانت من خمس رسول الله ﷺ من خيبر، أم كانت لرسول الله خاصة؟ قال أبو بكر: فسألت عمرة بنت عبد الرحمن فقالت: إن رسول الله ﷺ لما صالح بني أبي الحقيق جزأ النطاة والشق خمسة

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص ١٠٧ و ١٠٨).
(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٠٧).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٤٠).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٨٩) و: عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٠٨).

أجزاء ، فكانت الكتيبة جزءاً منها ، وأعادها عمر بن عبد العزيز إلى ما كانت إليه في عهد رسول الله[١] .

كما أرجع عمر للرجل المصري الذي أرضه بحلوان بعد أن عرف أن والده عبد العزيز قد ظلم المصري فيها ، وحتى الدار التي كان والده عبد العزيز بن مروان قد اشتراها من الربيع بن خارجة الذي كان يتيماً في حجره ، ردها عليه ، لعلمه أنه لا يجوز اشتراء الولي ممن يلي أمره .

ثم التفت إلى المال الذي كان يأتيه من جبل الورس باليمن ، فرده إلى بيت مال المسلمين رغم شدة حاجة أهله إلى هذا المال ، لكنه كان يؤثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا ، كما أمر عمر بن عبد العزيز مولاه مزاحماً بردِّ المال الذي كان يأتيه من البحرين كل عام إلى مال الله[٢] .

وهكذا بدأ عمر بنفسه يضرب المثل ويكون الأسوة أمام رعيته حين رد من أملاكه كل ما شابته شائبة الظلم ، أو الشك في خلاص حقه فيه ، فرد كل ذلك إلى أصحابه ، انطلاقاً من تمسكه بالزهد ، وإيمانه بردِّ المظالم إلى أصحابها تقوىً لله ، ووضعاً للحق في نصابه ، وبعد أن انتهى من رد كل مال شك بأنه ليس له فيه حق؛ اتجه إلى زوجته فاطمة بنت عبد الملك ـ وكان لها جوهر ـ فقال لها عمر : من أين صار هذا المال إليك؟ قالت : أعطانيه أمير المؤمنين ، قال : إما أن ترديه إلى بيت المال وإما أن تأذني لي في فراقك ، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت[٣] ، وقد أوضح عمر لها سبب كرهه له بقوله : قد علمت حال هذا الجوهر وما صنع فيه أبوك ، ومن أصابه ، فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين وأنفق ما دونه ، وإن خلصت إليه أنفقته ، وإن مت قبل ذلك فلعمري ليردنه إليك . قالت له : افعل ما شئت ، وفعل ذلك . فمات ـ رحمه الله ـ ولم يصل إليه ، فرد ذلك عليها أخوها يزيد بن عبد الملك ، فامتنعت من أخذه ، وقالت : ما كنت لأتركه ثم آخذه ، وقسمه يزيد بين نسائه ونساء بنيه[٤] .

ـ رد مظالم بني أمية :

وإذا كان عمر قد بدأ بنفسه في رد المظالم؛ فقد ثنَّى في ذلك بأهل بيته وبني عمومته وبإخوته من أفراد البيت الأموي ، وفور فراغه من دفن ابن عمه سليمان بن عبد الملك ، فقد رأى ما أذهله؛ وهو : أن أبناء عمه من الأمويين أدخلوا الكثير من مظاهر السلطان التي لم تكن موجودة على عهد النبي ﷺ ، أو خلفائه الراشدين ، فأنفقوا الكثير من المال من أجل الظهور بمظاهر

---

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٠٩) .

(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢١٢) .

(٣) المصدر السابق نفسه و : الطبقات (٥/ ٢٩٣) .

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٥٢ و ٥٣) .

العظمة والأبهة أمام رعيتهم ، ومن تلك المظاهر : المراكب الخلافية التي تتألف من براذين وخيول وبغال ، ولكل دابة سائس ، ومنها أيضاً تلك السرادقات والحجرات والفرش والوطاءات التي تعد من أجل الخليفة الجديد ، وفوجئ بتلك الثياب الجديدة وقارورات العطر والدهن التي أصبحت له بحجة أن الخليفة الراحل لم يصبها؛ فهي من حقه بصفته الخليفة الجديد ، وهذا كله إسراف وتبذير لا مبرر له يتحمله بيت مال المسلمين ، وهو بأمسِّ الحاجة لكل درهم فيه لينفق في وجهه الصحيح الذي بينه الله ورسوله ، وهنا أمر مولاه مزاحماً فور تقديم هذه الزينة له ببيعها ، وضم ثمنها إلى بيت مال المسلمين[١] .

ولقد كانت لعمر بن عبد العزيز سياسة محددة في رد المظالم من أفراد البيت الأموي تكون لديه خطوطها فور تسلمه زمام الخلافة ، حين وفد عليه أفراد البيت الأموي عقب انصرافه من دفن سليمان يسألونه ما عودهم الخلفاء الأمويون من قبله ، وحين أراد عبد الملك أن يرد أفراد البيت الأموي عن أبيه كشف له أبوه عن سياسته تلك حين قال له : وما تبلغهم؟ قال : أقول : أبي يقرئكم السلام ويقول لكم : ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الزمر : ١٣] . ثم أوضحها له مرة أخرى حين جاءه يطالبه بالإسراع باستخلاص ما بأيدي الأمويين من مظالم ، فقال : يا بني ، إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة ، وعروة عروة ، ومتى ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما في أيديهم لم آمن أن يفتقوا عليّ فتقاً تكثر فيه الدماء ، والله لزوال الدنيا أهون عليَّ من أن يهراق في سببي محجمة من دم ، أو ما ترضى أن لا يأتي على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ويحيي فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الحاكمين[٢]؟! ثم زاد في توضيح سياسته تلك حينما قال له ولده عبد الملك : ما يمنعك أن تمضي الذي تريد؟ فوالذي نفسي بيده ما أبالي لو غلت بك وبي القدور ، قال : وحق هذا منك ، قال : نعم والله ! قال عمر : الحمد لله الذي جعل من ذريتي من يعينني على أمر ديني ، إني لو باهتُّ الناس بالذي تقول لم آمن أن ينكروها ، فإذا أنكروها لم أجد بداً من السيف ، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف ، يا بني ! إني أروض الناس رياضة صعبة ، فإن بطأ بي عمر أرجو أن ينفذ الله مشيئتي وأن تعدو منيتي ، فقد علم الله الذي أريده[٣] .

وهكذا يتبع عمر أسلوب الحكمة والحسنى في تنفيذ سياسته ، وتطبيقاً لهذه السياسة فإنه قد مهّد لهذه الخطوة الحاسمة ، والخطيرة بخطوات تسبقها خروجه هو أولاً مما بيده من مظالم ، وردّها إلى أصحابها ، أو بيت المال ، ثم اتجه إلى أبناء البيت الأموي ، فجمعهم وطلب إليهم

---

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢١٣) .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣) .

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣) .

أن يخرجوا مما بأيدهم من أموال وإقطاعات أخذوها بغير حق[١].

وشهدت الأيام الأولى من خلافة عمر تجريداً واسع النطاق لكثير من أموال وأملاك بني أمية ، ظلت تنمو في الماضي وتتضخم لكونهم العائلة الحاكمة ليس إلا . . وها هي الآن ترد إلى بيت مال المسلمين لكي يأخذ العدل مجراه ، وتعود أموال المسلمين إلى المسلمين ، لا يستأثر بها أحد دون أحد ، ولا حزب دون حزب . . أموال وأملاك من شتى الصنوف والأنواع ، جمعت بمختلف الطرق وسائر الأساليب؛ جرَّد عمر بني أمية منها ومزق مستنداتها واحدة واحدة ، وردها إلى مكانها الصحيح: مظالم وجوائز وهدايا ومخصصات استثنائية وضياع وقطاع ، جمعت كلها على شكل ممتلكات ثابتة ونقود سائلة بلغت في تقدير عمر شطراً كبيراً من أموال الأمة جاوزت النصف[٢].

ولا تمضي سوى أيام معدودات حتى يجد بنو أمية أنفسهم مجردين إلا من حقهم الطبيعي المشروع ، فيضجون ضد سياسة عمر هذه ويعلنون معارضتهم الصارمة لها ، فماذا يكون جواب عمر ؟ انظروا: والله لوددت أن ألا تبقى في الأرض مظلمة إلا ورددتها على شرط ألا أرد مظلمة إلا سقط لها عضو من أعضائي أجد ألمه ثم يعود كما كان حياً ، فإذا لم يبق مظلمة إلا رددتها سالت نفسي عندها[٣] ، ولكن بني أمية لم ييأسوا من هذا الحزم والعزم إزاء حقوق الأمة ، وهم الذين ما خطر ببالهم يوماً أن يجردوا هذا التجريد ، فاجتمعوا وطلبوا من أحد أولاد الوليد ـ وكان كبيرهم ونصيحهم ـ أن يكتب إلى عمر ، فكتب إليه: أما بعد ، فإنك أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وسرت بغير سيرتهم ، وسميتها المظالم نقصاً لهم وعيباً لأعمالهم ، وشاتماً لمن كان بعدهم من أولادهم ، ولم يكن ذلك لك ، فقطعت ما أمر الله به أن يوصل ، وعملت بغير الحق في قرابتك ، وعمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم فأدخلتها بيت مالك ظلماً وجوراً وعدواناً ، فاتق الله يابن عبد العزيز وراقبه ، فإنك قد أوشكت لم تطمئن على منبرك أن خصصت ذوي قربتك بالقطيعة والظلم ، فوالله الذي خص محمداً ﷺ بما خصه من الكرامة لقد ازددت من الله بعداً في ولايتك هذه التي تزعم أنها بلاء عليك ، وهي كذلك ، فاقتصد في بعض ميلك وتحاشيك[٤].

ويظهر في هذا الكتاب مآخذ الأمويين على سياسة عمر؛ وهي:

ـ خالف سيرة من قبله من الخلفاء وأزرى بهم وعاب أعمالهم.

---

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢١٥).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ١١٥).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ١٤٧ ـ ١٥١).
(٤) المصدر السابق نفسه (ص ١٢٦ ـ ١٢٧) و: عمر بن عبد العزيز لـ: صالح العلي (ص ١٩٤).

ـ أساء إلى أولاد من قبله من الخلفاء .

ـ لم يكن عمله منسجماً مع الحق .

ـ إن قطيعة أهل بيته يهدد مكانه من الخلافة .

ولا ريب أن سياسة عمر بن عبد العزيز تهدد مكانة الأسرة الأموية وتضعف مراكز قوتها ، وقد تؤدي إلى دفعها لاتخاذ مواقف مهددة للخليفة القائم ، وفي هذا خطر كبير عليه وعلى الخلافة[١] ، وكان رد عمر حمماً من نار الحق تتفجر في كل كلمة فيها : . . ويلك وويل أبيك ما أكثر طلابكما وخصماءكما يوم القيامة !! . رويدك فإنه لو طالت بي حياة ، وردَّ الله الحق إلى أهله ، تفرغت لك ولأهل بيتك ، فأقمتكم على المحجة البيضاء ، فطالما تركتم الحق وراءكم[٢] .

ـ بنو أمية يلجؤون إلى أسلوب الحوار الهادئ :

وما أن يئس بنو أمية أمام صمود عمر إزاء معارضتهم الجماعية الشديدة هذه ، لجؤوا إلى أسلوب الحوار الهادئ ، علّهم يصلون عن طريقه إلى ما يشتهون ، فيتكلمون معه يوماً مستثيرين فيه نزعة القربى وعاطفة الرحم ، فيجيبهم : أن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال ـ أي المال العام ـ فحقكم فيه كحق أي رجل من المسلمين . والله أني لا أرى أن الأمور لو استحالت حتى يصبح أهل الأرض يرون مثل رأيكم لنزلت بهم بائقة من عذاب الله[٣] .

ودخل عليه هشام بن عبد الملك يوماً فقال : يا أمير المؤمنين ! إني رسول قومك إليك ، وإن في أنفسهم ما جئت لأعلمك به : إنهم يقولون : استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، وخلِّ بين من سبقك وبين ما ولوا بما عليهم ولهم ، وببديهة يجيب عمر : أرأيت إن أتيت بسجلين : أحدهما من معاوية ، والآخر من عبد الملك ؛ فبأي السجلين آخذ؟ قال هشام : بالأقدم . فأجاب عمر : فإني وجدت كتاب الله الأقدم ، فأنا حامل عليه من أتاني ممن تحت يدي وفيما سبقني[٤] .

ـ بنو أمية يرسلون عمة عمر بن عبد العزيز :

فعندما عجز الرجال من بني أمية عن جعل عمر يخاف أو يلين عن سياسته إزاءهم ، لجؤوا

---

(١) عمر بن عبد العزيز لـ : صالح العلي (ص ١٩٥) .

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ١٤٧ ـ ١٥١) .

(٣) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ١١٤ ـ ١١٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه (ص ١١٨ ـ ١١٩) و : ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز للدكتور عماد الدين خليل (ص ١١٧ ، ١١٨) .

إلى عمته فاطمة بنت مروان ، وكانت عمته هذه لا تحجب عن الخلفاء ، ولا يرد لها طلب أو حاجة ، وكانوا يكرمونها ويعظمونها ، وكذلك كان عمر يفعل معها قبل استخلافه ، فلما دخلت عليه عظمها وأكرمها كعادته ، وألقى لها وسادة لتجلس عليها. فقالت: إن قرابتك يشكونك ويذكرونك أنك أخذت منهم خير غيرك ، قال: ما منعتهم حقاً أو شيئاً كان لهم ، ولا أخذت منهم حقاً أو شيئاً كان لهم ، فقالت: إني رأيتهم يتكلمون ، وإني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً. فقال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقاني الله شره. قال: فدعا بدينار ، وجنب ، ومجمرة ، فألقى ذلك الدينار بالنار ، وجعل ينفخ على الدينار وإذا احمر تناوله بشيء ، فألقاه على الجمر فنشى وقتر ، فقال: أي عمه أما ترثين لابن أخيك من هذا[١]؟ وتؤخذ العمة بهذا المشهد المؤثر ، وتلتفت إلى عمر طالبة منه أن يستمر في الكلام ، واسمعوه يقول وكأنه يرسم لوحة فنية رائعة للعدالة الاجتماعية التي جاء بها الإسلام لكي يجعلها تفجر الخير والنعيم على الجميع ، قال: إن الله بعث محمداً ﷺ رحمة ولم يبعثه عذاباً إلى الناس كافة ، ثم اختار له ما عنده وترك للناس نهراً شربهم فيه سواء ، ثم ولي أبو بكر وترك النهر على حاله ، ثم ولي عمر فعمل عملهما ، ثم لم يزل النهر يستقي منه يزيد ومروان وعبد الملك وابنه الوليد وسليمان أبناء عبد الملك ، حتى أفضى الأمر إليَّ وقد يبس النهر الأعظم ، فلم يروِ أصحابه حتى يعود إلى ما كان عليه ، فقالت: حسبك ، قد أردت كلامك ، فأما إذا كانت مقالتك هذه فلا أذكر شيئاً أبداً. فرجعت إليهم فأخبرتهم كلامه[٢] ، وجاء في رواية: إنها قالت لهم: .. أنتم فعلتم هذا بأنفسكم ، تزوجتم بأولاد عمر بن الخطاب فجاء يشبه جده. فسكتوا[٣].

ـ تلاشي المعارضة الجماعية لبني أمية:

وسرعان ما تلاشت السمة الجماعية لمعارضة بني أمية بعد ما رأوا من جد عمر إزاء أموال الأمة، وقالوا: ليس بعد هذا شيء[٤]. ومن ثم أخذ كل منهم يسعى على انفراد ليسترد ما يستطيع استرداده من الأموال ، ولكن عمر الذي وقف تجاه رغباتهم مجتمعين أحرى به الآن أن يتصدى لكل واحد منهم على انفراد ويعلمه أنّ حق الأمة لا يمكن أن يكون موضع مساومة في يوم من الأيام[٥].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ١١٧).
(٢) الكامل في التاريخ (٢/ ٢٧٠).
(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ٢٧١).
(٤) عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٥٨ ، ٥٩) و: ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (ص ١١٩).
(٥) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر (ص ١١٩).

أ ـ رد الحقوق لأصحابها:

لم يقف عمر عند حد استرداد الأموال من بني أمية وردها إلى بيت المال ، بل يخطو خطوة أخرى ، ويعلن لأبناء الأمة الإسلامية أن كل من له حق على أمير أو جماعة من بني أمية أو لحقته منهم مظلمة ، فليتقدم بالبينة لكي يرد عليه حقه . . وتقدم عدد من الناس بظلامتهم وبيّناتهم ، وراح عمر يردها واحدة بعد الأخرى: أراضٍ ومزارع وأموال وممتلكات[١] .

ومرة بعث إليه واليه على البصرة برجل اغتصبت أرضه ، فرد عمر هذه الأرض إليه ، ثم قال له: كم أنفقت في مجيئك إلي؟ قال: يا أمير المؤمنين ! تسألني عن نفقتي وأنت قد رددت علي أرضي وهي خير من مئة ألف؟ فأجابه عمر: إنما رددت عليك حقك ، ثم ما لبث أن أمر له بستين درهماً كتعويض له عن نفقات سفره[٢] .

وقد قال ابن موسى: ما زال عمر بن عبد العزيز يردّ المظالم منذ يوم استخلف إلى يوم مات[٣] ، وذات يوم قدم عليه نفر من المسلمين وخاصموا روح بن الوليد بن عبد الملك في حوانيت[٤] ، قد قامت لهم البينة عليه ، فأمر عمر روحاً برد الحوانيت إليهم ، ولم يلتفت لسجل الوليد ، فقام روح فتوعدهم ، فرجع رجل منهم وأخبر عمر بذلك ، فأمر عمر صاحب حرسه أن يتبع روحاً فإن لم يرد الحوانيت إلى أصحابها فليضرب عنقه ، فخاف روح على نفسه وردّ إليهم حوانيتهم[٥] .

وردّ عمر أرضاً كان قوم من الأعراب أحيوها ، ثم انتزعها منهم الوليد بن عبد الملك فأعطاها بعض أهله ، فقال عمر: قال رسول الله ﷺ: « . . من أحيا أرضاً ميتة فهي له»[٦] ، ولقد أحبّ آل البيت وأعاد إليهم حقوقهم ، وقال مرة لفاطمة بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنهما: يا بنت علي ! والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحبّ إليَّ منكم ، ولأنتم أحب إليَّ من أهل بيتي[٧] .

ب ـ عزله جميع الولاة والحكام الظالمين:

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة عمد إلى جميع الولاة والحكام المسؤولين الظالمين

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١٢٠).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ١٤٦ و ١٤٧).
(٣) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤١).
(٤) الحوانيت: جمع حانوت ، وهو محل التجارة.
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٦٠).
(٦) صحيح الجامع للألباني رقم (٢٧٦٦).
(٧) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي (ص ١٣١) و: السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٤٥).

فعزلهم عن مناصبهم ، ومنهم : خالد بن الريان ، وصاحب حرس سليمان بن عبد الملك الذي كان يضرب كل عنق أمره سليمان بضربها ، وعين محله عمرو بن مهاجر الأنصاري ، فقال عمر بن عبد العزيز : يا خالد ! ضع هذا السيف عنك ، اللهم إني قد وضعت لك خالد بن الريان اللهم لا ترفعه أبداً ، ثم قال لعمرو بن مهاجر : والله ! إنك لتعلم يا عمرو ، إنه ما بيني وبينك قرابة إلا قرابة الإسلام ، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلي في موضع تظن ألا يراك أحد ، فرأيتك حسن الصلاة، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي[(١)] .

وهكذا يعزل عمر الظالمين وهذا أسلوبه في اختيار الولاة والقضاة والكتاب وغيرهم ، إنه يبحث عن أصلح الناس ديناً وأمانة ، ولما انتقد أحد ولاته الذين اختارهم نكت بين عينيه بالخيزرانة في سجدته وقال : هذه غرتني منك . يريد سجدته أي : أثر السجود في وجهه ، فهذه علامة من علامات صلاح الرجل، وهي دليل على كثرة السجود ، ومن أجل ذلك اختاره عمر بن عبد العزيز ، وعمر لا يكتفي بمظهر الرجل ولكنه يختبره أيضاً ، قد رأى رجلاً كثير الصلاة ، وأراد أن يمتحنه ليوليه ، فأرسل إليه رجلاً من خاصته فقال : يا فلان ! إنك تعلم مقامي عند أمير المؤمنين، فما لي لو جعلته يوليك على أحد البلدان؟ فقال الرجل : لك عطاء سنة ، فرجع الرجل إلى عمر وأخبره بما كان من هذا الرجل ، فتركه لأنه سقط في الاختبار[(٢)] .

وكان من ضمن من عزلهم عمر بن عبد العزيز : أسامة بن زيد التنوخي ، وكان على خراج مصر ، لأنه كان غاشماً ظلوماً يعتدي في العقوبات بغير ما أنزل الله عز وجل ، يقطع الأيدي في خلاف ما يؤمر به ـ دون تحقق شروط القطع ـ فأمر به عمر بن عبد العزيز أن يحبس في كل جُنُد[(٣)] سنة ، ويقيد ويحل عنه القيد عند كل صلاة ، ثم يرد في القيد ، فحبس بمصر سنة ، ثم فلسطين سنة ، ثم مات عمر وولي يزيد بن عبد الملك الخلافة فردّ أسامة على مصر في عمله[(٤)] .

وكتب عمر بن عبد العزيز بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية وكان عامل سوء يظهر التأله والنفاد لما أمر به السلطان مما جل أو صغر من السيرة بالجور ، والمخالفة للحق ، وكان في هذا يكثر التسبيح والذكر ، ويأمر بالقوم فيكونون بين يديه يعذبون ، وهو يقول : سبحان الله والحمد لله شد يا غلام موضع كذا وكذا (لبعض مواضع العذاب) وهو يقول : لا إلٰه إلا الله والله أكبر ، شد يا غلام موضع كذا وكذا ، فكانت حالته تلك شر الحالات ، فكتب عمر بعزله[(٥)] ، وهكذا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٥٠).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز للدكتور محمد شقير (١/ ٩١).
(٣) الجند : المدينة وقيل : مدن الشام.
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٣٢).
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ٣٢ و ٣٣).

استمر عمر في عزل الولاة الظلمة وتعيين الصالحين ، وسيأتي الحديث عن فقه عمر في تعامله مع الولاة في محله بإذن الله تعالى .

جـ ـ رفع المظالم عن الموالي :

تعرض الموالي قبل عمر بن عبد العزيز للمظالم ، فقد فرضت الجزية على من أسلم منهم ، كما منعوا من الهجرة ، مثلما حدث للموالي في العراق ومصر وخراسان ، وفي عهد عبد الملك أوقع الحجّاج بالموالي ظلماً عظيماً ، فقد عمل على إبقاء الجزية على من أسلم منهم ، وحرمهم من الهجرة من قراهم ، وهذا ما دفعهم للاشتراك في ثورة ابن الأشعث ضد الحجّاج ، كما وقع الظلم على الموالي في مصر وخراسان .

فلما تولى عمر بن عبد العزيز أزال تلك المظالم التي لحقت بهؤلاء الموالي وكتب إلى عماله يقول : فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزيرة اليوم فخالط المسلمين في دارهم ، وفارق داره التي كان بها ، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وعليهم أن يخالطوه ، وأن يواسوه غير أنَّ أرضه وداره ، إنما هي من فيء الله على المسلمين عامة ، ولو كانوا أسلموا عليها قبل أن يفتح الله للمسلمين كانت لهم ، ولكنها فيء الله على المسلمين عامة[1] .

وكتب إلى عامله على مصر حيان بن شريح ـ يقول : وأن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، فإن الله تبارك وتعالى قال : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [التوبة : ٥] ، وقال : ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] . إلا أن هذا العامل أرسل إلى عمر يقول : أما بعد ، فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن نابتة عشرون ألف دينار أتممتها عطاء أهل الديوان ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل[2] . وجاء رد عمر : أما بعد ، فقد بلغني كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولي يضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمَّن أسلم ـ قبح الله رأيك ـ فإن الله إنما بعث محمداً ﷺ هادياً ولم يبعثه جابياً ، ولعمري ولعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على دينه[3] . وفي رواية ابن سعد : أما بعد ، فإن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً ، فإذا أتاك كتابي هذا فإن كان أهل الذمة أسرعوا في الإسلام وكسروا الجزية فاطوِ كتابك وأقبل[4] .

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٧٨ و ٧٩) .
(٢) الخطط ، للمقريزي (١/ ٧٨) و : عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٣٣) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) الطبقات (٥/ ٣٨٤) .

ولم يكن عامل عمر على مصر هو الوحيد الذي طلب من عمر السماح له في أخذ الجزية ممن أسلم ، فها هو عامله على الكوفة ـ عبد الحميد بن عبد الرحمن ـ يسأله أخذ الجزية المتراكمة على اليهود والنصارى والمجوس الذين أسلموا ، فجاءه رد عمر الواضح أيضاً يقول : كتبت إلي تسألني عن أناس من أهل الحيرة يسلمون من اليهود والنصارى والمجوس وعليهم جزية عظيمة ، وتستأذنني في أخذ الجزية منهم ، وإن الله جل ثناؤه بعث محمداً ﷺ داعياً إلى الإسلام ولم يبعثه جابياً ، فمن أسلم من أهل تلك الملل فعليه في ماله الصدقة ولا جزية عليه ، وميراثه ذوي رحمه إذا كان منهم يتوارثون أهل الإسلام ، وإن لم يكن له وارث فميراثه في بيت مال المسلمين الذي يقسم بين المسلمين ، وما أحدث من حدث ففي مال الله الذي يقسم بين المسلمين يعقل عنه منه والسلام[١] .

كما كتب إليه عامله على البصرة ـ عدي بن أرطأة ـ يقول: أما بعد ، فإن الناس كثروا في الإسلام ، وخفت أن يقل الخراج . فكتب إليه عمر : فهمت كتابك ، والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين نأكل من كسب أيدينا[٢] .

هذا إلى جانب إبطاله لمظلمة المنع من الهجرة التي أوقعها الحجّاج بالموالي في العراق ، وهكذا أبطل عمر تلك المظالم التي أصابت الموالي ، فترتب على ذلك أن أعاد إليهم حقوقهم المسلوبة والهدوء والطمأنينة إلى نفوسهم ، وباتوا ينعمون بالمساواة والعدل مع غيرهم من أبناء الأمة الإسلامية[٣] .

د ـ رفع المظالم عن أهل الذمة :

زاد عبد الملك في عهده الجزية على أهل قبرص وكان معاوية بن أبي سفيان غزا قبرص بنفسه ، وصالحهم صلحاً دائماً على سبعة آلاف دينار وعلى النصيحة للمسلمين ، وإنذارهم عدوهم من الروم ، ولم يزل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان ، فزاد عليهم ألف دينار ، فجرى ذلك إلى عهد عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم[٤] ، كما أصابت الزيادة فيما يجبى من جزية أهل الذمة في العراق ، وقد وضعها عنهم عمر بن عبد العزيز كسياسة عامة التزم بها في أن يرفع المظالم عن أهل الذمة حتى يدعهم ينعمون بحياتهم في ظل الشرائع الإسلامية السمحة ، ويؤيد ذلك ما جاء في كتابه إلى عامله على البصرة ـ عدي بن أرطأة: أما

---

(١) الخراج لأبي يوسف (ص ١٤٢) و: عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٣٤) .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، (ص ٩٩ ـ ١٠٠) .
(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٣٤) .
(٤) فتوح البلدان (ص ١٥٩) و: عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٤٠) .

بعد ، فإن الله سبحانه إنما أمر أن تؤخذ الجزية ممن رغب عن الإسلام واختار الكفر عتياً[١] ، وخسراناً مبيناً ، فضع الجزية على من أطاق حملها ، وخلِّ بينهم وبين عمارة الأرض ، فإن في ذلك صلاحاً لمعاش المسلمين ، وقوة على عدوهم ، وانظر من قبلك من أهل الذمة ممن قد كبرت سنه ، وضعفت قوته ، وولت عنه المكاسب ، فأجرِ عليه من بيت مال المسلمين ما يصلحه .

فلو أن رجلاً من المسلمين كان له مملوك كبرت سنه وضعفت قوته وولت عنه المكاسب ؛ كان من الحق عليه أن يقوته حتى يفرق بينهما موت أو عتق ، وذلك أنه بلغني أن أمير المؤمنين عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب الناس فقال : ما أنصفناك ، إن كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ، ثم ضيعناك في كبرك ! قال : ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه[٢] .

كما بلغت سياسة عمر بن عبد العزيز في وضع المظالم عن الناس ومساعدتهم أيضاً حين كتب إلى عامله على الكوفة يقول : انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه ، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين[٣] .

وقد أمر عمر ولاته بالأخذ بالرحمة والرأفة بالناس ، فقد منع تعذيب أهل البصرة وغيرهم لاستخراج الخراج منهم ، وعندما أرسل إليه عامله على البصرة عدي بن أرطأة يقول : إن أناساً قبلنا لا يؤدون ما عليهم من الخراج حتى يمسهم شيء من العذاب ، فكتب إليه عمر : أما بعد ، فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب البشر ؛ كأني جنة لك من عذاب الله ، وكأن رضاي ينجيك من سخط الله ، وإذا أتاك كتابي هذا فمن أعطاك فاقبله عفواً وإلا فأحلفه ، فوالله لأن يلقوا الله بخياناتهم أحب إليَّ من أن ألقاه بعذابهم . والسلام[٤] .

ومما أصاب أهل الذمة من المظالم قبل عهد عمر بن عبد العزيز سبي بنات ونساء من «لواتة» بشمال إفريقية، ولكن عمر رد هذه المظلمة ؛ يذكر أبو عبيد : أن عمر بن عبد العزيز كتب في اللواتيات : من أرسل منهن شيئاً فليس من ثمنها شيء وهو ثمن فرجها الذي استحلها به ـ أو كلمة تشبه الثمن ـ قال : ومن كانت عنده امرأة منهن فليخطبها إلى أبيها ، وإلا فليردها إلى أهلها ، قال أبو عبيد : قوله : اللواتيات ؛ هن من لواتة : فرقة من البربر ، يقال لهم : لواتة ، أراه قد كان لهن عهد ، وهم الذين كان ابن شهاب يحدث : أن عثمان أخذ الجزية من البربر ، ثم أحدثوا بعد ذلك

---

(١) عتياً : العاتي المجاوز للحد في الاستكبار .

(٢) الأموال لأبي عبيد (ص ٥٧) .

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٣٢٠) و : عمر وسياسته في رد المظالم (ص ٢٤١) .

(٤) الخراج لأبي يوسف (ص ١٢٩) .

فسبوا. فكتب عمر بن عبد العزيز بما كتب به[١].

كما أرجع عمر بن عبد العزيز إلى أهل الذمة كل أرض أو كنيسة أو بيت اغتصب منهم[٢]، ومما رفعه عمر عن أهل الذمة من المظالم السخرة التي كانت على أساس أنه يحل للمسلمين أن يسخروا أهل الذمة لمصالحهم الشخصية طالما أن هذا غير موجود في صلحهم[٣]. فكتب إلى عماله يقول: . . . ونرى أن توضع السخر عن أهل الأرض، فإن غايتها أمر يدخل فيه الظلم[٤].

وهكذا رد عمر بن عبد العزيز ما أصاب أهل الذمة من مظالم، فترتب على ذلك أن أعاد السكينة، والطمأنينة والهدوء إليهم، وأوضح لهم أن بإمكانهم أن يعيشوا في ظل الإسلام آمنين مطمئنين تشملهم سماحة الدين ويظلهم عدله، وتستقيم أمورهم وشؤونهم في كنفه، لا يضارون ولا يستضعفون ولا يستعبدون، لهم حقوقهم المعلومة وعليهم واجباتهم المحددة ضمنها لهم الشارع الحكيم، وما تأسس من أحكام كتاب الله وسنة رسوله الكريم[٥].

هـ ـ إقامة العدل لأهل سمرقند:

لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة إلى سكان ما وراء النهر، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبي السّري: إن قتيبة غدر بنا، وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا فليفد منا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطيناه، فائذن لنا إلى ذلك حاجة. فأذن لهم سليمان، فوجهوا منهم قوماً فقدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان بن أبي السري: إن أهل سمرقند، قد شكوا إليَّ ظلماً أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم؛ أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي، فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم[٦] إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن يظهر عليهم قتيبة.

فأجلس سليمان جُمَيْعَ بن حاضر القاضي، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء، فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل الصُّغد[٧]: بل نرضى بما كان ولا نجدِّد حرباً، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأي: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم،

---

(١) فتوح البلدان (ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧).

(٢) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٤٥).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٨٣).

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٤٨).

(٦) يعني: المسلمين الغزاة.

(٧) الصُّغد: قوم يسكنون بعض بلاد ما وراء النهر.

وأمنونا وأمنّاهم ، فإن حكم لنا عدْنا إلى الحرب ولا ندري لمن يكون الظفر ، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة في المنازعة ، فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا[١].

أية دولة في القرن العشرين تحني رأسها هكذا للعدل كي يأخذ مجراه ، وللحق كي يعود إلى أصحابه؟! وأي حاكم في تاريخ الشعوب التي لم تعرف الله ، استجاب ، حاكمها ، لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم ، كهذه الاستجابة السريعة الحاسمة من عمر بن عبد العزيز؟! ألا إنه المسؤول الذي نذر نفسه للدفاع عن قيم الحق والعدل في أقطار الأرض ، فبدونهما تفقد شريعة الله مقوماتها وأهدافها العليا[٢]. فهذا مثل رفيع من عدل عمر ، وإننا لنلاحظ في هذا الخبر عدة أمور:

ـ أن الناس يقبلون على التظلم والشكوى والمطالبة بالحقوق حينما يكون الحكام عادلين ، لأنهم يعلمون أن دعواهم ستؤخذ مأخذ الجد وسينظر فيها بعدل ، فهؤلاء المتظلمون قد سكتوا على ما هم فيه من الشعور بالظلم طيلة ولاية الوليد وسليمان ، فلما رأوا عدل عمر بن عبد العزيز رفعوا قضيتهم.

ـ أن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لم يهمل قضيتهم ، وإنما أحالها إلى القضاء الشرعي ، وهذا مثل من الخضوع للإسلام والتجرد من هوى النفس ، وكان باستطاعته أن يعمل كما يعمل كثير من المسؤولين ، من إرسال خطابات الوعيد والتهديد والبحث عن رؤوس القوم وإجراء العقوبات المناسبة عليهم ، ولكنه قد نذر نفسه لرفع المظالم وإقرار العدالة ، وذلك لا يكون إلا بحكم الشرع والتحاكم إليه.

ـ أن أولئك القوم قد أسقط في أيديهم لما اطلعوا على كتاب أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ورأى أهل الرأي منهم أنهم خاسرون في كلا الحالين ، سواء حكم لهم أو عليهم ، وأن مصلحتهم في بقائهم على ما هم عليه ، وبهذا زال تظلمهم وشعروا بعدالة الحكم الإسلامي[٣].

و ـ الاكتفاء باليسير من البينات في رد المظالم:

نظراً لمعرفة عمر بن عبد العزيز بغشم الولاة قبله وظلمهم للناس حتى أصبحت المظالم كأنها شيء مألوف ، فإنه لم يكلف المظلوم بتحقيق البينة القاطعة على مظلمته ، وإنما يكتفي باليسير من البينة ، فإذا عرف وجه مظلمة الرجل ردها إليه دون أن يكلفه تحقيق البينة ، فقد روى

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٧٢).
(٢) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز (ص ٦٨).
(٣) التاريخ الإسلامي (١٥, ١٦/ ٦٢).

ابن عبد الحكم وقال: قال أبو الزناد: كان عمر بن عبد العزيز يرد المظالم إلى أهلها بغير البينة القاطعة ، وكان يكتفي باليسير ، إذ عرف وجه مظلمة الرجل ردها عليه ، ولم يكلفه تحقيق البينة ، لما يعرف من غشم الولاة قبله على الناس ، ولقد أنفذ بيت مال العراق في رد المظالم حتى حُمل إليه من الشام(١).

فما أحسن ما فعله عمر بن عبد العزيز وما أحسن التيسير على الناس قدر المستطاع لأن فيه اختصاراً للوقت وتوفيراً للجهود(٢) ، كما أن هذا العمل نستنبط منه قاعدة هامة في التفريق بين أصول التحقيق في القضاء العادي وبين أصول التحقيق في القضاء الإداري ، وضعها عمر بن عبد العزيز ، فالبينة القاطعة قد تستحيل إقامتها ، وجمع عناصرها ، فإذا كان الظلم واضحاً ، اكتفى قاضي المظالم بالبينة اليسيرة(٣).

ز ـ وضع المكس(٤):

لما كان المكس من الظلم والبخس ، لأنه جباية أو ضريبة تؤخذ من الناس بغير وجه شرعي ، ولما كانت الزكاة على المسلم والجزية والعشور والخراج على الذمي كافية عما سواها ، فقد نهى عمر عن المكس وشدد في ذلك ومنعه كما يأتي: عن محمد بن قيس قال: لما ولي عمر بن عبد العزيز وضع المكس عن كل أرض ، ووضع الجزية عن كل مسلم(٥) ، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة: أن ضع عن الناس... والمكس ، ولعمري ما هو بالمكس ولكنه البخس الذي قال الله فيه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ . فمن أدى زكاة ماله فاقبل منه ، ومن لم يأت فالله حسيبه(٦). وكتب إلى عامله عبد الله بن عوف على فلسطين: أن اركب إلى البيت الذي يقال له: المكس ، فاهدمه ثم احمله إلى البحر فانسفه في اليم نسفاً(٧). نعلم مما سبق أن المكس دراهم تؤخذ من بائع السلع في الأسواق ، وأن ذلك يصدق على الجمارك التي تؤخذ على السلع عند استيرادها في هذا الزمان ، وأن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك من الظلم فمنعه(٨). والحجة فيما فعله عمر بن عبد العزيز قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٣].

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ١٠٦ ـ ١٠٧).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٥٥٨).
(٣) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي (٢/ ٥٦٥).
(٤) المكس: دراهم كانت تؤخذ من بائع السلع في الأسواق في الجاهلية ، أو هي الجباية.
(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٤٥).
(٦) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٨٣).
(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ، ص ١١٣.
(٨) فقه عمر بن عبد العزيز للدكتور محمد شقير (٢/ ٥٦١).

ح ـ رد المظالم وإخراج زكاتها:

قرر عمر بن عبد العزيز رد المظالم التي في بيوت المال، وأخذ زكاتها لسنة واحدة[(١)]، عن مالك بن أنس عن أيوب السختياني: أن عمر بن عبد العزيز رد مظالم في بيوت الأموال، فرد ما كان في بيت المال، وأمر أن يزكى لما غاب عن أهله من السنين، ثم كتب بكتاب آخر: إني نظرت فإذا هو ضمار[(٢)] لا يزكى إلا لسنة واحدة[(٣)]، وعن عمرو بن ميمون قال: أخذ الوالي في زمن عبد الملك مال رجل من أهل الرقة يقال له: أبو عائشة، عشرين ألفاً فأدخلت في بيت المال، فلما ولي عمر بن عبد العزيز أتاه ولده فرفعوا مظلمتهم إليه، فكتب إلى ميمون: ادفعوا إليهم أموالهم، وخذوا زكاة عامه هذا، فلولا أنه كان مالاً ضماراً أخذنا منه زكاة ما مضى[(٤)].

هذا هو عمر بن عبد العزيز في دولته التي أقامها على العدل، وكان رحمه الله يعلم ولاته أنه بالعدل تستقيم الحياة بكل شؤونها، فلما أرسل إليه بعض عماله يقول: أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يرى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالاً نرمّها به فعل. فكتب إليه عمر: أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فحصِّنها بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم، فإنَّه مرمَّتها والسلام[(٥)].

وكتب إلى بعض عماله: إن قدرت أن تكون في العدل والإحسان والإصلاح كقدر من كان قبلكم في الجور والعدوان والظلم، فافعل ولا حول ولا قوة إلا بالله[(٦)]. وكتب إلى أبي بكر بن حزم: أن استبرئ الدواوين، فانظر إلى كل جورٍ جارَهُ مَنْ قبلي من حق مسلم أو معاهد فردَّه إليه، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه إلى ورثتهم[(٧)]. وكان رحمه الله يواجه في تنفيذ ما يريده من العدل مصاعب ومشقات ومقاومة، وعقبات، فكان ينفق بعض المال في سبيل تهدئة بعض النفوس، لإنفاذ الحق، ونشر العدل، ورفع الظلم، دخل عليه ابنه عبد الملك ذات يوم، فقال: يا أبتِ ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل؟! فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك! قال: يا بني، إنما أروِّض الناس رياضة الصَّعْب، إني لأريد أن أحيي

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٦٦).
(٢) المال الضمار: أي الذي لا يُرجى رجوعه.
(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (٥/ ٣٤٢).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣/ ٢٠٢).
(٥) تاريخ الخلفاء للسيوطي (ص ٢٣) و: عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ (ص ٢٢٦).
(٦) الطبقات (٥/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤).
(٧) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

الأمور من العدل ، فأوفَّر ذلك حتى أُخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فينفروا لهذا ويسكنوا لهذه[١] .

وقام برصد الجوائز لمن يدل على خير ، أو ينبه على خطأ ، أو يشير إلى وقوع مظلمة لم يستطع صاحبها إبلاغها ، فكتب كتاباً أمر أن يُقرأ على الحجيج في المواسم وفي كل المحافل والمجامع ؛ جاء فيه : أما بعد ، فأيما رجل قدم علينا في رد مظلمة ، أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين ، فله ما بين مئة دينار إلى ثلاثمئة دينار ، بقدر ما يرى من الحسبة ، وبعد الشقة . رحم الله امرأً لم يَتَكَاءده بُعد سفر ، لعل الله يحيي به حقاً ، أو يميت به باطلاً ، أو يفتح من ورائه خيراً[٢] .

ولاستعذابه حلاوة العدل ورحمته وتنعم الناس بتفيّؤ ظِلاله كان يقول : والله لوددت لو عدلت يوماً واحداً وأن الله تعالى قبضني[٣] ، ومع أنه رأى ثمرات العدل التي قطف منها جميع الناس في خلافته إلا أن نفسه التوّاقة لكل شامخ ورفيع كانت تطمح للمزيد ، ولقد عبر عن ذلك بقوله : لو أقمت فيكم خمسين عاماً ما استكملت العدل[٤] .
وحتى الحيوانات نالهنَّ عدله وإنصافه ورفع الظلم عنها ، وإليك هذه المشاهد :

ـ النهي عن نخس الدابة بالحديدة وعن اللجم الثقال :

فقد أكد عمر بن عبد العزيز على الرفق بالحيوان وعدم ظلمه أو تعذيبه ، قال أبو يوسف : حدثنا عبيد الله بن عمر : أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يجعل البريد في طرف السوط حديدة ينخس بها الدابة ، ونهى عن اللجم الثقال[٥] ، وقد أصدر أوامره بمنع استخدام اللجم الثقيلة مع الخيول والبغال ، كما منع استخدام المناخس ذات الرؤوس الحديدية[٦] .

ـ في تحديد حمولة البعير بستمئة رطل :

وحين بلغه أن قوماً يحملون على الجمال ما لا تطيق ، وذلك في مصر ، كتب إلى واليها يحدد أقصى حمولة للبعير بستمئة رطل ، وطلب منه إبلاغ قراره هذا الناس وأمره بتنفيذه[٧] .

هذه بعض الملامح السريعة على إقامة العدل في دولة عمر بن عبد العزيز ، إن من أهداف

---

(١) عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ (ص ٢٢٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٢٢٧) . تكاءده : شقَّ عليه ، وصعب .
(٣) تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٢٣) .
(٤) تاريخ ابن عساكر نقلاً عن عمر بن عبد العزيز لعبد الستار (ص ٢٢٧) .
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٢/ ٣٣٢) و: فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٥٧٣) .
(٦) ملامح الانقلاب الإسلامي (ص ٧١) .
(٧) فقه عمر بن عبد العزيز محمد شقير (٢/ ٥٧٥) .

التمكين إقامة المجتمع الذي تسود فيه قيم العدل ورفع الظلم ، ومحاربته بكافة أشكاله وأنواعه ، وهذا ما قام به عمر بن عبد العزيز رحمه الله .

٥ ـ المساواة :

قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال رسول الله ﷺ: «أيها النـاس ! ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى»[١] ، وقد قام عمر بن عبد العزيز بتطبيق هذا المبدأ في دولته ، وكان أول مؤشر على رغبته في تطبيق مبدأ المساواة ، حين أقسم أنه يودُّ أن يساوي في المعيشة بين نفسه ولحمته التي هو منها وبين الناس[٢] ، فقال: أما والله لوددت أنه بُدئ بي ، وبلحمتي التي أنا منها ، حتى يستوي عيشنا وعيشكم ، أما والله ، لو أردت غير هذا من الكلام ، لكان اللسان به منبسطاً ولكنت بأسبابه عارفاً[٣] . وقال في خطبة له: . . وما منكم من أحد تبلغنا حاجته إلا أحببت أن أسد من حاجته ، ما قدرت عليه[٤] .

كما أن عمر اتخذ مبدأ المساواة بين الناس في الحقوق والواجبات في كافة مجالات الحياة ، فلم يميز بين الناس في حقهم في تولي الوظائف والولايات ، ولم يعط أحداً كائناً من كان شيئاً ليس له فيه حق ، فقد ساوى بين أمراء وأشراف بني أمية وبين الناس ، فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة ، وقال لهم حين كلموه في ذلك: لن يتسع مالي لكم ، وأما هذا المال ـ يقصد المال الذي في بيت مال المسلمين ـ فإنما حقكم فيه كحق رجل ، بأقصى برك الغماد[٥] . فكانت سياسته المالية تقوم على مبدأ المساواة ، فبيت المال لجميع المسلمين ، ولكل واحد منهم حق أن يأخذ منه أسوة بغيره ، فلا يكون حكراً على فئات معينة من الناس .

ومن أعماله التي تدل على ترسيخه لمبدأ المساواة بين الناس ما أعلنه عندما رأى أمراء بني أمية قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض وجعلوها حمى يُحْرَمُ من الاستفادة منها عامة الناس ، فقال: إن الحمى يباح للمسلمين عامة . . وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين ، إنما الغيث ينزله الله لعباده ، فهم فيه سواء[٦] .

---

(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز (ص ٢٩٧).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ١١٢).
(٤) تاريخ الطبري نقلاً عن النموذج الإداري من إدارة عمر (ص ٢٩٧).
(٥) بلد باليمن وهو أقصى حجر باليمن. وقيل: موضع بمكة.
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٨١).

كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود وبين المسلمين، وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم، فقال: . . . فمن أسلم من نصراني أو يهودي أو مجوسي من أهل الجزية اليوم، فخالط المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه[١]. ويروي ابن سعد: أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء، غير أنه جعل فريضة المولى المعتق خمسة وعشرين ديناراً[٢].

وفي مجال المساواة بين الناس أمام القضاء، وأحكام الإسلام، نكتفي بهذا الدليل الذي كان عمر فيه أحد أطراف النزاع أمام القاضي، وتفصيل ذلك: أنه أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد العزيز ـ يقصد والد عمر ـ أخذ أرضي ظلماً، قال: وأين أرضك يا عبد الله؟ قال: حلوان، قال عمر: أعرفها ولي شركاء ـ أي شركاء في حلوان ـ وهذا الحاكم بيننا، فمشى عمر إلى الحاكم فقضى عليه، فقال عمر: قد أنفقنا عليها، قال القاضي: ذلك بما نلتم غلتها، فقد نلتم منها مثل نفقتكم، فقال عمر: لو حكمت بغير هذا ما وليت لي أمراً أبداً، وأمر بردها[٣].

وكان عمر يقيم وزناً لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى في الأمور العامة، ومن ذلك أمره بأن لا يُخَصَّ أناسٌ بدعاء المسلمين والصلاة عليهم، فكتب إلى أمير الجزيرة يقول: . . وقد بلغني أن أناساً من القُصَّاص قد أحدثوا صلاة على أمرائهم، عِدل ما يصلون على النبي ﷺ، فإذا جاءك كتابي هذا، فمر القصاص، فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليدعوا ما سوى ذلك[٤].

ومن ذلك يتضح اهتمام عمر بالمساواة بين عامة الناس حتى في الدعاء لهم، ولا يختص أحد بدعاء، فالمسلمون عامة في حاجة دعوة الله عز وجل لهم، والله سبحانه وتعالى جدير بالإجابة[٥].

وقد طبق مبدأ المساواة بينه وبين عامة الناس، فقد حصل أن شتمه رجل بالمدينة لسبب أو لآخر، فلم يكن ما أمر به سوى ما قد يأمر به كما لو كان المشتوم أحد أفراد الأمة، ذلك ما حدث حين حُكم رجل في مسجد رسول الله ﷺ وأبو بكر بن محمد بن حزم والي عمر على المدينة في صلاته؛ فقطع عليهم الصلاة، وشهر السيف، فكتب أبو بكر إلى عمر، فأتي

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٧٩).
(٢) الطبقات (٥/ ٣٧٥).
(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٢٩٨).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٧٣).
(٥) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ٢٩٩).

بكتاب عمر ، فقرئ عليهم ، فشتم عمر ، والكتاب ومن جاء به ، فهمَّ أبو بكر بضرب عنقه ، ثم راجع عمر وأخبره أنه شتمه ، وأنه همَّ بقتله : فكتب إليه عمر : لو قتلته لقتلتك به ، فإنه لا يقتل أحد بشتم أحد ، ألا أن يُشتم النبيُّ ﷺ ، فإذا أتاك كتابي فاحبس على المسلمين شره، وادعه إلى التوبة في كل هلال ، فإذا تاب فخلِّ سبيله(١) .

ولم يكتفِ عمر بالأخذ بمبدأ المساواة بنفسه فحسب ، بل كان يأمر عماله وولاته بذلك ، فقد كتب إلى عامله على المدينة يقول له: اخرج للناس فساوِ بينهم في المجلس والمنظر ، ولا يكن أحد الناس آثر عندك من أحد ، ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أمير المؤمنين ، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سواء ، بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين؛ أنهم يقهرون من نازعهم(٢) .

كانت تلك بعض مواقف عمر ، وإن كانت متفاوتة ، إلا أن فيها دلالة واضحة على أخذ عمر بمبدأ المساواة في دولته(٣) . .

٦ ـ الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز :

إن مبدأ الحرية من المبادئ الأساسية التي قام عليها الحكم في دولة عمر بن عبد العزيز ، ويقضي هذا المبدأ بتأمين وكفالة الحريات العامة للناس كافة ضمن حدود الشريعة الإسلامية وبما لا يتناقض معها ، فقد اهتمَّ عمر بكافة صور الحرية الإنسانية ، فجاء مستعرضاً لأنواع وصور الحرية ، فأقر ما كان فيها موافقاً لتعاليم الإسلام ، وأعاد ما لم يكن كذلك إلى دائرة التعاليم الإسلامية ، وإليك بعض التفاصيل عن الحريات في دولة عمر بن عبد العزيز .

أ ـ الحرية الفكرية والعقدية :

حرص عمر بن عبد العزيز على تنفيذ قاعدة حرية الاعتقاد في المجتمع ، وكانت سياسته حيال النصارى واليهود تلتزم بالوفاء بالعهود والمواثيق وإقامة العدل معهم ورفع الظلم ، وعدم التضييق عليهم في معتقدهم ودينهم انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، وكان عمر ينهج أسلوب الدعوة مع ملوك الهند ، والقبائل الخارجة عن الإسلام ، وسيأتي الحديث عن ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى ، ولم يكره عمر أحداً من النصارى أو غيرهم على الدخول في الإسلام .

وأما حرية الفكر من حيث الرأي والتعبير ، فقد أخذت نطاقاً واسعاً في إدارة الدولة ، وقيادته

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ١٤٢) .
(٢) الطبقات (٥/ ٣٤٣) و: النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ٣٠١) .
(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ٣٠١) .

لعماله ورعيته ، فقد أتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمه ، وأطلق للكلمة حريتها ، وترك للناس حرية أن يقول كلُّ فرد ما يريد ، وقد عبر عن هذا القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق بقوله: اليوم ينطق كل من كان لا ينطق[١] . إذا لم يخالف الشرع .

ب ـ الحرية السياسية:

كما أعلن عمر استئناف الحرّية السياسية التي منحها الإسلام للمسلمين؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، حتى وإن كان حاكماً أو والياً ، فقد أعلن عمر في أول يوم من أيام حكمه الحرية في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، منكراً على الناس واقعهم المظلم ، وأن الإسلام لا يرضى السكوت عن الظلم ، فقد خطب الناس يوماً فقال: . . . ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله ، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه: العاصي ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم[٢] .

ومما يدل على إعطاء عمر للناس الحرية السياسية ، أن أول إجراء اتخذه عقب إعلان العهد له بالخلافة تنازله عن الخلافة ، وطلب من الناس أن يختاروا خليفة ، فإذا كانت الحرية السياسية تتجلى في ممارستها في موضعين: **أولهما**: المشاركة في اختيار الحاكم ، عن طريق أهل الحل والعقد ، وبيعة المسلمين ورضاهم ، **وثانيهما**: إبداء الرأي والنصح للحكام ، ونقد أعمالهم بمقاييس الإسلام[٣] ، فإن عمر قد مارس الحرية السياسية في هذين الموضعين؛ فجعل لهم الخيار في توليه الخلافة قبل الوعظ والنصح[٤] ، وسيأتي بيان ذلك في محله بإذن الله .

جـ ـ الحرية الشخصية:

عمل عمر بن عبد العزيز على تحقيق وتدعيم الحرية الشخصية لأفراد الأمة الإسلامية ، إذ بدا له بعض القيود على الهجرة أو ما يسمى بحرية التنقل ، أو الغدو والرواح ، فاتخذ إجراء فتح فيه باب الهجرة لمن يريد ، إذ قال: . . وأما الهجرة فإنا نفتحها لمن هاجر من أعرابي فباع ماشيته ، وانتقل من دار أعرابيته إلى دار الهجرة ، وإلى قتال عدونا ، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم[٥] ، كما قال في كتابه لعماله: . . وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة[٦] .

---

(١) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤٤).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٤٠).
(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ٣١٢).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٧٩).
(٦) المصدر السابق نفسه (ص ٧٨).

وإذا كان ذلك موقفه من حرية الناس في الهجرة والتنقل فقد تجلى حرصه على مبدأ حرية الإنسان في أمر قلَّ من يراعيه ، أو يهتم به ، أمر يخص من هم في ملكه ، ألا وهو تخييره لجواريه عقب تولي الخلافة بين العتق والإمساك على غير شيء ، فقد علم أن لهنّ عليه حقوقاً لن يستطيع الإيفاء بها بعد توليه الخلافة ، فترك لهنّ حرية الإقامة معه من غير شيء أو العتق ، فتكون الواحدة منهنّ حرة حرية شخصية كاملة(١) ، فقد روى ابن عبد الحكم أن عمر خيّر جواريه ، فقال: إنه قد نزل بي أمر شغلني عنكنّ ، فمن اختارت منكنّ العتق أعتقتها ، ومن أمسكتها لم يكن لها مني شيء ، فبكين بكاءً شديداً يأساً منه(٢).

د ـ حريـة التجـارة والكسـب:

أما في حرية التجارة والكسب وابتغاء فضل الله في البر والبحر كجزء من الحرية الاقتصادية ، فقد أكد في كتاب له إلى عماله على ضرورة منح الناس حرية استثمار أموالهم ، والاتجار بها في البر والبحر على حد سواء ، فقد كتب إلى عماله: . . وإن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يدعى الناس إلى الإسلام كافة ، . . . وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر والبحر ، ولا يمنعون ولا يحبسون(٣). وكتب أيضاً: . . وأما البحر ، فإنا نرى سبيله سبيل البر ، قال الله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية: ١٢] ، فأذن أن يتجر فيه من شاء ، وأرى أن لا نحول بين أحد من الناس وبينه ، فإن البر والبحر لله جميعاً سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله ، فكيف نحول بين عباد الله وبين معايشهم(٤). ويقول عمر في موضع آخر: . . أطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها دون جعل(٥) ، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به(٦).

وأما عن الأسعار والتسعير زمن عمر ، فقد قال أبو يوسف: حدثنا عبد الرحمن بن شوبان عن أبيه قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين ، ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان من قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم ، ولم يكونوا يجدون بداً من أن يبيعوا ويكسروا ما في أيديهم ، وأنا لا أكلف أحداً إلا

---

(١) النموذج الإداري المستخلص (ص ٣١٠).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٢١).
(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٩٤).
(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٩٨).
(٥) الجعل: من الجعالة ، وهو مايجعل للشخص على عمله.
(٦) الإدارة الإسلامية محمد كرد علي (ص ١٠٥).

طاقته ، فباع الرجل كيف شاء ، قال : فقلت : لو أنك سعَّرت ، قال : ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر إلى الله[١] .

وتشدد عمر في أمر السلع المحرمة ، ومنع التعامل بها ؛ فالخمر من الخبائث التي لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين ، لحرمتها ولضررها ؛ حيث يؤدي شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام[٢] ، ويقول عمر : فإنا من نجده يشرب منه شيئاً بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة في ماله ونفسه ونجعله نكالاً لغيره[٣] .

ولقد أثمرت سياسة عمر في رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة ، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والإنتاج ، وأزالت العوائق التي تحول دون ذلك ، وهذا أدى إلى نمو التجارة، ونمو التجارة أدى إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة ، وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة الزكاة ، مما يؤدي إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة ، وارتفاع قوتها الشرائية ، والتي ستتوجه إلى الاستهلاك وبالتالي إلى زيادة الطلب على السلع والخدمات، وهذا كله يؤدي إلى انتعاش الاقتصاد ، وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[٤] .

لقد كانت الحرية في دولة عمر بن عبد العزيز مصونة ومكفولة ولها حدودها وقيودها ، ولذلك ازدهر المجتمع وتقدم في مدار الرقي ، فالحرية حق أساسي للفرد والمجتمع ، ليتمتع بها في تحقيق ذاته وإبراز قدراته ، وسلب الحرية من المجتمع سلب لأهم مقوماته فهو أشبه بالأموات ، إن الحرية في الإسلام إشعاع داخلي ملأ جنبات النفس الإنسانية بارتباطها بالله ، فارتفع الإنسان بهذا الارتباط إلى درجة السمو والرفعة ، فأصبحت النفس تواقة لفعل الصالحات ، والمسارعة في الخيرات ابتغاء رب الأرض والسموات ، فالحرية في المجتمع الإسلامي دعامة من دعائمه تحققت في دولة عمر بن عبد العزيز في أبهى صورة انعكست أنوارها على صفحات الزمن[٥] .

* * *

---

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز (ص ٤٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٠٣).
(٤) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز (ص ٤٨) و: سياسة الإنفاق العام في الإسلام لعوف محمد الكفراوي (ص ٣٧٢).
(٥) المجتمع الإسلامي ، لمحمد أبو عجوة (ص ٢٤٥) مع التصرف.

المبحث الثاني
أهم صفاته ومعالم تجديده

أولاً: أهم صفاته:

إن شخصية عمر بن عبد العزيز تعتبر شخصية قيادية جذابة، وقد اتصف ـ رضي الله عنه ـ بصفات القائد الرباني، ومن أهم هذه الصفات: إيمانه الراسخ بالله وعظمته، وإيمانه بالمصير والمآل، وخوفه من الله تعالى، والعلم الغزير، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة والشجاعة، والمروءة والزهد، وحب التضحية، والتواضع، وقبول النصيحة، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والحزم، والإدارة القوية، والعدل، والقدرة على حل المشكلات، وقدرته على التخطيط والتوجيه والتنظيم والمراقبة، وغير ذلك من الصفات.

وبسبب ما أودع الله فيه من الصفات الربانية استطاع أن يقوم بمشروعه الإصلاحي ويجدد كثيراً من معالم الخلافة الراشدة التي اندثرت أمام زحف الملك العضوض، واستطاع أن يتغلب على العوائق في الطريق، وتوجت جهوده الفذة بنتائج كبيرة على مستوى الفرد والمجتمع والدولة وأصبح منهج عمر بن عبد العزيز الإصلاحي التجديدي مناراً للعاملين على مجد الإسلام، وقد ترسم نور الدين زنكي خطوات عمر بن عبد العزيز في عهده، فحقق نجاحاً كبيراً للأمة في صراعها مع الصليبيين، وكان الفضل لله ثم الشيخ أبي حفص عمر محمد الخضر المتوفى عام ٥٧٠ هـ والذي كان أحد شيوخ نور الدين زنكي؛ حيث كتب لنور الدين كتابه الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز لكي يسير عليها نور الدين زنكي في خطواته وجهاده.

وإن من أهم الصفات التي تجسدت في شخصية عمر بن عبد العزيز هي:

١ ـ شدة خوفه من الله تعالى:

كانت ميزته الكبرى والسمة التي اتسم بها ودافعه إلى كل ذلك هو إيمانه القوي بالآخرة وخشية الله والشوق إلى الجنة، وليس لغير هذا الإيمان القوي الذي امتاز به عمر بن عبد العزيز أن يحفظ إنساناً في مثل شباب عمر بن عبد العزيز، وقوته وحريته وسلطانه من إغراءات مادية

قاهرة، ومن تسويلات الشيطان، والنفس المغرية، وتفرض عليه المحاسبة الدقيقة للنفس، والاستقامة على طريق الحق[١]، فقد كان مشتاقاً إلى الجنة مؤثراً الآخرة على الدنيا، مؤمناً بقوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] فأدرك عمر بفطرته السليمة وعقيدته الصحيحة، أن آخرة المسلم أولى باهتمامه من دنياه، يقول عمر في كتاب له إلى يزيد بن المهلب: .. لو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج، واعتقال أموال، كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بلغ بي أفضل ما بلغ بأحد من خلقه، ولكنِّي أخاف ـ فيما ابتليت به ـ حساباً شديداً، ومسألة عظيمة، إلا ما عافى الله ورحم[٢].

كما كان عمر شديد الخوف من الله تعالى، تقول زوجته فاطمة بنت عبد الملك: والله ما كان بأكثر الناس صلاة، ولا أكثرهم صياماً، ولكن والله ما رأيت أحداً أخوف لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف، حتى نقول: ليصبحَنَّ الناس ولا خليفة لهم[٣]، وقال مكحول: لو حلفت لصدقت، ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز[٤]، ولشدة خوفه من الله، كان غزير الدمع وسريعه، فقد: دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار، فقال: عظني. قال: يا أمير المؤمنين ما ينفعك من دخل الجنة، إذا دخلت أنت النار، وما يضرّك من دخل النار، إذا دخلت أنت الجنة، قال: فبكى عمر[٥] حتى طفئ الكانون الذي بين يديه من دموعه، وقد كان جلّ خوفه ـ رحمه الله ـ من يوم القيامة، فيدعو الله، ويقول: اللهم إن كنت تعلم أني أخاف شيئاً دون القيامة، فلا تؤمن خوفي[٦]، ذلك اليوم الذي أحدث تغييراً جذرياً في مجرى حياته، ذلك اليوم الذي يقول عنه عمر: «.. لقد عنيتم بأمر، لو عنيت به النجوم لانكدرت، ولو عنيت به الجبال لذابت، ولو عنيت به الأرض لتشققت، أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة، وأنكم صائرون إلى إحداهما»[٧].

نعم إن الخوف من الله، والرؤية الواضحة للحياة، والفناء والخلود، والإحساس بيوم الحساب، والانفعال بمشاهد الجنة والنار هي التي تضع المسؤولين، وتجعلهم يرتعدون خوفاً إن هم انحرفوا قيد شعرة عما يريد الله[٨]، فالوعي والإحساس بيوم الحساب، وغيرها من

---

(١) النموذج الإداري المستخلص (ص ١٤٠) نقلاً عن رجال الفكر، للندوي.
(٢) تاريخ الطبري نقلاً عن النموذج الإداري (ص ١٤٠).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٤٢).
(٤) تاريخ الخلفاء، للسيوطي (ص ٢٢١).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص ٩٠).
(٦) تاريخ الخلفاء (ص ٢٢٤).
(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٣٢).
(٨) ملامح الانقلاب عماد الدين خليل (ص ٤٥).

الصفات الاعتقادية تجعل القائد لا يخطو خطوة ، ولا يقول قولاً ، ولا يفعل فعلاً ، إلا ربط ذلك بما يرضي الله عز وجل ، وتلك الصفات والجوانب ، لم تعط حقها من البحث والتحري في الدراسات القيادية الحديثة وهي أساس النجاح في القيادة ، وأهم الصفات القيادية التي ينبغي للقائد أن يتحلى بها ، وإن من أهم صفات عمر بن عبد العزيز الإيمان الراسخ بالله واليوم الآخر ، وشدة خوفه من الله ، والوجل من يوم القيامة[١] .

٢ ـ زهــده :

فهم عمر بن عبد العزيز من خلال معايشته للقرآن الكريم ودراسته لهدي النبي الأمين ﷺ ومن تفكره في هذه الحياة بأن الدنيا دار ابتلاء واختبار ، وإنها مزرعة للآخرة ، ولذلك تحرّر من سيطرة الدنيا بزخارفها ، وزينتها ، وبريقها ، وخضع وانقاد وأسلم لربه ظاهراً وباطناً ، وكان وصل إلى حقائق استقرت في قلبه ساعدته على الزهد في هذه الدنيا ، ومن هذه الحقائق :

أ ـ **اليقين التام بأننا** : في هذه الدنيا أشبه بالغرباء ، أو عابري سبيل ، كما قال النبي ﷺ : «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل[٢]» .

ب ـ **وأن هذه الدنيا** : لا وزن لها ولا قيمة عند رب العزة إلا ما كان منها طاعة لله ـ تبارك وتعالى ـ إذ يقول النبي ﷺ : «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»[٣] .

جـ ـ **وأن عمرها قد قارب على الانتهاء** : إذ يقول النبي ﷺ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى[٤] .

د ـ **وأن الآخرة هي الباقية وهي دار القرار** ، فلهذه الأمور وغيرها زهد عمر بن عبد العزيز في الدنيا .

وأول الزهد الزهد في الحرام ، ثم الزهد في المباح ، وأعلى مراتب الزهد أن تزهد في الفضول وكل ما لك عنه غنى[٥] ، وكان زهد عمر بن عبد العزيز مبني على الكتاب والسنة ، ولذلك ترك كل أمر لا ينفعه في آخرته ، فلم يفرح بموجود وهي الخلافة ، ولم يحزن على مفقود من أمور الدنيا ، وقد ترك ما هو قادر على تحصيله من متاع الدنيا انشغالاً بما هو خير في

---

(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٤٢) .

(٢) الترمذي كتاب الزهد رقم (٢٣٣٣) ، وهو حديث صحيح .

(٣) الترمذي كتاب الزهد رقم (٢٣٢٠) .

(٤) مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة رقم (١٣٢ ـ ١٣٥) .

(٥) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٤٨) .

الآخرة، ورغبة فيما عند الله عز وجل[١]، قال مالك بن دينار: الناس يقولون: مالك بن دينار زاهد، إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز الذي أتته الدنيا فتركها[٢].

قال ابن عبد الحكم: ولما ولي عمر بن عبد العزيز زهد في الدنيا، ورفض ما كان فيه وترك ألوان الطعام، فكان إذا صُنع له طعام هيئ على شيء وغطي، حتى إذا دخل اجتذبه فأكل[٣]، فكان لا يهمه من الأكل إلا ما يسد جَوْعَتَهُ ويقيم صلبه، وكانت نفقته وعياله في اليوم كما في الأثر، عن سالم بن زياد: كان عمر ينفق على أهله في غدائه وعشائه كل يوم درهمين[٤]، وكان لا يلبس من الثياب إلا الخشن، وترك مظاهر البذخ والإسراف التي سادت قبله وأمر ببيعها، وأدخل أثمانها في بيت مال المسلمين[٥]، وهكذا فعل بالجواري والعبيد؛ حيث رد الجواري إلى أصحابهن إن كن من اللاتي أخذن بغير حق، ووزع العبيد على العميان وذوي العاهات، وحارب كل مظاهر الترف والبذخ، والإسراف[٦].

وأما ما قيل عن زهده بالنسبة للنكاح، فقد روى ابن عبد الحكم فقال: وقالت فاطمة زوجته: ما اغتسل من جنابة منذ ولي حتى لقي الله غير ثلاث مرات، ويقال: ما اغتسل من جنابة حتى مات[٧]، فهذا ينافي ما اشتهر به عمر بن عبد العزيز من حبه الشديد لهدي الرسول ﷺ، فيستبعد منه رحمه الله أن يترك السنة، وأن يقع في ظلم زوجاته وحقوقهن، فإن ترك الزواج وتحريم ذلك لا علاقة له بالزهد الإسلامي الذي بينه رسولنا ﷺ وهو دخيل على المجتمع المسلم، وهو ما تفتخر به بعض الفرق المنحرفة عن الإسلام وتدعي أنه من الزهد الإسلامي، ولهم في ذلك حكايات لا يشك من تأملها أنها لا تمت إلى الإسلام بصلة، ولهم في ذلك وصايا عجيبة وتوجيهات غريبة، فمن أقوالهم:

- من ترك النساء والطعام؛ فلابد له من ظهور كرامة.
- من تزوج فقد أدخل الدنيا بيته، فاحذروا من التزويج.
- لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلام.

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ١٤٦).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٢٥٧).
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٤٣).
(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٣٨).
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ١٥٥).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص٥٠).

ـ من تعود أفخاذ النساء لا يفلح.

ـ من تزوج فقد ركن إلى الدنيا[١]. إلى غير ذلك من العجائب والغرائب.

وهذا المفهوم يخالف الإسلام دين التوسط والاعتدال، فقد قال رسول الله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»[٢].

وجملة القول: إن زهد عمر بن عبد العزيز كان مقيداً بالكتاب والسنة، وإن كثيراً مما نسب إليه في هذا الباب لا يصح لمخالفته هدي النبي ﷺ، ومن زهد عمر بن عبد العزيز في جمع المال، فقد كان على النقيض ممن يلي منصباً في وقتنا الحاضر؛ فقد كانت غلته حين استخلف أربعين ألف دينار، ثم أصبحت حين توفي أربعمئة دينار، ولو بقي لنقصت[٣]، حيث لم يرتزق ـ رحمه الله ـ من بيت المسلمين شيئاً[٤]، فقد كان رحمه الله من زهاد زمانه إن لم يك أزهدهم، فكان يقول: إن الدنيا لا تسر بقدر ما تضر، تسر قليلاً وتحزن طويلاً[٥].

وأخباره في الزهد كثيرة؛ ذكر منها الشيخ أبو حفص عمر بن محمد الخضر المعروف بالملاء حوالي ثمانية وعشرين أثراً[٦]، لقد وصل عمر بن عبد العزيز إلى مرحلة متقدمة في الزهد والتحلي بصفات الزاهدين، وذلك ما لا يستطيع الوصول إليه أصحاب العيش في الظروف المادية في وقتنا الحاضر، الذي طغت فيه المادة على كل شيء في الحياة، وأصبح الناس يقيسون بعضهم البعض بما يملك من الدنيا وحطامها، حسبنا من قادة وزعماء هذا العصر المادي إن لم يتصفوا بصفة الزهد ـ على أقل تقدير ـ أن يكفوا أنفسهم عن الطمع، والجشع، وأن يسعوا إلى الكسب الحلال، وأن يعملوا على قهر رغباتهم الدنيوية، لينالوا ما تاقت إليه نفس عمر بن عبد العزيز إلى ما هو أسمى من الدنيا.. إلى جنات النعيم[٧].

ونختم حديثنا عن الزهد عند عمر بن عبد العزيز بهذا الأثر: فقد قال لمولاه مزاحم: إني قد اشتهيت الحج، فهل عندك شيء؟ قال: بضعة عشر ديناراً. قال: وما تقع مني؟ ثم مكث قليلاً، ثم قال له: يا أمير المؤمنين تجهّز، فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف ديناراً من بعض مال بني مروان، قال: اجعلها في بيت المال، فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا، وإن تكن حراماً

---

(١) الطبقات للشعراني (١/ ٣٤).

(٢) فتح الباري على صحيح البخاري (٩/ ١٠٤).

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٢٥٧).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ١٨٦).

(٥) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٥١).

(٦) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٦٦ إلى ٣٧٨).

(٧) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٥١).

فكفانا ما أصابنا منها ، قال مزاحم: فلما رأى عمر ثقل ذلك علي ، قال: ويحك يا مزاحم لا يكثرن عليك شيء صنعته لله ، فإن لي نفساً توّاقة لم تَتُق إلى منزلة فنالتها إلا تاقت إلى ما هي أرفع منها ، حتى بلغت اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة ، وإنها اليوم قد تاقت إلى الجنة[١].

٣ ـ تواضعه:

قال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا . . . ﴾ [الفرقان: ٦٣]. قال ابن القيم: أي يمشون بسكينة ووقار متواضعين[٢]. وقال ﷺ: «إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغي أحد على أحد»[٣]. وهذه الصفة الحميدة كانت إحدى الصفات الأساسية التي تميز بها عمر بن عبد العزيز ، فقد أدى زهد عمر إلى تواضعه ، لأن شرط الزهد الحقيقي هو التواضع لله[٤].

وقد كان تواضع عمر في جميع أمور حياته ومعاملاته ، فذلك ما يتطلبه الأمر من قائد خاف الله، ورجا ما عنده ، وأراد الطاعة والولاء من رعيته[٥] ، ومما يذكر من تواضع عمر جوابه لرجل ناداه: يا خليفة الله في الأرض ، فقال له عمر: مه ! إني لما ولدت اختار لي أهلي اسماً فسموني عمر ، فلو ناديتني: يا عمر ، أجبتك ، فلما اخترت لنفسي الكُنى فكنيت بأبي حفص، فلو ناديتني يا أبا حفص أجبتك ، فلما وليتموني أموركم سميتموني: أمير المؤمنين ، فلو ناديتني يا أمير المؤمنين أجبتك ، وأما خليفة الله في الأرض ، فلست كذلك ، ولكن خلفاء الله في الأرض: داود والنبي ﷺ وشبهه[٦] مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦].

ومن تواضعه أن نهى الناس عن القيام له ، فقال: يا معشر الناس ! إن تقوموا نَقُم ، وإن تقعدوا نقعد ، فإنما يقوم الناس لرب العالمين ، وكان يقول للحرس: لا تبتدئوني بالسلام ، إنما السلام علينا لكم[٧].

وكان متواضعاً حتى في إصلاح سراجه بنفسه ، فقد كان عنده قوم ذات ليلة في بعض ما يحتاج إليه ، فغشى سراجه ، فقام إليه فأصلحه، فقيل له: يا أمير المؤمنين! ألا نكفيك؟ قال:

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٦٢).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٤٠).
(٣) مسلم رقم (٢٨٦٥).
(٤) عمر بن عبد العزيز ، للزحيلي (ص ١٠٥).
(٥) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٥٢).
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٤٦).
(٧) المصدر السابق نفسه (ص ٣٤ و ٣٥).

وما ضرني؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز ، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز[(١)] ، ومن تواضعه أيضاً: قال يوماً لجارية له: يا جارية روّحيني، قال: فأخذت المروحة فأقبلت تروحه ، فغلبتها عينها فنامت ، فانتبه عمر ، فإذا هو بالجارية قد احمرّ وجهها ، وقد عرقت عرقاً شديداً ـ وهي نائمة ـ فأخذ المروحة وأقبل يروحها، قال: فانتبهت، فوضعت يدها على رأسها فصاحت، فقال لها عمر: إنما أنت بشر مثلي أصابك من الحر ما أصابني، فأحببت أن أروحك مثل الذي روحتني[(٢)].

وكان يمتنع عن كثرة الكلام ـ وهو العالم الفصيح المفوّه ـ خشية على نفسه من المباهاة بما عنده ، أو يظن الناس به ذلك ، فكان يقول: إنه ليمنعني من كثير من الكلام مخافة المباهاة[(٣)]. ودخل عليه رجل فقال له: يا أمير المؤمنين ، إن من كان قبلك كانت الخلافة لهم زيناً ، وأنت زين الخلافة ، وإنما مثلك كما قال الشاعر:

إذا الدرّ زانَ حسنَ وجوهٍ كانَ للدرِّ حسنُ وجهِكِ زينا

فأعرض عنه[(٤)]. وقال له رجل: جزاك الله عن الإسلام خيراً. فقال: لا بل جزى الله الإسلام عني خيراً[(٥)]. ودخل عليه رجل ، وهو في ملأٍ من الناس فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فقال: عُمّ سلامك[(٦)].

وهكذا أمير المؤمنين عمر يخفض الجناح للمؤمنين ، ولا يتكبر على أحد من عباد الله ، ولم تزده الخلافة إلا تواضعاً ورأفة ورحمة ، ولم يحمله المنصب إلا على الإخبات والخضوع لسلطان الحق ، يصلح سراجه بنفسه ، ويجلس بين يدي الناس على الأرض ، ويأبى أن يسير الحراس والشُّرط بين يديه ، ويعنّف من يعظمه أو يخصه بسلام من بين الجالسين ، ويتأبى أن يتميز على الناس بمركب ، أو مأكل ، أو ملبس ، أو مشرب[(٧)].

٤ ـ ورعه:

من صفات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الورع ، والورع هو الإمساك عما قد يضر ، فتدخل المحرمات والشبهات لأنها قد تضر ، فإنه من اتقى الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ، ومن

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٣٩).
(٢) أخبار أبي حفص للآجري (ص ٨٦).
(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٨٤).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦) و: الحلية (٥/ ٣٢٩).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧) و: الحلية (٥/ ٣٣١).
(٦) الطبقات (٥/ ٣٨٤).
(٧) عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ (ص ١٢٣).

وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي حول الحمى يوشك أن يواقعه[١] ، والورع في الأصل الكف عن المحارم والتحرج منها ، ثم استعير للكف عن الحلال المباح[٢] .

وللدلالة على ما كان يتصف به عمر من الورع ، وتحري السلامة من الشبهات ، فقد روي أنه كان يعجبه أن يتأدم بالعسل ، فطلب من أهله يوماً عسلاً فلم يكن عنده ، فأتوه بعد ذلك بالعسل ، فأكل منه ، فأعجبه ، فقال لأهله: من أين لكم هذا؟ قالت امرأته: بعثت مولاي بدينارين على بغل البريد ، فاشتراه لي ، فقال: أقسمت عليك لما أتيتني به ، فأتته بُعكَّة[٣] فيها عسل ، فباعها بثمن يزيد على الدينارين ، ورد عليها مالها ، وألقى بقيته في بيت مال المسلمين ، وقال: أنصبت دواب المسلمين في شهوة عمر[٤]؟!

ومن ورعه أنه: كان له غلام يأتيه بقمقم[٥] من ماء مسخن ، يتوضأ منه ، فقال للغلام يوماً: أتذهب بهذا القمقم إلى مطبخ المسلمين ، فتجعله عنده ، حتى يسخن ، ثم تأتي به؟ قال: نعم أصلحك الله! قال: أفسدته علينا ، قال: فأمر مزاحماً أن يغلي ذلك القمقم ، ثم ينظر ما يدخل فيه من الحطب، ثم يحسب تلك الأيام ، التي كان يغليه فيها ، فيجعله حطباً في المطبخ[٦] .

ومن أمثلة ورعه: كان لا يقبل أية هدية من عماله أو من أهل الذمة خوفاً من أن يكون ذلك من باب الرشوة ، فعن عمرو بن مهاجر قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز تفاحاً فقال: لو كانت لنا ـ أو عندنا ـ شيء من التفاح ، فإنه طيب الريح طيب الطعم فقام رجل من أهل بيته فأهدى إليه تفاحاً ، فلما جاء به الرسول ، قال عمر: ما أطيب ريحه وأحسنه ، ارفعه يا غلام، فأقرئ فلاناً السلام وقل له: إن هديتك قد وقعت منا بموقع بحيث تحب، فقلت: يا أمير المؤمنين ! ابن عمك ورجل من أهل بيتك ، وقد بلغك أن النبي ﷺ كان يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة ، قال: ويحك؟ إن الهدية كانت للنبي هدية وهي لنا اليوم رشوة[٧] .

ومن ورعه: أنه كان لا يرى لنفسه أن تشم رائحة مسك أتته من أموال المسلمين ، فعندما

---

(١) الفتاوى (١٠/ ٦١٥).
(٢) لسان العرب (٨/ ٢٨٨).
(٣) العكة: وعاء من جلد ماعز يدبغ ويخصص للسمن والعسل.
(٤) أخبار أبي حفص للآجري (ص ٥٤).
(٥) القمقم: هو مايسخن فيه الماء من نحاس وغيره.
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٤٠).
(٧) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ١٩٧).

وضعت بين يديه مسكة عظيمة فأخذ بأنفه ، فقيل: يا أمير المؤمنين إنما هو ريح ، قال: وهل ينتفع منها إلا بريحها ؟![١] .

وكان يحترز من استعمال أموال المسلمين العامة ، فكان يسرج السراج من بيت المال إذا كان في حاجة المسلمين ، فإذا فرغ من حوائجهم أطفأها ثم أسرج عليه سراجه الخاص به من ماله الخاص[٢] .

وقد ذكر المؤرخون كثيراً من الأمثلة التي تدل على ورعه ، فقد اعتبر أن البعد عن أموال المسلمين حتى في الأشياء اليسيرة القليلة هو من باب الابتعاد عن الشبهة ، فكان بعيداً عن الشبهات[٣] احتياطاً لدينه ، وذلك أن الأمور ثلاثة كما قال هو بنفسه:

١ ـ أمر استبان رشده ، فاتبعه.

٢ ـ وأمر تبين خطؤه ، فاجتنبه.

٣ ـ وأمر أشكل عليك ، فتوقف عنه[٤] .

وكان رحمه الله ورعاً حتى في الكلام؛ فعندما قيل له: ما تقول في أهل صفين؟ قال: تلك دماء طهر الله يدي منها ، فلا أحب أن أُخضب لساني بها[٥] .

وهكذا يتضح أن ورع عمر كان في شأنه كله ، في مأكله وحاجته وشهوته ، ومال المسلمين ، وفي كافة أمور حياته ، ذلك الورع النابع مِن الإيمان القوي ، والشعور بالمسؤولية واستحضاره الآخرة ، فقد كانت صفة الورع من صفاته الجلية ، فقد بلغ به مبلغاً جعله يشتري مكان قبره الذي سيوارى فيه ، فلا يكون له من الدنيا شيء دون مقابل حتى موضع قبره[٦] .

٥ ـ حلمه وصفحه وعفوه:

ومن الصفات التي تجسدت في شخصية عمر بن عبد العزيز: الحلم والصفح والعفو ، فعن شيخ من الخناصريين قال: كان لعمر بن عبد العزيز ابن له من فاطمة ، فخرج يلعب مع الغلمان ، فشجه غلام ، فاحتملوا ابن عمر والذي شجَّه فأدخلوهما على فاطمة ، فسمع عمر الجلبة وهو في بيت آخر فخرج ، وجاءت امرأة فقالت: هذا ابني وهو يتيم ، قال: أله عطاء؟

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٢٠٠) و: كتاب الورع لابن أبي الدنيا (ص ٧٣). وقال محقق الكتاب: إسناد الأثر جيد.

(٢) الآثار الواردة في عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ١٦٤).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ١٦٥).

(٤) العقد الفريد (٤/ ٣٩٧) و: الآثار الواردة (١/ ١٦٥).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ١٩٥).

(٦) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٥٦).

قالت: لا. قال: فاكتبوهُ في الذرية، فقالت فاطمة: فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى، فقال عمر: إنكم أفزعتموه[١].

وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال: غضب عمر بن عبد العزيز يوماً غضباً شديداً على رجل، فأمر به فأحضر وجرِّد وشُدَّ في الحبال، وجيء بالسياط فقال: خلُّوا سبيله، ثم قال: أما أني لولا أن أكون غضبانَ لسُؤْتُك. وتلا: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وعن عبد الملك قال: قام عمر بن عبد العزيز إلى قائلته، وعرض له رجل بيده طومار[٢]، فظن القوم أنه يريد أمير المؤمنين، فخاف أن يُحبس دونه فرماه بالطومار، فالتفت عمر فوقع في وجهه فشجه. قال: فنظرت إلى الدماء تسيل على وجهه وهو قائم في الشمس، فلم يبرح حتى قرأ الطومار وأمر له بحاجته وخلَّى سبيله[٣].

وروي أن رجلاً نال من عمر فلم يجبه. فقيل له: ما يمنعك منه؟ قال: التقيُّ مُلجم[٤].

وعن حاتم بن قدامة أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو يخطب، فقال له: أشهد أنك من الفاسقين. فقال له عمر: وما يدريك؟ وأنت شاهد زور فلا نجيز شهادتك[٥].

وروي أن عمر بن عبد العزيز لما ولي الخلافة خرج ليلة في السحر إلى المسجد ومعه حرسي فمرا برجل نائم على الطريق فعثر به عمر. فقال له: أمجنون أنت؟ فقال عمر: لا؛ فهمَّ الحرسي به. فقال له عمر: مه، فإنه سألني أمجنون أنت؟ فقلت: لا[٦].

وروي أن رجلاً قام إلى عمر بن عبد العزيز وهو على المنبر فنال منه وأغضبه، فقال له عمر: يا هذا! أردت أن يستفزني الشيطان مع عزة السلطان أن أفعل بك اليوم ما تفعل بي غداً مثله. اذهب غفر الله لي ولك[٧]. وقيل: أتى ولد لعمر بن عبد العزيز وهو يبكي، فقال له: ما شأنك؟ فقال: ضربني فلان العبد. فجيء به. فقال له: ضربته؟ قال: نعم. فقال له: اذهب فلو أني معاقب أحداً على الصدق لعاقبتك، اذهب، ولم يكلمه[٨]. والمواقف في حلمه وصفحه وعفوه كثيرة، وهذا غيض من فيض.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٠٧) و: الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٣).

(٢) الطومار: صحيفة مطوية.

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٣١١).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٠٨).

(٥) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٤).

(٦) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٢٥).

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) المصدر السابق نفسه.

٦ ـ صبره:

ومن صفاته ـ رحمه الله ـ الصبر والشكر، روي: أنه لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، حضر عند قبره فقال: لا تعمقه؛ فإن ما علا من الأرض أفضل مما سفل منها[١]، وروي أنه حين مات عبد الملك ولده، وسهل بن عبد العزيز أخوه ومزاحم مولاه، قال رجل من أهل الشام: والله لقد ابتلي أمير المؤمنين ببلاء عظيم: مات ولده عبد الملك لا والله إن رأيت ولداً كان أنفع لوالده منه، ثم أصيب أمير المؤمنين بأخ لا والله ما رأيت أخاً أنفع لأخ منه. قال: وسكت عن مزاحم. فقال عمر بن عبد العزيز: لم سكت عن مزاحم، فوالله ما هو أدنى الثلاثة عندي، رحمك الله يا مزاحم (مرتين أو ثلاثاً) والله لقد كنت كفيت كثير الدنيا، ونعم الوزير كنت في أمر الآخرة[٢].

وعن حفص بن عمر قال: لما مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز جعل أبوه يثني عليه عند قبره، فقال مسلمة: أرأيت لو بقي أكنت تولِّيه؟ قال: لا. قال: فأنت تثني عليه بهذا الثناء، قال: إني أخاف أن يكون زيِّن لي من المحبة له ما يزين في عين الوالد من حبِّ ولده[٣].

وخطب عمر في خطبته فقال: ما من أحد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون؛ إلا كان الذي أعطاه الله من الأجر فيها أفضل مما أخذ منه، وقال: الرضا قليل، والصبر معتمد المؤمن. وقال: من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، ومن لم يَعدَّ كلامه من عمله كثرت خطاياه، والرضا قليل، ومعول المؤمن على الصبر[٤]. وكان من أجلِّ ما صبر عليه عمر في حياته: أمر الخلافة، فقد قال: والله ما قعدت مقعدي هذا إلا خوفاً أن يثبت عليه من ليس بأهل، ولو أني أطاع فيما أعمل لسلمتها إلى مستحقيها ـ يعني الخلافة ـ ولكنني أصبر حتى يأتي الله بأمر من عنده، أو يأتي بالفتح[٥].

٧ ـ الحزم:

لقد اتسم عمر بن عبد العزيز بهذه الصفة، في وقت أكثر ما يكون فيه أمر الأمة والخلافة في حاجة إلى الحزم، وبخاصة فيما يتعلق بالولاة والأمراء والعمال، وللدلالة على تحلّي عمر بصفة الحزم وضبط الأمور، وعدم التهاون فيما يراه ضرورياً لخدمة الصالح العام، وما يصلح به أمر المسلمين، فلقد أخذ حزم عمر صوراً مختلفة ومجالات عدة، كحزمه مع أمراء وأشراف

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٢٧).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٢٨).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٤٤).

بني أمية ، ومع الذين يريدون شق عصا المسلمين والخروج على جادتهم وإثارة الفتن وسفك الدماء ، وغير ذلك من الأمور ، فقد كان أول مؤشر على حزمه موقفه من بني مروان ، إذ قال لهم : أدوا ما في أيديكم ولا تُلجئوني إلى ما أكره ، فأحملكم على ما تكرهون ، فلم يجبه أحد منهم . فقال : أجيبوني ، فقال رجل منهم : والله لا نخرج عن أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا ، فنُفقِّر أبناءنا ونكفر آباءنا ، حتى تتزايل رؤوسنا ، فقال عمر : أما والله لولا أن تستعينوا عليَّ بمن أطلب هذا الحق له ، لأضرعت خدودكم عاجلاً ، ولكني أخاف الفتنة ، ولئن أبقاني الله لأُردَّنَّ إلى كل ذي حق حقه إن شاء الله[١] .

وكان إذا وقع في أمر مضى فيه : جاءه يوماً كتاب من بعض بني مروان فأغضبه فاستشاط[٢] ثم قال : إن لله من بني مروان يوماً ـ وقيل : ـ وذبحاً ـ وايم الله ، لئن كان ذلك الذبح على يدي . . . ، فلما بلغهم ذلك كفوا ، وكانوا يعلمون صرامته ، وأنه إذا وقع في أمر مضى فيه[٣] .

وأما فيما يتعلق بمن يريد شق عصا المسلمين والخروج عليهم ، فقد اتبع معهم أسلوب الحوار والمناظرة ـ وهم الخوارج الذين ثاروا ضد بني أمية بقيادة شوذب الخارجي ١٠٠ هـ ـ ليقف على ما دفعهم إلى ذلك ، ويرى إن كان الحق معهم نظر في أمره ، وإلا فليدخلوا فيما دخل فيه الناس ، إلا أنه في الوقت نفسه قرن إجراءاته تلك بشيء من الحزم والصلابة ، عندما يصل الأمر إلى مرحلة سفك دماء المسلمين أو الإفساد ، إذ كتب إلى عامله على العراق يقول : لا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً ، أو يفسدوا في الأرض ، فإن فعلوا فخلِّ بينهم وبين ذلك ، وانظر رجلاً طيباً حازماً فوجهه إليهم ، ووجه معه جنداً ، وأوصه بما أمرتك به[٤] .

وهكذا كان عمر في حزمه ، فقد أخذ الإجراءات والمواقف الحازمة والتي كانت على درجة كبيرة من الأهمية والحساسية ، وكان لذلك الحزم مردود إيجابي كبير على سير الأمور وتنفيذ ما كان يسعى لتحقيقه من العدل والطمأنينة ومعالم الخلافة الراشدة[٥] .

٨ ـ العدل :

إن صفة العدل من أبرز صفات عمر بن عبد العزيز القيادية على الإطلاق ، وقد تحدثت عن العدل في دولته وسياسته في رد المظالم فيما مضى ، ولقد أجمع العلماء قاطبة على أنه ـ أي

---

(١) العقد الفريد (٥/ ١٧٣) .
(٢) استشاط الرجل : أي : احتدَّ كأنه التهب في غضبه .
(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٥٨) .
(٤) تاريخ الطبري (٧/ ٤٥٩) .
(٥) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٦٣) .

عمر بن عبد العزيز ـ من أئمة العدل ، وأحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين[١] .

ولعل عدل عمر من أهم أسبابه يرجع إلى إيمانه بأن العدل أحد نواميس الله في كونه ، ويقينه التام بأن العدل ثمرة من ثمرات الإيمان ، وأنه من صفات المؤمنين المحبين لقواعد الحق ، وإلى إحساس عمر بوطأة الظلم للناس في خلافة من سبقه من الخلفاء والأمراء الأمويين ، بالإضافة إلى السبب الأهم وهو: ما أمر الله به من العدل والإحسان ، وأنهما الأسس العامة لأحكام الشرائع السماوية ، وما نماه الإسلام في نفس عمر ، من حب للعدل وإحياء لقيمه[٢] ، وإليك هذه الصور من عدله والتي لم أذكرها فيما مضى :

ما رواه الآجري من أن رجلاً ذمّياً من أهل حمص قدم على عمر ، فقال: يا أمير المؤمنين: أسألك كتاب الله عز وجل ، قال: وما ذاك ، قال: العباس بن الوليد بن عبد الملك اغتصبني أرضي ـ والعباس جالس ـ فقال له: يا عباس ! ما تقول؟ قال: أقطعنيها يا أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وكتب لي بها سجلاً ، فقال عمر: ما تقول يا ذمي؟ قال: يا أمير المؤمنين ! أسألك كتاب الله عز وجل. فقال عمر: كتاب الله أحق أن يتبع من كتاب الوليد بن عبد الملك ، فاردد عليه يا عباس ضيعته ، فردّها عليه[٣] .

ومن مواقفه العادلة ما حدّث به الحكم بن عمر الرعيني ، قال: شهدت مسلمة بن عبد الملك يخاصم أهل دير إسحاق عند عمر بن عبد العزيز بالناعورة[٤] ، فقال عمر لمسلمة: لا تجلس على الوسائد ، وخصماؤك بين يدي ، ولكن وكِّل بخصومتك من شئت ، وإلا فجاثِ القوم بين يدي ، فوكل مولى له بخصومته ـ يعني مسلمة ـ فقضى عليه بالناعورة[٥] . وهذا قليل من كثير ، مما أوردته كتب السير عن عدل عمر .

٩ ـ تضرعه ودعاؤه واستجابة الله لدعائه :

كان عمر بن عبد العزيز كثير التضرع والدعاء ، فقد كان يقول: يا رب خلقتني ونهيتني ووعدتني بثواب ما أمرتني ، ورهبتني عقاب ما نهيتني عنه ، وسلطت علي عدواً أسكنته صدري وأجريته مجرى دمي ، إن أهمّ بفاحشة شجعني ، وإن أهم بصالحة ثبطني ، لا يغفل إن غفلت ، ولا ينسى إن نسيت ، ينصب لي في الشهوات ، ويتعرض لي في الشبهات ، وإلا تصرف عني كيده يستذلني ، اللهم فاقهر سلطانه علي بسلطانك عليه حتى أحبسه بكثرة ذكري لك فأكون مع

---

(١) البداية والنهاية نقلاً عن النموذج الإداري (ص ١٦٣).

(٢) النموذج الإداري (ص ١٦٣و ١٦٤).

(٣) أخبار أبي حفص (ص ٥٨).

(٤) الناعورة: موضع بين حلب وبالس ، يبعد عن حلب ثمانية أميال.

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٩١).

المعصومين بك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله[١] . وكان يقول: اللهم أصلح من كان في صلاحه صلاح أمة محمد ﷺ ، اللهم أهلك من كان في هلاكه صلاح أمة محمد ﷺ[٢] . وكان يدعو بهذا: اللهم ألبسني العافية حتى تهنّيني المعيشة ، واختم لي بالمغفرة حتى لا تضرني الذنوب ، واكفني كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين[٣] . وكان يقول: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد ، ولم أعصِك بأبغض الأشياء إليك وهو الشرك ، فاغفر لي ما بينهما[٤] . وكان يقول: اللهم إني أعوذ بك أن أُبدل نعمتك كفراً ، أو أن أكفرها بعد موتها ، أو أن أنساها فلا أثني بها[٥] . وكان كثيراً ما يدعو بهذا الدعاء: اللهم رضني بقضائك ، وبارك لي في قدرك ، حتى لا أحب تعجيل شيء أخرته ، ولا تأخير شيء عجلته[٦] .

وكان رحمه الله مستجاب الدعوة ، فروى ابن الحكم أن ابن الريان كان سيافاً للوليد بن عبد الملك ، فلما ولي عمر الخلافة قال: إني أذكر بأوه وتيهه ، ثم قال: اللهم إني قد وضعته لك فلا ترفعه ، فما رئي شريف قد خمد ذكره مثله حتى لا يذكر[٧] ، وقد دعا عمر رحمه الله حين حج وأخبر قبل دخوله إلى مكة بقلة الماء فيها ، فدعا عند ذلك ، فأجاب الله دعاءه ، فسقوا، وهذا حين كان أميراً على المدينة[٨] ، كما دعا على غيلان القدري حين ناظره فقال: اللهم إن كان عبدك غيلان صادقاً ، وإلا فاصلبه ، فصلب بعد في خلافة هشام بن عبد الملك[٩] .

ثانياً: معالم التجديد عند عمر بن عبد العزيز:

يرى المتتبع لأقوال العلماء والمؤرخين والمهتمين بدراسة الحركة التجديدية إجماعاً تاماً على عدّ الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز المجدد الأول في الإسلام[١٠] ، وكان أول من أطلق عليه ذلك الإمام محمد بن شهاب الزهري ، ثم تبعه على ذلك الإمام أحمد بن حنبل ، فقال: يروى في الحديث: «إن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يصحح لهذه الأمة أمر دينها» ، فنظرنا

---

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٤١).

(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٤٢).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٤٣).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٣٠).

(٥) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٤٣).

(٦) المصدر السابق نفسه (١/ ٣٤٤).

(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ٣٠).

(٨) البداية والنهاية؛ نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ١٨٣).

(٩) الشريعة للآجري (١/ ٤٣٨).

(١٠) عون المعبود للعظيم آبادي (١١/ ٣٩٣) و: جامع الأصول (١١/ ٣٢٢).

في المئة الأولى فإذا هو عمر بن عبد العزيز[١] ، وتتابع العلماء على عدّه أول المجددين وذكر بعض أهل العلم أنه من المقصودين بحديث رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها»[٢].

ولا شك أن عمر بن عبد العزيز خليق بأن يكون ممن يحمل عليه هذا الحديث ، فقد كان عالماً عاملاً ، همه كله ، وعزمه ، وهمته آناء الليل والنهار إحياء السنن وإماتة البدع ومحدثات الأمور ومحوها ، وكسر أهلها باللسان ، والسِّنان[٣].

يقول ابن حجر العسقلاني : إن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير ، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد ، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز ، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المئة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها ، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه ، وأما من جاء بعده فالشافعي ، وإن كان متصفاً بالصفات الجميلة إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل[٤].

ومع أن بعض العلماء رأى أن مقام المجدد الكامل لا يستحقه إلا مهدي آخر الزمان ، وأنه لم يولد في الأمة المسلمة مجدد كامل حتى الآن ، وإن كان عمر بن عبد العزيز أوشك أن يبلغ مرتبة المجددية الكاملة لو أنه استطاع إلغاء طريقة الحكم الوراثية ، وإعادة انتخاب الخليفة عن طريق الشورى[٥].

وسواء استحق عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكامل أم لا ، فإن الأعمال التجديدية التي قام بها ، والجهود الكبيرة التي بذلها لاستئناف الحياة الإسلامية ، وإعادتها إلى نقائها وصفائها زمن الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين تجعله على رأس المجددين الذين جاد بهم الزمان حتى يومنا هذا ، وقد ساعده على ذلك موقعه الذي تبوأه على رأس خلافة قوية ، منيعة الجانب ، مترامية الأطراف.

ولكي ندرك حجم الأعمال التجديدية التي اضطلع بها هذا الخليفة ، وقدر الإصلاح الذي أحدثه ، ينبغي أن نقف على حجم الانحرافات التي طرأت على الحياة الإسلامية والتغيّر

---

(١) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٧٤).
(٢) المجددون في الإسلام للصعيدي (ص٥٧) و: موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي (ص ٦٣).
(٣) الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (١/ ١٧٧).
(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٩٥).
(٥) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي (ص ٦٩).

والانقلاب الذي حدث للخلافة الإسلامية ، ولعلنا لا نجانب الحقيقة إذا حصرنا الانحراف في ذلك الوقت بنظام الحكم ، وما نتج عن ذلك من مظالم وفساد ، وأما الحياة العامة فكانت أنوار النبوة لا زالت ذات أثر بالغ فيها ، وكان الدين صاحب السلطان الأول في قلوب الناس[(١)] .

١ ـ من إصلاحات عمر وأعماله التجديدية :

أ ـ الشورى :

قد مرّ معنا أن عمر بن عبد العزيز في أول لقاء له مع الناس حمد الله وأثنى عليه وقال: يا أيها الناس ! إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين ، وإني قد خلعت ما في أعناقكم من بيعتي ، فاختاروا لأنفسكم ، فصاح الناس صيحة واحدة: قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضينا بك: فَلِ أمرنا باليُمن والبركة[(٢)] . وبهذا يكون عمر قد قام بأول عمل تجديدي ، حيث أعفى الناس من الملك العضوض ، ولم يجبرهم على القبول بمن لم يختاروه ، بل رد الأمر إليهم وجعله شورى بينهم[(٣)] .

ب ـ الأمانة في الحكم وتوكيل الأمناء :

فقد تواترت النقول المفيدة أنه بلغ من حرصه على ذلك أقصى المراتب ، فقد استشعر عظم المسؤولية وضخامة الحمل منذ اللحظة الأولى لاستلامه الخلافة ، فقال لمن سأله: ما لي أراك مغتماً؟ قال: لمثل ما أنا فيه فليُغتم ، ليس أحد من الأمة إلا وأنا أريد أن أوصل إليه حقه غير كاتب إليّ فيه ، ولا طالبه مني[(٤)] . وقال: لست بخير من أحد منكم ، ولكن أثقلكم حملاً[(٥)] .

وكان يطالب عمّاله باختيار أصحاب الكفاءة والدين فيمن يولونه شأناً من شؤون المسلمين ، فقد كتب إلى أحد عمّاله: لا تولين شيئاً من أمر المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم ، والتوفير عليهم ، وأداء الأمانة فيما استرعى[(٦)] .

ولم تكن سياسته في التورع عن أموال المسلمين سياسة طبقها على خاصة نفسه فقط ، بل ألزم بها عمّاله وولاته ، فقد كتب إلى عامله أبي بكر بن حزم: أن أدق قلمك ، وقارب بين أسطرك ،

---

(١) عمر بن عبد العزيز للندوي (ص ١٠).
(٢) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي (ص ٦٥).
(٣) التجديد في الفكر الإسلامي ، د. عدنان محمد (ص ٧٩).
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٨٦).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) تاريخ الطبري نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٨١).

فإني أكره أن أخرج من أموال المسلمين مالاً ينتفعون به[١].

وقد ساس رعيته سياسة رحيمة ، وأمَّن لهم عيشاً رغيداً ، وكفاهم مذلة السؤال ، فقسم فضول العطاء في أهل الحاجات[٢] ، وقسم في فقراء أهل البصرة ثلاثة دراهم لكل إنسان ، وأعطى الزمنى خمسين خمسين[٣] ، وطلب من عماله أن يجهزوا من أراد أداء فريضة الحج[٤] ، وكتب إلى عماله: أن اعملوا خانات في بلادكم؛ فمن مر بكم من المسلمين ، فاقروهم يوماً وليلة ، وتعهدوا دوابهم؛ فمن كانت به علّة فاقروهم يومين وليلتين ، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[٥].

وقد عزّ في زمن عمر وجود من يقبل الزكاة؛ يقول عمر بن أسيد: والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون ، فما يبرح يرجع بماله كله؛ قد أغنى عمر الناس[٦].

وكانت حرمة المسلمين فوق كل الأموال فقد كتب إلى عماله: أن فادوا بأسارى المسلمين ، وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[٧].

ولاتزال خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على كل أولئك الذين يشككون في إمكانية إقامة نظام اقتصادي إسلامي ، وبرهاناً ساطعاً على أن الاحتكام للشريعة الربانية هو وحده الذي يكفل للناس السعادة في الدنيا والآخرة[٨].

جـ ـ مبدأ العدل:

فقد كان فيه لعمر القدح المعلَّى ، وكان بحق وارثاً فيه لجدّه لأمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقد ضرب فيه على النقود عبارة: أمر الله بالوفاء والعدل[٩] ، وطلب أن لا يقام على أحد حد إلا بعد علمه[١٠] ، وكتب لعامله الجراح بن عبد الله الحكمي أمير خراسان: يابن أم جراح! لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق ، واحذر القصاص ، فإنك صائر إلى من يعلم

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٩٥).
(٢) تاريخ الطبري نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٨١).
(٣) تاريخ الطبري (٧/ ٤٧٤).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه (٧/ ٤٧٢).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥٨٨).
(٧) سيرة عمر ، لابن الجوزي (ص ١٢٠).
(٨) خامس الخلفاء الراشدين عمر بن عبد العزيز (ص ٤١ و ٤٢).
(٩) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٩٨).
(١٠) تاريخ الطبري (٧/ ٤٧٤).

خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا إحصاها[١].

وأنصف أهل الذمة، وأمر أن لا يعتدى عليهم أو على معابدهم، وكتب إلى عماله: لا تهدموا كنيسة ولا بيعة، ولا بيت نار صولحتم عليه[٢]، وقد رفع المكس وحطّ العشور والضرائب التي فرضتها الحكومات السابقة، وأطلق للناس حرية التجارة في البر والبحر، وقد تبرَّأ من المظالم التي كان يرتكبها بنو أمية، وتبرَّأ من الحجّاج وأفعاله، و أنكر على عمّاله الاستنان بسنته[٣].

د ـ إحياؤه مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أخذت الخلافة تتراجع عن الغاية التي قامت من أجلها؛ وهي حراسة الدين، فنهض عمر بهذا المبدأ ورفع لواءه وأعلى شأنه وجعله المهيمن والمقدّم على ما سواه، وما حقق عمر مما حققه من أعمال وإنجازات إلا انطلاقاً من خوفه الشديد من الله، وطلبه فيما فعله مرضاته، وقد ساعده على ذلك أنه كان من أجلة العلماء التابعين وأئمة الاجتهاد[٤]؛ حتى قال عنه عمر بن ميمون: كان العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة[٥]، وقد كان لسلامة دينه وصدق عقيدته الأثر البالغ في تجديده وإصلاحاته، فقد حارب الأهواء والبدع، وشدد النكير على أهلها[٦]ـ وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

وقد نقل عنه الإمام الأوزاعي قوله: إذا رأيت قوماً يتناجون في دينهم بشيء دون العامة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة[٧].

وكان يرى أنه لا قيمة لحياته لولا سنة يحييها، أو بدعة يميتها[٨]، وقد اهتم اهتماماً شديداً بديانة الناس وأخلاقهم، فكتب إلى عمّاله: اجتنبوا الأشغال عند حضور الصلوات؛ فمن أضاعها فهو لما سواها من شرائع الإسلام أشدّ تضييعاً[٩].

والناظر في رسائل عمر وخطبه ومواعظه ـ وهي أكثر من أن تحصىٰ ـ يرى إيماناً قوياً، ومراقبة جلية، وخوفاً من يوم يقف فيه الناس بين يدي رب العالمين.

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٦٤).
(٢) المصدر السابق نفسه (٧/ ٤٧٧).
(٣) سيرة ومناقب عمر (ص١٠٧ و ١٠٨).
(٤) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٨٥).
(٥) سير أعلام النبلاء (٥/ ٥١٨).
(٦) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٨٦).
(٧) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، (ص ٨٣).
(٨) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٨٦).
(٩) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص٢٢١).

وقد أثرت شخصية عمر وسياسته العادلة تأثيراً بالغاً في حياة العامة وميولهم وأذواقهم ورغباتهم[١]؛ يدل على ذلك ما ذكره الطبري في تاريخه مقارناً عهد عمر بعهود من سبقه من الحكام السابقين: كان الوليد صاحب بناء واتخذ المصانع والضياع، وكان الناس يلتقون في زمانه، فكان يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام، فكان الناس يسأل بعضهم عن التزويج والجواري، فلمّا ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول الرجل للرجل: ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ ومتى ختمت؟ وما تصوم من الشهر[٢]؟

ولم يكتف عمر بإقامة الدين داخل دولته، بل وجّه عنايته إلى غير المسلمين، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، وراسل ملوك الهند وملوك ما وراء النهر، ووعدهم أن لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، فأسلم الكثير منهم وتسموا بأسماء[٣] العرب.

ولعل من أجل الأعمال التي خدم بها هذا الدين أمره بتدوين العلوم الإسلامية، وخاصة علم الحديث، وسيأتي بيان ذلك بالتفصيل بإذن الله تعالى.

كل هذه الأعمال العظيمة والإصلاحات الجليلة حققها عمر في مدة خلافته الوجيزة، فغدا درة للأمة، ومنارة يستهدي بنورها الملتمسون دروب التجديد والإصلاح[٤].

٢ ـ من شروط المجدد وصفاته:

نستطيع أن نحدِّد أهم شروط المجدد والصفات التي ينبغي أن تتوافر فيه حتى يعد من المجددين من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.

أ ـ أن يكون المجدد معروفاً بصفاء العقيدة وسلامة المنهج:

وذلك لأن من أخصِّ مهمات التجديد إعادة الإسلام صافياً نقياً من كل العناصر الدخيلة، وهذا لا يحصل إلا إذا كان المجدد من السائرين على منهج الرسول ﷺ وصحابته الكرام، ومن الطائفة الناجية المنصورة التي جاء وصفها بأنها فرقة من ثلاث وسبعين فرقة، وأنها تلزم ما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه في عقيدته، ومنهجه وتصوراته[٥] وهذا الشرط قد توفَّر في عمر بن عبد العزيز، وسوف نوضحها في آثاره العقدية عند دراستها بإذن الله تعالى.

---

(١) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٨٦).
(٢) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٨٧).
(٣) خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز، للندوي (ص ٣٠).
(٤) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٨٧).
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ٤٦).

ب ـ أن يكون عالماً مجتهداً:

وهذا الشرط تحقق في عمر بن عبد العزيز؛ فقد واجه المشكلات التي تولدت في عصره، واجتهد في وضع الحلول الشرعية لها، وفي الحقيقة: إن رتبة الاجتهاد ليست عسيرة إلى الحد الذي تصوره بعض كتب أصول الفقه، وممن ذهب إلى وضع شروط يكاد يكون من المحال الإحاطة بها، حيث أوجبوا أن يحيط المجتهد بعلوم الآلة كلها من نحو ولغة وبلاغة، وبعلوم الشريعة من تفسير وحديث وأصول فقه وعلوم قرآن ومصطلح حديث وسيرة، وبعلمي المنطق وعلم الكلام، وغير ذلك مما يصعب الإحاطة به[1]، والصواب أن الاجتهاد سهل ميسور، لمن كانت عنده أهلية النظر، والمهم أن نعلم أن المجدد يشترط فيه أن يكون محيطاً بمدارك الشرع، قادراً على الفهم والاستنباط، مطّلعاً على أحوال عصره، فقيهاً بواقعه[2].

يقول المناوي: إن على المجدد أن يكون: قائماً بالحجة، ناصراً للسنة، له ملكة رد المتشابهات إلى المحكمات، وقوة استنباط الحقائق والنظريات من نصوص الفرقان وإرشاداته ودلالاته واقتضاءاته من قلب حاضر وفؤاد يقظان[3]. ويقول العظيم آبادي: إن المجدد للدين لابد أن يكون عالماً بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة، ناصراً للسنة، قامعاً للبدعة[4]، ويقول المودودي: من الخصائص التي لابد أن يتصف بها المجدد هي: الذهن الصافي، والبصر النفاذ، والفكر المستقيم بلا عوج، والقدرة النادرة على تبيين سبيل القصد بين الإفراط والتفريط، ومراعاة الاعتدال بينهما، والقوة على التفكير المجرد عن تأثير الأوضاع الراهنة، والعصبيات الراسخة على طول القرون، والشجاعة والجرأة على مزاحمة سير الزمان المنحرف[5]، ويقول في تعداده لعمل المجدد: الاجتهاد في الدين، والمراد به أن يفهم المجدد كليات الدين، ويتبين اتجاه الأوضاع المدنية والرقي العمراني في عصره، ويرسم طريقاً لإدخال التعبير والتعديل على صورة التمدن القديمة المتوارثة، يضمن للشريعة سلامة روحها وتحقيق مقاصدها، ويمكّن الإسلام من الإمامة العالمية في رقي المدنية الصحيح.

جـ ـ أن يشمل تجديده ميداني الفكر والسلوك في المجتمع:

وذلك لأن تصحيح الانحراف من أخص المهمات التي ينبغي أن يقوم بها المجدد، ومعلوم أن الانحراف يطرأ على السلوك كما يطرأ على الفكر، بل إن غالب الانحرافات السلوكية منشؤها

---

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩٢).
(٢) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٤٦).
(٣) فيض القدير، للمناوي (١/ ١٤).
(٤) عون المعبود (١١/ ٣١٩).
(٥) موجز تاريخ تجديد الدين للمودودي (ص ٥٢).

الخرافات الفكرية، فيقوم المجدد بتصويب الأفهام والأفكار، وتخليصها مما داخلها من شكوك وشبهات، ويحيي العلم النافع، والفهم الصحيح للإسلام، ويبثه بين الناس، وينشره بالتدريس، وتأليف الكتب، وغير ذلك من الوسائل المتاحة، ثم يعمد إلى إصلاح سلوك الناس وتقويم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وإبطال التقاليد المخالفة للشريعة، وإعلان الحرب على البدع والخرافات، والمنكرات المتفشية في حياة الناس، ومواجهة الفساد بمختلف أشكاله وصوره، وخاصة الفاسد في الحكم والإمارة، بهذا يكون المجدد قد جمع بين القول والفعل، والعلم والعمل، وقد أشار السلف إلى هذا الشرط بقولهم عن المجدد: إنه ينصر السنة ويقمع البدعة[١].

د ـ أن يعم نفعه أهل زمانه:

وذلك لأن المجدِّد رجل مرحلة زمنية، تمتد قرناً من الزمن، فلابد إذاً من أن يكون منارة يستضيء بها الناس ويسترشدون بهداها، حتى مبعث المجدد الجديد على الأقل، وهذا يقتضي أن يعم علم المجدد ونفعه أهل عصره، وأن تترك جهوده الإصلاحية أثراً بيناً في فكر الناس وسلوكهم، وغالباً ما يتم تحقيق ذلك عبر من يربيهم من تلامذة، وأصحاب أوفياء، يقومون بمواصلة مسيرته الإصلاحية وينشرون كتبه وأفكاره ويؤسسون مدارس فكرية تترسم خطاه في الإصلاح والتجديد[٢].

٣ ـ قول رسول الله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها»[٣]. والدروس والعبر والفوائد المستنبطة منه:

يعد هذا الحديث إحدى البشائر بحفظ الله لهذا الدين مهما تقادم الزمان، وبكفالته سبحانه إعزاز هذه الأمة ببعثة المجددين الربانيين الذين يحيونها بعد موات، ويوقظونها من سبات، بما يحملونه من الهدى والنور، وأن هذا الحديث يمنح المسلم طاقة من الأمل الأكيد، بأن المستقبل للإسلام مهما تكاثرت قوى الشر، وتعاظم طغيان أهل الباطل، وبأن النور سيسطع مهما احلولك الليل، واشتد الظلام.

ونحن في الوقت الحاضر بحاجة ماسّة لتأكيد هذا المعنى، ونشره بين الناس، حتى نقاوم موجات اليأس والقنوط التي عمَّت النفوس، فجعلتها تستسلم للذل والخضوع والخنوع، بحجة أننا في آخر الزمان، وأنه لا فائدة ولا رجاء من كل جهود الإصلاح التي تبذل؛ لأن الإسلام في إدبار والكفر في إقبال، وها قد ظهرت علامات الساعة الصغرى، ونحن في انتظار

---

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩١) و: التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٤٨).

(٢) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٤٨).

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٥١).

العلامات الكبرى التي سيعقبها قيام الساعة ، وقد يستدل أصحاب هذا الاتجاه ببعض الأحاديث ، ويفهمونها على غير الوجه المراد منها[١] ، من ذلك استدلالهم بحديث أنس رضي الله عنه عند البخاري: «لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شرٌّ منه ، حتى تلقوا ربكم»[٢] ، وحديث: «بدأ الإسلام غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء»[٣] . وينسون أنه لا يجوز أن نفهم هذه الأحاديث بمعزل عن الأحاديث الأخرى التي تحمل البشرىٰ والأمل للأمة ، مثل حديث: «مثل أمتي مثل المطر لا يُدرى أوله خير أو آخره»[٤] ، وفي قوم دون غيرهم ، وفي زمن دون زمن ، كما ذكر ابن القيم[٥] ، ولذلك شهد التاريخ الإسلامي حقباً من الظهور والإشراق كعهد عمر بن عبد العزيز[٦] ، ونور الدين ، وصلاح الدين ، ويوسف بن تاشفين ، ومحمد الفاتح ، وغيرهم.

وتجب الإشارة هنا إلى أن حديث التجديد الذي نحن بصدد شرحه ، وكذا الأحاديث التي تحمل البشرى بعودة الإسلام إلى واجهة الحياة ، وإن كانت أخباراً يقينية صدرت عن الصادق المعصوم ، ولا بد أن تتحقق كما أخبر ، إلا أنها تحمل في مضمونها تكليفاً واستنهاضاً لعزمات المسلمين بوجوب السعي الدؤوب لتحقيق نصر الله لهذا الدين وإعزاز أهله كما هي سنة الله في ترتيب المسببات على الأسباب[٧] .

أ ـ في قوله ﷺ: «إن الله يبعث لهذه الأمة»[٨] .

إن هذا المبعوث لم يعد همه نفسه فقط ، بل تجاوز ذلك ليعيش لهذه الأمة ، فهو صاحب عزيمة وهمة ، يعيش هموم أمته ويبذل قصارى جهده مواصلاً عمل النهار بالليل ، لينقذ هذه الأمة من وهدتها ، ويعيد لها ثقتها بدينها ، ويردها إلى المنهج الصحيح ، مصابراً على ما يعترض سبيله من عقبات ، ومغالباً كل المشقات والتحديات ، ليصل إلى رفعة هذه الأمة وعودة مجدها[٩] .

---

(١) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٥٥).
(٢) البخاري رقم (٦٥٤١) كتاب الفتن.
(٣) مسلم كتاب الإيمان رقم (٢٠٨).
(٤) سنن الترمذي رقم (٢٧٩٥) صحيح.
(٥) مدارج السالكين (٣/ ١٩٦).
(٦) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٥٦).
(٧) الاجتهاد للتجديد عمر عبيد حسنة (ص ٧).
(٨) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٥١).
(٩) التجديد في الإسلام نقلاً عن التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٥٧).

ب ـ قوله: «على رأس كل مئة سنة»[١].

الرأس في اللغة يمكن أن يراد به أول الشيء ، كما يمكن أن يراد به آخره[٢] ، وقد اختلف العلماء في المراد من الرأس في هذا الحديث ، فقال بعضهم: المراد: أول المئة وقال آخرون: المراد آخرها[٣] ، وهذا ما اختاره ابن حجر[٤] ، والطيبي[٥] ، والعظيم آبادي[٦] ، وقد احتج العظيم آبادي لاختياره بكون الإمامين الزهري وأحمد بن حنبل وغيرهما من الأئمة المتقدمين والمتأخرين ، اتفقوا على أن من المجددين على رأس المئة الأولى عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، وعلى رأس المئة الثانية الإمام الشافعي رحمه الله ، وقد توفي عمر بن عبد العزيز سنة إحدى ومئة ، وله أربعون سنة ، ومدة خلافته سنتان ونصف ، وتوفي الشافعي سنة أربع ومئتين[٧] ، ولا يمكن عد عمر بن عبد العزيز مجدد المئة الأولى باعتباره أولها؛ لأنه لم يكن مولوداً أولها فضلاً عن أن يكون مجددها ، وكذا الإمام الشافعي لم تكن ولادته بداية المئة الثانية فضلاً عن أن يكون مجددها[٨].

جـ ـ هل يشترط لعد المجدد أن تقع وفاته على رأس المئة؟

يشترط بعض العلماء لاستحقاق المجدد هذا الوصف أن تقع وفاته على رأس القرن ، إلا أن هذا الرأي مرجوح ؛ لأن كلمة (البعث) في الحديث تدلُّ على الإرسال والإظهار ، والموت قبض وزوال ، فالمقصود من الحديث: أن المجدد من تأتي عليه نهاية القرن وقد ظهرت أعماله التجديدية ، واشتهر بالصلاح وعمّ نفعه ، ولا يشترط أن تقع وفاته قبيل نهاية القرن ، أو أن يبقى حياً حتى يدخل عليه القرن التالي[٩].

د ـ هل مجدد القرن واحد أو متعدد؟

أثار قوله ﷺ: «من يجدد لها دينها» سؤالاً في الماضي والحاضر ، هو: هل المقصود بلفظة (من) الواردة في الحديث فرداً واحداً من أفراد الأمة وأفذاذها يحيي الله بها دينها ، أم المراد بها

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٢/ ١٥١).
(٢) عون المعبود (١١/ ٣٨٦).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) فتح الباري (١٣/ ٢٩٥).
(٥) عون المعبود (١١/ ٣٨٩).
(٦) المصدر السابق نفسه (١١/ ٣٨٧).
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٥٨).
(٩) المصدر السابق نفسه (ص ٦١).

ما هو أوسع من ذلك فيشمل الأفراد والجماعات ، وذهب كثير من العلماء إلى أن المجدد فرد واحد ، ونسب السيوطي هذا الرأي إلى الجمهور ، فقال في أرجوزته عن المجددين :

وكـــونُـــه فـــرداً هُـــوَ المشهـــورُ   قـــد نطـــقَ الحـــديـــثُ والجمهـــورُ[١]

وذهب فريق آخر من العلماء إلى أن كلمة (من) في الحديث للعموم في أصل وضعها اللغوي[٢] ، فتشمل الواحد والجماعة على حد سواء[٣] ، ومن هؤلاء العلماء ابن حجر وابن الأثير والذهبي وابن كثير والمناوي والعظيم آبادي[٤] ، ويتبين من خلال البحث أن حمل لفظة (من) في الحديث على العموم أولى ، لأن التاريخ والواقع يثبت وجود أكثر من مجدد رأس كل قرن من القرون الخوالي ، ولأن مهمة التجديد مهمة ضخمة واسعة؛ لكونها لا تقتصر على جانب من جوانب الدين ، ولأن رقعة الأمة الإسلامية تمتد على مساحة شاسعة يصعب معها على فرد بل مجموعة أفراد أن يقوموا بعملية التجديد الشامل المطلق[٥] .

هـ ـ المجدد هو دين الأمة وليس الدين نفسه :

يلاحظ المتأمل في قوله ﷺ: «من يجدد لها دينها» أنه أضاف الدين إلى الأمة ، ولم يقل يجدد لها الدين ، وذلك لأن الدين بمعنى المنهج الإلٰهي الذي بعث الله به رسوله ﷺ ، وما اشتمل عليه من عقائد وعبادات وأخلاق وشرائع تنظم علاقة العبد بربه وعلاقته بغيره من بني جنسه ثابت كما أنزله الله لا يقبل التغيير ولا التجديد ، وأما دين الأمة بمعنى علاقة الأمة بالدين ومدى تمسكها وتخلقها به وترجمتها له واقعاً ملموساً على الأرض ، فهو المعنى القابل للتجديد ليعيد الناس إلى المستوى الذي ينبغي أن يكونوا عليه بعلاقتهم مع الدين[٦] .

* * *

---

(١) عون المعبود (١١/ ٣٩٤).
(٢) التجديد في الفكر الإسلامي (ص ٦١).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٦٢ ، ٦٣).
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ٦٥).
(٦) من أجل صحوة إسلامية للقرضاوي (ص ٢٦ ـ ٢٧).

المبحث الثالث
اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

اهتم عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة وحرص على تعلمها وتعليمها وبثها بين الناس، وتناثرت أقواله في عقائد أهل السنة بين المراجع والمصادر الإسلامية من عقائد وتفسير وحديث وفقه وغيرها، وقام الأستاذ حياة بن محمد بن جبريل بجمع الكثير منها، ونال بهذا الجهد العلمي رسالة الماجستير، والكثير ممن كتب عن حياة عمر بن عبد العزيز لم يسلط الأضواء على هذا البعد المهم في حياته والمتعلق بحرصه على توعية الناس وتعليمه المعتقد الصحيح الذي جاء ذكره في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن أهم الجوانب العقائدية التي تحدث فيها عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

أولاً: توحيد الألوهية:

توحيد الألوهية أساس دين الإسلام، بل هو أساس كل دين سماوي، به أرسل به جميع الرسل وأنزلت عليهم جميع الكتب، وهو الذي دعا إليه كل رسول من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ، بل هو الغاية من خلق الجن والإنس، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. وكان سلف هذا الأمة ـ رحمهم الله ـ يهتمون بهذا النوع من التوحيد، وممن كان له إسهام في هذه المسألة عمر بن عبد العزيز[١].

وقبل بيان ما أثر عنه فمن الأهمية بمكان بيان المقصود من توحيد الألوهية عند إطلاقه: فعرف بأنه: استحقاق الله سبحانه وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له[٢]. وعرفه بعض الباحثين بأنه: توحيد الله بأفعال العباد، وهو المعبر عنه بتوحيد الطلب والقصد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، ومحبته وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرهبة والرغبة منه وإليه وحده، والتقرب إليه بسائر العبادات البدنية والمالية دون إشراك أحد أو شيء من خلقه[٣]، وقد ورد عن عمر بن

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ١٩٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٩).

(٣) رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام للباحث حامد عبد القادر الأحمدي (ص ٧) مطبوع على الآلة الكاتبة نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (١/ ٢٠٠).

عبد العزيز آثار في الدعاء والتبرك والخوف والرجاء والتوكل والشكر:

١ ـ الدعاء:

أ ـ مر عمر بن عبد العزيز برجل في يده حصاة يلعب بها وهو يقول: اللهم زوجني من الحور العين، فقام إليه فقال: بئس الخاطب أنت، ألا ألقيت الحصاة، وأخلصت إلى الله الدعاء(١). وفي هذا الأثر بيَّن عمر بن عبد العزيز أن من شروط الدعاء الإخلاص وحضور القلب، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، وقال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه»(٢).

ب ـ قال عمر بن عبد العزيز: اللهم إني أطعتك في أحب الأشياء إليك وهو التوحيد، ولم أعصك في أبغض الأشياء إليك وهو الكفر، فاغفر لي ما بينهما(٣). فهنا توسل عمر بن عبد العزيز بالطاعة والتوحيد وطلب الغفران من الله تعالى، ولا شك أن التوسل بالأعمال الصالحة مشروع كحديث الثلاثة الذين أووا إلى الغار(٤)، فإنهم توسلوا بأعمالهم الصالحة ليجيب الله دعاءهم ويفرج كربتهم، وقد توسل المؤمنون بأعمالهم الصالحة من الإيمان، وقدموه قبل الدعاء، قال تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فإنهم قدموا الإيمان قبل الدعاء وأمثال ذلك كثير(٥).

جـ ـ حصلت زلزلة بالشام، فكتب عمر بن عبد العزيز: أما بعد: فإن هذا الرجف شيء يعاتب الله به العباد، وقد كتب إلى أهل الأمصار أن يخرجوا يوم كذا من شهر كذا، فمن كان عنده شيء فليتصدق(٦). قال الله عز وجل: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤ ـ ١٥]، وقولوا كما قال آدم: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقولوا كما قال نوح عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، قولوا كما قال يونس عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فقد أمر رحمه الله الرعية بالالتجاء إلى الله تعالى والتصدق

---

(١) الحلية (٥/ ٢٨٧) و: سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٨٤).
(٢) سنن الترمذي (٥/ ٤٨٣) و: صحيح سنن الألباني رقم (٢٧٦٦).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٤٢).
(٤) مسلم رقم (٢٧٤٣).
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٢١٩).
(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٦٤) و: الحلية (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥).

والاستغفار والخروج إلى المصلى عندما حصلت الزلزلة بالشام[١].

د ـ قال ميمون بن مهران: كنت عند عمر بن عبد العزيز فكثر بكاؤه ومسألته ربه الموت، فقلت: لم تسأل الموت، وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً، أحيا بك سنناً، وأمات بك بدعاً؟! قال: أفلا أكون مثل العبد الصالح حين أقر الله عينه وجمع له أمره قال: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]؟! وقد طلب الدعاء له بالموت على الإيمان ودعا به اقتداء بالصالحين، فهذا الدعاء من سنن المرسلين وهو من شعار الصالحين، وقد يكون أيضاً دعا به ـ رحمه الله ـ خوفاً من الفتنة في الدين، لاسيما عند وفاة أعوانه: ابنه عبد الملك، ومولاه مزاحم، وأخيه سهل، كما جاء في بعض الروايات[٢].

٢ ـ الشكر:

عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قال: ذكر النعم شكرها[٣]، وقال عمر بن عبد العزيز: شيدوا نعم الله عز وجل بالشكر لله تعالى[٤]. وكتب إلى بعض عماله فقال: .. أوصيك بتقوى الله، وأحثك على الشكر فيما عندك من نعمته وآتاك في كرامته، فإن نعمه يمدها شكره ويقطعها كفره[٥]. حث عمر بن عبد العزيز على شكر الخالق، فتبارك وتعالى على نعمه الكثيرة وآلائه الجسيمة، وهذا ما دلَّ عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقال عز وجل: ﴿ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]. والشكر يستلزم المزيد؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وما أثر عن عمر ـ رحمه الله تعالى ـ في هذا الجانب يبين منهج السلف في التعامل مع النعم التي ينعمها الخالق على عباده[٦].

٣ ـ التوكل:

قال الحكم بن عمر: كان لعمر بن عبد العزيز ثلاثمئة حرسيّ وثلاثمئة شرطي، فشهدته يقول لحرسه: إن لي عندكم بالقدر حاجزاً، وبالأجل حارساً، من أقام منكم فله عشرة دنانير،

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٢٢٠).
(٢) العقد الفريد (٤/ ٣٩٦)؛ الآثار الواردة (١/ ٢٢٤).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٨/ ٢٤٠).
(٤) ابن أبي الدنيا كتاب الشكر لله تعالىٰ (ص ١٩).
(٥) ابن أبي الدنيا ذم الدنيا (ص ٨١).
(٦) الآثار الواردة (١/ ٢٣٠).

ومن شاء فليلحق بأهله[١]. ولما خرج عمر بن عبد العزيز من المدينة نظر مولاه مزاحم إلى القمر، فإذا القمر في الدبران[٢]، قال: فكرهت أن أقول ذلك له، فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة، فنظر عمر فإذا هو بالدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران! يا مزاحم إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكننا نخرج بالله الواحد القهار[٣].

يظهر حرص عمر على التوكل مع الأخذ بالأسباب المشروعة، والتوكل هو الاعتماد على الله مع الأخذ بالأسباب، وهو أصل من أصول التوحيد؛ قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]. والتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويدفع بها المكروه، فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل، ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب. وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها[٤].

٤ ـ في الخوف والرجاء:

عن يزيد بن عياض بن جعدبة، قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى سليمان بن أبي كريمة: إن أحق العباد بإجلال الله والخشية منه من ابتلاه بمثل ما ابتلاني به، ولا أحد أشد حساباً ولا أهون على الله إن عصاه مني؛ فقد ضاق بما أنا فيه ذرعي، وخفت أن تكون منزلتي التي أنا بها هلاكاً، إلا أن يتداركني الله منه برحمة، وقد بلغني أنك تريد الخروج في سبيل الله، فأحب يا أخي إذا أخذت موقفك أن تدعو الله أن يرزقني الشهادة، فإن حالي شديدة وخطري عظيم، فأسأل الله الذي ابتلاني بما ابتلاني به أن يرحمني ويعفو عني[٥].

وقال ربيع بن سبرة لعمر بن عبد العزيز وقد هلك ابنه وأخوه ومولاه مزاحم في أيام: يا أمير المؤمنين ما رأيت رجلاً أصيب في أيام متوالية بأعظم من مصيبتك، ما رأيت مثل ابنك ابناً، ولا مثل أخيك أخاً، ولا مثل مولاك مولى، قال: فنكس ساعة ثم قال لي: كيف قلت يا ربيع؟ فأعدتها عليه. فقال: لا، والذي قضى عليهم الموت ما أحب أن شيئاً من ذلك كان لم يكن من الذي أرجو من الله فيهم[٦].

وعن قتادة: أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى ولي العهد من بعده: بسم الله الرحمن الرحيم.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٦).
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٣٥).
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٣٢).
(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥) و: الآثار الواردة (١/ ٢٤٠).
(٦) المعرفة والتاريخ للفسوي (١/ ٦١٠) و: الآثار الواردة (١/ ٢٤١).

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى يزيد بن عبد الملك: السلام عليك: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإني كتبت إليك وأنا دنف[١] من وجعي، وقد علمتني أني مسؤول عما وليت يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً؛ يقول: ﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴾ [الأعراف: ٧]، فإن يرضى عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط عليّ فياويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمن علي برضوانه والجنة[٢].

ومن كلام عمر يتبين لنا جمعه بين الخوف والرجاء ولا شك أن الجمع بين الخوف والرجاء هو من عقيدة السلف الصالح، وهو توسط المؤمن بين الأمن من مكر الله واليأس من روح الله، فالسلف كانوا يخافون ربهم، ويرجون رحمته[٣]، وهم سائرون على ما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩].

ثانياً: معتقد عمر بن عبد العزيز في أسماء الله الحسنى:

أسماء الله الحسنى: هي كلماته الدالة على ذاته، المتضمنة إثبات صفات الكمال له بلا مماثلة، وتنزيهه عن صفات النقص والعيب[٤]. والأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي تقتضي المدح والثناء بنفسها[٥]، ولا شك أن كل قارئ للقرآن الكريم، وللأحاديث النبوية؛ يجد أن الله تبارك وتعالى في كتابه قد سمى نفسه بأسماء، وأن رسوله ﷺ قد سمى ربه بأسماء، ومن المعلوم أن السلف الصالح يثبتون لله تعالى من الأسماء ما أثبته الله لنفسه أو أثبته له رسول الله ﷺ؛ لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم بالله بعد الله من رسوله ﷺ!

وأسماء الله تعالى كلها حسنى، وهي أعلام، وأوصاف، وهي أسماؤه حقيقة دالة على ذاته وصفاته، وهي توقيفية، وغير محصورة بعدد معين، وغير مخلوقة، ولا يجوز الإلحاد فيها[٦].

---

(١) دنف الرجل من مرضه: براه المرض حتى أشفى على الهلاك.
(٢) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٢٤٤).
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٢٤٥).
(٤) منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله خالد عبد اللطيف (٢/ ٣٩١).
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٧٦).
(٦) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٨٧).

ومن خلال رسائل وخطب عمر بن عبد العزيز نوضح بعض أسماء الله تعالى التي ذكرها في رسائله وخطبه ، ومنهج عمر بن عبد العزيز هو منهج الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة ، وقد قعَّد أهل السنة قواعد في أسماء الله تعالى يمكن استنتاج بعضها من كلام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ؛ فمن هذه القواعد ما يلي :

ـ أن أسماء الله تعالى أزلية ، قال عمر بن عبد العزيز : . . ولقد أعظم بالله الجهل من زعم أن العلم كان بعد الخلق ، بل الله وحده لم يزل بكل شيء عليماً ، وعلى كل شيء شهيداً قبل أن يخلق شيئاً وبعد ما خلق[1] ؛ فبين عمر أن الله له الأسماء الحسنى وهي : العليم ، والشهيد أزلاً ، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة[2] .

ـ أن أسماء الله تعالى توقيفية ، وهذا منهج أهل السنة والجماعة ، وهو ما تبين بالاستقراء من كلامه ؛ حيث لم يذكر حسب اطلاعي إلا أسماء الله الواردة في الكتاب والسنة ، وهو الحق ؛ إذ لا يجوز أن يسمى الله إلا بما سمَّى به نفسه في كتابه الكريم أو على لسان نبيه ﷺ[3] .

ـ أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف ، أعلام باعتبار دلالتها على الذات ، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني ، وهي بالاعتبار الأول ـ أي أعلام ـ مترادفة ، وبالاعتبار الثاني ـ أي أنها أوصاف ـ متباينة لدلالة كل واحد منها على معناه الخاص ، فالحي الرحمن الرحيم كلها أسماء لمسمى واحد ، لكن معنى الحي غير معنى الرحمن هكذا[4] . وقد خالف معتقد السلف الصالح في توحيد الأسماء الحسنى بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام؛ فالجهمية[5] أنكرت الأسماء الحسنى وذلك لظنهم أن التوحيد نفي محض ، وأن إثبات الأسماء الحسنى إثبات لأعراض حادثة، ولم يثبتوا من الأسماء الحسنى غير اسم (القادر ، والخالق) لأن الجهم لا يسمي أحداً من المخلوقين قادراً لنفيه استطاعة العباد، ولا يسمي أحداً خالقاً غير الله تعالى ، لأن عنده أن كل صفة أو اسم يجوز أن يسمى أو يتصف به غير الله فلا يجوز إطلاقه على الله تعالى[6] ، وعلى هذا يجب على المسلم الوقوف عند ما ثبت وترك الابتداع ، والتحريف والتأويل المفضي إلى الإلحاد[7] ؛ فإن الله تعالى قال : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ

(١) الحلية (٥/ ٣٤٨)و : الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٣٠٤) .
(٢) الآثار الواردة (١/ ٣٠٥) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) القواعد المثلى (ص ٨) .
(٥) الجهمية : سيأتي الحديث عنها في محاورات عمر لأهل الفرق .
(٦) منهاج السنة (٢/ ٥٢٦) و : الآثار الواردة (١/ ٣٠٦) .
(٧) الآثار الواردة (١/ ٣٠٦) .

﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقد وردت في رسائل عمر بن عبد العزيز وخطبه كثير من أسماء الله الحسنى، كالله عز وجل، والرب، والرحمن والرحيم، المليك والخبير، والكريم، والحي، والرقيب، والشهيد، والواحد القهار، والعلي العظيم، والعفو الغفور، والعزيز الحكيم، والوارث، والخالق، والعليم[١]، ونتحدث عن بعض هذه الأسماء:

١ ـ في اسمه تعالى (الرب):

كان عمر يقول: يا رب انفعني بعقلي[٢]. والرب من أسماء الله الحسنى، قال تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]. ومعنى الرب: المصلح للشيء. ورب الشيء: مالكه؛ فالله عز وجل مالك العباد ومصلحهم ومصلح شؤونهم[٣] ومصدر الرب الربوبية، وكل من ملك شيئاً فهو ربه، يقال: هذا رب الدار، ورب الصنيعة، ولا يقال: الرب: معرفاً بالألف واللام مطلقاً إلا لله عز وجل؛ لأنه مالك كل شيء[٤].

٢ ـ في اسمه تعالى (الحي):

كان لعمر بن عبد العزيز صديق، فأخبر أنه قد مات، فجاء إلى أهله يعزيهم، فصرخوا في وجهه، فقال لهم عمر: إن صاحبكم هذا لم يكن يرزقكم، وإن الذي يرزقكم حي لا يموت[٥]؛ فالحي: اسم من أسماء الله الحسنى. قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وحياته تعالى لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال، الحياة المستلزمة لكمال الصفات في العلم والقدرة والسمع والبصر، وغيرها[٦].

٣ ـ في اسميه (الواحد القهار):

قال عمر بن عبد العزيز لمولاه مزاحم: يا مزاحم! إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار[٧]. من أسماء الله الحسنى الواحد القهار قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، والواحد القهار أي: المتفرد بعظمته

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٧٩ إلى ٣٠٦).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٦٨) و: الآثار الواردة (١/ ٢٨١).
(٣) الآثار الواردة (١/ ٢٨١).
(٤) اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي (ص ٣٢و٣٣) و: الآثار الواردة (١/ ٢٨١).
(٥) الحلية (٥/ ٣٣٠) و: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٢٨٨).
(٦) اشتقاق أسماء الله الحسنى للزجاجي (ص ١٠٢).
(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص٣٢).

وأسمائه وصفاته وأفعاله العظيمة وقهره لكل العوالم ، فكلها تحت تصرفه وتدبيره ، فلا يتحرك منها متحرك ولا يسكن ساكن إلا بإذنه(١).

٤ ـ في اسميه تعالى (العلي العظيم):

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد رسالة واختتمها بقوله: . . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم(٢) ، العلي العظيم من الأسماء الحسنى؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. والعلي بذاته فوق عرشه ، العلي بقهره لجميع المخلوقات ، العلي بقدره لكمال صفاته ، (٣) والعظيم: الذي تتضاءل عند عظمته جبروت الجبابرة ، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة ، فسبحان من له العظمة العظيمة(٤). فهذه بعض أسماء الله الحسنى التي جاءت في رسائل أو الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز وهي للمثال وليست للحصر.

ثالثاً: معتقد عمر بن عبد العزيز في صفات الله تعالى:

صفات الله عز وجل هي نعوت الكمال القائمة بالذات الإلٰهية ، كالعلم والحكمة ، والسمع ، والبصر ، واليدين والوجه ، وغيرها مما أخبر الله تعالى بها عن نفسه في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ ، وتوحيد الله عز وجل في صفاته هو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه، وبما وصفه به نبيه ﷺ نفياً وإثباتاً ، فيثبت له ما أثبته لنفسه، وينفىٰ عنه ما نفاه عن نفسه(٥).

فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله نفياً وإثباتاً، فيثبت له ما أثبته لنفسه ، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه ، وقد علم أن طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته الله لنفسه من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل ، وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، مع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد لا في أسمائه ولا في آياته ، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]. فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتاً بلا تشبيه ، وتنزيهاً بلا تعطيل ، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ رد للتشبيه

---

(١) تفسير السعدي (ص ٤٢٨).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٨١).

(٣) تفسير السعدي (ص ١١٠).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان (٣/ ٨٧٤).

والتمثيل ، وفي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ رد للإلحاد والتعطيل[(١)].

وقد جاءت الآثار عن عمر بن عبد العزيز في باب الصفات ، فأثبت ما أثبته الله لنفسه ، وتحدث عن إثبات صفة النفس ، والوجه ، والعلم ، والكبرياء والقدرة ، والعلو ، والمعية والقرب ، وصفة المشيئة والإرادة وصفة الغضب ، والرضا ، وصفة الرحمة[(٢)] ، وإليك الحديث عن بعضها:

١ ـ صفة النفس:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن رسالة، فقال: أما بعد؛ فإن الله عز وجل جعل الإسلام الذي رضي به لنفسه ومن كرم عليه من خلقه لا يقبل دنيا غيره[(٣)]. وهذا الأثر يبين إثبات صفة النفس، وهو ما دل عليه الكتاب والسنة ، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]. وقال ﷺ في ثنائه على ربه: «. . لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[(٤)] ، فنفسه تعالى هي ذاته المقدسة ، كما تبين ذلك من الكتاب والسنة[(٥)]. فنفسه تعالى هي ذاته المتصفة بصفاته وليس المراد بها ذاتاً منفكة عن الصفات ، ولا المراد بها صفة الذات[(٦)].

٢ ـ صفة الوجه لله تعالى:

كتب عمر إلى الخوارج رسالة ، وفيها: . . وإني أقسم لكم بالله لو كنتم أبكاري من ولدي . . لدفقت دماءكم ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة[(٧)]. صفة الوجه من الصفات الخبرية الذاتية؛ دل عليها الكتاب والسنة ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]. وكان رسول الله ﷺ لا يسأل ربه ما لا يجوز ، ففي سؤاله ربه لذة النظر إلى وجهه ، يقول: وأسألك لذة النظر إلى وجهك[(٨)].

٣ ـ صفة القدرة لله تعالى:

كتب عمر إلى بعض عماله: أما بعد ، فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم ، فاذكر

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٨).
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٣١٣ إلى ٣٥٩).
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٨٦) و: الآثار الواردة (١/ ٣١٣).
(٤) مسلم رقم (٤٨٦).
(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٣١٤).
(٦) الفتاوى نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ٣١٤).
(٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٧٥).
(٨) صححه الألباني في صحيح سنن النسائي (١/ ٢٨٠ ـ ٢٨١).

قدرة الله عليك في نفاذ ما يأتي إليهم وبقاء ما يأتي إليك[١]. وقال في رسالته في الرد على القدرية، وفيها: . . فالله أعز في قدرته وأمنع من أن يملك أحداً إبطال علمه[٢].

يتبين من خلال الأثرين السابقين إثبات عمر بن عبد العزيز صفة القدرة لله تبارك وتعالى، وهي من الصفات التي دل عليها السمع والعقل قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]. ومن السنة: حديث أبي مسعود البدري لما ضرب غلامه، قال له النبي ﷺ: «اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»[٣].

هذه بعض الآثار التي تدل على إثبات عمر بن عبد العزيز لصفات الله تعالى على أصول منهج أهل السنة والجماعة.

رابعاً: نهيه عن اتخاذ القبور مساجد:

عن إسماعيل بن أبي حكيم: أنه سمع عمر بن عبد العزيز يقول: آخر ما تكلم به رسول الله ﷺ أن قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقى ـ أو قال: لا يجتمع ـ دينان بأرض العرب»[٤]، حدثنا حصين: أن عمر بن عبد العزيز نهى أن يبنى القبر بآجر وأوصى بذلك[٥].

والحديث الذي أرسله عمر ـ رحمه الله ـ يبين تحذير رسول الله ﷺ لأمته من اتخاذ القبور مساجد، وبين أن ذلك فعل اليهود والنصارى، والمسلم منهي عن الاقتداء بهؤلاء الضلال المغضوب عليهم بنص القرآن، ولا شك أن اتخاذ القبور مساجد والبناء عليها وتجصيصها مما أجمع على منعه سلف هذه الأمة كما مر عن عمر بن عبد العزيز؛ حيث نهى أن يبنى القبر بآجر، وأوصى ألا يفعل ذلك بقبره[٦].

ولما أمر الوليد بن عبد الملك ببناء المسجد النبوي حين كان عمر عاملاً له على المدينة وإدخال حجرات الرسول ﷺ ومنها حجرة عائشة ـ رضي الله عنها ـ التي فيها قبر الرسول ﷺ وصاحبيه؛ كان عمر بن عبد العزيز هو الذي جعل مؤخر القبر محدداً بركن، لئلا يستقبل قبر

---

(١) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ١٢٥).
(٢) الحلية (٥/ ٣٤٧).
(٣) مسلم رقم (١٦٥٩).
(٤) البخاري رقم (١٣٣٠) و: مصنف عبد الرزاق (١٠/ ٣٥٩ـ٣٦٠).
(٥) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٣٤٦).
(٦) الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (١/ ٢٦٤).

النبي ﷺ فيصلى إليه ، جعل ذلك حين انهدم جدار البيت ، فبناه على هذا ، فصار للبيت خمسة أركان[١] .

والمقصود أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ قد سد منافذ الشرك بعلمه وحكمته ، كما تبين من نقل من شاهدوا بناء المسجد النبوي في عهد ولايته على المدينة النبوية ، ولا شك أن نهي النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً كان خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به ، بل ربما أدى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأمم الخالية[٢] . وقد منع عمر من اتخاذ البناء لقبره ، وأوصى بذلك ، مع أنه كان في الزمن الذي فيه العقيدة صافية نقية إذا قورن ذلك الزمان بما بعده ، ولكن لفهمه الصحيح لمقاصد السنة ولاتباعه المنهج الصحيح منهج النبي ﷺ وأصحابه وفقه الله تعالى للوصية بأن لا يبنى على قبره خشية أن يتخذ مسجداً ، فحسم الموقف قبل أن يستفحل .

ولا شك أن ما ذهب إليه عمر هو ما يدل عليه الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : نهى النبي ﷺ أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه[٣] .

خامساً : مفهوم الإيمان عند عمر بن عبد العزيز :

قال عدي بن عدي : كتب إليّ عمر بن عبد العزيز : أما بعد : فإن الإيمان فرائض وشرائع وحدود وسنن فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[٤] . وعن جعفر بن برقان قال : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز : أما بعد : فإن عرى الدين وقوائم الإسلام : الإيمان بالله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، فصلوا الصلاة لوقتها[٥] .

بين عمر بن عبد العزيز أن الإيمان فرائض ، أي : أعمالٌ مفروضة كالصلاة والحج والصوم ، وشرائع ، أي : عقائد دينية كالإيمان بالله وملائكته ، وحدود ، أي : منهيات ممنوعة كشرب الخمر والزنى ، وسنن ، أي : مندوبات كإماطة الأذى عن الطريق ، وغيرها من المندوبات؛ فهذه الأمور كلها من الإيمان[٦] .

وهذا المأثور عن عمر هو الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح،

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٦٥).
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ١٨٥).
(٣) مسلم رقم (٩٧٠).
(٤) فتح الباري على صحيح البخاري (١/ ٤٥).
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم، ص ٧٢ و : الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٥٤٣).
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٥٤٥).

فالإيمان عند أهل الحق: قول باللسان، وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان[١].

فمن الأدلة الدالة على أن الإيمان قول باللسان قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ [البقرة: ١٣٦]. وقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله»[٢].

ومن الأدلة على أن أعمال القلوب من الإيمان: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: ٢]. والوجل من أعمال القلوب. وقد سمي في الآية إيماناً، ومن الأدلة على أن أعمال الجوارح من الإيمان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٣]. يبين ذلك سبب نزول الآية؛ حين سئل عليه السلام: أرأيت الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾. وفي هذا دلالة على أنه تعالى سمى صلاتهم إلى بيت المقدس إيماناً، فإذا ثبت ذلك في الصلاة ثبت ذلك في سائر الطاعات[٣].

وكتب عمر بن عبد العزيز رسالة؛ وفيها: أسأل الله برحمته وسعة فضله أن يزيد المهتدي هدى، وأن يرجع بالمسيء التوبة في عافيته[٤]، وفي قوله عن الحديث عند الإيمان، . . . فمن استكملهن فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملهن لم يستكمل الإيمان[٥].

فهذه الآثار تبين أن الإيمان يزيد وينقص، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة والآثار عن السلف الصالح؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ [الأنفال: ٢]. وقال رسول الله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[٦]، ومن أقوال سلف الأمة قول البخاري: لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار؛ فما رأيت أحداً يختلف في أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص[٧].

سادساً: الإيمان باليوم الآخر:

الحديث عن الإيمان باليوم الآخر يشتمل على أمور كثيرة، فكل ما أخبر به الله ورسوله مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه، وما يكون من البعث والنشور، وما يكون في يوم

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٥٤٤).
(٢) مسلم رقم (٣٢).
(٣) الاعتقاد للبيهقي (ص ٩٥ ـ ٩٦) و: الآثار الواردة (١/ ٥٤٥).
(٤) الطبقات (٦/ ٣١٣) و: الآثار الواردة (١/ ٥٥٠).
(٥) فتح الباري (١/ ٤٥).
(٦) الإيمان لابن أبي شيبة (ص ٥) وصححه الألباني و: الآثار الواردة عن عمر (٥٥٣٦١).
(٧) البخاري مع الفتح (١/ ٤٧).

القيامة من ثواب وعقاب وجنة ونار. . . إلخ، وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن هذه الأمور؛ منها:

١ ـ عذاب القبر ونعيمه:

قال عمر بن عبد العزيز لرجل: يا فلان قرأت البارحة سورة فيها زيارة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١ ـ ٢]؛ فكم عسى يلبث عند المزور حتى ينكفئ إما إلى جنة وإما إلى نار[(١)]؟!

وخطب مرة فقال: أيها الناس ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، وفي بيوت الميتين، وفي دور الظاعنين، جيراناً كانوا معكم بالأمس أصبحوا في دور خامدين، بين آمن روحه إلى يوم القيامة، وبين معذب روحه إلى يوم القيامة[(٢)].

وخطب مرة أخرى بخناصرة فقال: . . في كل يوم تشيعون غادياً إلى الله ورائحاً قد قضى نحبه وانقضى أجله، ثم تغيبونه في صدع من الأرض غير موسد ولا ممهد؛ قد فارق الأحباب وخلع الأسباب وواجه الحساب وسكن التراب مرتهناً بعمله، غنياً عما ترك، فقيراً إلى ما قدم[(٣)].

وما قاله عمر بن عبد العزيز يدل على إثبات عذاب القبر ونعيمه، وهو معتقد أهل السنة والجماعة، وبهذا دلت النصوص من الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]. فقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر[(٤)]. وقال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦].

٢ ـ الإيمان بالمعاد ونزول الرب لفصل القضاء:

خطب عمر بن عبد العزيز بخناصرة فقال: أيها الناس إنكم لم تخلقوا عبثاً، ولم تتركوا سدى، وإن لكم معاداً، ينزل الله تبارك وتعالى للحكم فيه والفصل بينكم[(٥)].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله: أما بعد: فكأن العباد قد عادوا إلى الله فينبئهم بما عملوا، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾[(٦)] [النجم: ٣١].

وعن جرير بن حازم قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى عدي: . . . اعلم أن أحداً

---

(١) الحلية (٥/ ٣١٧) و: الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٣٣٦).
(٢) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) الروح لابن القيم (ص ١٤٤).
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٤٢).
(٦) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا (ص ٨١).

لا يستطع إنفاذ قضايا ما بين الناس حتى لا يبقى منها شيء ، لابد أن تتأخر قضايا ليوم الحساب[١].

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة: أما بعد: فإني أذكرك ليلة تمخض بالساعة، وصباحها القيامة، فيا لها من ليلة ، ويا له من صباح كان على الكافرين عسيراً[٢]!

وكتب إلى بعض الأجناد: أما بعد: أوصيكم بتقوى الله ولزوم طاعته.. فمن كان راغباً في الجنة أو هارباً من النار ، فالآن في هذه الأيام الخالية ، والتوبة مقبولة ، والذنب مغفور قبل نفاذ الأجل وانقضاء المدة ، وفراغ الله عز وجل للثقلين ليدينهم بأعمالهم في موطن لا تقبل فيه فدية ، ولا تنفع فيه الحيلة ، تبرز فيه الخفيات ، وتبطل فيه الشفاعات ، يرده الناس جميعاً بأعمالهم ، ويتفرقون منه أشتاتاً إلى منازلهم ، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله عز وجل ، وويل يومئذ لمن عصى الله عز وجل[٣].

إن الإيمان بالمعاد والبعث والنشور ، وأن الله تبارك وتعالى يجمع كل الخلائق ، وبيان الحكمة من ذلك ، وبيان شدة هذا اليوم على الكفار هو مدلول الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ هنا.

ولا شك أن الإيمان بالمعاد من أهم العقائد التي تميز بها الإسلام ، وقد تحدث القرآن الكريم عن الإيمان بالمعاد ، إما تصريحاً وتأكيداً ، أو تلميحاً وإشارة ، وقد بين الله تبارك في كثير من آيات الكتاب وجوب الإيمان بالبعث ، وبيّن في بعضها الرد على من ينكر حشر الأجساد بحجج عقلية لا يمكن للمنكرين إلا الإذعان لها أو المكابرة[٤]، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١] وقال عز وجل: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥ ـ ١٦] ، وقال في منكري البعث: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩]. وقال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة].

كما ثبت في الأحاديث الإيمان بالبعث ؛ منها: عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن

---

(١) في الزهد هناد السري (١/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠)؛ الآثار الواردة (١/ ٤٤٨).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ١١٥) و: أبو حفص الملاء (١/ ٢٠٦).

(٣) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ١١٥ ـ ١١٦) و: أبو حفص الملاء (١/ ٢٦٦).

(٤) الآثار الواردة في العقيدة (١/ ٤٥١).

النبي ﷺ قال: «قال الله: كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان، وأما شتمه إياي فقوله: لي ولد، فسبحاني أن أتخذ صاحبة ولا ولداً»(١). ومضمون هذه النصوص هو المأثور عن عمر(٢).

٣ ـ الميزان:

قال عمر بن عبد العزيز: أو ما رأيتم حالات الميت؟! وجهه مفقود، وذكره منسي، وبابه مهجور، كأن لم يخالط إخوان الحفاظ، ولم يعمر الديار. واتقوا يوماً لا يخفى فيه مثقال ذرة في الموازين(٣). قال: . . أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى عنه نفسي فتخسر صفقتي وتظهر عولتي وتبدو مسكنتي في يوم يبدو فيه الغنى والفقر، والموازين منصوبة(٤).

وعن بجدل الشامي عن أبيه ـ وكان صاحباً لعمر بن عبد العزيز ـ قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يتلو هذه الآية: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. حتى ختمها، فمال على أحد شقيه يريد أن يقع(٥).

فهذه الآثار تدل على أن بعد القيام من القبور والذهاب إلى المحشر، ونزول الرب تبارك وتعالى ـ كما يليق بجلاله ـ لفصل القضاء ينصب الميزان، وهو ميزان حقيقي توزن به أعمال العباد، وهذا ما عليه أهل السنة والجماعة(٦)، قال ابن حجر: قال أبو إسحاق الزجاج: أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن به يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكِفَّتان ويميل بالأعمال. وأنكرت المعتزلة الميزان وغيرهم، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليري العباد أعمالهم ممثلة ليكونوا على أنفسهم شاهدين(٧)، وهذا الميزان دقيق لا يزيد ولا ينقص، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

٤ ـ الحوض:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى صاحب دمشق: أن سل أبا سلام عما سمع من ثوبان مولى

---

(١) البخاري رقم (٣٠٩٣).
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٢).
(٣) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٢٥٥).
(٤) الحلية (٥/ ٢٩١) و: سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٣٤ ـ ٢٤٤).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٤٨).
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٧).
(٧) فتح الباري (١٣/ ٥٣٨).

رسول الله ﷺ في الحوض ، فإن كان يثبته فاحمله على مركبة من البريد[١] . وفي رواية : بعث عمر بن عبد العزيز إلى أبي سلام الحبشي يحمل على البريد ، فلما قدم عليه قال: لقد شق علي ، قال عمر: ما أردنا ذلك ، ولكنه بلغني عنك حديث ثوبان في الحوض ، فأحببت أن أشافهك به ، فقال: سمعت ثوبان يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن حوضي من عدن إلى عمان البلقاء[٢] ، ماؤه أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، وأكوابه عدد نجوم السماء ، مَنْ شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، أول الناس وروداً عليه فقراء المهاجرين»[٣] . ولا شك أن الإيمان بالحوض هو عقيدة أهل السنة والجماعة استناداً إلى النصوص الصريحة بذلك ، وأدلة إثبات الحوض في السنة بلغت حد التواتر .

٥ ـ الصراط :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أخ له : يا أخي ! إنك قد قطعت عظيم السفر وبقي أقله ، فاذكر يا أخي المصادر والموارد ، فقد أوحي إلى نبيك ﷺ في القرآن أنك من أهل الورود، ولم يخبر أنك من أهل الصدور والخروج ، وإياك أن تغرك الدنيا فإن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له[٤] .

وهذا الأثر الوارد عن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ يدل على الإيمان بالصراط ، وذلك أنه بعد الخروج من عرصات القيامة في اليوم العصيب يمر الناس على الصراط ، وهو جسر ممدود على متن جهنم ، أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، يرده الأولون والآخرون من أتباع الرسل الموحدون ، وفيهم أهل الذنوب والمعاصي ، وفيهم أهل النفاق ، فتلقى عليهم الظلمة قبل الصراط ، وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويُحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم ، ويعطى كل مؤمن نوره بقدر عمله يضيء له الطريق ، فيمرون على الصراط ؛ فمنهم من يمر كالبرق الخاطف ، وكالريح ، ومنهم من يرمل رملاً حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه تَخِرّ يد وتعلق يد ، وتخر رجل وتصيب جوانبه النار[٥] .

وقد دل الكتاب والسنة على المرور على الصراط ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١] ، وقال تعالى : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ .

---

(١) البداية والنهاية نقلاً عن الآثار الواردة (١/ ٤٦٢).
(٢) الآثار الواردة (١/ ٤٦٣).
(٣) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٣٧).
(٤) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٢٥٧).
(٥) شرح الطحاوية (ص ٤٧٠) و: الآثار الواردة (١/ ٤٦٨).

وقال ﷺ: «والذي نفسي بيده! لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة» قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله! أليس الله يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ فقال: «ألم تسمعينه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]». أشار إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله؛ فالمؤمنون يمرون فوق النار على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثياً، فبين ﷺ أن الورود هو الورود على الصراط[١]، والحق أن الورود على النار وردان: ورود الكفار أهل النار، فهذا ورود دخول لا شك في ذلك، كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]. أي: بئس المدخل المدخول، والورود الثاني: ورود الموحدين؛ وهو مرورهم[٢] على الصراط، وهو ما عناه عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في الأثر الماضي.

٦ ـ الجنة والنار:

بكى عمر بن عبد العزيز، فبكت فاطمة، فبكى أهل الدار، لا يدري هؤلاء ما أبكى هؤلاء، فلما تجلى عنهم الصبر قالت فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين! مم بكيت؟ قال: ذكرت يا فاطمة منصرف القوم من بين يدي الله فريق في الجنة وفريق في السعير، ثم صرخ وغشي عليه[٣].

وعن سفيان قال: كان عمر بن عبد العزيز يوماً ساكتاً وأصحابه يتحدثون، فقالوا له: مالك لا تتكلم يا أمير المؤمنين؟! قال: كنت مفكراً في أهل الجنة، كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار؛ كيف يصطرخون فيها. ثم بكى[٤].

وكتب إلى بعض الأجناد: واعلم أنه ليس يضر عبداً صار إلى رضوان الله وإلى الجنة ما أصابه في الدنيا من فقر وبلاء، وأنه لن ينفع عبداً صار إلى سخط الله وإلى النار ما أصاب في الدنيا من نعمة أو رخاء. وما يجد أهل الجنة من مكروه أصابهم في دنياهم، وما يجد أهل النار طعم لذة نعموا بها في دنياهم، كل شيء من ذلك لم يكن[٥].

وعن الفضل بن ربيع قال: سمعت فضيل بن عياض يقول: بلغني أن عاملاً لعمر بن عبد العزيز شكا إليه، فكتب إليه عمر: يا أخي اذكر طول سهر أهل النار مع خلود الأبد، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء، فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى

---

(١) شرح الطحاوية (ص ٤٧١).
(٢) القيامة الكبرى للأشقر (ص ٢٧٨).
(٣) الرقة والبكاء (ص ٧٦).
(٤) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ١٥٤).
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ٢٥٠ ـ ٢٥١) و: الآثار الواردة (١/ ٤٧٣).

قدم على عمر، فقال له: ما أقدمك؟ قال: خلعت قلبي بكتابك. لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى[١].

ومعتقد عمر بن عبد العزيز في الجنة والنار هو ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار] وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۝٧٥ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه]. وقال ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي؛ إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[٢].

٧ ـ رؤية المؤمنين ربهم في الجنة:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض أمراء الأجناد: أما بعد: فإني أوصيك بتقوى الله والتمسك بأمره، والمعاهدة على ما حملك الله من دينه، واستحفظك من كتابه، فإن بتقوى الله نجا أولياؤه من سخطه، وبها تحقق لهم ولايته، وبها وافقوا[٣] أنبياءه، وبها نضرت وجوههم ونظروا إلى خالقهم[٤].

وهذا المعتقد الذي كان يعتقده عمر بن عبد العزيز في رؤية الله تعالى في الجنة من أعظم النعم بعد نعمة التوفيق والهداية، قال تعالى في وصف المؤمنين في ذلك اليوم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة] وقال جل شأنه: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦]، وعن صهيب قال: قيل لرسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ينادي منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فقالوا: ألم تبيض وجوهنا وتثقل موازيننا وتجرنا من النار؟! قال: فيكشف الحجاب، فينظروا إليه، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[٥].

سابعاً: الاعتصام بالكتاب والسنة وسنة الخلفاء الراشدين:

١ ـ اتباع الكتاب والسنة:

لما ولي عمر بن عبد العزيز كتب: أما بعد: فإني أوصيكم بتقوى الله ولزوم كتابه والاقتداء

(١) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ١٢٤ و ١٢٥) و: الآثار الواردة (١/ ٤٧٤).
(٢) مسلم رقم (٢٨٦٦).
(٣) في الحلية، وابن الجوزي، والملاء: (رافقوا) بدل (وافقوا).
(٤) الرد على الجهمية للدارمي (ص ١٠٣) و: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٤٧٩).
(٥) مسلم رقم (٢٩٧).

بسنة نبيه وهديه[١] ، وليس لأحد في كتاب الله ولا في سنة نبيه ﷺ أمر ولا رأي إلا إنفاذه والمجاهدة عليه[٢] . . . فإن الذي في نفسي وبغيتي في أمر أمة محمد ﷺ أن تتبعوا كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وأن تجتنبوا ما مالت إليه الأهواء والزيغ البعيد ، من عمل بغيرهما فلا كرامة ولا رفعة له في الدنيا والأخرى ، وليعلم من عسى أن يذكر له ذلك: أني لعمري لأن تموت نفسي في أول نَفَس أحب إليَّ من أن أحملهم على غير اتباع كتاب ربهم وسنة نبيهم التي عاش عليها من عاش وتوفاه الله عليها حين توفاه ـ إلا أن يأتي علي من ذلك أمرٌ وأنا حريص على اتباعه ـ وإن أهون الناس علي تلفاً وحزناً لمن عسى أن يريد خلاف شيء من تلك السنة[٣] .

وقال عمر بن عبد العزيز: إن الله فرض فرائض وسنّ سنناً؛ من أخذ بها لحق ومن تركها محق[٤] . وقال: يا ليتني عملت فيكم بكتاب الله وعملت به ، فكلما عملت فيكم بسنة وقع مني عضو ، حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي[٥] ، وكتب إلى الخوارج: . . . فإني أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ[٦] . وقال: سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً ، الأخذ بها اعتصامٌ بكتاب الله وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر في أمر خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها فهو منصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[٧] .

فهذه الآثار توضح اتباع عمر للكتاب والسنة ولزومهما ، وبذل الجهد والطاقة في تطبيقها ، وإن أدى ذلك إلى قطع الأعضاء ، وإزهاق النفس ، وما ذهب إليه عمر هو أصل الدين وأساسه؛ قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] وقال ﷺ: «يا أيها الناس: إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتي»[٨] .

٢ ـ الاعتصام بسنة الخلفاء الراشدين:

عن حاجب بن خليفة البرجمي ، قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يخطب الناس وهو

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم ص ٦٥ و: الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٢٨٤).

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٦٨) و: الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٢٨٧).

(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٧١) و: الآثار الواردة (٢/ ٦٠١).

(٤) محق: محقه: أهلكه وأباده ، سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٣٩).

(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٣٠) و: الآثار الواردة (٢/ ٦٠٢).

(٦) الآثار الواردة (٢/ ٦٠٢).

(٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٤٠).

(٨) موطأ مالك (٣/ ٩٣) و: والحاكم (١/ ٩٣).

خليفة ، فقال في خطبته : ألا إن ما سن رسول الله ﷺ وصاحباه فهو دين نأخذ به وننتهي إليه ، وما سن سواهما فإنا نرجئه[١] .

وكتب إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب: من عمر بن عبد العزيز إلى سالم بن عبد الله ، أما بعد: فقد ابتليت بما ابتليت به من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني ، ولا إرادة يعلم الله ذلك ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فاكتب به سيرة عمر بن الخطاب في أهل القبلة وأهل العهد ، فإني سائر بسيرته إن أعانني الله على ذلك والسلام[٢] . وعن عون بن عبد الله ، قال: قال لي عمر بن عبد العزيز : أعدلان عندك عمر وابن عمر؟ قال: قلت : نعم ، قال: إنهما لم يكونا يكبران هذا التكبير[٣] .

وعن الأزهري ، قال: قال رجل لعمر بن عبد العزيز : طلقت امرأتي وأنا سكران ، قال الزهري: فكان رأي عمر بن عبد العزيز أن يجلده ويفرق بينه وبين امرأته ، حتى حدثه أبان بن عثمان (عن أبيه): ليس على المجنون ولا السكران طلاق ، فقال عمر: تأمروني وهذا يحدثني عن عثمان بن عفان! فجلده وردّ إليه امرأته[٤] .

وقال عمر بن عبد العزيز: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، قوة على دين الله ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر في أمر خالفها ؛ من اهتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها؛ فهو منصور ، ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ، ولاه الله ما تولّى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[٥] .

إن عمر بن عبد العزيز تمسك بسنة رسول الله وخلفائه الراشدين ، وأعاد للخلافة الراشدة معالمها وملامحها ، وسار على هديها وعض على سننهم بالنواجذ ، ورجع إلى أقوالهم عند النزاع وأخذ بها في الحكم على أهل القبلة وأهل العهد ، كما أخذ بها في العبادات والمعاملات ، وقد أولى الخليفة الأول والثاني أبا بكر وعمر جل اهتمامه ، وعدّ الأخذ بسنتهم أخذاً بسنة رسول الله ﷺ ، كما أخذ بسنة الخليفة الثالث فور سماعه ، وطبّق تلك السنة ، واعتصم بسنة الخليفة الرابع في معاملة الخوارج حيث ناظرهم وكتب إليهم ، فلما تمادوا حاربهم ، وحكم على أموالهم وذراريهم وأسراهم بقضاء الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنهم[٦] ،

(١) الحلية (٥/ ٢٩٨)؛ و: جامع العلوم والحكم (ص ٢٨٨).
(٢) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ١٠٨).
(٣) مصنف عبد الرزاق (٢/ ٦٦) و: الآثار الواردة (٢/ ٦٦).
(٤) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣١) و: الآثار الواردة (٢/ ٦٣٣).
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٤٠).
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٣٧).

بل يرى عمر بن عبد العزيز أن من خرج عن سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ فهو خارج عن سبيل المؤمنين ، وهو من الفرقة الهالكة ، وكل ما سنه الخلفاء الراشدون فإنه من سنته ﷺ ؛ لأنهم إنما سنوه بأمره ولا يكون في الدين واجباً إلا ما أوجبه ، ولا حراماً إلا ما حرمه ، ولا مستحباً إلا ما استحبه ، ولا مكروهاً إلا ما كرهه ، ولا مباحاً إلا ما أباحه.

واتباع سنة الخلفاء الراشدين في العقائد والأحكام هو ما عليه السلف الصالح ، وهو الذي دل عليه الكتاب والسنة؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]. وقال ﷺ: «فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإن كل بدعة ضلالة»[(١)]. وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ جلوساً ، فقال: «إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم ، فاقتدوا باللذين من بعدي» وأشار إلى أبي بكر وعمر[(٢)].

٣ ـ التمسك بما تدل عليه الفطرة:

عن جعفر بن رقان ، قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن شيء من الأهواء ، فقال: الزم دين الصبي في الكُتّاب ، والأعرابي ، والْهَ عما سوى ذلك[(٣)]. وعمر بن عبد العزيز هنا يرى أن العباد مخلوقون على الدين القويم ، وأن الانحراف عنه طارئ وحادث ، وهذا ما دل عليه القرآن الكريم ، قال تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] ، وقال ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء[(٤)] ، هل تحسون فيها من جدعاء»[(٥)] ، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ﴾[(٦)] [الروم: ٣٠].

فالفطرة السليمة تقر بخالقها وتحبه وتتذلل له وتخلص له الدين ، وفيها قوة موجبة لذلك ، وكذلك تقرّ بشرعه وتؤثر هذا الشرع على غيره ، فهي تعرف هذا الشرع وتشعر به مجملاً ومفصلاً بعض التفصيل ، فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه وتفصله لها وتبينه ، وتعرفها الأسباب

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٤٤) حديث حسن صحيح.

(٢) سنن الترمذي (٥/ ٦١٠) و: صحيح سنن الترمذي للألباني (٣/ ٢٠٠).

(٣) الطبقات (٥/ ٣٧٤) و: شرح اعتقاد أهل السنة رقم (٢٥٠).

(٤) جمعاء: سليمة من العيوب في الأعضاء كاملتها ، فلا جدع ولا كي.

(٥) جدعاء: أي مقطوعة الأطراف ، أو واحدها.

(٦) البخاري رقم (١٣٥٨).

المعارضة لموجب الفطرة المانعة من اقتضائها أثرها[(١)].

ثامناً: موقفه من الصحابة والخلاف بينهم:

عن عبد الرحمن بن القاسم، عن أبيه: أنه قال: لقد أعجبني قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله: ما أحب أن أصحاب رسول الله ﷺ لم يختلفوا؛ لأنه لو كان قولاً واحداً كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، ولو أخذ رجل بقول أحدهم كان في سعة[(٢)]. قال أبو عمر رحمه الله: هذا فيما كان طريقه الاجتهاد[(٣)].

وسئل عمر بن عبد العزيز عن علي وعثمان وصفين وما كان بينهم، فقال: تلك دماء كف الله يدي عنها، وأنا أكره أن أغمس لساني فيها[(٤)]. وعن محمد بن النضر قال: ذكروا اختلاف أصحاب محمد ﷺ عند عمر بن عبد العزيز، فقال: أمر أخرج الله أيديكم منه، ما تعملون ألسنتكم فيه[(٥)]؟!

وعمر بن عبد العزيز كغيره من علماء السلف الصالح حريص على إبراز فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، ولم لا يكون ذلك وقد قال الله تعالى: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨]، ومعتقد أهل السنة: بأن لا يذكر أحد من صحابة الرسول ﷺ إلا بأحسن ذكر، والإمساك عما شجر بينهم، وأنهم أحق الناس أن يلتمس لهم أحسن المخارج ويظن بهم أحسن المذاهب[(٦)].

وقال ابن حجر: واتفق أهل السنة على وجوب منع الطعن على أحد من الصحابة بسبب ما وقع لهم من ذلك ولو عرف المحق منهم، لأنهم لم يقاتلوا في تلك الحروب إلا عن اجتهاد، بل ثبت أن المخطئ يؤجر أجراً واحداً، وأن المصيب يؤجر أجرين[(٧)]. ومضمون الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز توضح معتقده في الصحابة، وهو معتقد أهل السنة والجماعة.

تاسعاً: موقفه من أهل البيت:

قال ابن القيم: إن العلماء اختلفوا في تحديد المراد بأهل البيت على أقوال، قال رحمه الله

---

(١) شفاء العليل (ص ٦٢٩ ـ ٦٣٠).
(٢) جامع بيان العلم (٢/ ٩٠١ ـ ٩٠٢) و: الآثار الواردة (١/ ٤١٠).
(٣) الآثار الواردة (١/ ٤١٠).
(٤) الطبقات (٥/ ٣٩٤) و: الآثار الواردة (١/ ٤١٠).
(٥) الطبقات (٥/ ٢٨٢) و: الآثار الواردة (١/ ٤١٠).
(٦) الثمر الداني في تقريب المعاني شرح رسالة أبي زيد (ص ٢٣).
(٧) فتح الباري (١٣/ ٣٤).

واختلف في آل النبي ﷺ على أربعة أقوال: فقيل: هم الذين حرمت عليهم الصدقة؛ وفيهم ثلاثة أقوال:

١ ـ أنهم بنو هاشم وبنو المطلب.

٢ ـ أنهم بنو هاشم خاصة.

٣ ـ أنهم بنو هاشم ومن فوقهم إلى غالب.

والقول الثاني: أن آل النبي ﷺ هم ذريته وأزواجه خاصة.

والقول الثالث: أن آله أتباعه إلى يوم القيامة.

والقول الرابع: أن آله هم الأتقياء من أمته[١].

ثم رجح رحمه الله القول الأول؛ وهو أن آله ﷺ هم الذين حرمت عليهم الصدقة[٢].

هذا ويرى الشيعة أن آل النبي ﷺ هم: علي وفاطمة والحسن والحسين وذريتهما، وقولهم هذا مخالف للنصوص الصحيحة، ولا تؤيده اللغة ولا العرف، لأن لفظة أهل البيت وردت في القرآن الكريم في سياق الخطاب لأزواج النبي ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، وقد تحدثتُ عن هذه الآية ورددتُ على أفهام الشيعة الإمامية لها في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

هذا وقد عرف عمر بن عبد العزيز حقوق أهل البيت المادية والمعنوية، وأداها إليهم كافة مستوفاة كاملة بدون بخس ولا شطط[٣]، وأزال عنهم المظالم التي وقعت عليهم، وأحسن إليهم غاية الإحسان المعنوي والمادي، فعن جويرية بن أسماء قال: سمعت فاطمة بنت علي بن أبي طالب ذكرت عمر بن عبد العزيز، فأكثرت الترحُّم عليه، وقالت: دخلت عليه وهو أمير المدينة يومئذ فأخرج عني كل خصي وحرسي، حتى لم يبق في البيت غيري وغيره، ثم قال: يا بنت علي والله ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إليَّ منكم ولأنتم أحب إلي من أهل بيتي[٤].

وعن عبد الله بن محمد بن عقيل بن أبي طالب قال: أول مال قسمه عمر بن عبد العزيز لمال

---

(١) جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام (ص ١٠٩).

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ١١٠ ـ ١١٩) و: الآثار الواردة (١/ ٤٢٨).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٢٩).

(٤) الطبقات (٥/ ٢٨٦).

بعث به إلينا أهل البيت ، فأعطى المرأة منا مثل ما يعطي الرجل ، وأعطى الصبي مثل ما تعطى المرأة ، قال: فأصابنا أهل البيت ثلاثة آلاف دينار ، وكتب لنا : إني إن بقيت لكم أعطيتكم جميع حقوقكم[١] .

وعن حسين بن صالح قال: تذاكروا الزهاد عند عمر بن عبد العزيز فقال قائلون: فلان ، وقال قائلون: فلان ، فقال عمر بن عبد العزيز : أزهد الناس في الدنيا علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢] .

فعمر بن عبد العزيز كغيره من السلف الصالح كان قائماً بأداء حقوق أهل بيت النبي ﷺ امتثالاً لما أمر به ﷺ : « . . . وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي»[٣] ، وقال ابن تيمية : وإن من أصول أهل السنة والجماعة أنهم يحبون أهل بيت النبي ﷺ ، ويتولونهم ويحفظون فيهم وصية رسول الله ﷺ وآل بيته ﷺ لهم من الحقوق ما يجب رعايتها ، فإن الله جعل لهم حقاً في الخمس والفيء ، وأمر بالصلاة عليهم مع الصلاة على رسول الله ﷺ[٤] . والحقوق التي ذكرها ابن تيمية رحمه الله هي التي حرص عمر بن عبد العزيز رحمه الله على أدائها على الوجه المطلوب شرعاً ، فرد على آل رسول الله ﷺ فدك ، كما قام برد خمس الخمس عليهم ، كما أطعمهم في الفيء[٥] .

وقام رحمه الله بالاهتمام بحقوق أهل بيت النبي ﷺ المادية ، والمعنوية حرصاً منه على اتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه ، وحباً منه لاتباع السلف الصالح[٦] رضوان الله عليهم ، وأما ما تذكره كتب التاريخ أن ولاة بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز كانوا يشتمون علياً ، وهذا الأثر الذي ذكره ابن سعد لا يصح ، قال ابن سعد : أخبرنا علي بن محمد عن لوط بن يحيى قال: كان الولاة من بني أمية قبل عمر بن عبد العزيز يشتمون رجلاً رضي الله عنه ، فلما ولي هو ـ عمر بن عبد العزيز ـ أمسك عن ذلك ، فقال كثير عزة الخزاعي :

وليتَ فلمْ تشتمْ عليّاً ولم تخفْ ... برياً ولم تتبعْ مقالةَ مجرمِ
تكلمتَ بالحقِّ المبينِ وإنَّما ... تبينُ آياتِ الهدى بالتكلُّمِ
فصدَّقتَ معروفَ الذي قلتَ بالذي ... فعلتَ فأضحَى راضياً كلُّ مسلمِ[٧]

---

(١) المصدر السابق نفسه (٥/ ٢٨٩).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٢٩٢).

(٣) مسلم رقم (٢٤٠٨).

(٤) الفتاوى (٣/ ٤٠٧).

(٥) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (١/ ٤٣٣).

(٦) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٣٥).

(٧) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٧).

فهذا الأثر واهٍ ، فعلي بن محمد ـ وهو المدائني ـ فيه ضعف ، وشيخه لوط بن يحيىٰ واهٍ بمرة ، قال عنه يحيىٰ بن معين : ليس بثقة ، وقال أبو حاتم : متروك الحديث ، وقال الدارقطني أخباري ضعيف ، ووصفه صاحب الميزان : أخباري تالف لا يوثق به[١]. وعامة رواته من الضعفاء والهلكى والمجاهيل[٢].

وقد اتهم الشيعة معاوية ـ رضي الله عنه ـ بحمل الناس على سب علي ـ رضي الله عنه ـ ولعنه فوق منابر المساجد ، فهذه الدعوة لا أساس لها من الصحة ، والذي يقصم الظهر أن الباحثين قد التقطوا هذه الفرية على هوانها دون إخضاعها للنقد والتحليل ، حتى صارت عند المتأخرين من المُسلَّمات التي لا مجال لمناقشتها ، علماً بأنها لم تثبت قط في رواية صحيحة ، ولا يعول على ما جاء في كتب الدميري ، واليعقوبي ، وأبي الفرج الأصفهاني ، علماً بأن التاريخ الصحيح يؤكد خلاف ما ذكره هؤلاء[٣] ، ويؤكد احترام وتقدير معاوية لأمير المؤمنين علي وأهل بيته الأطهار .

فحكاية لعن علي على منابر بني أمية لا تتفق مع منطق الحوادث ولا طبيعة المتخاصمين ، فإذا رجعنا إلى الكتب التاريخية المعاصرة لبني أمية ، فإننا لا نجد فيها ذكراً لشيء من ذلك أبداً ، وإنما نجده في كتب المتأخرين الذين كتبوا تاريخهم في عصر بني العباس بقصد أن يسيئوا إلى سمعة بني أمية في نظر الجمهور الإسلامي ، وقد كتب ذلك المسعودي في مروج الذهب ، وغيره من كتّاب الشيعة ، وقد تسربت تلك الأكذوبة إلى كتب تاريخ أهل السنة ، ولا يوجد فيها رواية صحيحة ، فهذه دعوة مفتقرة إلى صحة النقل ، وسلامة السند من الجرح ، والمتن من الاعتراض ، ومعلوم وزن هذه الدعوى عند المحققين والباحثين ، ومعاوية رضي الله عنه بعيد عن مثل هذه التهم بما ثبت من فضله في الدين ، وكان محمود السيرة في الأمة ؛ أثنى عليه بعض الصحابة ومدحه خيار التابعين ، وشهدوا له بالدين والعلم ، والعدل والحلم ، وسائر خصال الخير[٤]. وقد ثبت هذا في حق معاوية ـ رضي الله عنه ـ كما أنه من أبعد المحال على من كانت هذه سيرته أن يحمل الناس على لعن علي ـ رضي الله عنه ـ على المنابر ، وهو من هو في الفضل .

ومن علم سيرة معاوية ـ رضي الله عنه ـ في الملك وما اشتهر به من الحلم والصفح ، وحسن السياسة للرعية ظهر له أن ذلك من أكبر الكذب عليه ، فقد بلغ معاوية ـ رضي الله عنه ـ في الحلم

(١) الميزان (٣/ ٤١٩).
(٢) دفاعاً عن السلفية (ص ١٨٧).
(٣) الحسن والحسين لمحمد رضا (ص ١٨) كلام المحقِّق : د. أحمد أبو الشباب.
(٤) الانتصار للصحب والآل للزحيلي (ص ٣٦٧).

مضرب الأمثال ، وقدوة الأجيال[١] . وقد تحدثت عن هذه الفرية بنوع من التوسع في كتابي خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب . وقد بينت فيه علاقة معاوية بأولاد علي رضي الله عنه بعد استقلاله بالخلافة ، وما كان بينهم من الألفة والمودة والاحتفاء والتكريم ، كما أن المجتمع في عمومه مقيد بأحكام الشريعة حريصاً على تنفيذها ، ولذلك كانوا أبعد الناس عن الطعن واللعن والقول الفاحش والبذيء . وقد نهى رسول الله ﷺ عن سب الأموات المشركين ، فكيف بمن يسب أولياء الله المصلحين ، فعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ مرفوعاً ـ : «لا تسبوا الأموات ؛ فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا[٢]» .

* * *

(١) خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب (ص ٣٠٣) .

(٢) البخاري رقم (٦٥١٦) .

المبحث الرابع
موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج والشيعة والقدرية ، والمرجئة والجهمية

أولاً: الخوارج:

برزت هذه الفرقة أثناء خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وبالتحديد عام ٣٧ هـ بعد معركة صفين وقبول علي رضي الله عنه تحكيم الحكمين ، وقد تحدثت عن هذه الفرقة بشيء من التفصيل في كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومن أهم آرائهم الاعتقادية:

١ ـ تكفير علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وعثمان بن عفان رضي الله عنه ، والحكمين ـ رضي الله عنهما ـ: أبو موسى الأشعري ، وعمرو بن العاص.

٢ ـ القول بالخروج على الإمام الجائر.

٣ ـ قولهم بتكفير مرتكب الكبيرة وتخليده في النار[١].

هذه المبادئ الثلاثة هي جوهر اعتقاد الخوارج ، وليس بينهم في ذلك خلاف إلا خلافاً لبعضهم في تطبيق هذه المبادئ[٢]. يقول أبو الحسن الأشعري في حكاية ما أجمع عليه الخوارج من الآراء: أجمعت الخوارج على إكفار علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن حكم ، وهم مختلفون: هل كفره شرك أم لا؟

وأجمعوا على: أن كل كبيرة كفر إلا النجدات[٣] ، فإنها لا تقول ذلك. وأجمعوا على أن الله سبحانه وتعالى يعذِّب أصحاب الكبائر عذاباً دائماً إلا النجدات أصحاب نجدة[٤] ، وقال المقدسي في ذلك: وأصل مذهبهم: إكفار علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، والتبرؤ من

---

(١) وسطية أهل السنة بين الفرق ، ص ٢٩١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) النجدات: أتباع نجدة بن عامر الحنفي ، المقتول ٦٩ هـ وهي فرقة من فرق الخوارج.

(٤) المقالات (١/ ١٦٧ ـ ١٦٨).

عثمان بن عفان ، والتكفير بالذنب ، والخروج على الإمام الجائر(١) .

استمر الخوارج في حربهم للدولة الأموية؛ أحياناً ينشطون ، وفي الغالب تتغلب عليهم الدولة بالقوة وتكسر شوكتهم ، إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز فدخل معهم في محاورات ونقاشات ، واستخدم معهم القوة عند اللزوم ، وكان عمر بن عبد العزيز يذم الجدال المذموم ، ويناظر ويجادل بالتي هي أحسن ، فقد قال: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل(٢) . وقال: احذروا المراء؛ فإنه لا تؤمن فتنته ، ولا تفهم حكمته(٣) ، وقال: قد أفلح من عصم من المراء والغضب والطمع(٤) ، فقد كان رحمه الله ينهى عن المراء العقيم ويحث على الجدال بالتي هي أحسن .

وقد كان لعمر بن عبد العزيز مواقف مشهورة وأقوال مأثورة في التعامل مع الخوارج ومناظرتهم ودحض شبهاتهم بالحجة ، وآرائهم بالدليل ، وإيضاح الحق لهم ودليله حباً منه للسنة واتباعاً للسلف الصالح رحمة الله عليهم(٥) .

١ ـ موقفه من خروج الخوارج عليه:

عن هشام بن يحيى الغساني ، عن أبيه: أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه في الخوارج: إن كان من رأي القوم أن يسيحوا في الأرض من غير فساد على الأئمة ولا على أحد من أهل الذمة ، ولا يتناولون أحداً ، ولا قطع سبيل من سبل المسلمين ، فليذهبوا حيث شاؤوا ، وإن كان رأيهم القتال فوالله لو أن أبكاري من ولدي خرجوا رغبة عن جماعة المسلمين لأرقت دماءهم ، ألتمس بذلك وجه الله والدار الآخرة(٦) .

وجاء في رواية: أقسم بالله لو كنتم أبكاري من أولادي ورغبتم عما فرشنا للعامة فيما ولينا لدفقت دماءكم أبتغي بذلك وجه الله والدار الآخرة ، فإنه يقول: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] ، فهذا النصح إن أحببتم ، وإن تستغشوني فقديماً ما استغش الناصحون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(٧) .

يتبين من الآثار السابقة منهج عمر بن عبد العزيز في التعامل مع الخوارج ، فمع خروجهم

---

(١) البدء والتاريخ (٥/ ١٣٥) و: وسطية أهل السنة في الفرق (ص ٢٩٢) .

(٢) ابن أبي الدنيا ، كتاب الصمت وآداب اللسان (ص ١١٦) و: الطبقات (٥/ ٣٧١) .

(٣) سيرة عمر ، لابن الجوزي (ص ٢٩٣) و: الحلية (٥/ ٣٢٥) .

(٤) سيرة عمر ، لابن الجوزي (ص ٢٩١) و: الآثار الواردة (٢/ ٦٧١) .

(٥) الآثار الواردة عن عمر في العقيدة (٢/ ٦٩٣) .

(٦) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٧٥) و: سيرة عمر ، لابن الجوزي (ص ٩٩ ـ ١٠٠) .

(٧) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩٥) .

عليه وهو الخليفة الحق لم يحركهم ، وإنما كتب إليهم وحذرهم من الخروج عن الجماعة الذين هم أهل الحق ، لقد أمر الله تبارك بالاجتماع ، ونهى عن التفرق ، وأمر بلزوم الجماعة ، ونهى عن الخروج عنها ، وجعل إجماع هذه الأمة حجة ، فإذا اجتمعوا على أمير وجب طاعته وحرم الخروج عليه ما لم يأمر بمعصية، وما لم يظهر كفراً بواحاً[١] .

والآثار المروية عن عمر بن عبد العزيز هنا تبين منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع الخوارج الذين هم أوائل الفرق ظهوراً في الإسلام ، فمع خروجهم عليه وهو الخليفة الحق لم يحركهم ، ولم يرسل عليهم الحملة تلو الحملة ، وإنما عاملهم معاملة أتاحت لهم الفرصة في الرجوع إلى الحق مستناً بسنن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في معاملة الخوارج حين خرجوا عليه[٢] .

٢ ـ مناظرته للخوارج :

تبين موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج عموماً فيما سبق ، وفي هذا المبحث يتضح موقفه من الذين كتبوا إليه وكتب إليهم طالباً المناظرة معهم ، إذا كانوا مستعدين لذلك ، وقد وجد من بعضهم استجابة ، قال ابن عبد الحكم: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الخوارج: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى هذه العصابة ، أما بعد: أوصيكم بتقوى الله؛ فإنه ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق]. أما بعد: فقد بلغني كتابكم والذي كتبتم فيه إلى يحيى بن يحيى ، وسليمان بن داود الذي أتى إليهما ، وإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧] ، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] ، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. وإني أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر إن شاء الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وأدعوكم أن تدعوا ما كانت تهراق عليه الدماء قبل يومكم هذا بغير قوة ولا تشنيع ، وأذكركم بالله أن تشبهوا علينا كتاب الله وسنة نبيه ، ونحن ندعوكم إليهما . هذه نصيحة منا نصحنا لكم فيها ، فإن تقبلوها فذلك بُغيتنا ، وإن تردوها على من جاء بها فقديماً ما استغش الناصحون ، ثم لم نر ذلك وضع شيئاً من حق الله؛ قال العبد الصالح لقومه: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣].

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٩٦ ، ٦٩٧).

وقال الله عز وجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨][١].

وجاء في رواية: وكتب عمر كتاباً إلى الخوارج، فلما قرؤوها قالوا: نوجه رجلين يكلمانه؛ فإن أجابنا فذاك، وإن أبىٰ كان الله من ورائه، فأرسلوا مولى لبني شيبان يقال له: عاصم، ورجلاً من بني يشكر من أنفسهم، فلما دخلا عليه قالا: السلام عليكم، وجلسا، وقال لهما عمر: أخبراني ما أخرجكما مخرجكما هذا؟ وأي شيء نقمتم علينا؟ قال عاصم وكان حبشياً: ما نقمنا عليك في سيرتك لتحري العدل والإحسان، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أَعَنْ رضا من المسلمين ومشورة، أم ابتززتهم إمرتهم؟ قال: ما سألتهم الولاية عليهم، ولا غلبتهم على مشيئتهم، وعهد إليّ رجل عهداً لم أسأله قط لا في سر ولا علانية، فقمت به ولم ينكره عليّ أحد، ولم يكرهه غيركم، وأنتم ترون الرضا بكل من عدل، وأنصف من كان من الناس، فأنزلوني ذلك الرجل فإن خالفت الحق وزغت عنه فلا طاعة لي عليكم، قالا: بيننا وبينك أمر إن أعطيتناه فأنت منا ونحن منك، وإن منعتنا فلست منا ولسنا منك. قال عمر: وما هو؟ قالا: رأيتك خالفت أعمال أهل بيتك وسلكت غير طريقهم وسميتها مظالم، فإن زعمت أنك على هدى وهم على ضلال فابرأ منهم والعنهم، فهو الذي يجمع بيننا وبينك أو يفرق.

قال: فتكلم عمر عند ذلك، فقال: إني قد عرفت أو ظننت أنكم لم تخرجوا لطلب الدنيا، ولكنكم أردتم الآخرة فأخطأتم سبيلها. وأنا سائلكم عن أمر فبالله لتصدقاني عنه فيما بلغ علمكما. قالا: نفعل. قال: أرأيتم أبا بكر وعمر أليسا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهما بالنجاة؟ قالا: بلىٰ. فقال: هل تعلمون أن العرب ارتدت بعد رسول الله ﷺ فقاتلهم أبا بكر فسفك الدماء وسبى الذراري وأخذ الأموال؟ قالا: قد كان ذاك. قال: فهل تعلمون أن عمر لما قام بعده رد تلك السبايا إلى عشائرهم؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل برئ أبو بكر من عمر أو عمر من أبي بكر؟ قالا: لا، قال: فهل تبرؤون من واحد منهما؟ قالا: لا. قال: أخبراني عن أهل النهروان أليسوا من أسلافكم وممن تتولون وتشهدون لهم بالنجاة؟ قالا: بلى. قال: فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا إليهم كفوا أيديهم فلم يخيفوا أمناً، ولم يسفكوا دماً، ولم يأخذوا مالاً؟ قالا: قد كان ذلك. قال: فهل تعلمون أن أهل البصرة حين خرجوا إليهم مع عبد الله بن وهب الراسبي[٢]، واستعرضوا الناس فقتلوهم وعرضوا لعبد الله بن خباب[٣]،

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٧٩ ـ ٨٠) و: سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٩٩) و: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٠١).

(٢) الآثار الواردة (٢/ ٧٠٣).

(٣) المصدر السابق نفسه.

صاحب رسول الله فقتلوه وقتلوا جاريته ، ثم صبَّحوا حياً من العرب يقال لهم: بنو قطيعة ، فاستعرضوهم فقتلوا الرجال والنساء والولدان ، حتى جعلوا يلقون الأطفال في قدور الأقط وهي تفور بهم ، قالا: قد كان ذلك. قال: فهل برئ أهل الكوفة من أهل البصرة؟ أو أهل البصرة من أهل الكوفة؟ قالا: لا. قال: فهل تبرؤون من طائفة منهما. قالا: لا. قال عمر: أخبراني أرأيتم الدين واحداً أم اثنين؟ قالا: بل واحد. قال: فهل يسعكم فيه شيء يعجز عني؟ قال: لا. قال: فكيف وسعكم أن توليتم أبا بكر وعمر وتولى كل واحد منهما صاحبه وقد اختلفت سيرتهما؟ أم كيف وسع أهل الكوفة أن تولوا أهل البصرة وأهل البصرة أهل الكوفة وقد اختلفوا في أعظم الأشياء: في الدماء والفروج والأموال ، ولا يسعني بزعمكما إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم ، فإن كان لعن أهل الذنوب فريضة مفروضة لا بد منها فأخبرني عنك أيها المتكلم متى عهدك بلعن فرعون ؟ ـ ويقال: بلعن هامان؟ ـ قال: ما أذكر متى لعنته. قال: ويحك ، فيسعك ترك لعن فرعون ، ولا يسعني بزعمك إلا لعن أهل بيتي والبراءة منهم؟! ويحك إنهم قوم جهال. أردتم أمراً فأخطأتموه ، فأنتم تقبلون من الناس ما رد عليهم رسول الله ﷺ ، وتردون عليهم ما قبل منهم ، ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده. قال: ما نحن كذلك. قال: بلى تقرون بذلك الآن. هل علمتم أن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس وهم عبدة أوثان فدعاهم إلى أن يخلعوا الأوثان ، وأن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن فعل ذلك حقن دمه وأمن عنده ، وكان أسوة المسلمين ، ومن أبى ذلك جاهده؟ قالا: بلى. قال: أفلستم أنتم اليوم تبرؤون ممن يخلع الأوثان وممن يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وتلعنونه وتقتلونه وتستحلون دمه وتلقون من يأبى ذلك من سائر الأمم من اليهود والنصارى فتحرمون دمه ويأمن عندكم؟

فقال الحبشي: ما رأيت حجة أبين ولا أقرب مأخذاً من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق ، وإنني بريء ممن خالفك. وقال للشيباني: فأنت ما تقول؟ قال: ما أحسن ما قلت ، وأحسن ما وصفت ، ولكن أكره أن أفتات على المسلمين بأمر لا أدري ما حجتهم فيه حتى أرجع إليهم ، فلعل عندهم حجة لا أعرفها. قال: فأنت أعلم. قال: فأمر للحبشي بعطائه وأقام عنده خمس عشرة ليلة ثم مات ، ولحق الشيباني بقومه فقتل معهم[١].

وجاء في رواية: ودخل رجلان من الخوارج على عمر بن عبد العزيز ، فقالا: السلام عليك يا إنسان ، فقال: وعليكما السلام يا إنسانان ، قالا: طاعة الله أحق ما اتبعت. قال: من جهل ذلك ضلَّ. قالا: الأموال لا تكون دولة بين الأغنياء. قال: قد حرموها. قالا: مال الله يقسم على أهله. قال: الله بيَّن في كتابه تفصيل ذلك. قالا: تقام الصلاة لوقتها. قال: هو من حقها. قالا:

---

(١) أنساب الأشراف (٨/ ٢١١ ـ ٢١٥) و: الآثار الواردة (٢/ ٧٠٤).

إقامة الصفوف في الصلوات. قال: هو من تمام السنة. قالا: إنما بعثنا إليك. قال: بلّغا ولا تهابا. قالا: ضع الحق بين الناس. قال: الله أمر به قبلكما. قالا: لا حكم إلا لله. قال: كلمة حق إن لم تبتغوا بها باطلاً. قالا: ائتمن الأمناء. قال: هم أعواني. قالا: احذر الخيانة. قال: السارق محذور. قالا: فالخمر ولحم الخنزير. قال: أهل الشرك أحق به. قالا: فمن دخل في الإسلام فقد أمن. قال: لولا الإسلام ما أمنا. قالا: أهل عهود رسول الله ﷺ. قال: لهم عهودهم. قالا: لا تكلفهم فوق طاقاتهم. قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قالا: ذكرنا بالقرآن. قال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]. قالا: تردنا على دواب البريد. قال: لا؛ هو من مال الله لا نطيبه لكما. قالا: فليس معنا نفقة. قال: أنتما إذاً ابنا سبيل على نفقتكما[١].

وعن أرطأة بن المنذر قال: سمعت أبا عون يقول: دخل ناس من الحرورية على عمر بن عبد العزيز فذاكروه شيئاً، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم، ويتغير عليهم، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي، فخرجوا على ذلك، فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه فقال: يا فلان إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك دون الكي فلا تكوينَّه أبداً[٢]!

وجاء في رواية: عندما خرج شوذب واسمه بسطام من بني يشكر على عبد الحميد بن عبد الرحمن بالعراق في خلافة عمر بن عبد العزيز، وكان مخرجه بجوخي[٣] في ثمانين فارساً أكثرهم من ربيعة، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد: ألا تحركهم إلا أن يسفكوا دماً، أو يفسدوا في الأرض، فإن فعلوا فحل بينهم وبين ذلك، وانظر رجلاً صليباً حازماً فوجهه إليهم، ووجه معه جنداً. وأوصِه بما أمرتك به، فعقد عبد الحميد لمحمد بن جرير بن عبد الله البجلي في ألفين من أهل الكوفة، وأمره بما أمره به عمر، وكتب عمر إلى بسطام يدعوه ويسأله عن مخرجه، فقدم كتاب عمر عليه. وقد قدم عليه محمد بن جرير، فقام بإزائه لا يحركه ولا يهيجه، فكان في كتاب عمر إليه: إنه بلغني أنك خرجت غضباً لله ولنبيه، ولست بأولى بذلك مني؛ فهلم أناظرك، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس، وإن كان في يدك نظرنا في أمرك، فلم يحرك بسطام شيئاً وكتب إلى عمر: قد أنصفت، وقد بعثت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك، قال أبو عبيدة: قال معمر بن المثنى: الرجلان اللذان بعثهما شوذب إلى عمر: مخدوج مولى بني شيبان، والآخر من صليبة بني يشكر ـ قال: فيقال: أرسل نفراً فيهما

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٤٧) و: الآثار الواردة (٢/ ٦٧٧).

(٢) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٨١) و: الآثار الواردة (٢/ ٧٠٥).

(٣) جُوخي: بالضم والكسر، وقد يفتح: نهر بالجانب الشرقي من بغداد.

هذان ، فأرسل إليهم عمر: أن اختاروا رجلين فاختاروهما ، فدخلا عليه فناظراه. فقالا له: أخبرنا عن يزيد لم تقره خليفة بعدك؟ قال: صيره غيري ، قالا: أفرأيت لو وليت مالاً لغيرك ، ثم وكلته إلى غير مأمون عليه ، أتراك كنت أديت الأمانة إلى من ائتمن[(١)].

وتذكر الروايات تخميناً: إن بني مروان خافوا أن يخرج عمر ما عندهم وما في أيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد بن عبد الملك ، فدسوا عليه من سقاه سمّاً ، فلم يلبث أن مات في اليوم الذي تقرر أن يعطي فيه جوابه للمتفاوضين[(٢)].

يتضح من الآثار السابقة أن عمر بن عبد العزيز سلك معهم المسلك الصحيح الذي تبعه سلفنا الصالح كابن عباس وأمير المؤمنين علي رضي الله عنهما ، ويبدو أن عمر قد طمع في رجوع هؤلاء الخوارج ، ولذلك لم يترك لهم شبهة إلا كسرها وبين زيفها وكشف عوارها[(٣)] ، ولم يجادلهم في الحق الذي معهم ، ولكنه طلب مهلة إلا أنه مات قبل انتهائها ، وعندما استخدم خوارج العراق القوة ضد واليه عبد الحميد وتمكن الخوارج من دحر جيش الوالي ، أسرع عمر بن عبد العزيز فأرسل إلى الخوارج مسلمة بن عبد الملك على رأس جيش من أهل الشام ، وكتب إلى عبد الحميد: قد بلغني ما فعله جيشك ، جيش السوء ، وقد بعثت مسلمة فخلِّ بينه وبينهم ، وتقدم مسلمة على رأس قواته إلى حيث عسكر الخوارج ، ودارت معركة بين الطرفين انتهت بانتصار جيش الخلافة[(٤)].

إن اضطرار عمر إلى استخدام القوة إزاء فئة من الخوارج لم يدفعه أبداً إلى تطبيق أسلوب الشدة تجاه كل الخوارج ، فما دام خصمه مستعداً للحوار ، فلا داعي أبداً لإراقة الدماء[(٥)].

٣ ـ السبب المفضي لقتال الخوارج:

لم يأمر عمر بن عبد العزيز بقتال الخوارج لما اختلفوا معه في الرأي ، ولا عندما عارضوه وسبوه ، بل صبر عليهم لعل الله أن يهديهم إلى الصواب ، ثم لما وصلوا إلى مرحلة خطيرة وهي أخذ المال وإخافة السبيل وسفك الدماء عند ذلك أمر بقتالهم[(٦)].

٤ ـ رد متاع الخوارج إلى أهليهم:

لم يَسْبِ عمر بن عبد العزيز نساء الخوارج وذراريهم ، ولم يستحلَّ أموالهم ، بل أمر بردِّ

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٦٠).

(٢) المصدر السابق نفسه و: ملامح الانقلاب الإسلامي (ص ٩٧).

(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٢/ ٧١١).

(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٨)؛ ملامح الانقلاب الإسلامي (ص ٩٤).

(٥) ملامح الانقلاب الإسلامي (ص ٩٤).

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز ، د. محمد شقير (٢/ ٤٦٩).

متاعهم إلى أهليهم ، فقد كتب إلى عامله في الخوارج : فإن أظفرك الله بهم وأدالك عليهم فرد ما أصبت من متاعهم إلى أهليهم[(١)] ، وهذا رأي علي بن أبي طالب فيهم في عدم سبي ذرية ونساء الخوارج ، وعدم استحلال أموالهم[(٢)] .

٥ ـ حبس أسرى الخوارج حتى يحدثوا خيراً:

فلما قاتلهم ، فقتل منهم من قتل ، وأسر منهم من أسر ، أمر عمر بن عبد العزيز بسجنهم حتى يحدثوا خيراً من الرجوع إلى الحق والتخلي عن أفكارهم الضالة[(٣)] ، فلقد مات عمر بن عبد العزيز وفي حبسه منهم عدة[(٤)]. فهذا منهج وفقه عمر بن عبد العزيز في التعامل مع المعارضين من الخوارج .

ثانياً: الشيعة :

تُذكر في الاصطلاح كاسم لكل من فضَّل علياً ـ رضي الله عنه ـ على الخلفاء الراشدين قبله رضي الله عنهم جميعاً ، ورأى أهلَ بيته أحق بالخلافة[(٥)] ، وقد تحدثت عن الشيعة بالتفصيل في كتابي عن أمير المؤمنين علي رضي الله عنه . والشيعة فرق عديدة ؛ منهم الغلاة الذين خرجوا عن الإسلام وهم يدعونه ويدعون التشيع وقد انقرض معظمُهم . ومنهم دون ذلك ، ومن أهم فرقهم : الكيسانية ، والسبئية ، والإمامية وغيرها .

وكان لعمر بن عبد العزيز أقوال في الشيعة الغلاة ، فقد قال عمر بن عبد العزيز : إني لأعرف صلاح بني هاشم وفسادهم بحب كُثير[(٦)] ، فمن أحبه منهم فهو فاسد ، ومن أبغضه فهو صالح ؛ لأنه كان خشبياً يؤمن بالرجعة[(٧)] .

وجاء عمرَ بن عبد العزيز كتابٌ من عامله على الكوفة يخبره بسوء طاعة أهلها ، فرد عمر : لا تطلب طاعة من خذل علياً ـ رضي الله عنه ـ وكان إماماً مرضياً[(٨)] ، وعن إسحاق بن طلحة بن أشعث قال: بعثني عمر بن عبد العزيز إلى العراق فقال: أقرئهم ولا تستقرئهم ، وحدثهم ولا تسمع منهم ، وعلمهم ولا تتعلم منهم . فقد كان عمر بن عبد العزيز على معرفة بعقيدة كثير

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٧١) .
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٧٣) .
(٤) الطبقات (٥/ ٥/ ٣٥٨ـ٣٥٩) و: فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٧٣) .
(٥) مقالات الإسلاميين (ص ٦٥) و: الآثار الواردة (٢/ ٧٢٧) .
(٦) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٢٨) .
(٧) المصدر السابق نفسه .
(٨) المصدر السابق نفسه (٢/ ٧٢٩) .

الشاعر ، ويؤيدها ما يروى أن كثير عزة له أبيات يثبت فيها عقيدته الفاسدة في الغلو في أهل البيت؛ مثل قوله:

ألا إنَّ الأئمـةَ مـن قـريـشٍ ... ولاةُ الحـقِّ أربعـةٌ سـواءُ
علـيٌّ والثـلاثـةُ مـن بنيـهِ ... هُـمُ الأسبـاطُ ليـسَ بهـم خفـاءُ
فسِبـطٌ سبـطُ إيمـانٍ وبـرٍّ ... وسبـطٌ غيبتْـهُ كـربـلاءُ
وسبـطٌ لايـذوقُ المـوتَ حتَّـى ... يقـودَ الخيـلَ يقـدمهـا اللـواءُ[١]

قال الذهبي: قال الزبير بن بكار عن كثير: كان شيعياً يقول بتناسخ الأرواح ، ويقرأ: ﴿فِىٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] ، قال: وكان خشبياً يؤمن بالرجعة ، يعني: رجعة علي رضي الله عنه إلى الدنيا[٢].

ولم يهتم عمر بالرد على ما كان يراه كثير وغيره من الشيعة الغلاة كما اهتم بالرد على القدرية والخوارج ، وحذر عمر بن عبد العزيز من مخالطة ومجالسة أصحاب البدع والأهواء[٣].

ومن أشهر آراء الشيعة الغلاة:

ـ القول بوجوب إمامة علي رضي الله عنه ، وتقديمه وتفضيله على سائر الصحابة ، وأن الرسول نص على إمامته.

ـ القول بعصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر.

ـ القول بالتولي والتبري قولاً وفعلاً (أي: تولي علي رضي الله عنه والتبري من أصحاب رسول الله ﷺ) ولا سيما الخلفاء الثلاثة رضي الله عنهم[٤].

ومن أراد الرد على هذه المعتقدات فليراجع كتابي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثالثاً: القدرية في عهد عمر بن عبد العزيز:

١ ـ تعريف القدرية في الاصطلاح:

للقدرية إطلاقات ، خاصٌّ ، وعامٌّ:

---

(١) الفرق بين الفرق نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٣٤).
(٢) تاريخ الإسلام نقلاً عن الآثار الواردة (٢/ ٧٣٤). والخشبية: فرقة من الشيعة سموا بذلك؛ لقولهم: إنا لا نقاتل بالسيف إلا مع إمام معصوم ، فقاتلوا بالخشب. منهاج السنة (١/ ٣٦).
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٢/ ٧٣٣ ، ٧٣٤).
(٤) وسطية أهل الشيعة بين الفرق (ص ٢٩٣ ، ٢٩٤).

أ ـ فالقدرية بالمعنى الخاص:

هم المنكرون للقدر: أي المكذبون بتقدير الله تعالى لأفعال العباد أو بعضها، أي: الذين قالوا: لا قدر (من الله) والأمر أنف، أي: مستأنف ليس لله فيه تقدير سابق كما سيأتي بيانه بإذن الله.

ب ـ القدرية بالمعنى العام:

هم الخائضون في علم الله تعالى وكتابته ومشيئته وتقديره وخلقه بغير علم، وبخلاف مقتضى النصوص وفهم السلف[1].

٢ ـ نشأة القول بالقدر في الإسلام:

أ ـ في عهد رسول الله ﷺ:

عن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث أخاف على أمتي: الاستسقاء بالأنواء، وحيف السلطان، وتكذيب بالقدر»[2]، كما حذر النبي ﷺ من المراء والجدل في الدين عموماً، وفي القدر على جهة الخصوص، وعن ضرب آيات الله والأحاديث الصحيحة بعضها ببعض، وعن إثارة الشبهات والمعارضات في نصوص القدر من ذلك ما رواه أحمد في المسند عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم والناس يتكلمون في القدر، قال: فكأنما تفقأ في وجهه حبّ الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»[3].

ب ـ تتابع الفرق ومقالاتها في القرن الأول إلى ظهور القدرية:

بعد ظهور الفرق الأولى سنة (٣٧ ـ ٤٠ هـ) الخوارج والشيعة بقي الحال على هذا إلى ما بعد سنة (٦٢ هـ) حيث بزغ نجم القدرية النصرانية والمجوسية حين نبغ بها معبد الجهني، ثم توالت المقولات على منوالها تترى، أو كما قال ابن تيمية: فالبدع تكون في أولها شبراً، ثم تكثر في الأتباع حتى تصير أذراعاً وأميالاً وفراسخ[4].

جـ ـ ظهور القدرية الأولى:

وتتمثل في مقولات معبد الجهني (ت ٨٠ هـ) وأتباعه، ثم غيلان الدمشقي وأتباعه

---

(١) القدرية والمرجئة، د. ناصر العقل (ص ١٩).
(٢) مسند أحمد (٥/ ٩٠) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١١٢٧).
(٣) مسند أحمد (٢/ ١٧٨، ١٩٦) وقال صاحب الزوائد: هذا إسناد رجاله ثقات.
(٤) الفتاوى (٨/ ٤٢٥).

(١٠٥ هـ) ، وتتلخص بأن الله تعالى (بزعمهم) لم يقدِّر أفعال العباد ولم يكتبها ، وأن الأمر أنف (أي: مستأنف) لم يكن في علم الله ولا تقديره السابق ، وكانت بدايات كلامهم في هذا بعد سنة ٦٣ هـ ، وهو تاريخ نشأة القدرية الأولى ، إذاً فالقدرية الأولى هم: الذين أنكروا علم الله السابق ، وزعموا أنه تعالى لم يقدِّر أفعال العباد سلفاً ، ولم يعلمها ولم يكتبها في اللوح المحفوظ ، وأن الأمر أنف (أي: مستأنف) ليس بتقدير سابق من الله تعالى مما استقل العباد بفعلها ، وهذه مقولة غالية في القدر؛ حيث تنكر العلم والكتابة وتقدير عموم أفعال المكلفين خيرها وشرّها فيما يظهر ، هذا أول أمرهم ، فلما أنكر الأئمة هذا القول صار جمهور القدرية يقرون بالعلم المتقدم والكتاب السابق ، لكن ينكرون عموم مشيئة الله وقدرته وخلقه لأفعال العباد، فأنكروا أن يكون الله خالقاً لأفعال العباد أو بعضها ، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر ، هذا ما استقرت عليه القدرية الثانية وعلى رأسهم المعتزلة[١] .

وكانت مقالات القدرية الأولى تتلخص في قولين:

ـ إن الأمر أنف «أي: مستأنف» ، ويعنون بذلك أفعال المكلفين[٢] ، فيزعمون أن الله تعالى لم يقدرها ولم يعلمها إلا أثناء حدوثها من المكلف ، ويفسره الثاني .

ـ قولهم: إن الله تعالى لم يقدر الكتابة (أي: في اللوح المحفوظ) ولا الأعمال[٣] في السابق .

د ـ رؤوس القدرية الأولى:

ـ معبد الجهني (ت ٨٠ هـ):

ساق ابن حجر في تهذيب التهذيب أقوال بعض أهل الجرح والتعديل فيه ، فقال: وقال أبو حاتم: كان صدوقاً في الحديث ، وكان أول من تكلم في القدر بالبصرة ، وكان رأساً في القدر ، قدم المدينة فأفسد بها ناساً[٤] .

وقال الدارقطني: حديثه صالح ومذهبه رديء[٥] ، وقال محمد بن شعيب بن شابور عن الأوزاعي: أول من نطق في القدر رجل من أهل العراق يقال له: سوسن ، وكان نصرانياً ، فأسلم

---

(١) القدرية والمرجئة ناصر العقل (ص ٢٥).
(٢) الفتاوى (٧/ ٣٨٥).
(٣) المصدر السابق نقلاً عن القدرية والمرجئة (ص ٣٠).
(٤) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥).
(٥) تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٢٥) و: سير أعلام النبلاء (٤/ ١٨٦).

ثم تنصر فأخذ عنه معبد الجهني ، وأخذ غيلان عن معبد[١] . وكان مسلم بن يسار يقعد على هذه السارية ، فقال : إن معبداً يقول بقول النصارى .

ـ غيلان الدمشقي المقتول (١٠٥ هـ) :

غيلان الدمشقي هو الرجل الثاني بعد معبد الجهني من رؤوس بدعة القدرية ، وقد ظهرت مقولته بالشام وافتتن بها خلق[٢] ، ولم يقتصر غيلان على مقولات معبد ، بل تكلم في الصفات فنفى بعض الصفات ، كالاستواء[٣] ، ونسب إليه كذلك : القول بأن الإيمان هو المعرفة ، وأن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان ، والقول بخلق القرآن[٤] ، وهي أصول الجعد بن درهم بعده ، ثم أصول الجهمية والمعتزلة ، حيث وضعوا بها القواعد والأصول ، وناظروا فيها وتوسعوا في هذه البدع[٥] ، ويقال : إن أول من أنكر استواء الله على عرشه وأوله بالاستيلاء غيلان الدمشقي (قتل ١٠٥ هـ) ، أو الجعد بن درهم (قتل ١٢٤ هـ) ، وقيل الجهم بن صفوان (قتل ١٢٨ هـ) .

وإنكار الاستواء ينسجم مع قاعدة الجعد الخبيثة في التعطيل التي أنكر بها الكلام والخلة ، والأرجح أن أول من حفظ عنه أنه قال بأن الله ـ تعالى ـ ليس على العرش حقيقة الجعد ، ثم أخذها عنه الجهم وأظهرها[٦] ، وإنكار الاستواء وتأويله هو الشرارة الأولى لأهل الأهواء ، والتي فيها خاضوا في صفات الله ـ تعالى ـ نفياً وتعطيلاً وتأويلاً ، ذلك أن الاستواء مرتبط بالعلو والفوقية ، فالرؤية ، ثم صفات الله الفعلية ، ومنها تجرؤوا على بقية الصفات الخبرية كاليد والعين والوجه ، وهلم جرّاً[٧] .

٣ ـ موقف عمر بن عبد العزيز من غيلان الدمشقي :

عن عمرو بن مهاجر قال : بلغ عمر بن عبد العزيز : أن غيلان بن مسلم يقول في القدر ، فبعث إليه فحجبه أياماً ، ثم أدخله عليه فقال : غيلان ! ما هذا الذي بلغني عنك؟ قال عمرو بن مهاجر : فأشرت إليه ألا يقول شيئاً ، قال : فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! إن الله عز وجل قال :

---

(١) المصدر السابق نفسه .

(٢) القدرية والمرجئة ، ناصر العقل (ص ٣٢) .

(٣) دراسات في الأهواء والفرق والبدع (ص ٢٥١) .

(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٢٥٠) .

(٥) المصدر السابق نفسه (ص ٢٥١) .

(٦) الفتاوى (٥/ ٢٠) و : دراسات في الأهواء والفرق (ص ٢٥١) .

(٧) دراسات في الأهواء والفرق والبدع (ص ٢٥١) .

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان]. قال: اقرأ آخر السورة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ [الإنسان]، ثم قال: ما تقول يا غيلان؟ قال: أقول: قد كنت أعمى فبصَّرتني، وأصم فأسمعتني، وضالاً فهديتني[١].

وفي رواية: دعا عمر بن عبد العزيز غيلان فقال: يا غيلان! بلغني أنك تتكلَّم في القدر، فقال: يا أمير المؤمنين إنهم يكذبون عليَّ. فقال: يا غيلان اقرأ أول (يس) فقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حتى قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. فقال غيلان: يا أمير المؤمنين، والله لكأني لم أقرأها قط قبل اليوم، أشهدك يا أمير المؤمنين أني تائب مما كنت أقول، فقال عمر: اللهم إن كان صادقاً فثبته، وإن كان كاذباً فاجعله آية للمؤمنين[٢].

وجاءت روايات كثيرة في محاورة عمر بن عبد العزيز لغيلان الدمشقي، وكان له حديث طويل في معتقد أهل السنة في مسألة الإيمان بالقدر، وقد ناقش عمر بن عبد العزيز القدرية، وسألهم عن العلم، وذلك بسؤالهم عن علم الله، فإذا أقروا به خصموا، وإن جحدوا كفروا، فقال لغيلان الدمشقي: ما تقول في العلم؟ قال: قد نفد العلم. قال: فأنت مخصوم، اذهب الآن فقل ما شئت، ويحك يا غيلان! إنك إن أقررت بالعلم خصمت وإن جحدته كفرت، إن تقر به فتخصم خير لك من أن تجحده فتكفر[٣].

ولعل عمر بن عبد العزيز أول من نهج هذا النهج في سؤال القدرية عن العلم، ثم صار هذا المنهج منهجاً لأهل السنة بعده، وقد استدل رحمه الله في ردوده على غيلان بآيات صريحة في الرد على المكذبين بالقدر، كما جاء في بعض الروايات ـ وهي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات]. قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآيات: يقول تعالى: فإنكم أيها المشركون بالله وما تعبدون من الآلهة والأوثان ما أنتم عليه بفاتنين؛ أي: بمضلين أحداً إلا من سبق في علمي أنه صالِ الجحيم[٤].

وقد بيَّن عمر في خطبه ورسائله أن الله تبارك وتعالى هو الهادي وهو المضل، وهذا ما جاء

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٥٠).
(٢) الإبانة (٢/ ٢٣٥) و: الآثار الواردة (٢/ ٧٤٩).
(٣) السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢/ ٤٢٩).
(٤) تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٩).

في الكتاب العزيز؛ قال تعالى: ﴿ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام: ٣٩]. وغيرها من الآيات.

وقد كانت القدرية تنكر أن يكون الله تعالى هو الهادي وهو الفاتن، وإنما العبد هو الذي يهدي نفسه إذا شاء ويضلها إذا شاء.

فلعل رسائل عمر وخطبه في الجمع من الردود على هؤلاء المبتدعة، وسواء قصدهم عمر بخطبه أو ألقاها بدون قصد الرد عليهم تبقى ردوداً قوية على كل من انحرف في باب القدر عن منهج الكتاب والسنة، وقد بيَّن عمر بن عبد العزيز أن أعمال العباد مخلوقة لله تعالى، مقدرة له مكتوبة على عباده، وهذا ما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٦]. وقال ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[١].

وقد بين عمر بن عبد العزيز ـ كما جاء في خطبه ـ أن العبد إذا أذنب فعليه أن يتوب ويستغفر الله تعالى ولا يحتج على الله بالقدر، ولا يقول: أي ذنب لي وقد قدر علي هذا الذنب؟! بل يعلم أنه هو المذنب العاصي الفاعل للذنب وإن كان ذلك كله بقضاء الله وقدره ومشيئته، إذ لا يكون شيء إلا بمشيئته وقدرته وخلقه، كما رد عمر على القدرية القائلين بأن العبد له مشيئة مستقلة يستطيع بها رد علم الله، فبين أن العبد له قدرة ومشيئة ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى[٢].

٤ ـ بيان مراتب القدر:

إن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ تدل بمجموعها على الإيمان بالقدر، كما تدل على الإيمان بمراتب القدر الأربعة التي اتفق السلف الصالح رحمهم الله تعالى ومن سار على نهجهم على أنه لا يتم الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بها كلها. وهي: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، وكانت القدرية الموجودون في زمن عمر بن عبد العزيز ينكرون العلم والكتابة، وهؤلاء هم الذين تبرأ منهم عبد الله بن عمر بن الخطاب بقوله: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم براء مني[٣].

ومن كلام عمر بن عبد العزيز في بيان مراتب القدر: رده على الرجل الذي كتب إليه، فجاء في رسالته: .. كتبت تسأل عن الإقرار بالقدر، فعلى الخبير ـ بإذن الله ـ وقعت، وما أعلم ما أحدث الناس من محدثة ولا ابتدعوا من بدعة هي أبين أثراً ولا أثبت أمراً من الإقرار بالقدر، لقد كان ذكره في الجاهلية الجهلاء يتكلمون به في كلامهم وفي شعرهم، يعزون به أنفسهم على

---

(١) مسلم رقم (٢٦٥٥).
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٦٩، ٧٧٠).
(٣) مسلم كتاب الإيمان باب القدر (١/ ٣٦، ٣٧).

ما فاتهم ، ثم لم يزده الإسلام بعد إلا شدة ، ولقد ذكره رسول الله ﷺ في غير حديث ولا حديثين ، وقد سمعه منه المسلمون فتكلموا به في حياته ، وبعد وفاته يقيناً وتسليماً لربهم ، وتضعيفاً لأنفسهم أن يكون شيء لم يحط به علمه ، ولم يحْصِه كتابه ، ولم يمض فيه قدره ، وإنه مع ذلك لفي محكم كتابه : منه اقتبسوه ومنه تعلموه ، ولئن قلتم : لم أنزل الله آية كذا ؟ ولم قال كذا ؟ لقد قرؤوا منه ما قرأتم وعلموا من تأويله ما جهلتم ، وقالوا بعد ذلك كله بكتاب وقدر ، وكتب الشقاوة ، وما يقدر يكن ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا نملك لأنفسنا ضراً ولا نفعاً ، ثم رغبوا بعد ذلك ورهبوا[(١)] .

ومن خلال رسائل وخطب عمر بن عبد العزيز يتضح معتقد عمر بن عبد العزيز في القدر وفي بيانه لمراتبه ، فأول مراتبه :

أ ـ العلم :

والمقصود أن الله تبارك وتعالى قد علم ما العباد عاملون ، وإلى ما هم صائرون قبل أن يخلقهم بعلمه القديم الذي هو صفة من صفات ذاته ، وأنه يعلم أهل الجنة وأهل النار ، قال تعالى : ﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام : ٥٩] .

ومن السنة قوله ﷺ لرجل سأله بقوله : يا رسول الله ! أَعُلِمَ أهلُ الجنة مِنْ أهلِ النار؟ قال ﷺ : «نعم» . قال : ففيمَ يعمل العاملون؟! قال : «كل ميسر لما خلق له»[(٢)] .

ب ـ مرتبة الكتابة :

خطب عمر بن عبد العزيز ، فقال : أيها الناس ! من عمل منكم خيراً فليحمد الله تعالى ، ومن أساء فليستغفر الله ، ثم إن عاد فليستغفر الله ؛ فإنه لا بد لأقوام أن يعملوا أعمالاً وضعها الله في رقابهم وكتبها عليهم[(٣)] . وخطب يوماً فقال : إن الدنيا ليست بدار قرار ، دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها منها الظعن[(٤)] .

فهذا هو المأثور عن عمر من كتابة الله مقادير الخلائق قبل خلقهم ، وإحصائه كل ذلك ، وعلمه جزئيات كل[(٥)] شيء ؛ قال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى

(١) الإبانة لابن بطة (٢/ ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣) و: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٥١٠) .
(٢) مسلم رقم (٢٦٤٩) .
(٣) الآثار الواردة (١/ ٥١٩) نقلاً عن الشريعة للآجري .
(٤) سيرة عمر لابن الجوزي ص ٢٤٤ .
(٥) الآثار الواردة (١/ ٥١٩) .

كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ [الحديد: ٢٢]، وقال رسول الله ﷺ: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[١].

جـ ـ المشيئة:

والمقصود بها: أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا حركة ولا سكون في السموات والأرض إلا بمشيئته سبحانه وتعالى، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد، وقد حرص عمر بن عبد العزيز على توضيح هذه المرتبة والرد على من أنكرها؛ ففي رسالته إلى عامله يقول: وما يقدر يكن، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وكان يقول: لو أراد الله ألا يعصى ما خلق إبليس[٢].

وناظر غيلان الدمشقي وأفحمه حين بين له خطأه في الإحتجاج بأوائل الآيات من سورة الإنسان، فطلب منه أن يقرأ آخر السورة وقال له: ويحك! أما تسمع الله يقول: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الإنسان: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأنعام: ٣٩]، وقال رسول الله ﷺ: «قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفها كيف يشاء». ثم قال: «يا مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»[٣].

د ـ الخلق:

المقصود بها: إن الله تعالى هو خالق الخلق، وخالق كل شيء، فهو الذي خلق الكون وأوجده، فهو الخالق، وما سواه مربوب مخلوق[٤].

ولعمر بن عبد العزيز في تقرير هذه المرتبة أبلغ البيان، فقد كتب في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾ [هود]. قال: الذين لا يختلفون، خلقهم الله للرحمة[٥]. فهذه الآية تضمن خلق العباد وأعمالهم[٦]، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ۝١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ﴾ [هود]. وكتب إلى عدي بن أرطأة: أما بعد: فإن استعمالك سعد بن مسعود على عمان من الخطايا التي قدّر الله عليك وقدّر أن تبتلى بها[٧]، وهذا الذي قرّره عمر بن عبد العزيز دلّ عليه الكتاب والسنة، قال

---

(١) مسلم رقم (٢٦٥٣).
(٢) الآثار الواردة (١/ ٥٢٤).
(٣) مسلم رقم (٢٦٥٤).
(٤) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٢٥).
(٥) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٧٤).
(٦) مصنف عبد الرزاق (١١/ ١٢٢).
(٧) المصدر السابق نفسه.

تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وقال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر حتى العجز والكيس»[(١)].

٥ ـ الفرق بين القضاء والقدر في الاصطلاح:

قيل: المراد بالقدر: التقدير، وبالقضاء: الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]. أي: خلقهن. القضاء والقدر أمران متلازمان، لا ينفك أحدهما عن الآخر؛ لأن أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه[(٢)]. وقيل: إن القضاء هو العلم السابق الذي حكم الله به في الأزل، والقدر هو وقوع الخلق على وزن الأمر المقضي السابق[(٣)]، وقال ابن حجر: وقالوا ـ أي العلماء ـ: القضاء هو الحكم الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله[(٤)]. وقيل: إذا اجتمعا افترقا؛ بحيث يصبح لكل واحد منهما مدلول يحسب ما مر في القولين السابقين، وإذا افترقا اجتمعا، بحيث إذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر[(٥)] قياساً على ما جاء في التفريق بين الإيمان والإسلام، والفقير والمسكين، ونحو ذلك.

ولعل هذا التعريف توفيق بين من يرى التفرقة بين القضاء والقدر، وبين من لا يرى ذلك. والذي يظهر: أنه ليس هناك فرق واضح بين القضاء والقدر[(٦)]، ولا فائدة من هذا الخلاف، لأنه قد وقع الاتفاق على أن أحدهما يطلق على الآخر، وعند ذكرهما معاً، فلا مشاحة من تعريف أحدهما بما يدل على الآخر[(٧)].

٦ ـ الرضا بالقضاء والقدر:

قال عمر بن عبد العزيز: ما أصبح لي اليوم في الأمور هوى إلا في مواقع قضاء الله فيها[(٨)]، وكان يدعو بهذا الدعاء: اللهم رضني بقضائك، وبارك لي في قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت. وكان عمر يقول: ما برح بي هذا الدعاء حتى لقد أصبحت

---

(١) مسلم رقم (٢٦٥٥).
(٢) النهاية لابن الأثير (٤/ ٧٨).
(٣) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤).
(٤) فتح الباري (١١/ ٤٨٦).
(٥) القضاء والقدر لمحمد بن إبراهيم الحمد ص ٢٩ و: الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤).
(٦) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٩٤).
(٧) القضاء والقدر لعبد الرحمن المحمود (ص ٤٤).
(٨) الطبقات (٥/ ٣٧٢)؛ الآثار الواردة (١/ ٥٣٥).

وما لي في شيء من الأمور هوى إلا في موضع القضاء[١]. وقال حين دفن ابنه عبد الملك: رضينا بقضاء الله، وسلمنا لأمره، والحمد لله رب العالمين[٢]. ولما عُزي في ابنه عبد الملك قال: وأنا أعوذ بالله أن يكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله، فإن ذلك لا يصلح لي في بلائه عندي وإحسانه إلي[٣].

تحث الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في هذا المبحث على الرضا بالقضاء، والمقصود بالقضاء الذي قدره الله على عبده من المصائب التي ليست ذنوباً، فإن الصبر على المصائب واجب، وأما الرضا بها فهو مشروع، لكن هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين لأصحاب أحمد وغيرهما؛ أصحهما: أنه مستحب ليس بواجب[٤]. ولا شك أن الرضا بالقضاء من تمام الإيمان بالقضاء والقدر، وهو دليل على الثقة بما عند الله تعالى، فلا يندم على ما فات، ولا يفرح بما هو آتٍ مما قدره الله تعالى له، فهو يرضى به على وفق قضاء الله له[٥].

رابعاً: المرجئة:

نسبة إلى الإرجاء، وهو تأخير العمل عن الإيمان[٦].

والإرجاء على معنيين: أحدهما: بمعنى التأخير في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾؛ أي: أمهله وأخِّره. والثاني: إعطاء الرجاء[٧].

والمرجئة في الاصطلاح: فقد عرفهم الإمام أحمد بقوله: هم الذين يزعمون أن الإيمان مجرد النطق باللسان، وأن الناس لا يتفاضلون في الإيمان، وأن إيمانهم وإيمان الملائكة والأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ واحد، وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وأن الإيمان ليس فيه استثناء، وأن من آمن بلسانه ولم يعمل فهو مؤمن حقاً[٨].

والمرجئة الخالصة: وهم الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ومن هؤلاء جهم وأصحابه[٩].

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٩٧).
(٢) الآثار الواردة (١/ ٥٣٦).
(٣) الحلية (٥/ ٣٥٨، ٣٥٧) و: الآثار الواردة (١/ ٥٣٧).
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ١٩١).
(٥) الآثار الواردة (١/ ٥٣٨).
(٦) الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٢٠٢) و: وسطية أهل السنة (ص ٢٩٤).
(٧) الملل والنحل للشهرستاني (١/ ١٣٩).
(٨) موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع (١/ ١٥٢).
(٩) وسطية أهل السنة بين الفرق (ص ٢٩٤).

وأول من تكلم في الإرجاء ـ الذي هو تأخير الأعمال عن الإيمان ـ غيلان الدمشقي، كما يقول الشهرستاني[١]، وأما الإرجاء المنسوب إلى أبي محمد الحسن بن محمد المعروف بابن الحنفية؛ فليس هو الإرجاء في الإيمان، وإنما هو إرجاء أمر المقاتلين من الصحابة إلى الله عز وجل[٢]، وقال ابن سعد في ترجمته، وهو أول من تكلم في الإرجاء ـ ويذكر كذلك: أن زاذان وميسرة دخلا عليه فلاماه على الكتاب الذي وضع في الإرجاء، فقال لزاذان: يا أبا عمر لوددت أني كنت مت ولم أكتبه[٣]، فهذا الكتاب إنما فيه إرجاء أمر المشتركين في الفتنة التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر إلى الله عز وجل[٤]، وقد ذكر ابن حجر: أنه اطلع على هذا الكتاب الذي ألفه الحسن بن محمد، وقال: المراد بالإرجاء الذي تكلم به الحسن بن محمد في غير الإرجاء الذي عيبه أهل السنة: المتعلق بالإيمان[٥].

وأهم أقوالهم التي فارقوا فيها أهل السنة:

ـ قولهم بتأخير الأعمال عن مسمى الإيمان.

ـ وقول الخالصة منهم: أنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة[٦].

وقد جاءت عن عمر بن عبد العزيز آثار خاصة تدل على زيادة الإيمان وإدخال الأعمال فيه؛ وهذه الآثار رد على المرجئة ولا سيما وأن أهل العلم قد ذكروا هذه الآثار في معرض ردودهم على المرجئة. كما ورد عنه ـ رحمه الله تعالى ـ التحذير عن البدع كلها، ولا بدعة أظهر من بدعة الإرجاء[٧]، وها هي الآثار الواردة عنه في هذا المبحث، فقد مرّ معنا قوله: إن للإسلام حدوداً وشرائع وسنناً؛ فمن عمل بها استكمل الإيمان، ومن لم يعمل بها لم يستكمل الإيمان، فإن أعِشْ أعلمكموها وأحملكم عليها، وإن مت فما أنا على صحبتكم بحريص[٨]. وقال: لا عذر لأحد بعد السنة في ضلالة ركبها يحسب أنها هدى[٩]. وقال: فلو كان كل بدعة يميتها الله على

(١) الملل والنحل (١/ ١٣٩).
(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق (ص ٢٩٥).
(٣) الطبقات (٥/ ٣٢٨) و: قضية الثواب والعقاب، د. السميري (ص ٣٠).
(٤) قضية الثواب والعقاب للسميري (ص ٣٠).
(٥) تهذيب التهذيب (٢/ ٣٢٠) و: قضية الثواب والعقاب (ص ٣٠).
(٦) وسطية أهل السنة بين الفرق (ص ٢٩٥).
(٧) الآثار الواردة (٢/ ٨١٣).
(٨) سيرة عمر لابن الحكم (ص ٤٠) و: الآثار الواردة (٢/ ٨١٣).
(٩) الآثارة الواردة (٢/ ٨١٤).

يدي، وكل سنة ينعشها الله على يدي ببضعة من لحمي حتى يأتي آخر ذلك على نفسي كان في الله يسيراً[١].

يتبين مما سبق: أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ كان حريصاً على رد البدع كلها. حتى ولو أدى ذلك إلى أن يضحي بأعضائه كلها، وقد بين في تلك الآثار القول الصحيح في الإيمان وأنه يشمل العبادات كلها، وأولى عناية خاصة بشعبه، ووعد بأنه إن عاش فسيحمل رعيته عليها، ففي هذا المأثور عنه بيان للقول الصحيح في الإيمان، وقد وضحت مفهومه للإيمان عند الحديث عن اهتمامه بعقائد أهل السنة، كما أن فيه الرد على بدعة الإرجاء؛ لأن إحقاق الحق إبطال للباطل، وهذا المأثور عنه هو الحق الثابت عنه في مسألة الإيمان[٢].

وأما ما رواه ابن سعد في الطبقات: أن عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة جاءه راحلاً إليه عون بن عبد الله وموسى بن أبي كثير وعمر بن حمزة، وفي بعض المراجع: عمر بن ذر؛ فكلموه في الإرجاء وناظروه فزعموا أنه وافقهم، ولم يخالفهم في شيء منه[٣]. فهذا لا يثبت عنه لما يلي:

ـ لأن ابن سعد رواه بدون سند، فهو إذاً منقطع.

ـ ولأنه زعموا فيه صيغة التمريض (زعموا).

ـ وأيضاً إن مثل هذا الزعم والادعاء لا يعول عليه؛ لأن رواته متَّهمون بالإرجاء[٤].

هذا وعلى فرض تسليم تلك الرواية؛ فإن عون بن عبد الله قد تاب عن الإرجاء. وقد روى ذلك اللالكائي بسنده عن نوفل الهذلي عن أبيه قال: كان عون بن عبد الله بن مسعود من آدب أهل المدينة وأفقههم، وكان مرجئاً، ثم رجع فأنشد يقول:

لأولُ ما نفارقُ غيرَ شكٍّ ... نفارقُ ما يقولُ المرجئونا
وقالوا مؤمنٌ من أهلِ جورٍ ... وليسَ المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمنٌ دمُهُ حلالٌ ... وقدْ حرمتْ دماءُ المؤمنينا[٥]

فثبت أن عون بن عبد الله ـ رحمه الله ـ قد رجع عن القول بالإرجاء، ولعل قوله بالإرجاء كان

(١) الطبقات (٥/ ٣٤٣).
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨١٤).
(٣) الطبقات (٦/ ٣٣٩) و: سير أعلام النبلاء (٥/ ١٠٤).
(٤) الآثار الواردة (٢/ ٨١٥).
(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٥/ ١٠٧٧).

قبل اتصاله بعمر ـ رحمه الله تعالى ـ اتصالاً وثيقاً وكونه من المقربين عنده[(١)].

خامساً: الجهمية:

تنتسب الجهمية إلى الجهم بن صفوان من أهل خراسان ومولى لبني راسب، تتلمذ على الجعد بن درهم، وكان كاتباً للحارث بن سريح[(٢)]، الذي أثار الفتن ضد الدولة الأموية في خراسان، وكان جهم يقرأ سيرته ويدعو إلى توليته[(٣)]، ويحرص الناس على الخروج معه، وفي سنة ١٢٨ هـ وقعت معركة بين جيش أمير خراسان ـ نصر بن سيار ـ وجيش الحارث بن سريح، وكان جهم بن صفوان في جيش الحارث، فطعنه رجل في فمه فقتله، وقيل: بل أسر وأوقف بين يدي سلم بن أحوز[(٤)]، فأمر بقتله[(٥)]، وأهم أصول الجهمية:

١ ـ تبنّى الجهم آراء الجعد بن درهم، والتي هي نفي صفات الله عز وجل، والقول بخلق القرآن، ثم زاد عليها بدعاً أخرى.

٢ ـ القول بالجبر، حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شيء ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور على أفعاله.

٣ ـ القول بأن الإيمان هو المعرفة؛ حيث زعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط.

٤ ـ القول بفناء الجنة والنار؛ حيث زعم أنهما تفنيان بعد دخول أهلها فيهما، إذ لا يتصور على ـ حسب زعمه ـ حركات لا تتناهى.

٥ ـ القول بأن علم الله حادث، حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشيء قبل خلقه[(٦)].

فنفي الصفات أخذها الجهم من الجعد ومن الفلاسفة، والسمنية[(٧)]، وذلك أن الجهم كان فصيح اللسان ولم يكن له علم ولا مجالسة لأهل العلم، فكلم السمنية فقالوا له: صف لنا ربك ـ عز وجل ـ الذي تعبده، فدخل البيت ولم يخرج، ثم خرج إليهم بعد أيام فقال: هو هذا الهواء مع كل شيء وفي كل شيء ولا يخلو منه شيء. وروى الإمام أحمد يرحمه الله مناظرة

---

(١) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٢/ ٨١٦).
(٢) حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١١٥).
(٣) الكامل في التاريخ نقلاً عن حقيقة البدعة (١/ ١١٥).
(٤) البداية والنهاية نقلاً عن حقيقة البدعة وأحكامها (١/ ١١٥).
(٥) المصدر السابق نفسه (١/ ١١٦).
(٦) تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة (١/ ١٣١).
(٧) السمنية: قوم من الزنادقة الهنود لهم فلسفة خاصة، ومدرسة فكرية ضالة. ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (٢/ ٣٩٢).

وقعت بين الجهم والسمنية في إثبات الله عز وجل ، انتهى فيها الجهم إلى أن شبه الله فيها الروح التي لا ترى ولا تحس ولا تسمع[١]. ويقول ابن تيمية : إن الجعد ابن درهم قيل : إنه من أهل حران ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة . . . ومذهب النفاة من هؤلاء في الرب : إنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية أو مركبة منها . . . فيكون الجعد قد أخذها من الصابئة والفلاسفة[٢] ، وكان الجهم قد أخذ بمعتقدات الجعد[٣] .

وأما القول بالجبر فقد قاله المشركون من العرب قبله ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل : ٣٥] . فيخبر الله تعالى عن اغترار المشركين بما هم فيه من الإشراك محتجين بالقدر ، فمضمون كلامهم : أنه لو كان تعالى كارهاً لما فعلناه لأنكره علينا بالعقوبة ولما مكننا منه[٤] .

وأما القول بأن الإيمان هو المعرفة فقد قالت بهذا القول المرجئة قبله ، وأما القول بفناء الجنة والنار فمصدره الإسماعيلية[٥] والباطنية وأهل الكلام واليهود . يقول ابن أبي العز ـ يرحمه الله ـ عن الجهم بن صفوان : وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة ، وليس له سلفاً قط لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة . . . وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث ، وهو عمدة أهل الكلام المذموم[٦] . وأهل الكلام المذموم عامتهم لا يرون قطعية شيء من دلالة الكتاب والسنة ، دلالتها كلها عندهم ظنية ، فالمتكلمون قد أخذوا علومهم ومصطلحاتهم من الفلاسفة والمناطقة[٧] ، الذين يرجعون في أصولهم إلى المجوس والنصارى واليهود .

وأما القول بأن علم الله حادث؛ فقد اقتبسه الجهم من معبد ، ومعبد أخذه من سوسن

---

(١) الرد على الجهمية ، والزنادقة للإمام أحمد (ص ٤٤و٤٥) .

(٢) الفتاوى (٥/ ٢١ ، ٢٢)؛ تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣١) .

(٣) تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣١) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٦٢٦) .

(٥) الإسماعيلية : منسوبون إلى أحمد بن إسماعيل ، وهو ابن جعفر الصادق ، يقولون بالتفسير الباطني ، وأن الله عز وجل اختص بالعلم علي بن أبي طالب ، ويقولون بكفر من خالف علياً. الفرق بين الفرق (ص ٤٢) و : تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة (١/ ١٣٢) .

(٦) شرح العقيدة الطحاوية (ص ٤٢٠) .

(٧) تناقض أهل الأهواء والبدع (١/ ١٣٣) .

النصراني ، فدل ذلك على مدى تأثر كبار الفرق وأخذها من الأمم الهالكة ، فما بالك بمن جاء بعدهم[(١)]؟!

وما جاء من الآثار عن عمر بن عبد العزيز تعتبر ردوداً عامة على الجهمية ، وقد أوردها علماء السلف ضمن ردودهم عليهم كالإمام أحمد والدارمي ، وغيرهما من علماء السلف. فعن جعفر بن برقان ، قال: جاء رجل إلى عمر بن عبد العزيز فسأله عن بعض الأهواء فقال: انظر دين الأعرابي والغلام في الكتاب فاتبعه والهَ عما سوى ذلك[(٢)]. وقال: سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله ، وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ولا النظر في أمر خالفها ، من اهتدى بها فهو مهتدٍ ، ومن استنصر بها فهو منصور ومن تركها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً[(٣)]!

قال عبد الله بن عبد الحكم: فسمعت مالكاً يقول: وأعجبني عزم عمر في ذلك[(٤)]. وقال عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل[(٥)].

وهذه الآثار عن عمر بن عبد العزيز أوردها علماء السلف في ردهم على الجهمية ، ولا شك أنها تعتبر رداً على جميع المبتدعة ، وذلك في أمره ـ رحمه الله ـ بالتمسك بما تدل عليه الفطرة من إثبات ما للخالق من صفات الكمال ونعوت الجلال ، كإثبات الفوقية والعلو ، وغير ذلك مما تدل عليه الفطرة السليمة. وكذلك أمره بالنهي عن الخصومات في الدين بغير علم ، ولم يقع جهم فيما وقع فيه إلا بسبب الخصومات فيما لا علم له به ، فضلَّ وأضلَّ.

وكان السلف الصالح يستدلون بما أُثر عن عمر بن عبد العزيز في الأخذ بسنن رسول الله ﷺ ، وسنن الخلفاء الراشدين من بعده في ردهم على الجهمية مثلما فعله ابن تيمية في الفتوى الحموية؛ حيث ذكر أن أبا القاسم الأزجي روى بإسناده عن طرف بن عبد الله ، قال: سمعت مالك بن أنس إذا ذكر عنده من يدفع أحاديث الصفات يقول: قال عمر بن عبد العزيز: ويذكر الأثر عن رسول الله ، وولاة الأمر من بعده. .

وقال الشاطبي متحدثاً عن هذا الأثر: إنه كلام مختصر جمع أصولاً حسنة من السنة؛ منها: قطع مادة الابتداع جملة. ومنها: المدح لمتبع السنة وذم لمن خالفها ، ومنها: أن سنة ولاة الأمر

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة (٢/ ٨١٩).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٨٢٠).
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٤٠).
(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢/ ٤٢٥).

وعملهم تفسير لكتاب الله وسنة رسوله ، فقد جمع كلام عمر أصولاً حسنة وفوائد مهمة[١] .

وقد أورد الإمام أحمد في كتابه (الرد على الجهمية) أثر عمر بن عبد العزيز: من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر[٢] التنقل ، وقد أخذت المعتزلة من الجهمية نفي صفات الله ، والقول بخلق القرآن ، وهذا الاتفاق بين الجهمية والمعتزلة على نفي صفات الله والقول بخلق القرآن جعل كثيراً من محققي علماء المسلمين يسمون المعتزلة جهمية ، ولهذا لا بد من الحذر عند إطلاق أسماء الفرق بعضها على بعض ، لأنه لا يكاد توجد فرقة إلا وتشترك مع أخرى في جانب من الاعتقاد ، فلو تجوَّزنا في إطلاق اسم هذه الفرقة على من شاركها لحصل الالتباس وما استقام المنهج أبداً ، إذاً لا بد من إطلاق اسم الفرقة على المسمى الصحيح بحيث لا يستعار لغيرها البتة ، وهذا من ناحية علمية أدق وأسلم[٣] .

سادساً: المعتزلة:

اسم يطلق على تلك الفرقة التي ظهرت في الإسلام في أوائل القرن الثاني على يد واصل بن عطاء[٤] ، وسلكت منهجاً عقلياً صرفاً في بحث العقائد ، وقررت أن المعارف كلها عقلية حصولاً ، ووجوباً ، قبل الشرع وبعده ، وهم أرباب الكلام ، وأصحاب الجدل[٥] .

١ ـ نشأة المعتزلة وسبب التسمية:

دخل رجل على الحسن البصري فقال: يا إمام الدين! لقد ظهرت في زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون مصير أصحاب الكبائر لأمر الله تعالى ، والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان ، وهم مرجئة الأمة ، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟ ففكر الحسن في ذلك ، وقبل أن يجيب قال واصل: أنا لا أقول: إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ، ولا كافر مطلقاً ، بل هو في منزلة بين المنزلتين ، لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام لفوره ، واعتزل حلقة شيخه إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن: اعتزل عنا واصل ، فسمي هو وأصحابه معتزلة[٦] ، وهذا

---

(١) الاعتصام نقلاً عن الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨٢٢).

(٢) الرد على الجهمية ، للإمام أحمد (ص ٦٩).

(٣) قضية الثواب والعقاب بين مدارس الإسلاميين (ص ٣٤).

(٤) أبو حنيفة واصل بن عطاء البصري ، الغزّال المتكلم ، كان من أجلاد المعتزلة ، سمع الحسن البصري ، له من التصانيف كتاب: أضاف المرجئة ، وكتاب: معاني القرآن ، وهو من الطبقة الرابعة من طبقات المعتزلة (ت ١٣١ هـ).

(٥) التنبيه والرد ، للملطي (ص ٥٠) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة عبد اللطيف الحفظي (ص ١٧).

(٦) الفرق بين الفرق (ص ١١٨).

القول يكاد يجمع عليه مؤرخو الفرق[١] ، ولا علاقة بتسمية المعتزلة بالصحابة الكرام لا من قريب ولا بعيد ، فالصحابة الذين اعتزلوا الفتنة بين علي ومعاوية في الجمل ـ رضي الله عنهم ـ لم يسموا معتزلة بالمعنى الاصطلاحي الذي يفهم من مدلول هذه الكلمة ، وإنما بالمعنى اللغوي ، يؤيد ذلك أن المعتزلة الذين نحن بصدد الحديث عنهم إنما سموا بذلك لاعتزالهم مذهب أهل السنة والجماعة ، وأصحاب رسول الله ﷺ هم أئمة أهل السنة والجماعة ، فكيف يُجعلون سلفاً للمعتزلة الذين اقتفوا أثر العقل دون الشرع؟ وبذلك يعلم خطأ من جعل أصحاب رسول الله سلفاً لهؤلاء المعتزلة ؛ فإن المعتزلة جعلوا الاعتزال ديناً لهم يتعبدون الله تعالى على أساس تعاليمه ، وأما أولئك الصحابة اعتزلوا الفتنة طلباً للسلامة من الإثم وصوناً للدماء[٢] .

وقد تميز المعتزلة عن أهل السنة والجماعة بمدرسة منهجية فكرية خاصة ، الهيمنة فيها للعقل وحده بلا منازع ، وتركوا التمسك بالنصوص الشرعية ، التي فيها محض الهدى والعصمة من الانحراف والضلال[٣] .

٢ ـ فرق المعتزلة :

فلمّا كانت القاعدة الرئيسة التي اعتمد عليها المعتزلة هي العقل؛ به يثبتون وبه ينفون ، وبسبب انغماس المعتزلة في الفلسفة اليونانية القائمة على الجدل والخصومة دبَّ الخلاف بين رجال هذه الفرقة ، وتشعبت آراؤهم ، وتفرقوا إلى اثنتين وعشرين فرقة؛ منها: الواصلية والعمروية والهذلية والنظامية . . . إلخ . ولكل فرقة من هذه الفرقة بدع خاصة بها ، وكلهم يجتمعون على الأصول الخمسة في الجملة ، لكنهم يختلفون في جزئيات داخل هذه الأصول ، ولا عجب في ذلك ما دام العقل هو المحكَّم عندهم ، ولكل اهتماماته المختلفة عن الآخر[٤] .

٣ ـ دور المعتزلة في إحياء عقائد الفرق التي سبقتها :

أخذت المعتزلة عن ثلاث فرق سابقة عليها ، وأحييت بدورها تلك العقائد ولكن بشكل آخر ، فأخذت عن الخوارج ، وعن القدرية الغلاة ، وعن الجهمية[٥] .

*** ما أخذته من الخوارج :**

أ ـ حكم مرتكب الكبيرة في الآخر :

يقول البغدادي: ثم إن واصلاً وعمراً ، وافقا الخوارج في تأييد عقاب صاحب الكبيرة في

(١) آراء المعتزلة الأصولية ، د . علي الضويحي (ص ٧١).
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٧٢).
(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٧٦).
(٤) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة (ص ١٨).
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ١٩).

النار مع قولهما بأنه موحِّد ، وليس بمشرك ولا كافر[١] . من هذا النص يظهر لنا أن المعتزلة أحيت عقيدة الخوارج في صاحب الكبيرة في الآخرة ، ولكن لم تحكم عليه بالكفر في الدنيا[٢] .

ب ـ الخروج على أئمة الجور:

إن مما أجمعت عليه الخوارج: وجوب الخروج على الإمام الجائر بالقوة والسلاح لإزالة الظلم والبغي ، وإقامة العدل والحق كما يقولون[٣] ، وصرفوا نصوص الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى منازعة الأئمة والخروج عليهم وقتال المخالفين[٤] . وقد أخذت المعتزلة هذا المبدأ عن الخوارج وأحيوه نظرياً تحت أصل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يقول أبو الحسن الأشعري: أجمعت المعتزلة إلاّ الأصم على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع الإمكان والقدرة باللسان ، واليد ، والسيف ، كيف قدروا على ذلك[٥] . وقال في موطن آخر: وأوجبوا الخروج على السلطان على الإمكان والقدرة[٦] .

جـ ـ قضية التأويل[٧]:

الخوارج هم أول من فتح باب التأويل الباطل في تاريخ الأمة ، فأعملوا التأويل في نصوص الحكم بغير ما أنزل الله ، ونصوص الوعيد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم جاءت الفرق بعدها فورثت هذا المنهج وطبقته في الاستدلال على بدعها التي أحدثتها ، ومن تلك الفرق: المعتزلة التي أعملت التأويل في نصوص الصفات لتقرر التعطيل ، بينما لم يكن استعماله في نصوص الصفات عند الخوارج[٨] .

وقال ابن تيمية: ولم يعرف فيهم ـ الخوارج ـ الكلام وتأويل الصفات إلا بعد ظهور المعتزلة[٩] . واستخدم المعتزلة التأويل في نصوص القدر ، ولم يكن هذا عند الخوارج أيضاً وهكذا.

فالخلاصة: أن المعتزلة ورثت منهج التأويل من الخوارج ، وعضّت عليه بالنواجذ ،

(١) الفرق بين الفرق (ص ١١٩) و: تأثير المعتزلة (ص ٢٠).
(٢) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة (ص ٢٠).
(٣) مقالات الإسلاميين (١/ ٢٠٤) و: الملل والنحل (١/ ١١٥).
(٤) الخوارج أول الفرق في تاريخ الإسلام ، ناصر العقل (ص ٣٧).
(٥) مقالات الإسلاميين (١/ ٣٣٧)؛ تأثير المعتزلة (ص ٢١).
(٦) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٥٧)؛ تاثير المعتزلة (ص ٢١).
(٧) التأويل البدعي: صرف اللفظ عن ظاهره وحقيقته إلى مجازه ، وما يخالف ظاهره من غير قرينة.
(٨) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة (ص ٢٢).
(٩) المصدر السابق نفسه.

وأصبح عندهما قاعدة للتعامل مع نصوص الكتاب والسنة .

* **القدرية :**

وأما عن القدرية ، فأخذ المعتزلة القول بنفي القدر وأحيته ، ولكن ليس بشكله الغالي الذي يتضمن نفي علم الله تعالى ، وهو الذي كان عليه القدرية الأوائل ، فإن هذا القول قد تلاشى وسقط لسببين :

ـ قلة عدد القائلين بالقدر على هذا النحو .

ـ وقوف الصحابة الذين أدركوا هذه المقالة وعلماء التابعين ضد هذه المقولة بحزم ، تارة بالبراءة من أهلها كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما ، فقد قال لمن جاء بخبرهم : فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني[١] ، أو بإهانتهم واحتقارهم ، كما فعل طاوس بن كيسان مع معبد الجهني حين رآه في المطاف؛ حيث التفت إلى الناس وقال: هذا معبد فأهينوه[٢] ، أو بقتلهم وقطع دابر فتنتهم بعد تكفيرهم كما فعل بغيلان الدمشقي حين أصر على هذه العقيدة الفاسدة[٣] . لكن المعتزلة أحيت هذه العقيدة بطريقة خفضت فيها من غلو السابقين ، فأثبتت لله تعالى العلم والكتابة ، وأنكرت مرتبتي الإرادة والخلق؛ حيث قرروا أن العباد هم الخالقون بأفعالهم ، وأنهم يفعلونها بمحض مشيئتهم دون مشيئة الله تعالى[٤] . ولهذا لم يكفرهم العلماء كما كفروا القدرية الغلاة السابقين ، قال ابن تيمية : وأما القدرية الذين ينفون الكتابة والعلم فكفروهم ولم يكفروا من أثبت العلم ، ولم يثبت خلق الأفعال[٥] .

* **الجهمية :**

مهد التعاصر والتزامن بين الفرقتين والاتصالات الشخصية التي كانت بين جهم وبعض أصحاب واصل لأخذ المعتزلة من الجهمية عقيدتهم في التوحيد والتي تضمنت :

أ ـ نفي الصفات :

يقول ابن تيمية : ثم إن أصل هذه المقالة ـ مقالة التعطيل للصفات ـ إنما هو مأخوذ من تلامذة اليهود والمشركين . . فإن أول من حفظ عنه : أنه قال هذه المقالة في الإسلام . . هو الجعد بن

---

(١) مسلم ، شرح النووي ، كتاب الإيمان (١/ ١٥٦) .

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة (٤/ ٦٣٧) .

(٣) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة (ص ٢٤) .

(٤) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس (ص ١١٧) .

(٥) الفتاوى؛ نقلاً عن تأثير المعتزلة (ص ٢٤) .

درهم ، وأخذها عنه الجهم بن صفوان ، وأظهرها ، فنسبت مقالة الجهمية إليه[١]. ثم إن المعتزلة ورثت هذه البدعة من الجهمية وأحيتها ، ولكن بشكل خفضت فيه من غلو الجهمية ، فإن الجهمية كانت تنفي عن الله الأسماء والصفات[٢] ، كما ذكر ابن تيمية : أن الجهم زاد نفي الأسماء على نفي الصفات[٣] ، أما المعتزلة فإنهم يثبتون الأسماء وينفون الصفات[٤].

ب ـ القول بخلق القرآن ، ونفي رؤية الله تعالى مطلقاً:

قال ابن تيمية في المعتزلة : وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات وغير ذلك ، قالوا : إن الله لا يرى وأن القرآن مخلوق[٥].

فهذه جملة ما أخذه المعتزلة عن الفرق السابقة عليها وهم الخوارج والقدرية والجهمية ، وقد ظهر دورهم في إحيائها ، وقد غير المعتزلة في كثير منها حتى تخف الوطأة عليها ، كما أنها جمعت لتلك العقائد الأدلة العقلية الفلسفية ، ثم جاءت الفرق فأخذت تلك العقائد بصورتها عن المعتزلة ، واستدلت بأدلة المعتزلة عليها[٦].

٤ ـ أصول المعتزلة الخمسة :

اتفق جميع المعتزلة فيما بينهم على أصول خمسة عقدية ، جعلوها أساساً مهماً لمذهبهم الاعتزالي ، وهذه الأصول هي : التوحيد ، العدل ، الوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٧].

ومصطلح الأصول الخمسة لم يظهر عند واصل بن عطاء ، وإنما أخذ عن تلاميذه ، واكتمل عند أبي الهذيل العلاف ، والذي وصلت به الفرقة إلى ذروة الاعتزال ، واكتملت على يديه موضوعاته ، وقد كتب في الأصول الخمسة بعض فصول كتبه ، ثم تتالت الكتب التي تحمل هذا المصطلح على يد جعفر بن حرب ، والقاضي عبد الجبار وغيرهما من رجال المعتزلة[٨].

ومع بداية الدولة العباسية نشطت حركة المعتزلة ، وبدؤوا يرسلون الرسل في الآفاق للدعوة

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى ، تحقيق : شريف هزاع (ص ٤٧ ، ٤٨).
(٢) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة (ص ٢٥).
(٣) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة نقلاً عن الفتاوى (ص ٢٥).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ٢٦).
(٦) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة (ص ٢٧).
(٧) تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة (ص ٢٦) و: آراء المعتزلة الأصولية (ص ٧٩).
(٨) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د. النشار (١/٤١٧) و: تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة ، (ص ٢٧).

إلى مذهبهم ومعتقدهم ، وقد حظي مذهبهم بتأييد بعض الخلفاء العباسيين وخاصة في عهد المأمون ، ونترك مناقشة أصول الاعتزال وموقف أهل السنة منها عند حديثنا عن الدولة العباسية بإذن الله تعالى .

* * *

المبحث الخامس
حياته الاجتماعية والعلمية والدعوية

أولاً: الحياة الاجتماعية:

* اهتمامه بأولاده وأسرته:

أشرف عمر بن عبد العزيز على تربية وتعليم أولاده بنفسه، ولم تشغله مسؤولياته عن تنشئتهم التنشئة الصالحة، المستمدة من تعاليم الدين الإسلامي، ونستشف ذلك من خلال رسائله لهم، ولمن أوكل إليه تأديبهم.

١ ـ ربطهم بالقرآن الكريم:

ربط عمر بن عبد العزيز أولاده بالقرآن الكريم، وكان يأذن لهم يوم الجمعة بالدخول عليه قبل أن يأذن للناس، ليتدارس معهم القرآن الكريم. فإذا قال: إيها[١] قرأ الأكبر منهم، ثم إذ قال: إيها، قرأ الذي يليه، حتى يقرأ طائفة منهم[٢].

٢ ـ تعهدهم بالنصيحة:

فقد أرسل في العام الذي استخلف فيه إلى ابنه عبد الملك، وهو إذ ذاك في المدينة يقول فيما قال فيها: . . . فمن كان راغباً في الجنة وهارباً من النار ـ يقصد عبد الملك وإخوته ـ فالآن التوبة مقبولة، والذنب مغفور قبل نفاذ الأجل، وانقضاء العمل، وفراغ من الله للمنقلبين ليدنيهم بأعمالهم في موضع لا تقبل فيه الفدية، ولا تنفع فيه المعذرة، تبرز فيه الخفيات، وتبطل فيه الشفاعات، يَرِدِه الناس بأعمالهم، ويصدرون عنه أشتاتاً إلى منازلهم، فطوبى يومئذ لمن أطاع الله، وويل يومئذ لمن عصى الله[٣]. وفي موضع آخر من هذه الوصية يحث ولده على ذكر الله وشكره عز وجل ومراقبته في القول والعمل، فيقول: . . فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميداً، وتسبيحاً، وتهليلاً

---

(١) قوله: (إيها) إشارة البدء في القراءة، وكذلك الذي يليه.

(٢) سياسة عمر بن عبد العزيز في رد المظالم (ص ٥٢).

(٣) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٩٨).

فافعل ، فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً حمد الله وشكره ، وإن أحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً حمدُ الله وذكره[١].

٣ ـ الحث على التسامح وحسن الظن:

كان رحمه الله يحثهم على التسامح وحسن الظن في الناس ، فإن بعض الظن إثم ، فيروى: أنه قال مرة لابنه عبد العزيز: إذا سمعت كلمة من امرئ مسلم ، فلا تحملها على شيء من الشر.

٤ ـ الأسلوب اللين والمحاورة العاقلة:

كان رحمه الله يتعامل معهم بالأسلوب اللين دون أن ينصرف إلى التدليل الذي يفسد الأبناء ، ويحاورهم محاورة العقلاء ، ويستخدم أسلوب الإقناع والمنطق في التفاهم معهم ، وتلبية طلباتهم[٢] ، فيروى: أن ابنه عبد الله استكساه ذات مرة وهو خليفة ، فأرسله إلى الخيار بن رباح البصري وقال له: خذ مما عنده لي من ثياب؛ فلم تعجبه ، فعاد إلى أبيه وقال: يا أبتاه استكسيتك ، فأرسلتني إلى الخيار بن رباح ، فأخرج لي ثياباً ليست من ثيابي ولا من ثياب قومي ، فقال: ذاك ما لنا عند الرجل. فانصرف عبد الله ، فما كان عمر ـ رضي الله عنه ـ الأب المربي إلا أن اتخذ موقفاً وسطاً مقنعاً ، فجمع بين إجابة طلب ولده ، وأنه لا يتوفر كل مطلوب أو مرغوب دائماً: فناداه قبل أن ينصرف وقال له مخيراً إياه: هل لك أن أسلفك من عطائك مئة درهم؟ قال: نعم يا أبتاه. فأسلفه مئة درهم ، فلما خرج عطاؤه حُوسب بها فأخذت منه[٣].

ومما يروى أيضاً في حسن إجابته لأولاده وإقناعهم ، أن ابنة له بعثت إليه بلؤلؤة وقالت له: إن رأيت أن تبعث لي بأخت لها ، حتى أجعلها في أذني ، فلم يرد عليها بالإجابة ولا بالرفض ، وإنما الأمر مرتبط بصبرها على الجمر ، إذ أرسل لها بجمرتين وقال لها: إن استطعت أن تجعلي هاتين الجمرتين في أذنيك بعثت إليك بأختٍ لها[٤] ، فكان جواباً مقنعاً لها[٥].

٥ ـ حرصه على العدل بينهم:

ومما يذكر من حسن معاملته ـ رحمه الله ـ لأولاده ، حرصه على العدل بينهم مع كثرتهم ، حتى لا يحقد أحدهم على الآخر أو يبغضه ، فقد تحرى ـ رحمه الله ـ العدل ، حتى إيثاره لابن

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز (ص ١٠١).
(٣) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي (ص ٣١٢).
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٣٤).
(٥) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٠١).

الحارثية أن ينام معه ، إذ تركه خشية أن يكون جوراً[١] ، وفي هذا الصدد يروى عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز قوله: كان عمر بن عبد العزيز له ابن من امرأة من بلحارث بن كعب ، وكان يحبه وينام في بيته ، قال: فتعرضت له ذات ليلة ، فقال: أعبد العزيز؟ قلت: نعم. قال: شرٌّ ما جاء بك؟ ادخل ، فجلست عند شاذكونته[٢] ، وهو يصلي . . فأتاني فقال: ما لك؟ فقلت: ليس أحد أعلم بولد الرجل منه ، وإنك تصنع بابن الحارثية ما لا تصنع بنا ، فلست آمن أن يقال: ما هذا إلا من شيء تراه عنده ولا تراه عندنا. فقال: أعلمك هذا أحد؟ فقلت: لا. قال: فأعد عليّ. فأعدت عليه. فقال: ارجع إلى بيتك. فرجعت ، فكنت أنا وإبراهيم وعاصم وعبد الله ـ وهم من إخوانه ـ نبيت جميعاً ، فإذا نحن بفراش يحمل ، وتبعه ابن الحارثية ـ وهو أخوهم ـ فقلنا: ما شأنك؟ قال: شأني ما صنعت بي ، قال: كأنه خشي أن يكون جوراً[٣].

٦ ـ تنمية الأخلاق الفاضلة عندهم:

كان يحرص على تنمية الأخلاق الفاضلة عند أولاده ، ويتحيَّن الفرص لتحقيق ذلك ما استطاع ، ففي سياق رسالته رحمه الله إلى ولده عبد الملك وهو في المدينة ينهاه عن التفاخر والمباهاة في الكلام ، والإعجاب بالنفس ، والغرور والتعالي على الناس ، فيقول له: . . وإياك أن تفخر بقولك ، وأن تعجب بنفسك ، أو يخيل إليك أن ما رزقته لكرامة لك على ربك ، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك[٤].

٧ ـ تربية أولاده على الزهد والاقتصاد في المعيشة:

تتجلى شخصية عمر رحمه الله التربوية بقدرته على جعل أولاده يتقبلون التحول من فترة النعيم إلى فترة الزهد والتقشف ، وأن يقنعهم بالعيش كعامة الناس ، بدلاً من حياة الترف والرفاهية ، فمن أول إجراءاته: أن جاء في سياق رسالته التربوية لابنه عبد الملك وهو في المدينة ، والتي جاء فيها: . . فإن ابتلاك الله بغنى اقتصد في غناك ، وضع لله نفسك ، وأدِّ إلى الله فرائض حقه من مالك ـ يقصد الزكاة والصدقة وعدم الإسراف ـ وقل كما قال العبد الصالح: ﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

وكانت هذه الرسالة عقب توليه الخلافة مباشرة في حين لا تزال فترة النعيم والرفاهية قائمة ، إذ اتبع أسلوباً تربوياً رائعاً في ذلك ، حيث أخذ الأمر بالتدرج ، فأشعره بأن الغنى وكثرة المال

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١٠٢).
(٢) الشاذكونة: هي ثياب غلاظ مضربة تعمل باليمن.
(٣) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم (ص ٥٢و ٥٣).
(٤) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز (ص ٣١٤).

ابتلاء من الله عز وجل ، ثم أمره بالاقتصاد فيما هو فيه من الغنى ، ثم قرن الأمر بالتواضع لله ، وأخيراً أكَّد على ضرورة أداء حق الله ، من زكاة الأموال والصدقات وامتثال أمر الله عز وجل[١] .

وفي موقف آخر ، إذ بلغه ـ رحمه الله ـ أن ابناً له اتخذ خاتماً ، واشترى لهذا الخاتم فصاً بألف درهم ، فكتب إليه عمر : أما بعد : فقد بلغني أنك اشتريت فصّاً بألف درهم ، فبعه ، وأشبع ألف جائع ، واتخذ خاتماً من حديد صيني ، واكتب عليه : رحم الله امرأً عرف قدر نفسه[٢] .

ونلاحظ أن عمر ربط أمره ببيع الفص بوجود جائعين وحاجتهم للإشباع ، ليكون ذلك أجدى لإدراك مغزى الأمر ، والتحري في إنفاق الأموال مستقبلاً ، وليكن أمر الفقراء والمساكين نصب أعين أبنائه دائماً[٣] .

وذات يوم طلب أحد أبناء عمر بن عبد العزيز إلى أبيه أن يزوجه ، وأن يُصدق عنه من بيت المال ـ وقد كان لابنه ذلك امرأة ـ فغضب ـ رضي الله عنه ـ لذلك ، وكتب يقول : لقد أتاني كتابك تسألني أن أجمع لك بين الضرائر من بيت المال ، وأبناء المسلمين لا يجد أحدهم امرأة يستعفّ بها ، فلا أعرفن وما كتبت بمثل هذا . . ثم كتب إليه أن انظر إلى ما قبلك من نحاسنا ومتاعنا فبعه ، واستعن بثمنه على ما بدا لك[٤] .

ولم يقتصر الأمر على الذكور من أولاده ، بل شمل الذكور والإناث ، فمن ذلك : أن ابنة لعمر بن عبد العزيز يقال لها : (أمينة) مرت به يوماً ، فدعاها عمر : يا أمينة ، فلم تجبه ، فأمر بها ، فقال : ما منعك أن تجيبي؟ فقالت : إني عارية ـ أي : ملابسها ليست حسنة ـ فقال : يا مزاحم ! انظر إلى تلك الفرش التي فتقناها ، فاقطع لها منها قميصاً[٥] ، هذا عن كساء بنات عمر ، أما عن طعامهن ، فيروي ابن عبد الحكم : أن عمر كان يصلي العتمة[٦] ، ثم يدخل على بناته فيسلم عليهن ، فدخل عليهن ذات ليلة ، فلما أحسنَّه وضعن أيديهن على أفواههن ثم تبادرن الباب ، فقال للحاضنة : ما شأنهن؟ فقالت : إنه لم يكن عندهن شيء يتعشينه إلا عدس وبصل ، فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن ، فبكى عمر . ثم قال لهن : يا بناتي ما ينفعكن أن تعشين الألوان ، ويمر بأبيكن على النار ، فبكين حتى علت أصواتهن ثم انصرفن[٧] .

---

(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز (ص ١٠٦) .
(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٢٩٨) .
(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١٠٦) .
(٤) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٠٦) .
(٥) حلية الأولياء (٥/ ٢٦١) و : النموذج الإداري (ص ١٠٨) .
(٦) العتمة : هي الثلث الأول من الليل ، والعتمة : وقت صلاة العشاء .
(٧) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٤٨ ، ٤٩) .

وكان عمر بدأ الانتقال بأهل بيته من فترة الرفاه والتنعيم إلى فترة القناعة والزهد في الدنيا ، بأن وضع حلي ومجوهرات زوجه فاطمة بنت عبد الملك في بيت المال ، إذ قال لها: اختاري ، إما أن تردي حليَّك إلى بيت المال ، وإما أن تأذني لي في فراقك ، فإني أكره أن أكون أنا وأنت وهو في بيت واحد. قالت: لا بل أختارك يا أمير المؤمنين عليه ، وعلى أضعافه إن كان لي[١]!

* **اهتمامه بتعليم أولاده:**

أولى عمر رحمه الله تعليم وتأديب أولاده جانباً من الاهتمام ، إذ اتبع إجراءات تعليمية جعل منها منهجاً جديراً يلبي حاجات الناشئ المسلم ، ليكون موحد الذات والأهداف ، غير منقسم على نفسه بين القول والعمل ، أو بين الواقع والمثال[٢] ، حيث تتضح معالم ذلك المنهج في رسالته ـ رضي الله عنه ـ إلى معلمهم ومؤدبهم مولاه سهل بن صدقة ، إذ قرر اختياره وتكليفه بمهام تعليم وتأديب أولاده ، ثم حدد الطريقة المثلى للتأديب[٣] ، فقد قال: من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى سهل مولاه. أما بعد: فإني اخترتك على علم مني بك لتأديب ولدي ، فصرفتهم إليك من غيرك من مواليّ وذوي الخاصة بي ، فحدثهم بالجفاء ، فهو أمعن لإقدامهم ، وترك الصحبة؛ فإن عادتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك ، فإن كثرته تميت القلب ، وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ، فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم: أن حضور المعازف[٤] واستماع الأغاني ، واللهج[٥] بها ينبت النفاق في القلب ، كما ينبت العشْبَ الماء ، ولعمري لتوقي ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه ، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شيء مما ينتفع به ، وليفتتح كل غلام منهم بجزء من القرآن يثبت في قراءته ، فإذا فرغ ، تناول قوسه ونبله وخرج إلى الغرض[٦] حافياً ، فرمى سبعة أرشاق[٧] ، ثم انصرف إلى القائلة[٨] ، فإن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ كان يقول: يا بَني قيلوا ، فإن الشياطين لا تقيل[٩].

---

(١) الطبقات (٥/ ٣٣٠) و: النموذج الإداري (ص ١٠٩).
(٢) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر (ص ١١٠).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المعازف: هي الملاهي والآلات ممَّا يضرب. العازف: اللاعب والمغني.
(٥) اللهج بالشيء: الولوع به والاعتماد عليه.
(٦) الغرض: هو الهدف الذي ينصب فيرمى فيه ، والجمع أغراض.
(٧) الرشق: هو الرمي بالسهم والنبل ، والرشق: هو الشوط من الرمي.
(٨) القائلة: هي الظهيرة أو نصف النهار ، والقيلولة: الاستراحة عند نصف النهار.
(٩) سيرة ومناقب عمر لابن الجوزي (ص ٢٩٦ و ٢٩٧).

ونلاحظ على هذه التوجيهات الأمور الآتية:

١ ـ اختيار المعلِّم والمؤدِّب الصالح:

فالمعلم أو المربي يعد حجر الزواية في عملية التعليم ، فقد اختار معلم أولاده من خاصته ومواليه وعلى علم به وثقة فيه ، ولم يكتفِ عمر بمولاه سهل لتأديبهم وتعليمهم ، بل عهد بتأديبهم أيضاً إلى أستاذه ومؤدبه الأول صالح بن كيسان[١].

ولم يقف حرص عمر ـ رحمه الله ـ على تعليم أولاده وأدبهم عند هذا الحد ، بل وجدناه يختار من كبار عصره من يختبر عقل أولاده وأدبهم ، فقد كلف ميمون بن مهران أن يأتي ابنه عبد الملك فيستشيره وينظر إلى عقله. قال ميمون: فأتيناه ـ يعني عبد الملك بن عمر ـ فاستأذنت عليه فقعدت عنده ساعة ، فأعجبت به[٢].

٢ ـ تحديد المنهج التعليمي:

حدد عمر بن عبد العزيز المنهج التعليمي والمقررات الدراسية التي يريد لأولاده أن يتعلموها ، حيث يتكون من القرآن الكريم وعلومه وبقية العلم من العلوم الأخرى ، والتدريب على الجهاد والقتال والصبر عليه ، وكذلك التمرين على الرماية ودقة الإصابة وممارسة الرياضة البدنية بالسير إلى الأهداف حفاة ليعتادوا على ذلك ، مع ما يحتويه المنهج من أوقات للراحة ، أما حجم المقرر اليومي فجزء واحد من القرآن الكريم بتثبت ووعي ، بالإضافة إلى ما يتناسب مع ذلك الجزء من علوم الدين الأخرى ، وكذلك الرمي بسبعة أرشاق مع ما يتطلبه ذلك من السير إلى أغراض ، والسير بينها ، فكان هذا منهجاً ذا أهداف سامية ، إذ يجمع بين الدين والدنيا ، ويراوح بين البدن والروح ، والقول والعمل[٣] ، تلك أهداف ارتدت عنها خائبة جلّ برامج التعليم والتربية الحديثة[٤].

٣ ـ تحديد طريقة التأديب والتعليم:

لم يقف عمر بن عبد العزيز عند اختيار معلم أولاده ، وتحديد مواد المنهج التعليمي ، بل امتد الأمر إلى رسم الطريقة التي ينبغي لمؤدب أولاده اتباعها ، وكيفية التنفيذ ودقة الأداء وإتقان العمل ، ففي سياق رسالته ـ رحمه الله ـ طلب إلى سهل أن يلتزم الجد في قوله لهم ، فذلك أمعن لإقدامهم ، وأحرز لانتباههم ، وطلب إليه كمؤدب لهم أن يترك صحبتهم ، فإن عادتها تكسب

---

(١) تذكرة الحفاظ (١/١٤٨).

(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ٣٠٢).

(٣) النموذج الإداري (ص ١١٣).

(٤) المصدر السابق نفسه (ص ١١٤).

الغفلة ، ولتبقى مكانته عندهم ، فليس للمعلم أن يتخذ من تلاميذه أصدقاء وأصحاباً له يودعهم أسراره ، ويشاركهم وقته وحياته ، فقد لا تعجبهم مواقفه ، فيكون ذلك أدعى للاستهانة به ، وعدم الاستجابة لما يطلب منهم[١] ، وربما يؤدي ذلك إلى عدم الاكتراث بالمعلم ، والغفلة عما يقوله من العلم ، كما طلب عمر إلى مؤدب أولاده أن يكون في أدبه لهم ما يصرفهم عن الملاهي وحضور المعازف وسماع الغناء ، لما لها من الأثر السيِّئ في حياة المسلم ، ويلاحظ : أن عمر لا يصدر أمراً ، أو يحدد طريقة أو أسلوباً حتى يوضح ما دفعه لذلك ، وما فائدته وجدواه[٢] .

٤ ـ تحديد أوقات وأولويات التعليم :

ومما اشتمل عليه المنهج الذي حدده عمر بن عبد العزيز في رسالته لمؤدب أولاده ما يسمى بإدارة الوقت ، إذ حدد برنامجاً يومياً يبدأ الأولاد ومؤدبهم في تنفيذه من الصباح الباكر بجزء من القرآن الكريم ، فكان البدء بالقرآن في الفترة الصباحية ، لما فيها من صفاء ذهن التلميذ ، بعد أن أخذ قسطاً من الراحة في ليلته ، فجعل أولوية القرآن الكريم في وقت صفاء الذهن والاستعداد الجيد للمتعلم ، كما ربط الانتقال إلى المادة الأخرى من البرنامج اليومي بالتثبت والإتقان ، ثم جاء توقيت الخروج بين الأغراض وممارسة متطلبات الرماية ، ويكون الخروج للرمي بعد العلم ، وهم في شوق إليه ، فيتحقق لهم بذلك أعلى درجات الكفاءة والإتقان ، ويأتي في ختام البرنامج اليومي فترة القيلولة ، تلك الفترة الضرورية لراحة البدن والنفس والعقل[٣] .

٥ ـ مراعاة المؤثرات التعليمية :

راعى عمر بن عبد العزيز كل ما له ارتباط بالعلم ، وما له تأثير على الفهم وحسن التلقي ، وما يزيد من إدراك العقل من قريب أو بعيد ، فكان **أول أمر** اهتم به وبتأثيره على علم أولاده وأخلاقهم وأدبهم هو : معلمهم وجدوى علمه ، واقتداؤهم بأدبه وخلقه ، **والأمر الثاني** : مراعاة ما قد يسببه اللين وعدم التزام الجد في القول ، وإكثار الضحك ، والهزل واللعب أحياناً من التباطؤ في أداء متطلبات التعليم ، من إقدام وعلوِّ هِمَّة ، وفهم وإدراك بالكفاءة المطلوبة ، **والثالث** : ما ينجم عن تيار المجون والملاهي والغناء ، وحضور المعازف من ضياع وقت أولى أن يكون للعلم ، وتبلد الإحساس العلمي ، **ورابعها** : مراعاة النواحي النفسية للناشئين ، وما قد يصيبهم من الملل ، وتأثير ذلك على المستوى المطلوب من الفهم ، وضرورة الترويح عن النفس ساعة بعد ساعة ، وجَعَلَ وقتاً للراحة بين الحين والآخر ، وأخيراً الاهتمام بالمردود

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ١١٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١١٨) .

الإيجابي للرياضة وممارسة الرماية والسير بين الأغراض على الجسم وصحته، والعقل وسلامته، والذهن وصفائه[١].

* من نتائج منهج عمر بن عبد العزيز في تربية أولاده: ابنه عبد الملك:

من نتائج منهج عمر في تربية أولاده ذلك النموذج الرباني المتمثل في ابنه عبد الملك، ويعتبر عبد الملك نموذجاً للشاب الذي عاش في رغد العيش، وسعة الرزق، ورفاهية الحياة، فحياته مثال لكثير من أبناء المسلمين الذين كانوا على شاكلته، وإليك شيئاً من مواقفه:

١ ـ عبادته وبكاؤه:

عن عاصم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن مروان (وهو ابن أخي عمر بن عبد العزيز)، قال: وفدت إلى سليمان بن عبد الملك، ومعنا عمر بن عبد العزيز، فنزلت على ابنه عبد الملك وهو عزب، فكنت معه في بيت، فصلينا العشاء، وأوى كل رجل منا إلى فراشه، ثم قام عبد الملك إلى المصباح فأطفأه، ثم قام يصلِّي، حتى ذهب بي النوم، فاستيقظت فإذا هو في هذه الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء]. فبكى، ثم يرجع إليها، فإذا فرغ منها فعل مثل ذلك، حتى قلت: سيقتله البُكاءُ، فلما رأيت ذلك قلت: لا إله إلا الله، والحمد لله، كالمستيقظ من النوم لأقطع ذلك عليه، فلما سمعني سكت فلم أسمع له حِسًّا[٢] رحمه الله.

٢ ـ علمه وفقهه وفهمه:

جمع عمر بن عبد العزيز الناس واستشارهم في رد مظالم الحجّاج، فكان كلما استشار رجلاً قال له: يا أمير المؤمنين، ذاك أمر كان في غير سلطانك ولا ولايتك، فكان كلما قال له رجل ذلك أقامه، حتى خلص بابنه عبد الملك، فقال له ابنه عبد الملك: يا أَبَهْ ما من رجل استطاع أن يردَّ مظالم الحجَّاج؛ إن لم يردها أن يشركه فيها. فقال عمر: لولا أنك ابني، لقلت: إنك أفقه الناس، وهذا الذي قاله عبد الملك، ومدحه عليه أبوه، هو الصواب، فإن الإمام إذا قدر على رد مظالم من قبله من الولاة وجب عليه ذلك بحسب الاستطاعة[٣].

وقد كان عمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك من العلماء الذين جمعوا بين العلم بالله الذي

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١١٩).
(٢) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/ ٤٧٩).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٨١).

يقتضي خشيته ومحبته والتبتل إليه ، وبين العلم بالله الذي يقتضي معرفة الحلال والحرام والفتاوى والأحكام[١] .

٣ ـ تذكيره والده بالموت :

مات ابن لعمر بن عبد العزيز ، فجاء عمر فقعد عند رأسه ، وكشف الثوب عن وجهه فجعل ينظر إليه ويستدمع ، فجاء عبد الملك ابنه فقال : أشغلك يا أمير المؤمنين ما أقبل من الموت إليك؟ بل هو في شغل عما حلَّ لديك ، فكأن قد لحقت به وساويته تحت التراب بوجهك . فبكى عمر ثم قال : رحمك الله يا بني ، فوالله إنك لعظيم البركة ما علمتك على أبيك ، نافع الموعظة لمن وعظت ، وايم الله ، إن كان الذي رأيت من جزعي على أخيك ، ولكن لما علمت أن ملك الموت دخل داري فراعني دخوله ، فكان الذي رأيت ، ثم أمر بجهازه[٢] .

٤ ـ صلابته في الدين وقوته في تنفيذ الحق :

قال ميمون بن مهران : بعث إليّ عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وإلى أبي قلابة فقال : ما ترون في هذه الأموال التي أُخذت من الناس ظلماً ؟ فقال مكحول يومئذٍ قولاً ضعيفاً ، فكرهه ، فقال : أرى أن تستأنف ، فنظر إليَّ عمر كالمستغيث بي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، ابعث إلى عبد الملك ، فأحضره . فإنه ليس بدون من رأيت . فلما دخل عليه قال : يا عبد الملك ، ما ترى في هذه الأموال التي أُخذت من الناس ظلماً ، وقد حضروا يطلبونها وقد عرفنا مواضعها؟ قال : أرى (أن تردّها) ، فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها[٣] .

٥ ـ مرضه وموته رحمه الله :

دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه في وجعه ـ من الطاعون ـ فقال : يا بني ، كيف تجدك؟ قال : أجدني في الحق . قال : يا بني ، إن تكن في ميزاني أحبُّ علي من أن أكون في ميزانك . فقال ابنه : وأنا يا أبه لئن أكون ما تحب أحب إليّ من أن يكون ما أُحب[٤] . وحين دفن ابنه خطب على قبره فقال : رحمك الله يا بني ، فلقد كنت برّاً بأبيك ، وما زلت منذ وهبك الله لي مسروراً ، ولا والله ما كنت أشدَّ سروراً ولا أرجى لحظّي من الله فيك منذ وضعتك في الموضع الذي صيرك الله إليه ، فرحمك الله وغفر ذنبك ، وجزاك الله بأحسن عملك وتجاوز عن مسيئه ، ورحم كلَّ

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (٢/ ٤٨٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٨٨) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٩٥) .

شافع يشفع لك بخير من شاهد وغائب ، رضينا بقضاء الله وسلّمنا لأمره ، والحمد الله رب العالمين . ثم انصرف[١] .

ثم كتب إلى نائبه على الكوفة كتاباً ينهى أن يناح على ابنه ، كما كانت عادة الناس حينئذٍ في النياحة على الملوك وأولادهم ، وفي ذلك الكتاب كان فيه : إن عبد الملك ابن أمير المؤمنين كان عبداً من عباد الله ، أحسن الله إليه في نفسه ، وأحسن إلى أبيه فيه ، أعاشه الله ما أحبّ أن يعيشه ، ثم قبضه إليه حين أحب أن يقبضه ، وهو فيما علمت بالموت مرتبط ، نرجو فيه من الله رجاء حسناً ، فأعوذ بالله أن تكون لي محبة في شيء من الأمور تخالف محبة الله ، فإن خلاف ذلك لا يصح في بلائه عندي وإحسانه إلي ونعمته علي ، ثم قال: أحببت أن أكتب إليك بذلك وأعلمكه من قضاء الله ، فلا أعلم من ينوح عليه في شيء من قبلك ، ولا اجتمع على ذلك أحد من الناس ، ولا رخصت فيه لقريب ولا بعيد ، واكفني في ذلك بكفاية الله ، ولا آلو منَّك فيه ـ إن شاء الله ـ والسلام عليك[٢] .

وجاء في رواية: لما هلك عبد الملك بن عمر قال أبوه: يا بني ، لقد كنت كما قال الله عز وجل: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. وإني لأرجو أن تكون اليوم من الباقيات الصالحات التي هي خير ثواباً وخير أملاً. والله ما يسرني أني دعوتك فأجبتني[٣] . وقد توفي عبد الملك بن عمر وكان عمره تسع عشرة سنة[٤] .

وكان عمر بن عبد العزيز يثني على ولده ، وقال لابنه ذات يوم: يا عبد الملك إني أخبرك خبراً: لا والله ما رأيت فتى ماشياً قط أنسك منك نسكاً ، ولا أفقه فقهاً ، ولا أقرأ منك ، ولا أبعد في صبوة في صغير ولا كبير[٥] . وقال عمر بن عبد العزيز: والله لولا أن يكون بي زينة من أمر عبد الملك ما يُزين في عين الوالد من ولده لرأيت أنه أهل للخلافة[٦] ، وجاء في رواية: إن عبد الملك لما توفي جعل أبوه يثني عليه عند قبره ، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين ، لو بقي كنت تعهد إليه؟ قال: لا ، قال: لِمَ ، وأنت تثني عليه؟! قال: أخاف أن يكون زُيِّن في عيني منه ما يُزيَّن في عين الوالد من ولده[٧] . وقال ميمون بن مهران: ما رأيت ثلاثة في بيت خيراً من

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب (٢/ ٤٩٦).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٩٨).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٩٩).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) المصدر السابق نفسه.

عمر بن العزيز ، وابنه عبد الملك ، ومولاهم مزاحم[١] . هذا من نتائج المنهج التربوي والعلمي الذي سار عليه عمر في تربية أولاده .

*** حياته مع الناس :**

١ ـ اهتمامه بإصلاح المجتمع :

كان اهتمامه بإصلاح المجتمع كبيراً ، وعمل على إزالة ما يتفشَّى فيه من المنكرات ، وقد كتب في ذلك إلى أحد ولاته كتاباً طويلاً بليغاً ، نورد بعض فقراته للأهمية وعظيم الفائدة ، وفيه يقول : أما بعد فإنه لم يظهر المنكر في قوم قط ثم لم ينههم أهل الصلاح منهم إلا أصابهم الله بعذاب من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده ، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنِّقمات ما قمع فيهم أهل الباطل ، واستخفي فيهم بالمحارم ، فلا يظهر من أحد منهم محرَّم إلا انتقموا ممن فعله ، فإذا ظهرت فيهم المحارم فلم ينههم أهل الصلاح نزلت العقوبات من السماء إلى الأرض على أهل المعاصي وعلى المداهنين لهم ، ولعل أهل الإدهان أن يهلكوا معهم وإن كانوا مخالفين لهم ، فإني لم أسمع الله تبارك وتعالى فيما نزَّل من كتابه عند مَثُلَة أهلك بها أحداً نجَّى أحداً من أولئك ، إلا أن يكونوا الناهين عن المنكر ، ويسلط الله على أهل تلك المحارم إن هو لم يُصبهم بعذابٍ من عنده أو بأيدي من يشاء من عباده من الخوف والذل والنِّقم ، فإنه ربما انتقم بالفاجر من الفاجر وبالظالم من الظالم ، ثم صار كلا الفريقين بأعمالهما إلى النار ، فنعوذ بالله أن يجعلنا ظالمين ، أو أن يجعلنا مداهنين للظالمين!

وإنه قد بلغني أنه قد كثر الفجور فيكم ، وأمن الفسّاق في مدائنكم وجاهروا من المحارم بأمر لا يحب الله تعالى من فعله ، ولا يرضى المداهنة فيه ، كان لا يُظهر مثله في علانية قومٍ يرجون لله وقاراً ويخافون منه غيراً ، وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولا بذلك تمت نعمة الله تعالى عليهم ، بل كانوا كما قال تعالى : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح : ٢٩] . ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة : ٥٤] .

ولعمري إن من الجهاد في سبيل الله الغلظة على أهل محارم الله تعالى بالأيدي والألسن والمجاهدة لهم فيه ، وإن كانوا الآباء والأبناء ، والعشائر . وإنما سبيل الله طاعته ، ولقد بلغني أنه بطأ بكثير من الناس عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اتقاء التلاوم : أن يقال : فلان حسن الخلق قليل التكلُّف ، مقبل على نفسه ، وما يجعل الله أولئك أحاسنكم أخلاقاً ، بل أولئك أسوؤكم أخلاقاً ، وما أقبل على نفسه من كان كذلك ، بل أدبر عنها ، ولا سلم من الكلفة

(١) المصدر السابق نفسه .

لها ، بل وقع فيها ، إذ رضي لنفسه من الحال غير ما أمر الله أن يكون عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١].

ففي هذا الكتاب المهم يبين عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ سنة الله جل وعلا التي لا تتخلف ، وهي: أن أيَّ مجتمع يجاهر فيه أهل الفساد بمعاصيهم ، ثم لا ينهاهم أهل الصلاح ولا ينكرون عليهم؛ فلا بد أن يصيبهم الله تعالى بإحدى ثلاث: أن يصيبهم الله بعذاب من عنده ، أو أن يصيبهم بعذاب على أيدي من يشاء من عباده ، وقد يكون هؤلاء من الظلمة الجبارين فينتقم الله بهم من العصاة الفجار ، أو يصيبهم الله بالخوف والجوع والذل وأنواع النِّقم والمصائب.

ويبين عمر في هذا الكتاب أن السكوت عن أهل المعاصي المجاهرين ليس من عمل الصحابة رضي الله عنهم ، بل قد وصفهم الله تعالى بالشدة والغلظة على المخالفين المجاهرين بالمعاصي ، ويذكر أن من الجهاد في سبيل الله تعالى الغلظة على منتهكي محارم الله والإنكار عليهم بالأيدي والألسن وإن كانوا من أقرب الأقارب ، وهذا التوسع في معنى الجهاد له أدلته الشرعية مثل قول الله جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩]. وإنما يكون جهاد المنافقين بالإنكار عليهم والشدة في معاملتهم[٢].

ويصحح عمر في هذا الكتاب مفهوماً خاطئاً عند بعض الناس ، وهو وصفهم القاعد عن إنكار المنكر بأنه حسن الخلق قليل التكلف مقبل على نفسه ، حيث يبين أن هذا سيِّئُ الخلق ، حيث يتعامل مع المخالفين بالسلبية وعدم المبالاة ، مع أنهم بحاجة إلى الشفقة والرحمة ، وإنما يظهر ذلك بمحاولة إصلاحهم ، ويرد على قولهم بأنه قليل التكلف مقبل على نفسه بأنه لم يقبل على نفسه بمحاولة إنقاذها من النار ورفع درجتها في الجنة ، بل أقبل على هلكتها ، حيث إن السكوت عن الإنكار معصية يحاسب عليها مرتكبها ، وقد توره إلى النار ، وإذا كان في مفهوم الناس أن الساكت قليل التكلف؛ فإنه قد تكلف أمراً عظيماً حيث خالف أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بما وجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣].

وكانت كتب عمر بن عبد العزيز كلها في إصلاح المجتمع كما جاء في خبر إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: ما كان يقدم على أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم كتاب من عمر إلا فيه رد مظلمة أو إحياء سنة أو إطفاء بدعة أو قَسْم أو تقدير عطاء أو خير ، حتى خرج من الدنيا[٤].

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٦٠).
(٢) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ١٣٠).
(٣) المصدر السابق نفسه (١٥ ، ١٦/ ١٣٠).
(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٤٢).

٢ ـ تذكيره الناس بالآخرة:

خطب عمر بن عبد العزيز ذات يوم فقال: إني لم أجمعكم لأمر أحدثته، ولكني نظرت في أمر معادكم وما أنتم إليه صائرون فوجدت المصدِّق به أحمق، والمكذب به هالكاً. ثم نزل[١].

وهذه خطبة بليغة على قصرها، فإنها تذكرة حية بمصير الإنسان بعد الموت، فالذي يؤمن بالبعث بعد الموت وما قبله من عذاب القبر ونعيمه، وما بعد ذلك من الحساب والمصير إلى النعيم الدائم أو إلى الشقاء الدائم، ثم لا يعد العدة الكافية لذلك اليوم يعتبر حقاً أحمق؛ حيث لم يستعمل عقله في الإعداد لمستقبله بعد الموت مع إيمانه بما سيكون فيه[٢].

ومن خطبه في تذكير الناس بالموت والآخرة، فقد بين عمر في بعض خطبه أن الإنسان خلق للأبد ولكنه من دار إلى دار ينقل. قال عمر: إنما خلقتم للأبد، ولكنكم من دار إلى دار تنقلون[٣].

وقال في إحدى خطبه: يا أيها الناس، لا تغرنكم الدنيا والمهلة فيها، فعن قليل عنها تنقلون وإلى غيرها ترحلون، فالله الله عباد الله في أنفسكم فبادروا بها الفوت قبل حلول الموت، ولا يطل بكم الأمد، فتقسو قلوبكم فتكونوا كقوم دعوا إلى حظهم فقصروا عنه بعد المهلة، فندموا على ما قصروا عند الآخرة[٤].

وقد تحدث عمر بن عبد العزيز عن الموت والآخرة والاستعداد للقاء الله كثيراً في خطبه ومواعظه رحمه الله.

٣ ـ تصحيح المفاهيم الخاطئة:

قال عمر في إحدى خطبه: أما بعد أيها الناس فلا يطولن عليكم الأمد، ولا يبعدن عليكم يوم القيامة، فإن من وافته منيته فقد قامت قيامته، لا يستعتب من سيئ، ولا يزيد في حسن، ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تعدون الهارب من ظلم إمامه عاصياً، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم، ألا وإني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، (ص ٤٢).
(٢) التاريخ الإسلامي (١٥، ١٦/ ١١٨).
(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٤٨).
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٤٤٩).

الأعرابي ، حتى حسبوه ديناً لا يرون الحق غيره ، ثم قال: إنه لحبيب عليّ أن أوفر أموالكم وأعراضكم إلا بحقها ولا قوة إلا بالله[1]!

ففي هذه الخطبة يُذكِّر عمر بن عبد العزيز المسلمين بقرب يوم القيامة ، فإن من وافته منيته قامت قيامته ، فلينظر إلى الموت الذي قد يفاجئه في أية لحظة ، وحينها لا يستطيع أن يعتذر من أعماله السيئة التي سوّد بها صحيفته ، ولا يستطيع أن يستزيد من عمل صالح يبيِّض به صحيفته ، ويندم حينما لا ينفع الندم على ما فاته في حياته يوم أن كان قادراً على التوبة النصوح والتزود بالعمل الصالح ، ثم يبين أن السلامة كل السلامة في اتباع سنة رسول الله ﷺ ، وهذا بيان لأحد عنصري العمل الصالح ، وهما: الإخلاص لله تعالى ومتابعة السنة ، وهو بهذا يعالج واقعاً لا ينقص العمل فيه الإخلاص، وإنما ينقصه اتباع السنة ، حيث فشت البدع بعد انقراض عهد الصحابة رضي الله عنهم ، وفساد بعض الولاة الذين يحاربون بعض السنن التي لا تتفق مع أهوائهم.

ثم بيَّن أحد العواصم التي تعصم من انتشار البدع وفساد أمور الأمة؛ حيث قال: ولا طاعة لمخلوق في معصية الله. فإذا كان بعض الولاة قد تسول لهم نفوسهم الأمارة بالسوء أو مجاملة الآخرين بأن يأمروا الناس بمعصية الله ، أو يمهدوا السبل لذلك ، فإنه لا طاعة لهم ، وبهذا ينقطع سبب مهم من أسباب سريان تلك المخالفات ، وهو ما لولاة الأمر من طاعة على الأمة ، فإذا تحددت هذه الطاعة بطاعة الله تعالى لم يكن لهوى النفوس تأثير على انتشار الفساد في المجتمع وتصبح الكلمة لأهل الإصلاح.

ثم يبين أن ما جرى عليه العرف من اعتبار الهارب من إمامه الظالم عاصياً ليس له اعتبار في النظر الشرعي؛ لأن تصرفه هذا هو أحد الأسباب التي يتخذها للخلاص من الظلم ، وأولى من يوصف بالمعصية من وقع منه الظلم ، وكون عمر يبين هذا وهو في أعلى موقع من المسؤولية ـ كخليفة ـ دليل على تجرده من حظ النفس ومن العصبية للقرابة ، وإخلاصه لله تعالى.

ثم يصف الواقع الاجتماعي الذي اختلطت فيه العادات بالدين والبدع بالسنن ، ونشأ عليه أفراد المجتمع ، وتربّى على توجيهه من أسلم من العجم ، ومن هاجر من الأعراب حتى حسبوه هو الدين ، وحينما يختلط العرف الاجتماعي فيتسرب إلى العرف الإسلامي بعض الأعراف الجاهلية؛ فإن ذلك يؤثر على تربية أفراد المجتمع وتتشربه قلوبهم ؛ لأن الأعراف الجاهلية تميل إلى تلبية أهواء النفوس وإن كانت منحرفة جائرة ، فيصعب بعد ذلك على المصلحين أن يخلّصوا العرف الاجتماعي الإسلامي من تلك الأخلاط المتسرّبة المتراكمة على مر الزمن ، لأن كل

---

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ٤٣).

انحراف له أنصاره ومؤيدوه ، وليس كل أفراد المجتمع يفهمون الأمور على حقيقتها ، وحينما يقوم المصلحون بمحاولة التنقية يقوم دعاة السوء بتشويه إصلاحهم ودعوة الناس إلى البقاء على الموروثات ، لأن كونها موروثات يعطيها في نظر بعض الناس شيئاً من القداسة ، ولكن حينما ينبع الإصلاح من أعلى قمة في المسؤولية ـ كما هو الحال في عهد عمر بن عبد العزيز ـ فإن نتائج الإصلاح تكون كبيرة وسريعة المفعول ، لأن معه ما خوّله الله تعالى من طاعة الرعية ما دام في طاعة الله تعالى ، إلى جانب قوة السلطان المعهودة(١) .

٤ ـ إنكاره العصبية القبلية :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى الضحاك بن عبد الرحمن ، وكان مما جاء في كتابه : إن ما هاجني على كتابي هذا أمر ذكر لي عن رجال من أهل البادية ، ورجال أمروا حديثاً ، ظاهر جفاؤهم ، قليل علمهم بأمر الله ، اغتروا فيه بالله غرة عظيمة ، ونسوا فيه بلاءه نسياناً عظيماً ، وغيروا فيه نعمه تغييراً لم يكن يصلح لهم أن يبلغوه ، وذكر لي أن رجالاً من أولئك يتحاربون إلى مُضر وإلى اليمن ، يزعمون أنهم لهم ولاية على من سواهم ، وسبحان الله وبحمده ما أبعدهم من شكر نعمة الله! وأقربهم من كل مهلكة ومذلة وصُغُر ، قاتلهم الله أية منزلة نزلوا ، ومن أي أمان خرجوا ، أو بأي أمر لصقوا ، ولكن قد عرفت أن الشقي بنيته يشقى ، وأن النار لم تخلف باطلاً . أو لم يسمعوا إلى قول الله في كتابه : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات : ١٠] . وقوله : ﴿ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] .

وقد ذكر لي مع ذلك أن رجالاً يتداعون إلى الحلف ، لا حلف في الإسلام! قال : وما كان من حلف في الجاهلية فلم يزده الإسلام إلا شدة ، فكان يرجو أحد من الفريقين حفظ حلفه الفاجر الآثم الذي فيه معصية الله ومعصية رسوله ، وقد ترك الإسلام حين انخلع منه ، وأنا أحذر كل من سمع كتابي هذا ومن بلغه أن يتخذ غير الإسلام حصناً أو دون الله ودون رسوله ودون المؤمنين وليجة تحذيراً بعد تحذير ، وأذكرهم تذكيراً بعد تذكير ، وأشهد عليهم الذي هو آخذ بناصية كل دابّة ، والذي هو أقرب إلى كل عبد من حبل الوريد ، وإني لم آلُكم بالذي كتبت به إليكم نصحاً ، مع أني لو أعلم أن أحداً من الناس يحرّك شيئاً ليُؤخذ له به أو ليدفع عنه ـ أحرص ـ والله المستعان ـ على مذلته؛ من كان : رجلاً أو عشيرة أو قبيلة أو أكثر من ذلك ، فادع إلى نصيحتي وما تقدمت إليكم به ، فإنه هو الرشد ليس له خفاء ، ثم ليكن أهل البر وأهل الإيمان عوناً بألسنتهم ، وإن

---

(١) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ١٢١) .

كثيراً من الناس لا يعلمون. نسأل الله أن يخلف فيما بيننا بخير خلافة في ديننا وأُلفتنا وذات بيننا، والسلام[١].

في هذا الكتاب يعالج أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز انحرافاً خطيراً طرأ على المجتمع الإسلامي آنذاك، وهو أن طائفة من المسلمين الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، ولم تعمر أفكارهم بالعلم الشرعي، فقد اتخذوا لأنفسهم علاقات من روابط الجاهلية التي تقوم على القبائل والعشائر، فيعطي الواحد منهم ولاءه لقبيلته سواء بالحق أو بالباطل، وسواء بالعدل أو بالظلم، ويجعل من قبيلته قضية يهتم لها ويدافع عنها ويدعو لها، حتى أصبحوا بها إخوة في الله متحابين بعد أن كانوا أعداء متحاربين، وسادوا بجماعتهم العالم، وقد استفحلت هذه القضية حتى أصبح بعض المجاهدين يتحاربون بينهم بدعوى قبليَّة، مما سبب تأخراً في تقدم الجهاد، وجرأ أصحاب البلاد المفتوحة على الانتقاض على المسلمين مرة بعد مرة، ووصلت الحال في بعض البلاد إلى أنه كلما تولى رجل له قبيلة في تلك البلاد قرب أفراد قبيلته وقواهم وتقوَّى بهم، فتحدث الفتنة وتثور القبائل الأخرى، وما ذاك إلا بسبب طرح رابطة الإسلام ـ التي هي نعمة كبرى على المسلمين ـ واتخاذ الروابط الجاهلية بديلاً عنها[٢].

٥ ـ رفضه للقيام بين يديه:

لما ولي عمر بن عبد العزيز قام الناس بين يديه، فقال: يا معشر المسلمين إن تقوموا نقم، وإن تقعدوا نقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين، وإن الله فرض فرائض وسن سنناً، من أخذ بها لحق ومن تركها مُحِق[٣].

أراد عمر أن يقضي على العادات الموروثة التي أشبه بها الولاة آنذاك الأكاسرة والقياصرة، وعزم بشكل صارم على العودة بالأمة إلى منهج الخلفاء الراشدين، وعمر هنا يحجِّم دافعين قويين يدفعانه إلى مجاراة عشيرته في مظاهرهم.. أولهما: طموح النفس نحو الظهور وفرض السلطة والهيبة في قلوب الناس، وثانيهما: رغبة عشيرته الملحة في الإبقاء على هذه المظاهر، وتشنيعهم عليه في مخالفة ما كان عليه أسلافه، ولكنه تغلب على هذين الدافعين بحزم وإيمان قوي، وكان الدافع الذي يدفعه إلى التواضع ورفض المظاهر الدنيوية هو خوفه من الله تعالى، ورغبته فيما عنده، وطموح فكره نحو الآخرة وتجاوز المستقبل الدنيوي، وكان هذا الدافع أقوى بكثير من الجواذب الأرضية، فنجح في إلجام نفسه عن هواها، وإسكات أصحاب

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم (ص ١٠٣ ـ ١٠٦).

(٢) التاريخ الإسلامي (١٥، ١٦/ ١٢٤).

(٣) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن التاريخ الإسلامي (١٥، ١٦/ ١١٤).

المظاهر الخادعة ، وتصحيح مفاهيم المجتمع فيما يجب أن تكون عليه الولاة والعلاقة بينهم وبين الرعية. وفي قوله: إن الله فرض فرائض. بيان لأسباب السعادة والشقاوة الحقيقية في الدنيا والآخرة ، فمن طبقها لحق بركب المتقين في الدنيا ، وأكرم بهم من رفقة صالحة! وسيق يوم القيامة إلى رضوان الله تعالى والجنة ، وأكرم به من مآل وعاقبة[١].

٦ ـ تقديره أهل الفضل:

ذكر الحافظ ابن كثير: أن ولد قتادة بن النعمان وفد على عمر بن عبد العزيز فقال له: من أنت؟ فقال مرتجلاً:

أنا ابن الذي سالت على الخدِّ عينه فرُدَّت بكفِّ المصطفى أحسن الرَّدِّ

فعادتْ كما كانتْ لأولِ أمرِهَا فيا حُسْنَها عيناً ويا حُسْنَ ما رَدِّ

فقال عمر بن عبد العزيز عند ذلك:

تلكَ المكارمُ لا قعبانَ من لبنٍ شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

ثم وصله وأحسن جائزته رضي الله عنه[٢].

ففي هذا الخبر موقف لأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ في إكرام ولد قتادة بن النعمان لما وفد عليه حينما عرف نفسه بما حدث لأبيه ـ رضي الله عنه ـ في هذا الخبر على يد رسول الله ﷺ ، وهذا يدل على تفوق عمر بن عبد العزيز في المجال الأخلاقي ، وذلك بتقدير أهل الفضل ، والتقدم في خدمة الإسلام والمسلمين ، فإن ما حدث لقتادة ـ رضي الله عنه ـ من اقتلاع عينه بتلك الصورة شاهد على إيغاله في القتال وتعرضه للمهالك ، كما أنه شرف له أن تمثلت فيه تلك المعجزة النبوية[٣].

ومن تقديره لأهل الفضل ما قام به لزياد مولى ابن عياش ، فقد قدم عليه زياد مولى ابن عياش ، وأصحاب له ، فأتى الباب وبه جماعة من الناس فأذن له دونهم ، فدخل عليه فنسي أن يسلم عليه بالخلافة ، ثم ذكر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال له عمر: والأُولى لم تضرني ، ثم نزل عمر عن موضع كان عليه إلى الأرض ، وقال: إني أعظم أن أكون في موضع أعلو فيه على زياد ، فلما قضى زياد ما يريد خرج ، فأمر عمر خازن بيت المال أن يفتحه لزياد ومن معه يأخذون منه حاجتهم ، فنظر إليه خازن بيت المال فاقتحمته عينه أن يكون يُفتح لمثله بيت المال ويسلَّطُ عليه ـ وهو به غير عارف ـ ففعل الخازن ما أمر به ، فدخل زياد فأخذ لنفسه

---

(١) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ١١٥).
(٢) سيرة عمر لابن الجوزي (ص ٩٦) و: التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ٢٢).
(٣) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ٢٣).

ولأصحابه بضعاً وثمانين درهماً أو بضعاً وتسعين درهماً ، فلما رأى ذلك الخازن قال: أمير المؤمنين أعلم بمن يسلط على بيت المال[١]!

ففي هذا الخبر صورة من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله وتقديره للعلماء الربانيين ؛ فهو أولاً لم يبال بلقب الخلافة وهو أعلى لقب عند المسلمين ، والمناصب لها فتنة يقع في حبائلها من اغتروا بالجاه والمنزلة الدنيوية ، أما أقوياء الإيمان ؛ فإن شخصيتهم لا تتغير بعد المنصب ، بل يظلون على ما هم عليه من التواضع ، وربما زادوا تواضعاً في مقابلة احترام الناس لهم . ثم هو ثانياً نزل من مكانه حتى لا يعلو ذلك العالم الرباني زياد بن أبي زياد مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، وكون ذلك العالم من الموالي لا ينزل من قدره عند عمر ، فإن العبرة بالعلم والتقوى لا بشرف النسب ، وموقف كريم لهذا العالم الرباني حيث لم يأخذ من بيت المال إلا ذلك القدر الزهيد مع أنه قد مكن منه ، وهذا مثال رفيع من أمثلة الزهد والورع ، وحينما تكون النفوس كبيرة والعقول راجحة فإنها تعف عن متاع الدنيا الذي يتنافس عليه الصغار ، وتطمح ببصرها نحو نعيم الآخرة الخالد الذي يتنافس فيه الكبار[٢] .

٧ ـ المرء بأصغريه قلبه ولسانه :

كان بين وفد المهنئين لعمر بالخلافة من أهل الحجاز غلام صغير ، وكان الوفد قد اختار الغلام ليتكلم عنهم ، وهو أصغرهم ، فلما بدأ بالكلام قال له عمر: مهلاً يا غلام ليتكلم من هو أسن منك ، فقال الغلام: مهلاً يا أمير المؤمنين ، المرء بأصغريه: قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً ، فقد استجاد له الحلية[٣] ، يا أمير المؤمنين لو كان التقدم بالسن لكان في الأمة من هو أسن منك ـ أي: أحق بمجلسك هذا من هو أكبر منك سناً[٤] ـ. فقال عمر: تحدث يا غلام ، قال: نعم يا أمير المؤمنين ، نحن وفود التهنئة لا وفود المرزئة[٥] ، قدمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله الذي منَّ بك علينا ، لم يخرجنا إليك رغبة ولا رهبة ، أما الرغبة فقد أتانا منك إلى بلدنا ، وأما الرهبة فقد أمّننا الله بعدلك من جورك[٦] ، فأعجب عمر بفصاحة الغلام وعلمه ، وسداد رأيه ، فما كان من عمر إلا أن شجعه على ذلك ، وزاده ثقة بنفسه وجراءة ليكون هذا الحادث موقفاً تربوياً يتعلم فيه الغلام في حضرة خليفة المسلمين ، فطلب منه

---

(١) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم (ص ٥٣) و: التاريخ الإسلامي (١٥/ ٢٤).
(٢) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ٢٤).
(٣) استجاد له الحلية: استحق أن يتكلم.
(٤) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز (ص ٧٩).
(٥) الارتزاء: انتقاص الشيء. والمَرْزِئة: الرزيئة ، وهي المصيبة.
(٦) مروج الذهب (٣/ ١٩٧).

الموعظة ، فقال: عظنا يا غلام وأوجز ، فقال: نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم ، وطول أملهم وحسن ثناء الناس عليهم ، فلا يغرنك حلم الله عنك ، وطول أملك ، وحسن ثناء الناس عليك فتزل قدمك ، ثم نظر عمر في سن الغلام فإذا هو قد أتت عليه بضع عشرة سنة ، فأنشأ يقول:

تعلَّمْ فليسَ المرءُ يولدُ عالماً   وليسَ أخو علمٍ كمنْ هو جاهلُ
وإنَّ كبيرَ القومِ لا علمَ عندَهُ   صغيرٌ إذا التفتْ عليهِ المحافلُ[(١)]

٨ ـ امرأة مصرية تشتكي لعمر:

كان عمر يتابع أمور المسلمين ويفتح الأبواب على مصراعيها لسماع أخبارهم ، فقد كان بريد عمر بن عبد العزيز لا يعطيه أحدٌ من الناس إذا خرج كتاباً إلا حمله ، فخرج بريد من مصر فدفعت إليه فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح كتاباً تذكر فيه أن لها حائطاً قصيراً ، وأنه يقتحم عليها فيسرق دجاجها ، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء مولاة ذي أصبح ، بلغني كتابك وما ذكرتِ من قصر حائطك ، وأنه يدخل عليك فيسرق دجاجك ، فقد كتبت كتاباً إلى أيوب بن شرحبيل ـ وكان أيوب عامله على صلاة مصر وحربها ـ آمره أن يبني لك ذلك ويحصنه لك مما تخافين إن شاء الله. وكتب إلى أيوب بن شرحبيل: من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى ابن شرحبيل ، أما بعد: فإن فرتونة مولاة ذي أصبح كتبت تذكر قصر حائطها ، وأنه يسرق منه دجاجها ، وتسأل تحصينه لها ، فإذا جاءك كتابي هذا فاركب أنت بنفسك إليه حتى تحصنه لها.

فلما جاء الكتاب إلى أيوب ركب ببدنة حتى أتى الجيزة يسأل عن فرتونة حتى وقع عليها ، وإذا هي سوداء مسكينة فأعلمها بما كتب به أمير المؤمنين وحصنه لها[(٢)].

٩ ـ اهتمامه بفداء الأسرى:

كتب إلى الأسارى بالقسطنطينية: أما بعد فإنكم تعدون أنفسكم أسارى ، معاذ الله! بل أنتم الحبساء في سبيل الله ، واعلموا أنني لست أقسم شيئاً بين رعيتي إلا خصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه ، وإني قد بعثت إليكم خمسة دنانير ، ولولا أني خشيت إن زدتكم أن يحبسه طاغية الروم عنكم لزدتكم ، وقد بعثت إليكم فلان بن فلان يفادي صغيركم وكبيركم ، ذكركم وأنثاكم ، حركم ومملوككم بما سئل به ، فأبشروا ثم أبشروا ، والسلام عليكم[(٣)].

---

(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز (ص ٩٨).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٦٣ ـ ١٦٤) و: التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ٧٧).
(٣) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٦٣ ـ ١٦٤).

وفي هذا الكتاب يتجلى سمو أخلاق عمر وعظم شعوره بالمسؤولية كنموذج راقٍ لحاكم مسلم يخاف الله فيراعيه ، ويتقي الله في حقوق رعيته بمنتهى الإخلاص والأمانة ؛ حيث واسى أسرى المسلمين لدى الروم ، حيث شبههم بالمرابطين الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله تعالى ، فهم بهذا ينالون أجر المرابطين ، وإن جانب هذه المواساة المعنوية فإنه قد واساهم بالمال الذي أمدهم به ، وأزاح الهمّ عنهم بما أخبرهم به من كفالة أسرهم في حال غيبتهم ، كما أنه وعدهم بمفاداتهم لفك أسرهم ، وهذه معاملة كريمة يستحقها هؤلاء الأسرى الذين خرجوا بأنفسهم لحماية الإسلام ونصره[١] .

١٠ ـ قضاء ديون الغارمين :

كتب إلى عماله : أن اقضوا عن الغارمين ، فكُتب إليه : إنّا نجد الرجل له المسكن والخادم ، وله الفرس ، وله الأثاث في بيته ، فكتب عمر : لا بد للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، وأثاث في بيته ، ومع ذلك فهو غارم ، فاقضوا عنه ما عليه من الدين[٢] .

ففي هذا الخبر يأمر أمير المؤمنين عمر بقضاء الديون عن الغارمين وإن كانوا يملكون المسكن والأثاث والخادم والفرس ، وهو مظهر عظيم من مظاهر الرحمة والمواساة ، والاهتمام بشؤون الرعية ، وهكذا يتصرف الأئمة العادلون بأموال الأمة ، حيث يغنون بها فقيرها ، ويجبرون بها كسيرها ، ويفكون بها أسيرها ، ويقضون بها عن معسرها ، ويسدون بها خلة معوزها[٣] .

١١ ـ خبر الأسير الأعمى عند الروم :

أرسل عمر بن عبد العزيز إلى صاحب الروم رسولاً ، فأتاه وخرج من عنده يدور ، فمر بموضع ، فسمع فيه رجلاً يقرأ القرآن ويطحن ، فأتاه فسلم عليه ، فلم يرد عليه السلام ـ مرتين أو ثلاثاً ـ ، ثم سلم عليه فقال له : وأنّى بالسلام في هذا البلد ؟! فأعلمه أنه رسول عمر إلى صاحب الروم ، قال له : ما شأنك؟ فقال : إني أسرت في موضع كذا وكذا ، فأتي بي إلى صاحب الروم ، فعرض علي النصرانية فأبيت ، وقال لي : إن لم تفعل سملت عينيك ، فاخترت ديني على بصري ، فسمل عيني وصيَّرني إلى هذا الموضع ، يرسل إلي كل يوم بحنطة أطحنها وبخبزة آكلها ، فسار الرسول إلى عمر بن عبد العزيز فأخبره خبر الرجل ، قال : فما فرغت من الخبر حتى رأيت دموع عمر قد بلّت ما بين يديه ، ثم أمر ، فكتب إلى صاحب الروم : أما بعد : فقد

(١) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ٧٧).
(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٦٣ ، ١٦٤).
(٣) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ٧٧).

بلغني خبر فلان بن فلان (فوصف له صفته) وأنا أقسم بالله لئن لم ترسله إلي لأبعثنَّ إليك من الجنود جنوداً يكون أولها عندك وآخرها عندي!

ولما رجع إليه الرسول قال: ما أسرع ما رجعت! فدفع إليه كتاب عمر بن عبد العزيز، فلما قرأه قال: ما كنا لنحمل الرجل الصالح على هذا، بل نبعث إليه به، قال: فأقمت أنتظر متى يخرج به، فأتيته ذات يوم، فإذا هو قاعد قد نزل عن سريره أعرف في وجهه الكآبة، فقال: تدري لم فعلت هذا؟ فقلت: لا ـ وقد أنكرت ما رأيت ـ فقال: إنه قد أتاني من بعض أطرافي أن الرجل الصالح قد مات، ولذلك فعلت ما رأيت، ثم قال: إن الرجل الصالح إذا كان بين القوم السوء لم يترك بينهم إلا قليلاً حتى يخرج من بين أظهرهم. فقلت له: أتأذن لي أن أنصرف ـ وأيست من بعثه الرجل معي ـ فقال: ما كنا لنجيبه إلى ما أمر في حياته، ثم نرجع فيه بعد مماته، فأرسل معه بالرجل[١].

١٢ ـ المرأة العراقية التي فرض لبناتها من بيت المال:

قدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز، فلما صارت إلى بابه قالت: هل على أمير المؤمنين حاجب؟ فقالوا: لا، فلجي إن أحببت، فدخلت المرأة على فاطمة وهي جالسة في بيتها، وفي يدها قطن تعالجه، فسلمت، فردت عليها السلام وقالت لها: ادخلي، فلما جلست المرأة رفعت بصرها ولم تر شيئاً له بال، فقالت: إنما جئت لأعمر بيتي من هذا البيت الخرب، فقالت لها فاطمة: إنما خرَّب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك، قال: فأقبل عمر حتى دخل الدار، فمال إلى بئر في ناحية الدار فانتزع منها دلاء فصبها على طين كان بحضرة البيت ـ وهو يكثر النظر إلى فاطمة ـ فقالت لها المرأة: استتري من هذا الطيّان؛ فإني أراه يديم النظر إليك، فقالت: ليس هو بطيان، هو أمير المؤمنين.

قال: ثم أقبل عمر فسلم ودخل بيته، فمال إلى مصلى كان له في البيت يصلي فيه، فسأل فاطمة عن المرأة، فقالت: هي هذه، فأخذ مكتلاً له فيه شيء من عنب فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه، ثم أقبل عليها وقال: ما حاجتك؟ فقالت: امرأة من أهل العراق لي خمس بنات كُسْلٌ كسْد، فجئتك أبتغي حسن نظرك لهنَّ، فجعل يقول: كسل كسد، ويبكي، فأخذ الدواة والقرطاس فكتب إلى والي العراق، فقال: سمي كبراهنّ، فسمتها ففرض لها، فقالت المرأة: الحمد لله، ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة، والمرأة تحمد الله ففرض لها، فلما فرض للأربعة استفزها الفرح فدعت له فجزته خيراً، فرفع يده وقال: كنا نفرض لهنّ حيث كنت تولين الحمد أهله، فمري هؤلاء الأربع يفضن على هذه الخامسة. فخرجت بالكتاب حتى أتت به

(١) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٦٨).

العراق ، فدفعته إلى والي العراق ، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه ، وقال: رحم الله صاحب هذا الكتاب ، فقالت: أمات؟ قال: نعم ، فصاحت وولولت ، فقال: لا بأس عليك ، ما كنت لأرد كتابه في شيء ، فقضى حاجتها وفرض لبناتها[١] .

١٣ ـ إحياؤه لسنة العطاء:

قال عمر بن عبد العزيز: إنه لا يحل لكم أن تأخذوا لموتاكم ، فارفعوهم إلينا واكتبوا لنا كل منفوس[٢] نفرض له[٣] . وفي رواية أخرجها ابن سعد من خبر أبي بكر بن حزم قال: كنا نخرج ديوان أهل السجون فيخرجون إلى أعطياتهم بكتاب عمر بن عبد العزيز ، وكتب إليّ: من كان غائباً قريب الغيبة فأعطِ أهل ديوانه ، ومن كان منقطع الغيبة ، فاعزل عطاءه إلى أن يقدم أو يأتي نعيه ، أو يوكل عندك بوكالة ببينة على حياته فادفعه إلى وكيله[٤] .

وبهذا أحيا عمر بن عبد العزيز سنة العطاء الإسلامي التي كانت في عهد الخلفاء الراشدين وعهد معاوية رضي الله عنهم ، ثم اندثرت بعد ذلك واقتصر العطاء على بعض وجهاء الأمة ، وكان بنو أمية يأخذون من ذلك الشيء الكثير على مراتبهم ، فلما قسم عمر بن عبد العزيز ذلك على الأمة شمل جميع أفرادهم ، وهذا من أبرز مواقفه[٥] وإصلاحاته التجديدية .

١٤ ـ إغناؤه المحتاجين عن المسألة:

قدم على عمر بن عبد العزيز بعض أهل المدينة ، فجعل يسأله عن أهل المدينة . فقال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه يا أمير المؤمنين ، قال: ما فعل المساكين الذين كانوا يجلسون في مكان كذا وكذا؟ قال: قد قاموا منه وأغناهم الله . قال: وكان من أولئك المساكين من يبيع الخبط[٦] للمسافرين ، فالتمس ذلك منهم بعد ، فقالوا: قد أغنانا الله عن بيعه بما يعطينا عمر بن عبد العزيز[٧] .

وهذا من نتائج المنهج العادل الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في توزيع أموال المسلمين ، حيث حُرِمَت القلة المتمكنة من الإسراف وأصبح ما يصرف لفرد من هذه الفئة يصرف لعشرات المسلمين ، فوصل المال العام إلى فئات من لم يكن يصل إليها من قبل ، فاستغنوا به عن بعض

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم (ص ١٦٩).
(٢) أي: مولود في حال نفاس أمه.
(٣) طبقات ابن سعد (٥/٣٤٦).
(٤) المصدر السابق نفسه (٥/٣٤٨).
(٥) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/١٣٨).
(٦) الخبط: نوع من ورق الشجر تأكله الإبل.
(٧) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/١٥١).

الأعمال الشاقة التي كانت تُدِرُّ عليهم مبالغ زهيدة[١].

١٥ ـ دفع المهور من بيت المال:

اهتمّ عمر بن عبد العزيز بأداء مهور الزواج من بيت المال لمن لم يستطع توفير ذلك، فقال أبو العلاء: قُرِئَ كتاب عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ في مسجد الكوفة وأنا أسمع: من كانت عليه أمانة لا يقدر على أدائها فأعطوه من مال الله، ومن تزوج امرأة لا يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[٢].

وهذا قرار مهم في إصلاح المجتمع، لأن صلاحه يتوقف على تحصين أبنائه بالزواج وظفرهم بالسعادة الزوجية، وقد يكون المهر عائقاً لبعض الفقراء دون الزواج، خصوصاً في حال غلاء المهور، فإذا كانت الدولة توفر ذلك لمن لا يستطيع ذلك، فإنها تسهم في تكوين المجتمع الصالح وحفظه من أسباب الفساد والاضطراب[٣].

١٦ ـ جهوده في التقريب بين طبقات المجتمع:

قال يونس بن أبي شبيب: شهدت عمر بن عبد العزيز في بعض الأعياد وقد جاء أشراف الناس حتى حفُّوا بالمنبر وبينهم وبين الناس فرجة، فلما جاء عمر صعد المنبر وسلم عليهم، فلما رأى الفرجة أومأ إلى الناس: أن تقدموا، فتقدموا حتى اختلطوا بهم[٤].

لقد دأب الولاة من بعد عهد أمير المؤمنين معاوية ـ رضي الله عنه ـ على رفع طبقات من الناس وتمييزهم على غيرهم بالعطاء والمجالس وغير ذلك، وسرى ذلك في الأمة حتى أصيب بعض أفرادها بالضعف وأصبحوا يرون أنهم ليسوا أهلاً للجلوس مع أفراد الطبقات المميزة الذين أصبح الناس يطلقون عليهم اسم (الأشراف)، ولقد بلغ الضعف بعامة المجتمع إلى عدم التجاسر على الاقتراب من أفراد الطبقة الخاصة حتى في المساجد التي من المفترض فيها أن يتنافس المصلون على القرب من الإمام لما في ذلك من زيادة الثواب، فلما تولى الخلافة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز كان من أجلِّ اهتماماته أن يقارب بين فئات المجتمع، فذلك بأن يضع من سمعة الطبقات العالية وأن يزيل كبرياءهم، وأن يرفع من شأن الطبقات المستضعفة وأن يقوي معنوياتهم ويزيل شعورهم بالضعف، فكان من جهوده في ذلك المساواة بينهم في العطاء، ولا شك أن المال له أهمية كبرى في الرفع من شأن الناس وخفضهم. وفي هذا الخبر تبين لنا

---

(١) التاريخ الإسلامي (١٥، ١٦/ ١٣٨).
(٢) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٧٤).
(٣) التاريخ الإسلامي (١٥، ١٦/ ١٣٩).
(٤) طبقات ابن سعد (٥/ ٣٨٧).

اهتمامه في هذا المجال بالإشارة إلى عموم الناس ليقتربوا من الخواصِّ ، ويختلطوا بهم حتى تزول تلك الفجوة بين المسلمين التي خلفها ظلم الولاة وسوء إدارتهم[١] .

١٧ ـ شعوره الكبير بالمسؤولية تجاه أفراد المجتمع :

قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجة عمر : . . إن عمر ـ رحمة الله عليه ـ كان قد فَرَّغ للمسلمين نفسه ، ولأمورهم ذهنه ، وكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه وصل يومه بليلته ، إلى أن أمسى مساء وقد فرغ من حوائج يومه ، فدعا بسراجه الذي كان من ماله ، فصلى ركعتين ثم أقعى واضعاً رأسه على يديه ، تسيل دموعه على خديه ، يشهق الشهقة يكاد ينصدع قلبه لها ، وتخرج لها نفسه حتى برق الصبح فأصبح صائماً ، فدنوت منه فقلت : يا أمير المؤمنين أليس كان منك ما كان؟ قال : أجل فعليك بشأنك وخلِّني وشأني ، قالت : فقلت : إني أرجو أن أتَّعظ ، قال : إذاً أخبرك ، إني نظرت فوجدتُني قد وليت أمر هذه الأمة أسودها وأحمرها ، ثم ذكرت الفقير الجائع ، والغريب الضائع ، والأسير المقهور ، وذا المال القليل والعيال الكثير ، وأشباه ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض ، فعلمت أن الله سائلي عنهم ، وأن رسول الله ﷺ حجيجي فيهم ، فخفت ألاَّ يقبل الله تعالى مني معذرة فيهم ، ولا تقوم لي مع رسول الله ﷺ حجة ، فرحمت والله يا فاطمة نفسي رحمة دمعت لها عيني ، ووجع لها قلبي ، فأنا كلما ازددت لها ذكراً ازددت منها خوفاً ، فاتَّعظي إن شئت أو ذَرِي[٢] !

وهذا تقدير بالغ من عمر ـ رحمه الله ـ للمسؤولية؛ التي تحملها ، حيث تذكر ضعفاء المسلمين وأصحاب الحاجات ، بالرغم مما يبذله من جهد متواصل في التعرف على أحوال الأمة ، ولكن لما كان هذا الأمر غير محصور خشي أن يكون قد لقي من المسلمين من لم تُرفع إليه حاجته ، فيكون مسؤولاً عنه ، وفي تذكره للحساب والجنة والنار دليل على عمق إيمانه بالغيب حتى أصبح أمامه كالمشاهد ، فأصبح ذلك دافعاً له إلى العدل والرحمة ، والمبالغة في تفقد أحوال الأمة ، وفي بكائه الشديد دلالة على عظمة خوفه من الله عز وجل ، وقد عصمه الله تعالى بهذا الخوف ، فارتفع بفكره وسلوكه عن المغريات ، وقوي أمام جميع التحديات ، فكلما عظم عليه خطب مجابهة الناس تذكر النار والحساب ، فهان عليه كل خطب عظيم ، وصغر في نظره كل أمر جسيم[٣] .

١٨ ـ في الإنفاق على الذمي إذا كبر ولم يكن له مال :

الإسلام دين العدالة والسماحة والاهتمام بالضعيف ، والإسلام يهتم بكل من يعيش على

---

(١) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/١٤٠) .

(٢) سيرة عمر لابن عبد الحكم (ص ١٧٠) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/١٠٧) .

(٣) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/١٠٨) .

أرضه ولو كان على غير دين الإسلام ، وعمر بن عبد العزيز يُجَسِّد هذه القيم الرفيعة بتطبيقه أحكام هذا الدين ، فيقرر أن الذمي إذا كبر ولم يكن له مال ولا حميم ينفق عليه فإن نفقته في بيت مال المسلمين(١) ، فقد روى ابن سعد: قال عمر بن بهرام الصرّاف: قرئ كتاب عمر بن عبد العزيز علينا: بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عدي بن أرطأة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين ، سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إلٰه إلا هو ، أما بعد: فانظر أهل الذمة فارفق بهم ، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال فأنفق عليه ، فإن كان له حميم فمر حميمه ينفق عليه(٢) .

١٩ ـ أكله مع أهل الكتاب:

كان عمر بن عبد العزيز يجعل كل يوم من ماله درهماً في طعام المسلمين ثم يأكل معهم ، وكان ينزل بأهل الذمة فيقدمون له من الحلبة المنبوتة والبقول وأشباه ذلك مما كانوا يضعون في طعامهم ، فيعطيهم أكثر من ذلك ويأكل معهم ، فإن أبوا أن يقبلوا ذلك منه لم يأكل منه(٣) .

٢٠ ـ عمر والشعراء:

لما استخلف عمر بن عبد العزيز وفد الشعراء إليه ، فأقاموا ببابه أياماً لا يؤذن لهم ، فبينما هم كذلك وقد أزمعوا على الرحيل إذ مر بهم رجاء بن حيوة ـ وكان من خطباء أهل الشام ـ فلما رآه جرير داخلاً على عمر أنشأ يقول:

يا أيُّها الرجلُ المرخِي عمامتَهُ ... هذا زمانُكَ فاستأذنْ لنا عُمَرا

قال: فدخل ولم يذكر من أمرهم شيئاً ، ثم مرّ بهم عدي بن أرطأة ، فقال له جرير:

يا أيها الرجلُ المرخِي مطيتَهُ ... هذا زمانُكَ إنِّي قدْ مضَى زمَنِي

أبلِغْ خليفَتنا إنْ كنتَ لاقِيه ... أنِّي لدى الباب كالمصفودِ في قرنِ

لا تنسَ حاجتَنا لُقِّيتَ مغفرةً ... قد طالَ مُكثِي عنْ أهلي وعنْ وطني

فدخل عدي على عمر ، فقال: يا أمير المؤمنين ، الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة ، قال: ويحك يا عدي ما لي وللشعراء؟! قال: أعز الله أمير المؤمنين ، إن رسول الله ﷺ أسوة ، قال: كيف؟ قال: امتدحه العباس بن مرداس السلمي فأعطاه حلة قطع بها لسانه ، قال: أو تروي من قوله شيئاً؟ قال: نعم ، فأنشده يقول:

رأيتُكَ يا خيرَ البريةِ كلِّها ... نشرتَ كتاباً جاءَ بالحقِّ معلما

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٣٥٣).

(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٠).

(٣) حلية الأولياء (٥/ ٣١٥ ـ ٣١٦) و: فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٣٥٦).

شرعتَ لنا دينَ الهُدى بعد جَوْرِنا عنِ الحقِّ لمَّا أصبحَ الحقُّ مظلما
ونورتَ بالتبيانِ أمراً مدلساً وأطفأتَ بالقرآنِ ناراً تضرما

قال: ويحك يا عدي! من بالباب منهم؟ فذكر له أسماء الشعراء، عمر بن عبد الله بن ربيعة، والفرزدق، والأخطل، وجرير، فرد الجميع إلا جريراً فسمح له بالدخول، فدخل جرير وهو يقول:

إنَّ الذي بعثَ النبيَّ محمداً جَعَلَ الخلافةَ للإمامِ العادلِ
وسِعَ الخلائقَ عدلُهُ ووفاؤُه حتى ارعوى فأقامَ ميلَ المائلِ
إني لأرجو منكَ خيراً عاجلاً والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجِلِ

فلما مثل بين يديه قال: ويحك يا جرير! اتق الله ولا تقل إلا حقاً[1]! فأنشأ جرير يقول:

أأذكرُ الجهدَ والبلوى التي نزلتْ أَمْ قَدْ كفاني بما بُلِّغْتَ من خبري
كمْ باليمامةِ من شعثاءَ أرملةٍ ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنَّظَرِ
ممن يعدُّكَ تكفي فقدَ والِدِه كالفَرخِ في العشِّ لم ينهضْ ولم يطرِ
يدعوكَ دعوةَ ملهوفٍ كأنَّ بهِ خبلاً من الجِنِّ أو مسّاً من البشرِ
خليفةَ الله ماذا تأمرون بنا لسنا إليكم ولا في حال منتظر
ما زلتُ بعدكَ في همٍّ يُؤرِّقُني قد طالَ في الحيِّ إصعادي ومنحدري
لا ينفعُ الحاضرُ المجهودُ بادينا ولا يعودُ لنا بادٍ على حضرِ
إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفَنَا من الخليفةِ ما نرجو من المطرِ
نالَ الخلافةَ إذ كانتْ له قدراً كما أتى ربَّهُ موسى على قدرِ
هذي الأراملُ قد قضَّيتَ حاجَتَها فمنْ لِحَاجَةِ هذا الأرملِ الذَّكَرِ
الخيرُ ما دمتَ حيّاً لا يفارقُنا بوركتَ يا عمرَ الخيراتِ من عمرِ

فقال: يا جرير ما أرى لك فيما ها هنا حقاً، قال: بلى يا أمير المؤمنين أنا ابن سبيل ومنقطع. فأعطاه من صلب ماله مئة درهم... ثم خرج، فقال له الشعراء: ما وراءك؟ قال: ما يسوؤكم، خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء، وإني عنه لراضٍ، ثم أنشأ يقول:

رأيتُ رُقَى الشيطانِ لا تستفزُّه وقد كانَ شيطاني مِنَ الجِنِّ راقيا[2]

وهذا منهج جديد في عهد الدولة الأموية للتعامل مع الشعراء، فقد كان الشعراء يمدحون

---

(١) المنتظم (٧/ ٣٧).
(٢) المنتظم (٧/ ٩٩).

الملوك والأمراء طلباً لرفدهم ، ويدخلون في قصائدهم المبالغات والكذب ، إلى أن تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز ، فقصدوه ، فكان موقفه من الشعراء كما تبين من الخبر المذكور ، فقطع تلك العادة التي تفسد بنية المجتمع وتشجع على سيادة الأخلاق السيئة من الكذب والتغرير والنفاق ، فقطع تلك العادة السيئة ولم تعد إلى الظهور إلا بعد وفاته[١] ، ولقد اعترف جرير بأن الشياطين كانوا من وراء الشعراء في استفزاز الأمراء الممدوحين ، وأن عمر بن عبد العزيز قد تميز بحصانته من أولئك الشياطين[٢] .

٢١ ـ تأثره بشعر الزهد وعلاقته بسابق البربري :

قرّب عمر بن عبد العزيز من الشعراء من التزم شعر الزهد وذكر الموت والخوف من الآخرة ، ويبدو أن أقرب الشعراء لقلب عمر هو سابق البربري[٣] ، فكان يعظ عمر وينشده الشعر فيتأثر عمر ويبكي ، وذات يوم دخل سابق البربري وهو ينشد شعراً ، فانتهى في شعره إلى هذه الأبيات :

فكمْ من صحيحٍ باتَ للموتِ آمناً ... أَتَتْه المنايا بغتةً بعدما هَجَعْ
فلمْ يستطعْ إذ جاءه الموتُ بغتةً ... فراراً ولا منْهُ بقوَّتِهِ امتنعْ
فأصبَحَ تبكيهِ النساءُ مُقَنَّعاً ... ولا يسمع الداعي وإن صوته رفعْ
وقُرِّبَ من لحدٍ فصارَ مقيلَه ... وفارقَ ما قدْ كانَ بالأمس قَدْ جَمَعْ

قال الرواي ميمون بن مهران: فلم يزل عمر يبكي ويضطرب حتى غشي عليه ، فقمنا فانصرفنا عنه[٤] .

وقد قال سابق البربري قصيدة طويلة فيها مواعظ وحكم ، تأثر بها عمر بن عبد العزيز تأثراً بالغاً؛ وهي :

بسمِ الذي أنزلتْ من عندِهِ السُّوَرُ ... الحمدُ لله أما بعدُ يا عمرْ
إن كنتَ تعلمُ ما تأتي وما تذرُ ... فكنْ على حَذَرٍ قد ينفعُ الحذرْ
واصبرْ على القدرِ المجلوبِ وارضَ به ... وإن أتاكَ بما لا تشتهي القَدَرْ
فما صفا لامرئٍ عيشٌ يُسَرُّ بهِ ... إلا سيتبعُ يوماً صفْوَه كَدَرْ
واستخبرِ الناسَ عمَّا أنت جاهلُه ... إذا عميتَ فقدْ يجلُو العَمَى الخبرْ

(١) التاريخ الإسلامي (١٥ ، ١٦/ ١٧٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) شاعر من الزهاد له كلام في الحكمة والرقائق ، وهو من موالي بني أمية ، والبربري لقب له ، ولم يكن من البربر ، سكن الرقة ، وكان يفد على عمر بن عبد العزيز. الأعلام (٣/ ٦٩).
(٤) الكتاب الجامع لسيرة عمر (٢/ ٦١٢) و: سيرة عمر بن عبد العزيز لعفت وصال حمزة (ص ١٨٤).

قد يرعوي المرءُ يوماً بعد هفوتِهِ ... وتحكمُ الجاهلَ الأيامُ والعِبَرْ
من يطلبِ الجورَ لا يظفرْ بحاجتِهِ ... وطالبُ الحقِّ قد يُهدى له الظَّفَرْ
وفي الهدى عبرٌ تُشْفَى القلوبُ بها ... كالغيثِ ينضُرُ عن وسميِّه[1] الشجرْ
وليسَ ذو العلمِ بالتقوى كجاهِلها ... ولا البصيرُ كأعمى ما له بَصرْ
والرُّشدُ نافلةٌ تُهدى لصاحِبِها ... والغيُّ يكرهُ منه الوِرْدُ والصَّدرْ[2]
وقد يوبق[3] المرءَ أمرٌ وهو يحقرُهُ ... والشيءُ يا نفسُ ينمى وهو يُحتَضَرْ
لا يشبعُ النفسَ شيءٌ حين تُحْرِزُهُ ... ولا يزالُ لها في غيره وَطَرْ
ولا تزالُ ، وإن كانتْ لها سعةٌ ... لها إلى الشيءِ لم تظفرْ به نَظَرْ
وكلُّ شيءٍ له حالٌ تغيِّرُه ... كما تُغيِّرُ لونَ اللِّمَّةِ الغِيَرْ[4]
والذكرُ فيه حياةٌ للقلوبِ كما ... يحيي البلادَ إذا ماتَتِ المطرْ
والعلم يجلُو العَمَى عن قلبِ صاحبهِ ... كما يُجلِّي سوادَ الظلمةِ القَمَرْ
لا ينفعُ الذكرُ قلباً قاسياً أبداً ... وهل يلينُ لقولِ الواعظِ الحجرْ؟
والموتُ جسرٌ لمن يمشي على قدمٍ ... إلى الأمورِ التي تُخشى وتُنتظَرْ
فهمْ يمرّونَ أفواجاً وتجمُعُهم ... دارٌ إليها يصيرُ البدوُ والحَضَرْ
من كان في معقلٍ للحِرزِ[5] أسلمَهُ ... أو كانَ في خمرٍ لم ينجِهِ خَمَرْ
حتى متى أنا في الدنيا أخو كَلَفٍ ... في الخيرِ مني لَذَّاتِها صَعَرْ[6]
ولا أرى أثراً للذكرِ في جَسَدي ... والماءُ في الحجرِ القاسي لَهُ أَثَرْ
لو كان يُسْهِرُ عيني ذكرُ آخرتي ... كما يُؤرِّقني للعاجِلِ السَّهَرْ
إذاً لداويتُ قلباً قد أضرَّ بِهِ ... طولُ السقامِ ووهنُ العظمِ يَنْجَبِرْ
ما يلبثُ الشيءُ أن يبلى إذا اختلفتْ ... يوماً على نقضِهِ الروحاتُ والبكَرْ[7]
والمرءُ يصعدُ ريعانُ الشبابِ به ... وكلُّ مصعدةٍ يوماً ستنحدرْ[8]
وكلُّ بيتٍ خرابٌ بعد جِدَّتِهِ ... ومِنْ وراءِ الشبابِ الموتُ والكِبَرْ

---

(١) الوسمي: المطر في أول الربيع.
(٢) الورد: الماء الذي يورد، والقوم يردون الماء. الصَّدَرُ: الرجوع عن الماء.
(٣) يوبق: يُهلك، من: وبق.
(٤) الغير: كلُّ ما تغير الأحداث.
(٥) الحِرز: المكان المنيع يلجأ إليه.
(٦) صَعَر: صعَّر خده: أماله كبراً.
(٧) الروحات والبكر: روحة من الرواح، ويقابله الصباح البكر: أول النهار.
(٨) أي بعد كل صعود نزول: ما طار طير وارتفع إلا كما طار وقع.

بينا يُرى الغُصن لَدْناً[١] في أرومَتِهِ ... ريَّانَ أضحى خِطاماً جوفُهُ نَخِرْ
وكم من جميعٍ أَشَتَّ الدهرُ شملَهُمُ ... وكلُّ شملٍ جميعٍ سوف ينتثِرْ
وربَّ أصيدَ سامي الطرفِ معتصبٍ ... بالتاج نيرانُهُ للحربِ تستعرُ
يظلُّ مفترِشَ الديباجِ محتجباً ... عليه تبنى قباب الملكِ والحَجرُ
قد غادرته المنايا وهو مستلبٌ ... مُجَدَّلٌ تربُ الخدَّين منعفِرُ[٢]
أبعد آدمَ ترجونَ البقاءَ وهلْ ... تبقى فروعٌ لأصلٍ حين يَنْعَقِرُ
لهمْ بيوتٌ بمستنِّ السيولِ وهل ... يبقى على الماءِ بيتٌ أُسُّهُ مَدَرُ
إلى الفناءِ - وإن طالتْ سلامتُهُم ... مصيرُ كلِّ بني أنثى وإن كَثُرُوا
إنَّ الأمورَ إذا استقبلتَها اشتبهتْ[٣] ... وفي تدبُّرها التبيانُ والعِبَرُ
والمرءُ ما عاشَ في الدُّنيا له أملٌ ... إذا انقضى سفرٌ منها أتى سفرُ
لها حلاوةُ عيشٍ غيرُ دائمةٍ ... وفي العواقبِ منها المرُّ والصَّبُرُ
إذا انقضتْ زُمَرُ آجالها نزلتْ ... على منازِلِها من بعدها زُمَرُ[٤]
وليس يزجرُكُم ما توعظونَ به ... والبُهْمُ يزجرها الراعي فتنزجرُ[٥]
أصبحتم جَزَراً للموت يقبضكُم ... كما البهائمُ في الدُّنيا لها جَزَرُ
لا تبطروا واهجروا الدُّنيا فإنَّ لها ... غِبَّاً وخيماً، وكفرُ النعمةِ البَطَرُ
ثم اقتدوا بالأُلى كانوا لكم غُرَراً ... وليسَ مِنْ أمةٍ إلا لها غُرَرُ[٦]
حتى تكونوا على منهاجِ أوَّلِكم ... وتصبروا عن هوى الدنيا كما صَبَرُوا
ما لي أرى الناسَ والدنيا موليةٌ ... وكلُّ حبلٍ عليها سوف ينبتِرُ[٧]
لا يشعرون بما في دينهم نَقَصوا ... جهلاً وإن نَقَصَتْ دنياهُمُ شعروا[٨]

وكان عمر بن عبد العزيز رحمه الله يتمثل بالشعر كثيراً ومن تلك الأبيات التي ترنّم بها:

ولا خيرَ في عيشِ امرئٍ لم يكنْ له ... منَ اللهِ في دارِ القرارِ نصيبُ[٩]

---

(١) لدناً: طرياً ليناً.
(٢) مُجَدَّل: جَدَّل: صرع، وفي حديث علي رضي الله عنه: يعز علي أبا محمد أن أراك مجدّلاً تحت النجوم.
(٣) اشتبهت: اشتبه: اختلط الأمر عليه.
(٤) الزمر: مفردها زمرة؛ وهي الفوج والجماعة.
(٥) انزجر: انقاد - أي: أن الحيوانات تنقاد لراعيها إذا دعاها.
(٦) الغُرر: ج: غُرّة. وغرة القوم: شريفهم وسيدهم.
(٧) ينبتر: انبتر: انقطع.
(٨) سيرة عمر بن عبد العزيز عفت وصال (ص ١٨٧) و: الكتاب الجامع لسيرة عمر (١/ ٨١).
(٩) البداية والنهاية (١٢/ ٧٠٧).

ومن ذلك أيضاً:

تُسَرُّ بما يَبْلى[١] وتفرحُ بالمُنَى ... كما اغترَّ باللذاتِ في النَّومِ حالمُ
نهارُكَ يا مغرورُ سهْوٌ وغفلةٌ ... وليلُكَ نومٌ والرَّدَى لك لازمُ
وسعيُك فيما سوفَ تكرهُ غِبَّه ... كذلك في الدنيا تعيشُ البهائمُ[٢]

وذات يوم نظر عمر بن عبد العزيز ، وهو في جنازة إلى قوم قد تلثَّموا من الغبار والشمس ، وانحازوا إلى الظلِّ ، فبكى وأنشد:

من كانَ حين تصيبُ الشمسُ جبهتَهُ ... أو الغبارُ يخافُ الشَّينَ والشعَثَا
ويألفُ الظلَّ كي تبقى بشاشتُهُ ... فسوف يسكنُ يوماً راغماً جَدَثا
في قعرِ مُظلمةٍ غبراءَ موحشةٍ ... يطيلُ في قعرِها تحت الثَّرى لُبثا
تجهَّزي بجهازٍ تبلُغين به ... يا نفس قبل الرّدى لم تُخلقي عبثا[٣]

٢٢ ـ بين الشاعر دكين بن رجاء وعمر بن عبد العزيز:

قال دكين: امتدحت عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة ، فأمر لي بخمس عشرة ناقة كرائم صعاباً[٤] ، فكرهت أن أرمي بها الفجاج فتنتشر عليَّ ، ولم تطب نفسي ببيعها ، فقدمت علينا رفقة من مُضر ، فسألتهم الصحبة ، فقالوا: إن خرجت في ليلتك ، فقلت: إنّي لم أودِّع الأمير ، ولا بدَّ من وداعه ، قالوا: إنّه لا يحتجب عن طارق ليل ، فأتيته ، فاستأذنت عليه، فأذن لي ، فدخلت وعنده شيخان أعرفهما ، فودّعته. فقال لي: يا دكين، إنَّ لي نفساً توّاقة ، فإن أنا صرت إلى أكثر ممّا أنا فيه ، فبعَيْنٍ ما أَرَيَنَّك ، فقلت: أشهد لي عليك بذلك ، فقال: أُشهد الله به ، قلت: ومن خَلْقِهِ؟ قال: هذين الشخصين ، فأقبلت على أحدهما فقلت: من أنت أَعرفُك؟ قال: سالم بن عبد الله ، قلت: لقد استسمنت الشاهد ، وقلت للآخر: من أنت؟ قال: أبو يحيى مولى الأمير[٥] ، فخرجت بهنَّ إلى بلدي ، فرمى الله في أذنابهنَّ بالبركة حتى اعتقدت منهنَّ الإبل والغلمان ،فإني لبصحراء فلج[٦] ، إذ ناعٍ ينعى سليمان بن عبد الملك ، قلت: فمن القائم بعده ؟ قال: عمر بن عبد العزيز ، فتوجهتُ نحوه ، فلقيني جرير بالطريق جائياً من

---

(١) يبلى: يفنى.
(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٧٠٧).
(٣) المصدر السابق نفسه (١٢/ ٧٠٦).
(٤) الصعاب: جمع صعبة ، وهي نقيض الذلول: والصعبة التي لم تركب بعد.
(٥) الشعر لابن قتيبة (٢/ ٦١١).
(٦) فلج: موضع في الصحراء.

عنده ، فقلت: يا أبا حزرة من أين؟ فقال: من عند من يعطي الفقراء ويمنع الشعراء ، ولكن عوِّل عليه في مال ابن السبيل ، فانطلقت فإذا هو في عرصة داره[١] قد أحاط به الناس ، فلم يمكنِّي الرِّجْل إليه ، فناديت:

يا عمرَ الخيراتِ والمكارمِ ... وعُمرَ الدَّسائعِ العظائمِ[٢]

إنِّي امرؤٌ منْ قَطَنِ بْنِ دارمِ ... أطلبُ دَيْناً منْ أخٍ مكارمِ

إذ ننتجي واللهُ غيرُ نائمِ ... في ظلمةِ الليلِ وليلٍ عاتمِ[٣]

عندَ أبي يَحيىٰ وعندَ سالمِ

فقام أبو يحيى فقال: يا أمير المؤمنين ، لهذا البدوي عندي شهادة عليك ، قال: أعرفها: ادنُ منِّي يا دُكين ، أنا كما ذكرت لك ، إنَّ نفسي لم تنل أمراً إلا تاقت إلى ما هو فوقه ، وقد نلت غاية الدنيا ، فنفسي تتوق إلى الآخرة ، والله ما رزأت من أموال الناس شيئاً فأعطيك منه ، وما عندي إلا ألفا درهم ، أعطيك أحدهما. فأَمَرَ لي بألف ، فو الله ما رأيت ألفاً كان أعظم بركة منه[٤]. ودكين هو القائل:

إذا المرءُ لم يدنسْ من اللُّؤمِ عِرضُهُ ... فكلُّ رداءٍ يرتديهِ جميلُ

وإنْ هو لَمْ يُضْرِع عن اللُّؤمِ نَفْسَهُ ... فليسَ إلى حسنِ الثَّناء سبيلُ[٥]

* **من معالم عمر بن عبد العزيز في التغيير الاجتماعي:**

ومن خلال حياة عمر بن عبد العزيز الاجتماعية يمكننا معرفة معالم منهجه في التغيير الاجتماعي؛ والتي من أهمها:

١ ـ القدوة:

حيث ضرب من نفسه مثالاً رائعاً في الزهد والورع ومحاسبة النفس والأهل والعشيرة ، وإقامة الشرع على نفسه ومن حوله.

٢ ـ التدرج والمرحلية:

حيث أخذ بسنة التدرج في الإصلاح الاجتماعي ، وإماتة البدع وإحياء السنن ، كما مرّ معنا.

---

(١) عرصة الدار: وسطها.

(٢) الدسائع: العطايا والرغائب الواسعة.

(٣) ننتجي: نتناجى.

(٤) الشعر والشعراء ، لابن قتيبة (٢/ ٦١٢).

(٥) المصدر السابق نفسه.

٣ ـ فهم النفوس البشرية :

ولهذا كان يتبع مع الناس أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة ، ويرغّب ويرهب ، ويعطي شيئاً من الدنيا لتهدئة النفوس ثم أخذها للحق وإقامة العدل وإزالة الظلم .

٤ ـ ترتيب الأولويات :

فقد قدم رد المظالم على غيرها من الأعمال ، ولهذا انتهج سياسة واضحة في رد المظالم ، بدأ بنفسه ، ثم أهله وعشيرته ، وعزل الولاة الظلمة ، وعيَّن الأخيار من أهل الكفاءة والأمانة والعلم ، لإقامة العدل وتطبيق الشرع . . . إلخ .

٥ ـ وضوح الرؤية في خطواته الإصلاحية :

حيث جدّد مفهوم الشورى وبيعة الحاكم وحق الأمة في الاختيار ، عمل على توكيل الأمناء على الولايات ، نشره للعدل في كافة الدولة ، إحياؤه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حرصه على سلامة معتقد الأمة الصحيح ، ومحاربته للمعتقدات الفاسدة ، اهتمامه بالعلماء وتوظيفهم لخدمة الإسلام من خلال الدعوة والعلم والتعليم والتزكية ، . . . إلى آخر ذلك من الأعمال في مجال الاقتصاد ، والسياسة والاجتماع ؛ حيث كان يملك رؤية إصلاحية تجديدية شاملة ـ كما سوف يتضح من خلال هذا الكتاب .

٦ ـ التقيد بالقرآن الكريم والسنة النبوية :

وكذلك التقيد بهدي الخلفاء الراشدين في رؤيته الإصلاحية ، وبذلك يمكننا القول بأن وضوح الرؤية انبثق من خلال ثوابت راسخة متمثلة في المرجعية الشرعية للرؤية الإصلاحية الشاملة التي قام بها عمر بن عبد العزيز ، والتي من جوانبها الحياة الاجتماعية .

ثانياً: عمر بن عبد العزيز ، والعلماء :

كانت أيام سليمان بن عبد الملك بداية لمشاركة العلماء في مسؤوليات الدولة ، وقربهم من مصدر القرار السياسي وتأثيرهم فيه ، فلما جاء عهد عمر بن عبد العزيز أصبحت مشاركة العلماء في إدارة شؤون الدولة قوية فعالة ، وشاملة متنوعة ، فعلى رأس الدولة عمر وهو يعد من أبرز العلماء وكبار الفقهاء ، وساس الدولة كعالم وليس كملك ، وتوسعت دائرة مشاركة العلماء في عهده ، فبدأت في مركز اتخاذ القرار في العاصمة ؛ حيث أحاط عمر نفسه بجملة من العلماء للإشارة عليه ومعاونته ، وأبعد من سواهم ، فأصبحوا فرسان الحلبة وحدهم ، فساهموا في صياغة سياسة الدولة صياغة شرعية خالصة ، وامتدت مشاركتهم في المسؤولية إلى بقية مرافق الدولة ، فأسندت إليهم مختلف المناصب والأعمال ، ولا يعدو القول الحقيقة إذا قلنا: إن الدولة في عهد عمر بن عبد العزيز كانت دولة العلماء ، فهي نموذج لما ينبغي أن تكون عليه

الدولة الإسلامية؛ اتحدت فيها السلطة التشريعية مع السلطة التنفيذية على أحسن حال[١].

وقد اتسعت مشاركة العلماء في عهد عمر بن عبد العزيز بشكل لم يسبق له مثيل في الدولة الأموية، ويرجع السبب في ذلك إلى أمور، أهمها: حرص عمر على تقريب العلماء وجعلهم بطانته ووزراءه وأعوانه، ويتعلق السبب الآخر بالعلماء؛ حيث لم ير أحد من العلماء لنفسه أي مبرر في البعد عن عمر والمشاركة في أعماله، فمن كان منهم يرىٰ اعتزال الخلفاء والأمراء من منطلق أن على العلماء أن يصونوا العلم ولا يذهبوا للسلاطين ابتداء، بل على السلاطين أن يقدروا العلم والعلماء ويسعوا إليهم، من كان يرى ذلك فقد تحقق له شرطه؛ حيث كان عمر يقصد العلماء ويبعث إليهم، ومن كان يرى اعتزال الخلفاء والأمراء خوفاً على دينه من مخالطتهم لم يعد لهذا المحذور وجود؛ حيث إن مجالس عمر ومخالطته تعين المرء على دينه، لهذا أقبل العلماء على عمر، ورأوا أن من الواجب عليهم تحمل عبء المسؤولية الملقاة على عاتقه، ولم يعد لمعتذر عذر، بل أقبلوا عليه[٢]، وقالوا كما ذكر ابن عساكر: ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله[٣]. فهذا ميمون بن مهران الذي يقول: لا تدخل على سلطان وإن قلت: آمره بطاعة، والذي يقول: لا تعرف الأمير ولا تعرف من يعرفه، ومع هذا لا يجد لنفسه بُدّاً من العمل عند عمر بن عبد العزيز ومشاركته[٤].

وتتجلى مشاركة العلماء في عهد عمر في عدة مظاهر؛ أهمها:

١ ـ قربهم من الخليفة وشد أزره للسير في منهجه الإصلاحي:

أسهم العلماء في مساعدة عمر بن عبد العزيز في السير في منهجه الإصلاحي؛ حيث أيدوه فيما اتخذه من قرارات إصلاحية، كما كان لبعضهم أثر في اتخاذ عمر لبعض تلك القرارات. فمن ذلك ما أثر عن العالم العامل عراك بن مالك[٥]، فقد ذكر ابن عمه أنه كان من أشد أصحاب عمر بن عبد العزيز على بني مروان في انتزاع ما حازوا من الفيء والمظالم من أيديهم، وقد تعرض بسبب هذا الموقف لغضب بني أمية فيما بعد، فنفاه يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة إلى دهلك[٦].

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١١٤).

(٢) المصدر السابق نفسه (ص ١٩٦).

(٣) مختصر تاريخ ابن عساكر؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٩٧).

(٤) البداية والنهاية؛ نقلاً عن أثر العلماء (ص ١٩٧).

(٥) عراك بن مالك الغفاري المدني، أحد العلماء العاملين.

(٦) جزيرة في بحر اليمن، ضيقة حرجة، كان بنو أمية إذا سخطوا على أحد نفوه إليها. سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٤).

وكان عراك بن مالك الغفاري شيخاً كبيراً ومحدثاً تابعياً ثقة من خيار التابعين ، وكان زاهداً عابداً ، وقد انتفع به أهل تلك الجزيرة التي نفي إليها[١] ، وكان هذا التابعي الجليل يسرد الصوم؛ وقال فيه عمر بن عبد العزيز: ما أعلم أحداً أكثر صلاة من عراك بن مالك ، وقد مات في منفاه رحمه الله في إمرة يزيد بن عبد الملك عام ١٠٤ هـ [٢].

وكان ميمون بن مهران من المقربين من عمر بن عبد العزيز؛ فقد روى ابنه عمر بن ميمون بن مهران عن أبيه قال: ما زلتُ ألطف في أمر الأمة أنا وعمر بن عبد العزيز ، حتى قلت له: ما شأن هذه الطوامير التي تكتب فيها بالقلم الجليل وهي من بيت المال ، فكتب إلى الآفاق لتركه ، فكانت كتبه نحو شبر[٣].

وميمون بن مهران قال عنه الذهبي: الإمام الحجة عالم الجزيرة ومفتيها[٤] ، وقال عنه عمر بن عبد العزيز: إذا ذهب هذا وضرباؤه ، صار الناس بعده رجراجة[٥] ، وكان يكبر عمر بن عبد العزيز بعشرين سنة[٦].

وكان ميمون بن مهران من علماء السلف وممَّن له مواقف وأقوال في نصرة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فمن أقواله: لا تجالسوا أهل القدر ، ولا تسبوا أصحاب محمد ﷺ ، ولا تَعَلَّموا النجوم[٧]. وكتب ذات يوم إلى عمر بن عبد العزيز: إني شيخ كبير رقيق ، كلَّفتني أن أقضي بين الناس ، وكان على الخراج والقضاء بالجزيرة ، فكتب إليه: إني لم أُكَلِّفك ما يُعنِّيك اجْبِ الطَّيِّبَ من الخراج ، واقضِ بما استبان لك ، فإذا لُبس عليك شيء ، ارفعه إليّ ، فإن الناس لو كان إذا كبُر عليهم أمرٌ تركوه لم يقم دين ولا دنيا[٨].

ومن أقوال ميمون بن مهران: لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه ، وحتى يعلم من أين ملبسه ومطعمه ومشربه[٩]. وقال: ثلاثة تُؤَدَّى إلى البرِّ والفاجر:

---

(١) انتشار الإسلام في القرن الإفريقي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة (ص ٣٨ ، ٣٩).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٦٤).
(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٣٣).
(٤) المصدر السابق نفسه (٥/ ٧١).
(٥) رجراجة: رعاع الناس وجهالهم. سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٢).
(٦) المصدر السابق نقسه.
(٧) المصدر السابق نفسه (٥/ ٧٣).
(٨) المصدر السابق نفسه (٥/ ٧٤).
(٩) المصدر السابق نفسه.

الأمانة، والعهد، وصلة الرحم[١]. قال رجل لميمون بن مهران: يا أبا أيوب، ما يزال الناس بخير ما أبقاك الله لهم، قال: أقبل على شأنك: ما يزال الناس بخير ما اتقوا ربهم[٢]. وقال: من أساء سراً، فليتب سراً، ومن أساء علانية، فليتب علانية، فإن الناس يعيرون ولا يغفرون، والله يغفر ولا يعيّر[٣].

وعن جعفر بن برقان قال: قال لي ميمون بن مهران: يا جعفر قل في وجهي ما أكره، فإن الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما يكره[٤]، وعن أبي المليح قال: قال ميمون: إذا أتى رجل باب سلطان، فاحتجب عنه، فليأت بيوت الرحمن، فليصلِّ ركعتين، وليسأل حاجته[٥].

وعن ميمون بن مهران قال: ثلاث لا تبلون نفسك بهنَّ: لا تدخل على السلطان، وإن قلت: آمره بطاعة الله، ولا تصغين بسمعك إلى هوى، فإنك لا تدري ما يعلق بقلبك منه، ولا تدخل على امرأة ولو قلت: أعلمها كتاب الله[٦]. وقال: ما نال رجل من جسيم الخير - نبي ولا غيره - إلا بالصبر[٧]. وتوفي ميمون رحمه الله سنة سبع عشرة ومئة[٨]، وقيل: سنة ست عشرة[٩].

٢ - تعهدهم عمر بالنصح والتذكير بالمسؤولية:

يعتبر عمر بن عبد العزيز أكثر خليفة وجهت إليه النصائح والتوجيهات في عهد بني أمية؛ فقد شهد أكبر عدد من الرسائل بين الخليفة والعلماء، ولو استعرضنا أولئك العلماء الذين وجهوا النصح والتذكير لعمر وما كتبوه من رسائل لطال بنا الحديث، ولكن نذكر منهم على سبيل المثال: سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن كعب القرظي، وأبا حازم سلمة بن دينار، والقاسم بن مخيمرة، والحسن البصري وغيرهم.

وكانت نصائح العلماء تتضمن عدداً من التوجيهات التي لها صلة بمنهج عمر السياسي، مما

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ٧٥).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) المصدر السابق نفسه (٥/ ٧٧).
(٧) المصدر السابق نفسه (٥/ ٧٨).
(٨) المصدر السابق نفسه.
(٩) المصدر السابق نفسه.

يؤكد أن عمر بن عبد العزيز استقى منهجه من المنهل الذي نبعت منه هذه التوجيهات[١] ، فمما جاء في موعظة محمد بن كعب القرظي: .. يا أمير المؤمنين! افتح الأبواب، وسهل الحجاب، وانصر المظلوم، ورد الظالم[٢] ، وبمثل هذا المعنى جاءت موعظة القاسم بن مخيمرة حيث قال لعمر: .. بلغنا أن من ولي على الناس فاحتجب عن فاقتهم وحاجتهم احتجب الله عن فاقته وحاجته يوم يلقاه. قال عمر: فما تقول؟ ثم أطرق طويلاً وبرز للناس[٣] .

وجاء في إحدى رسائل الحسن البصري لعمر: ... أما بعد يا أمير المؤمنين! فكن للمثل أخاً، وللكبير ابناً، وللصغير أباً، وعاقب كل واحد منهم بذنبه على قدر جسمه، ولا تضربن لغضبك سوطاً واحداً فتدخل النار[٤] ، وقد كان عمر كما سلف يحرص على تطبيق مثل هذا التوجيه ويأمر عماله بذلك[٥] .

ومما جاء في رسالة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ المليئة بالتوجيهات: .. فإنه قد كان قبلك رجال عملوا وأحيوا ما أحيوا وأتوا ما أتوا حتى ولد في ذلك رجال ونشؤوا فيه وظنوا أنها السنة فسدوا على الناس أبواب الرخاء، فلم يسدوا منها باباً إلا فتح الله عليهم باب بلاء، فإن استطعت ـ ولا قوة إلا بالله ـ أن تفتح على الناس أبواب الرخاء فافعل، فإنك لن تفتح باباً إلا سد الله الكريم عنك باب بلاء، وما يمنعك من نزع عامل أن تقول: لا أحد يكفيني عمله، فإنك إذا كنت تنزع لله وتستعمل لله أتاح الله لك أعواناً فأتاك بهم. وجاء فيها أيضاً: .. فمن بعثت من عمالك إلى العراق فانهه نهياً شديداً بالعقوبة عن أخذ الأموال وسفك الدماء إلا بحقها. المال المال يا عمر والدم؛ فإنه لا نجاة لك من هول جهنم من عامل بلغك ظلمه ثم لم تغيره[٦] .

وهذه التوجيهات هي عين سياسة عمر في السعي لإغناء رعيته وانتقائه لعماله ومحاسبته لهم[٧] .

٣ ـ مشاركتهم في تولي مختلف مناصب الدولة وأعمالها:

لم تقتصر مشاركة العلماء لعمر بن عبد العزيز على الإشارة عليه وتقديم النصح له، بل

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية (ص ١٩٩).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي (ص ١١٣).
(٤) المصدر السابق نفسه (ص ١٠٣).
(٥) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية (ص ١٩٩).
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص ١٠٣).
(٧) أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ١٩٩).

تعدَّت ذلك إلى تولي عدد من المناصب في مختلف الأقاليم ، وأهم هذه المناصب وأكثرها أثراً في سياسة الدولة : الإمارة على الأقاليم ، وبيت المال[١] ، وحين نتتبع ولاة عمر على الأقاليم نجد أن جلَّهم من العلماء؛ فمن ذلك : الإمام الثقة والأمير العادل عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب على ولاية الكوفة[٢] ، والعالم القدير أبو بكر بن عمر بن حزم على المدينة[٣] ، والإمام الكبير إسماعيل بن أبي المهاجر على إفريقية[٤] ، والفقيه المحدث عدي بن عدي الكندي على الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان[٥] ، والإمام القاضي عبادة بن نسي على الأردن[٦] ، والثقة الصالح عروة بن عطية السعدي على اليمن[٧] ، والقاضي الفاضل سالم بن وابصة العبدي على الرقة[٨] .

وأما بيت المال فقد تولى العمل فيه عدد من العلماء؛ ومنهم : العالم الجليل ميمون بن مهران على خراج الجزيرة[٩] ، والثقة الصالح صالح بن جبير الصدائي على الخراج لعمر بن عبد العزيز[١٠] ، والعالم وهب بن منبه على بيت مال اليمن ، وأبو زناد ، وتولى عمر بن ميمون البريد لعمر بن عبد العزيز[١١] .

ولا شك أنه كان لهذه المشاركة الواسعة من العلماء بتوليهم الإمارة ، وبيوت الأموال في مختلف الأقاليم الأثر الكبير في ضبط شؤون الدولة الإدارية والمالية ، وما ترتب على ذلك من آثار حسنة في الحياة السياسية في عهد عمر بن عبد العزيز[١٢] .

ثالثاً : المدارس العلمية في عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية :

تحدثت في كتابي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المدارس العلمية ، واتخاذه من

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٢٠٠) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٤٩) .
(٣) المعرفة والتاريخ (١/ ٦٤٥) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢١٣) .
(٥) مختصر تاريخ دمشق (١٦/ ٣٢) .
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٣) .
(٧) تهذيب التهذيب (٦/ ١٨٦) .
(٨) تاريخ دمشق ؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ٢٠١) .
(٩) سيرة عمر ، لابن الجوزي (ص ٧٨) .
(١٠) أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ٢٠٢) .
(١١) المصدر السابق نفسه .
(١٢) المصدر السابق نفسه .

عاصمة الدولة مدرسة يتخرج منها العلماء والدعاة والولاة والقضاة ، فنشطت المدارس العلمية في مكة والمدينة والبصرة والكوفة والشام ومصر وغيرها ، وأشرف الصحابة الكرام على تعليم وتربية الناس فيها ، واستطاعت تلك المدارس أن تخرج كوادر علمية وفقهية ودعوية متميزة ، ساندت المؤسسة العسكرية التي قامت بفتح العراق وإيران والشام ومصر وبلاد المغرب ، واستطاع علماء الصحابة الذين تفرغوا لدعوة الناس وتربيتهم أن ينشئوا جيلاً من العارفين للدين الإسلامي من أبناء المناطق المفتوحة ، وقد استطاعوا أن يتغلبوا على مشكلة إعاقة الحاجز اللغوي ، بل تعلم الكثير من الأعاجم لغة الإسلام ، وأصبح كثير من رواد حركة العلم بعد عصر الصحابة من العجم .

لقد أثرت المدارس العلمية والفقهية في المناطق المفتوحة ، وشكلت جيلاً من التابعين نقلوا إلى الأمة علم الصحابة ، وأصبحوا من ضمن سلسلة السند التي نقلت للأمة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ويرجع الفضل في نقل ما تلقاه الصحابة من علم من الرسول بالدرجة الأولى بعد الله إلى مؤسسي المدارس العلمية بمكة والمدينة والبصرة والكوفة وغيرها من الأقطار[١] .

وقد استمرت مدارس التابعين في النشاط العلمي في عهد الدولة الأموية ، وكثير من العلماء الذين تخرجوا من تلك المدارس أعانوا عمر بن عبد العزيز على مشروعه الإصلاحي التجديدي الراشدي المنضبط بمنهاج النبوة ، ومن أهم تلك المدارس :

١ ـ مدرسة الشام :

تأسست في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وأشهر مؤسسيها من الصحابة : معاذ بن جبل ، وأبو الدرداء ، وعبادة بن الصامت رضي الله عنهم ، وحمل التابعون الراية العلمية والتربوية والدعوية بعد الصحابة ؛ ومن أشهرهم :

أ ـ الإمام الفقيه أبو إدريس الخولاني ، عائذ بن عبد الله :

قاضي دمشق وعالمها ، روى عن أبي الدرداء وأبي هريرة وابن عباس وخلق غيرهم ، كان أبو إدريس عالم الشام بعد أبي الدرداء قال : أدركت أبا الدرداء ووعيت عنه ، وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، ووعيت عنهما[٢] .

كان أبو إدريس ثقة من أهل الفقه في الدين وعلم الحلال والحرام ، وكان من أحسن الناس تلاوة للقرآن ، فعن يزيد بن عبيدة : أنه رأى أبا إدريس في زمن عبد الملك بن مروان ، وأن حلق المسجد بدمشق يقرؤون القرآن ، يدرسون جميعاً ، وأبو إدريس جالس إلى بعض العمد ،

---

(١) الدور السياسي للصفوة (ص ٤٦٢ و ٤٦٣) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٥) .

فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا إليه يقرأ بها ، وأنصتوا له ، وسجد بهم جميعاً . . . حتى إذا فرغوا من قراءتهم قام أبو إدريس يقصُّ[١] .

وعن يزيد بن أبي مالك ، قال : كنا نجلس إلى أبي إدريس الخولاني فيحدثنا ، فحدث يوماً عن بعض مغازي رسول الله ﷺ حتى استوعب الغزاة، فقال له رجل من ناحية المجلس : أحضرت هذه الغزوة؟ فقال : لا ، فقال الرجل : قد حضرتها مع رسول الله ، ولأنت أحفظ لها مني[٢] .

وقد عزل عبد الملك بن مروان بلال بن أبي الدرداء عن القضاء ، وولى أبا إدريس[٣] . ثم إن عبد الملك عزل أبا إدريس عن القصص ، وأقره على القضاء ، فقال أبو إدريس : عزلتموني عن رغبتي وتركتموني في رهبتي[٤] . توفي عام ٨٠ هـ[٥] .

ب ـ الفقيه قبيصة بن ذؤيب الدمشقي :

روى عن عمر بن الخطاب وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وخلق غيرهم . كان قبيصة من علماء التابعين ثقة مأموناً كثير الحديث ، قال الشعبي : كان أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت[٦] ، قال عنه مكحول : ما رأيت أحداً أعلم من قبيصة[٧] ، وعن ابن شهاب ، قال : كان قبيصة بن ذؤيب من علماء هذه الأمة[٨] ، توفي سنة ٨٦ هـ ، وقيل : ٨٧ هـ ، وقيل : ٨٨ هـ[٩] . وقد توسعت في ترجمته عند حديثي عن عبد الملك .

جـ ـ رجاء بن حيوة الفلسطيني :

من أجلة التابعين وشيخ أهل الشام ، حدث عن معاذ بن جبل وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وطائفة[١٠] ، كان شامياً ثقة فاضلاً كثير العلم[١١] ، ويروى عن رجاء بن حيوة أنه قال :

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٧٤).
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٧٥).
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٧٦).
(٦) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٨٣).
(٧) المصدر السابق نفسه .
(٨) المصدر السابق نفسه .
(٩) المصدر السابق نفسه .
(١٠) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٥٩).
(١١) الفتوى : نشأتها وتطورها ، د. حسين الملاح (ص ٨٥).

من لم يؤاخِ إلا من لا عيب فيه قلَّ صديقه ، ومن لم يرضَ من صديقه بالإخلاص له دام سخطه ، ومن عاتب إخوانه على كل ذنب كثر عدوُّه[(١)] .

كان رجاء كبير المنزلة عند سليمان بن عبد الملك وعند عمر بن عبد العزيز ، وأجرى الله على يديه الخيرات ، ثم إنَّه بعد ذلك أُخِّر ، فأقبل على شأنه[(٢)] ، توفي سنة ١١٢ هـ[(٣)] .

د ـ مكحول الشامي الدمشقي :

عالم أهل الشام ، عداده في أواسط التابعين من أقران الزهري ، سمع من واثلة بن الأسقع وواثلة آخر من مات من الصحابة بدمشق[(٤)] ، وتوفي عام ٨٥ هـ وله ثمان وتسعون سنة[(٥)] ، قال عنه الزهري : العلماء أربعة : سعيد بن المسيب بالمدينة والشعبي بالكوفة ، والحسن بالبصرة ، ومكحول بالشام[(٦)] . وكان مكحول أفقه أهل الشام ، ولم يكن في زمنه أبصر بالفتيا منه[(٧)] ، توفي ١١٢ هـ وقيل : ١١٣ هـ ، وقيل غير ذلك[(٨)] .

هـ ـ عمر بن عبد العزيز :

وهو من علماء المدرسة الشامية والمدينة ، وذلك بعد انتقاله إلى الشام وقيامه بأعباء الخلافة ، وكان معروفاً بالفقه ، بصيراً بالسنة ، يرجع إليه القضاة في الأمور التي يختلفون فيها[(٩)] . وقد بدأتُ بالمدرسة الشامية لأنها ترعرعت في عاصمة الخلافة الأموية .

و ـ بلال بن سعد السكوني :

الإمام الرباني الواعظ أبو عمرو الدمشقي شيخ أهل دمشق، كان لأبيه صحبة ، كان بليغ الموعظة، حسن القصص، نافعاً للعامة، وكان لأهل الشام كالحسن البصري بالعراق، وكان قارئ أهل الشام جهير الصوت[(١٠)] ، يقول الأوزاعي : لم أسمع واعظاً قط أبلغ من بلال بن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٨) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٦٠) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٦١) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٨٦) .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٥٨) .
(٧) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٥٩) .
(٨) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٥٩ ، ١٦٠) .
(٩) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (١/ ٥٤) .
(١٠) سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٠ ، ٩١) .

سعد[١] ، ومن مواعظه العميقة: يا أهل التُّقى إنكم لم تُخلقوا للفناء ، وإنما تُنقلون من دار إلى دار ، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى الدنيا ، ومن الدنيا إلى القبور ، ومن القبور إلى الموقف ، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار[٢] .

ومن أقواله: لا تنظر إلى صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت[٣] . وقال الأوزاعي: سمعته يقول: والله لكفى بنا ذنباً أن الله يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها[٤] . وقد توفي سنة نيف وعشرة ومئة .

٢ ـ المدرسة المدنية :

لما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت المدينة عاصمة الدولة الإسلامية وموطن الخلافة ، وفيها تفتق عقل الصحابة في استخراج أحكام إسلامية ، تصلح لما جدَّ من شؤون في المجتمعات الإسلامية ، بعد الفتوح التي كثرت ، وفي عهد عمر بن الخطاب بلغ فقهاء الصحابة المفتون (١٣٠) مئة وثلاثين صحابياً ، وكان المكثرون منهم سبعة: عمر ، وعلي ، وعبد الله بن مسعود ، وعائشة ، وزيد بن ثابت ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن عمر[٥] ، وورث علماء التابعين الفقه والعلم والتربية والدعوة ، وأما أشهر علماء التابعين: سعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير ، وعمرة بنت عبد الرحمن بن سعد الأنصارية ، والقاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق ، وسليمان بن يسار ، ونافع مولى ابن عمر[٦] ، وقد تحدثت عن دور فقهاء وعلماء التابعين بالمدينة في نشأة عمر بن عبد العزيز .

٣ ـ المدرسة المكية :

احتلَّت هذه المدرسة المكانة في قلوب المؤمنين ، الساكنين والثائبين على بلد الله الحرام ، الحجاج والعمار والزوار ، بل أخذت مكة بألباب كل مؤمن رآها أو تمنَّى أن يراها ، ولقد كان العلم بمكة يسير زمن الصحابة ، ثم كثر في أواخر عصرهم وكذلك في أيام التابعين ، وزمن أصحابهم ، كابن أبي نجيح ، وابن جريج[٧] ، إلا أن مكة اختصت زمن التابعين بحبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما الذي صرف جل همه ، وغاية وسعه إلى علم

---

(١) المصدر السابق نفسه (٥/ ٩١).
(٢) المصدر السابق نفسه .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه (٥/ ٩٢).
(٥) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (٢/ ٤٥).
(٦) الفتوى ، د. حسين الملاح (ص ٨١ ، ٨٢).
(٧) المدينة النبوية فجر الإسلام والعصر الراشدي (٢/ ٤٨).

التفسير ، وربى أصحابه على ذلك ، فنبغ منهم أئمة كان لهم قصب السبق بين تلاميذ المدارس في التفسير ، وقد ذكر العلماء مجموعة من الأسباب أدت إلى تفوق المدرسة المكية في هذا العلم ، وأهم هذه الأسباب والأساس فيها : إمامة ابن عباس رضي الله عنهما وأستاذيته لها[١] .

ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة المكية :

أ ـ مجاهد بن جبر المكي :

أخذ الفقه والتفسير عن ابن عباس وغيره من الصحابة ، كان فقيهاً عالماً ثقة من أوعية العلم[٢] ، وعن مجاهد قال : عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس ، أَقِفُه عند كل آية ، أسأله فيم نزلت ؟ وكيف كانت[٣] ؟ وقال قتادة : أعلم من بقي بالتفسير مجاهد[٤] ، وقال مجاهد : صحبت ابن عمر وأنا أريد أن أخدمه فكان يخدمني[٥] ، وقدم مجاهد على سليمان بن عبد الملك ، ثم على عمر بن عبد العزيز ، وشهد وفاته .

وعن مجاهد قال : قال لي عمر بن عبد العزيز في مرض وفاته : يا مجاهد ! ما يقول الناس فيّ ؟ قلت : يقولون : مسحور ، قال : ما أنا بمسحور ، ثم دعا غلاماً له فقال : ويحك ، ما حملك على أن سقيتني السُّمَّ؟ قال : ألف دينار أُعطيتها وأن أُعتق ، قال : هاتها ، فجاء بها ، فألقاها في بيت المال ، وقال : اذهب حيث لا يراك أحد[٦] .

وقال مجاهد : ما أدري أي النعمتين أعظم ، أن هداني للإسلام ، أو عافاني من هذه الأهواء[٧] . قال الذهبي معلقاً على قول مجاهد : مثل الرّفض والقدر والتجهّم[٨] .

وعن عبد الوهاب بن مجاهد ، قال : كنت عند أبي فجاء ولده يعقوب ، فقال : يا أبتاه ، إن لنا أصحاب يزعمون أن إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد . فقال : يا بني ما هؤلاء بأصحابي ، لا يجعل الله من هو منغمس في الخطايا كمن لا ذنب له[٩] .

(١) تفسير التابعين ، د. محمد الخضري (١/ ٣٧١) .
(٢) الفتوى ، د. حسين الملاح (ص ٨٠) .
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥١) .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٥٢) .
(٦) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٥٣) .
(٧) المصدر السابق نفسه .
(٨) المصدر السابق نفسه .
(٩) المصدر السابق نفسه (٤/ ٤٥٥) .

ومات مجاهد سنة اثنتين ومئة وهو ساجد[١]، وكان عمره ثلاثاً وثمانين سنة[٢].

ب ـ عكرمة مولى ابن عباس:

كان مكياً تابعياً ثقة من أعلم التابعين، روى عن ابن عباس وعائشة وأبي هريرة وابن عمر، وابن عمرو، وعقبة بن عامر، وعلي بن أبي طالب[٣]، قال: طلبت العلم أربعين سنة، وكنت أفتي بالباب وابن عباس بالدار. وعن عكرمة: أن ابن عباس رضي الله عنهما قال له: انطلق فأفتِ الناس وأنا لك عون، قلت: لو أن هؤلاء الناس ومثلهم مرتين لأفتيتهم. قال ابن عباس: انطلق فأفتهم، فمن جاءك يسألك عما يعنيه فأفته، ومن سألك عما لا يعنيه فلا تُفته، فإنك تطرح عنك ثلثي مؤونة الناس[٤].

وكان عكرمة كثير الأسفار، ونزل على عبد الرحمن الحسّاس الغافقي، وصار إلى إفريقية[٥].

وقد اتهم عكرمة بالصفرية فرقة من فرق الخوارج ولم تثبت هذه التهمة بسند صحيح وإنما بصيغة يقال[٦]، وقد دافع علماء الجرح والتعديل عن عكرمة، كأبي حاتم الرازي، وابن حبان، والعجلي، وابن منده وابن عبد البر ونقل ذلك ابن حجر في مقدمة الفتح وقال: لا تثبت عنه بدعة[٧]. وقال البخاري: ليس أحد من أصحابنا إلا هو يحتج بعكرمة[٨]، توفي سنة ١٠٥ هـ[٩].

جـ ـ عطاء بن أبي رباح:

مفتي الحرم وأحد الفقهاء الأئمة، روى عن ابن عباس وأبي هريرة وأم سلمة وعائشة ورافع بن خديج وزيد بن أرقم وابن الزبير، وابن عمرو وابن عمر وجابر ومعاوية وأبي سعيد وعدد من الصحابة[١٠].

---

(١) طبقات ابن سعد (٥/ ٤٦٧) و: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٥).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٥٦).
(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٣).
(٤) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٥).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف في الاعتقاد (ص ٣٩).
(٧) مقدمة الفتح (ص ٤٢٨).
(٨) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١).
(٩) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٤).
(١٠) المصدر السابق نفسه (٥/ ٧٩).

وكان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، انتهت إليه فتوى أهل مكة. قال عنه ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون علي وعندكم عطاء ؟! ولسعة علمه وجلالة قدره كانوا في عهد بني أمية يأمرون في الحج منادياً يصيح: لا يفتي الناس إلا عطاء بن أبي رباح، توفي سنة ١١٥ هـ[(١)].

هؤلاء بعض علماء التابعين من المدرسة المكية الذين نهضوا بعبء الدعوة والتعليم وإتمام البناء العلمي[(٢)].

٤ ـ المدرسة البصرية:

وهي منافسة للكوفة في كل الفنون، وقد نزلها من الصحابة جمع كثير، منهم: أبو موسى الأشعري، وعمران بن حصين، وأنس بن مالك وغيرهم، ويعتبر أنس بن مالك رضي الله عنه شيخ السادة من علماء التابعين؛ أمثال: الحسن البصري، وسليمان التيمي، وثابت البناني، وربيعة بن أبي عبد الرحمن، وإبراهيم بن أبي ميسرة، ومحمد بن سيرين، وقتادة وغيرهم[(٣)]. ومن أشهر علماء المدرسة البصرية:

أ ـ محمد بن سيرين البصري:

كان مولى أنس بن مالك، سمع من ابن عباس، وابن عمر، وأبي هريرة وخلق سواهم[(٤)]، وعن حبيب بن الشهيد قال: كنت عند عمرو بن دينار فقال: والله ما رأيت مثل طاووس، فقال أيوب السختياني وكان جالساً: والله لو رأى محمد بن سيرين لم يقله[(٥)]، وقال عثمان البتي: لم يكن بالبصرة أعلم بالقضاء من ابن سيرين[(٦)].

وكان الحسن البصري يقدمه على غيره، فعن ثابت البُناني، قال: كان الحسن متوارياً من الحجّاج فماتت بنت له، فبادرت إليه رجاء أن يقول لي: صلّ عليها، فبكى حتى ارتفع نحيبه، ثم قال لي: اذهب إلى محمد بن سيرين، فقل له: ليُصل عليها، فعرف حين جاء الحقائق، أنه لا يعدل بابن سيرين أحداً[(٧)].

---

(١) الفتوى، د. حسين الملاح، ص ٨١؛ سير أعلام النبلاء (٥/ ٧٨).

(٢) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (١/ ٤١).

(٣) تفسير التابعين (١/ ٤٢٣٩)؛ عمر بن الخطاب، للصَّلابي (ص ٢٦٠).

(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٦٠٦).

(٥) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦٠٨).

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦١٠).

وكان محمد بن سيرين يصوم يوماً ويفطر يوماً[١] ، وكان قد اشتهر بتفسير الأحلام ، وهو أشهر من أن يعرف في هذا الباب ، قال عنه الذهبي : قد جاء عن ابن سيرين في التعبير عجائب ، وكان له في ذلك تأييد إلٰهي[٢] . وكان يلبس الثياب الثمينة والطيالس والعمائم[٣] ، وكان صاحب ضحك ومزاح[٤] .

وكان باراً بأمه ، قالت حفصة بنت سيرين : كانت والدة محمد حجازية ، وكان يعجبها الصبغ ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوباً اشترى ألين ما يجد ، فإذا كان عيد ، صبغ لها ثياباً ، وما رأيته رافعاً صوته عليها ، كان إذا كلمها كالمصغي إليها[٥] ، وعن ابن عون : أن محمداً كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل لا يعرفه أو ظن أن به مرضاً من خفض كلامه عندها[٦] .

وقال ابن عون : كانوا إذا ذكروا عند محمد رجلاً بسيئة ؛ ذكره هو بأحسن ما يعلم . وجاءه ناس فقالوا : إنا نلنا منك فاجعلنا في حلّ ، قال : لا أُحلّ لكم شيئاً حرّمه الله[٧] . توفي ابن سيرين بعد الحسن البصري بمئة يوم ، سنة عشر ومئة[٨] .

ب ـ قتادة بن دعامة السدوسي :

كان من أوعية العلم ، روى عن بعض الصحابة وكبار التابعين ، وكان ثقة حجة في الحديث[٩] ، قال عنه أحمد بن حنبل : كان قتادة عالماً بالتفسير وباختلاف العلماء ، ثم وصفه بالفقه والحفظ ، وقال : قلما تجد من يتقدمه[١٠] . وقال : كان قتادة أحفظ أهل البصرة ، لا يسمع شيئاً إلا حفظه ؛ قرئت عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها[١١] .

قال سلام بن مطيع : كان قتادة يختم القرآن في سبع ، وإذا جاء رمضان ختم في كل

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦١٥) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦١٨) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦١٩) .
(٤) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦١٣) .
(٥) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦١٩) .
(٦) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦٢٠) .
(٧) المصدر السابق نفسه .
(٨) المصدر السابق نفسه (٤/ ٦٢١) .
(٩) الفتوى ، د . حسين الملاح (ص ٨٤) .
(١٠) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٧٦) .
(١١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٧٧) .

ثلاث[١]. قال عنه الذهبي: حافظ العصر، قدوة المفسرين والمحدثين[٢]، كان رأساً في العربية والغريب وأيام العرب وأنسابها[٣]، وكان من تلاميذ الحسن البصري، وجالسه اثنتي عشرة سنة، وصلى معه الصبح ثلاث سنين[٤]، توفي سنة ثماني عشرة ومئة[٥].

٥ ـ المدرسة الكوفية:

نزل الكوفة ثلاثمئة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر رضي الله عنهم أجمعين، وقد اهتم عمر بالكوفة، ووجه إليها عبد الله بن مسعود، واجتهد ابن مسعود في إيجاد جيل يحمل دعوة الله فهماً وعلماً، وكان له الأثر البالغ في نفوس الملازمين له، أو من جاء بعدهم، وقد اشتهر مجموعة من تلاميذ ابن مسعود بالفقه والعلم والزهد والتقوى، منهم: علقمة بن قيس، مسروق بن الأجدع، عبيدة السلماني، الأسود بن يزيد، ومرة الجعفي[٦] وغيرهم، ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة الكوفية:

أ ـ عامر بن شرحبيل الشعبي:

كان علامة عصره ومن أفقههم، روى عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر وجمهرة غيرهم، حتى قيل: إنه أدرك خمسمئة من الصحابة[٧]، لذلك كان صاحب آثار كثير العلم والفقه. قال محمد بن سيرين: لقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون بالكوفة، ورغم هذا العلم الواسع فقد كان ينقبض عند الفتوى، وكثيراً ما يقول: لا أدري، لأنه كان يعتبرها نصف العلم[٨]. وقد قال الشعبي: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنّا سمعنا الحديث فرويناه، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل[٩]. ومن نكاته اللاذعة: ما رواه الأعمش قال: أتى رجل الشعبيَّ، فقال: ما اسم امرأة إبليس؟ قال: ذاك عرس ما شهدته[١٠]. توفي سنة أربع

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٧٦).
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٧٠).
(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٧٧).
(٤) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٨٣).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) فصل الخطاب في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (ص ٢٦٤).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٩٨).
(٨) الفتوى، د. الملاح (ص ٨٣).
(٩) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٠٣).
(١٠) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣١٢).

ومئة ، وقيل : ست ومئة ، وقيل : خمس ومئة[١] .

ب ـ حمّاد بن أبي سلمة :

فقيه أهل العراق ، روى عن أنس بن مالك ، وتتلمذ على يدي إبراهيم النخعي ، وهو أنبل أصحابه وأفقههم وأقيسهم وأبصرهم بالمناظرة[٢] . وكان أحد العلماء الأذكياء والكرام الأسخياء ، له ثروة وحشمة وتجمُّل[٣] ، وكان أفقه أهل الكوفة عليّ وابن مسعود ، وأفقه أصحابها علقمة ، وكان أفقه أصحابه إبراهيم ، وأفقه أصحاب إبراهيم حماد ، وأفقه أصحاب حماد أبو حنيفة ، وأفقه أصحابه أبو يوسف ، وانتشر أصحاب أبي يوسف في الآفاق ، وأفقههم محمد ، وأفقه أصحاب محمد أبو عبد الله الشافعي[٤] رحمهم الله تعالى. وقد توفي حماد سنة عشرين ومئة[٥] .

٦ ـ المدرسة اليمنية :

من أشهر علمائها من الصحابة الذين ساهموا في دخول الإسلام فيها : معاذ بن جبل ، وعلي بن أبي طالب ، وأبو موسى الأشعري وغيرهم ، ومن أراد التوسع فليراجع الرسالة العلمية للدكتور عبد الله الحميري (الحديث والمحدثون في اليمن في عصر الصحابة). ومن أشهر علماء التابعين في المدرسة اليمنية :

أ ـ طاوس بن كيسان :

فقيه أهل اليمن وقدوتهم ، وأعلمهم بالحلال والحرام ، من سادات التابعين ، روى عن ثلة من الصحابة الكرام ، كزيد بن ثابت وأبي هريرة ، وزيد بن أرقم ، وابن عباس ، وهو معدود من كبراء أصحابه[٦] . وروى عن معاذ مرسلاً[٧] . كان من أبناء الفرس الذين جهزهم كسرى لأخذ اليمن له[٨] ، كان فقيهاً جليلاً بركة لأهل اليمن[٩] . أدرك خمسين من أصحاب

---

(١) المصدر السابق نفسه (٤/ ٣١٨).
(٢) الفتوى ، د. الملاح (ص ٨٣).
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣١).
(٤) المصدر السابق نفسه (٤/ ٢٣٦).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٩).
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٨).
(٩) الفتوى نشأتها وتطورها ـ أصولها وتطبيقاتها (ص ٨٥).

رسول الله ﷺ[١]. قال له عمر بن عبد العزيز في عهد سليمان: ارفع حاجتك إلى أمير المؤمنين. قال: ما لي إليه حاجة؛ فكأن عمر عجب من ذلك[٢].

ومن أقواله: لا يتم نسك الشاب حتى يتزوج[٣]. وقال: البخل أن يبخل الرجل بما في يديه، والشح أن يحب أن يكون له ما في أيدي الناس[٤]. وقال عنه قيس بن سعد: الطاوس فينا مثل ابن سيرين فيكم. وقال ابن المديني: كان سفيان لا يعدل من أصحاب ابن عباس بطاوس أحداً[٥]. وكان رحمه الله معتزلاً الأمراء والسلاطين إلا إذا أكره على عمل لهم، وإذا طلب منه أداء نصيحة فإنه لا يجامل أحداً ويصدع بالحق، توفي بمكة سنة ست ومئة للهجرة[٦].

ب ـ وهب بن منبه:

أبو عبد الله وهب بن منبه من أبناء فارس كان ينزل ذمار[٧]. وكان ممن قرأ الكتب ولزم العبادة وواظب على العلم وتجرد للزهادة[٨]. وقال عنه الذهبي: الإمام العلامة، الأخباري القصصي. وقال العجلي: تابعي ثقة، كان على قضاء صنعاء، وذكره شيرازي في فقهاء التابعين باليمن[٩].

وكان صاحب حكمة وفطنة، وكان له أثر في محاربة الخوارج في اليمن وتحذير الناس من آرائهم[١٠]، وإليك حواره مع أبي شمَّر الخولاني لما دخل على وهب بن منبه برفقة داود بن قيس، وتكلم داود لوهب وقال عن صاحبه أبي شمّر الخولاني: إنه من أهل القرآن والصلاح، والله أعلم بسريرته، فأخبرني أنه عرض له نفر من أهل حروراء ـ يعني الخوارج ـ فقالوا له: زكاتك التي تؤديها إلى الأمراء لا تجزئ عنك، لأنهم لا يضعونها في موضعها، فأدِّها إلينا، ورأيت يا أبا عبد الله أن كلامك أشفى له من كلامي، فقال: يا ذا خولان! أتريد أن تكون بعد الكبر حرورياً تشهد على من هو خير منك بالضلالة؟! فماذا أنت قائل لله غداً حين يقفك الله ومن شهدت عليه؟ فالله يشهد له بالإيمان، وأنت تشهد عليه بالكفر، والله يشهد له بالهدى وأنت

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٣).
(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ٤١).
(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ٤٢).
(٤) المصدر السابق نفسه (٥/ ٤٨).
(٥) الطبقات (٥/ ٥٤١)؛ أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ٦٦٦).
(٦) سير أعلام النبلاء (٥/ ٤٩).
(٧) ذمار: مدينة باليمن على مرحلتين من صنعاء.
(٨) علماء الأمصار للبستي (ص ١٢٣).
(٩) طبقات الفقهاء (ص ٦٦).
(١٠) أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية (ص ٦٦٧).

تشهد عليه بالضلالة ، فأين تقع إذا خالف رأيك أمر الله وشهادتك شهادة الله؟ أخبرني يا ذا خولان ! ماذا يقولون لك؟ فتكلم عن ذلك وقال لوهب : إنهم يأمرونني ألا أتصدق إلا على من يرى رأيهم ، ولا أستغفر إلا له ، فقال : صدقت ، هذه محنتهم الكاذبة ، فأما قولهم في الصدقة ، فإنه قد بلغني أن رسول الله ﷺ ذكر أن امرأة من أهل اليمن دخلت النار في هرة ربطتها[١] ، أفإنسان مما يعبد الله يوحده ولا يشرك به أحب إلى الله أن يطعمه من جوع أو هرة؟ والله يقول : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨] . وأما قولهم : لا يستغفر إلا لمن يرى رأيهم أهم خير أم الملائكة ؟ والله يقول : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥] فوالله ما فعلت الملائكة ذلك حتى أمروا به : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٧] . وجاء مفسراً : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر : ٧] .

واستمر معه في الحوار والنقاش إلى أن قال ذو خولان : فما تأمرني؟ قال : انظر زكاتك فأدها إلى من ولاه الله أمر هذه الأمة ، وجمعهم عليه ، فإن الملك من الله وحده وبيده يؤتيه من يشاء ، فإذا أديتها إلى والي الأمر برئت منها ، وإن كان فضل فصِلْ به أرحامك ومواليك وجيرانك والضيف ، فقال : أشهد أني نزلت عن رأي الحرورية[٢] .

توفي وهب رحمه الله سنة عشر ومئة في خلافة هشام بن عبد الملك[٣] ، وقيل : إن يوسف بن عمر والي اليمن ضربه حتى قتله[٤] ، ولعل ذلك بسبب موقف وهب من جور يوسف بن عمر المشهور بعنفه وظلمه[٥] .

٧ ـ المدرسة المصرية :

تكونت في مصر مدرسة كان شيوخها من الصحابة الذين رحلوا إليها أيام الفتح ونزلوا في موضع الفسطاط والإسكندرية ، ومن هؤلاء : عمرو بن العاص ، عبد الله بن عمرو بن العاص ، الزبير بن العوام ، وكان من أكثر الصحابة تأثيراً في مصر عقبة بن عامر رضي الله عنه[٦] ، وغير ذلك من الصحابة يرجع إليهم الفضل في دعوة الناس وتوجيههم نحو دينهم[٧] ، وجاءت طبقة التابعين ، وكان منهم أئمة ودعاة ، ومن هؤلاء :

---

(١) مسلم ، رقم (٢٢٤٢) .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٥) . الحرورية : الخوارج .
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٦) و : أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ٦٦٧) .
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٦) .
(٥) أثر العلماء في الحياة السياسية (ص ٦٦٧) .
(٦) عمر بن الخطاب ، للصلابي (ص ٢٧٠) .
(٧) الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (١/ ٥٧) .

ـ يزيد بن أبي حبيب:

الإمام الحجة، مفتي الديار المصرية، أبو رجاء الأزدي، كان من جلة العلماء العاملين، ارتفع بالتقوى مع كونه مولى أسود[١]. قال عنه الليث بن سعد: يزيد بن أبي حبيب سيدنا وعالمنا[٢]. توفي سنة ثمانٍ وعشرين ومئة[٣].

٨ ـ مدرسة شمال إفريقية:

دخل القادة الفاتحون شمال إفريقية وكان على رأسهم عمرو بن العاص، ثم عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنهم، ثم تابع معاوية بن حديج فتح إفريقية، وولاه معاوية بن أبي سفيان على مصر وإفريقية، وجاء بعده عقبة بن نافع الفهري فاختط مدينة القيروان، وسار في الناس سيرة حسنة، وكان من خيار الولاة والدعاة الذين جاهدوا ودعوا بالسيف والكلمة، ثم قام على إفريقية ولاة صالحون ساروا على النهج نفسه[٤].

وفي عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث إسماعيل بن أبي المهاجر والياً على إفريقية سنة مئة، فكان داعية إلى الإسلام بلسانه وأعماله وأخلاقه، فأحبه الناس، وأحبوا دينه، وحرص على دعوة البربر إلى الإسلام، فاستجابوا لدعوته، وأسلموا على يديه، واهتم إسماعيل بتعليم الناس أحكام الشريعة، وتفقيههم في الحلال والحرام، وكان عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين من أهل العلم والفضل، وأهل إفريقية يومئذ من الجهل بحيث لا يعرفون أن الخمر حرام، حتى وصل هؤلاء فعلموا الناس الحلال والحرام[٥]. وسيأتي الحديث عن الفقهاء العشرة في محله بإذن الله.

ومن خلال ما سبق من الحديث عن المدارس العلمية يظهر أهمية توريث العلم والخبرات الدعوية عند السلف، وامتداد ذلك يشمل أقاليم الدولة الإسلامية، ونستفيد أيضاً أهمية تفريغ مجموعة من أذكياء الأمة للتعلم والتعليم والإفتاء والإرشاد والوعظ ونشره بين الناس.

رابعاً: منهج التابعين في تفسير القرآن الكريم:

سلك التابعون منهاجاً واضحاً في تفسير القرآن الكريم، فكانوا يفسرون القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، والقرآن بأقوال الصحابة، واللغة العربية، والاجتهاد وقوة الاستنباط.

---

(١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٣١).
(٢) المصدر السابق نفسه (٦/ ٣٢).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) البيان المغرب، للمراكشي (١/ ١٩)؛ الدعوة إلى الله (١/ ٦١).
(٥) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٨) و: الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول (١/ ٦٢).

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن:

تعددت طرق التابعين في تفسير القرآن بالقرآن؛ ومن هذه الطرق:

أ ـ نظائر القرآن الكريم:

كتفسير الآية بآية أخرى تحمل الموضوع نفسه وإن اختلف اللفظ، وقد أكثر التابعون من ذلك، ومن ذلك: ما ورد عن مجاهد في تفسير الكلمات في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]. قال: قوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]. حتى فرغ منها[1]. وجاء عن عكرمة، والحسن في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]. قال: وكان رسول الله ﷺ إذا صلى يجهر بصلاته، فآذى ذلك المشركين بمكة حتى أخفى صلاته هو وأصحابه، فلذلك قال: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾. وقال في الأعراف: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٩٤]. قال قتادة: وذلك أنهم قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]. وقالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. فقيل لهم: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2] [البقرة: ٩٤].

ب ـ الأشباه:

والمراد بالأشباه تفسير الآية بما يشبهها من الآيات؛ كتفسير الآية بالآيات التي تحمل بعض معناها مع تقارب اللفظ[3]، فمن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير النفس بالغير، فإنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]. قالوا لهم خيراً، ألا ترى أنه يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]؟ يقول: بعضكم بعضاً، و﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. قال: يسلم بعضكم على بعض[4]. ففسر مجاهد هنا النفس بالغير، واستدل بورود ذلك في آيات متشابهة في القرآن تدل على هذا الجزء من المعنى[5].

جـ ـ الدلالة على التفسير بالسياق:

وفي هذا النوع يلحظ المفسّر منهم سياق الآية فيربطها بما قبلها، أو بما بعدها سواء كان ذلك

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٥٤٥)؛ زاد المسير (١/ ٦٩).

(٢) فتح القدير (١/ ٥٤٥)؛ تفسير التابعين (٢/ ٦١٤).

(٣) تفسير التابعين (٢/ ٦١٥).

(٤) تفسير الطبري (١٨/ ٩٦)؛ تفسير التابعين (٢/ ٦١٥).

(٥) تفسير التابعين (٢/ ٦١٦).

في الآية نفسها، أو في مجموعة من الآيات[١]، مثل تفسير قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال مجاهد في تفسيرها: هي ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[٢] [الأنعام: ٨٢].

هـ ـ بيان المجمل:

وفي هذا الطريق يقوم المفسر بالنظر في آيات القرآن التي فيها إجمال، وينظر في الآيات الأخرى التي يمكن أن تكون بياناً لهذا الإجمال، كحمل المجمل على المبين، ومن ذلك ما ورد عن مجاهد في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]: قال: من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم ما ذكر حتى يتم خلقه[٣]. فأشار بقوله إلى الآيات التي فيها ذكر ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤].

و ـ تفسير العام بالخاص:

وفي هذا يعمد المفسر منهم إلى آية ظاهرها العموم فيحملها على معنى آخر ذكرت فرداً من أفراد العموم[٤]، كقوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣]. قال الحسن البصري: الكافر، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ قال: من الكفار[٥]. وفي رواية عنه قال: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ يعني الكفار، لا يعني بذلك أهل الصلاة[٦]. فالآية الأولى جاء فيها العموم في لفظة (من) ليعم المؤمن والكافر، فجاء الحسن فبين أنها خاصة بالكافر مستدلاً بأسلوب الحصر في الآية الثانية[٧]. وأصرح من ذلك ما جاء عنه في تفسير الآية نفسها أنه قال: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣] إنما ذلك لمن أراد الله هوانه، فأما من أراد كرامته، فإنه من أهل الجنة ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦][٨].

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦١٧).
(٢) تفسير الطبري (١١/ ٥٠٥).
(٣) تفسير الطبري (٢٩/ ٢٦)؛ الدر المنثور (٨/ ٢٩١).
(٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٢١).
(٥) تفسير الطبري (٩/ ٢٣٧)؛ زاد المسير (٢/ ٢١٠).
(٦) تفسير الطبري (٩/ ٢٣٨).
(٧) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣).
(٨) المصدر السابق نفسه.

ز ـ التفسير باللازم:

المراد بالتفسير باللازم أن المفسر لا يذكر صراحة تفسيراً للآية التي هو بصددها، بل يذكر شيئاً من لوازم ذلك، ويربطه بآية أخرى، فمن ذلك ما جاء عن سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، فقد قال: لو أعطيها أحد لأعطيها يعقوب، ألم تسمع: ﴿يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[١] [يوسف: ٨٤]. أنه لم يكن يعرف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، وإلا لقالها، بدلاً من تأسُّفه على ذهاب يوسف[٢].

ح ـ توضيح المبهم:

ومن طرق التفسير التي اتبعها التابعون ـ أيضاً ـ: إيضاح مبهم آية بآية أخرى لإزالة الإبهام[٣]، ومن ذلك ما قام به عكرمة من رفع الإبهام الواقع في لفظة (الحين) استدل بالآية التي تبين أن المراد منه سنة؛ فعنه أنه قال: أرسل إليّ عمر بن عبد العزيز فقال: يا مولى ابن عباس: إني حلفت ألاَّ أفعل كذا وكذا حيناً، فما الحين الذي تعرف به؟ قلت: إن من الحين حيناً لا يدرك، ومن الحين حيناً يدرك، وأما الحين الذي لا يدرك فقول الله: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. والله ما يدري الإنسان كم أتى له إلى أن خلق، وأما الذي يدرك فقوله: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]؛ فهو ما بين العام إلى العام المقبل، فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت[٤].

ط ـ بيان معنى (لفظ)، أو إيضاح مشكلة:

وقد كثر هذا النوع في تفسير التابعين، فصاروا يتناولون آيات القرآن بالتفسير بآيات أخرى تبين هذا المعنى، وتلكم الألفاظ[٥]، ومثال ذلك كتفسير الحسن البصري ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات]. قال: النفختان، أما الأولى فتميت الأحياء، وأما الثانية فتحيي الموتى، ثم تلا الحسن: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[٦] [الزمر: ٦٨]. والأمثلة كثيرة على تفسير التابعين للقرآن بالقرآن، ومن أراد المزيد فليراجع تفسير التابعين[٧].

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٢٢٤).
(٢) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٣).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٢٤).
(٤) تفسير الطبري (١٦/ ٥٨١).
(٥) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٦).
(٦) تفسير الطبري (٣٠/ ٣١)؛ تفسير التابعين (٢/ ٦٢٧).
(٧) تفسير التابعين (٢/ ٦٠٨ إلى ٦٢٧).

٢ ـ تفسير القرآن بالسنة:

لا شك أن السنة مبينة للقرآن موضحة له، قال الشاطبي: وهي راجعة في معناها إلى الكتاب، فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله، وبسط مختصره[(١)]، وذلك لأن النبي ﷺ هو أعلم بكلام الله وأكثر قدرة على فهم نصوص الآيات من غيره مع ما أوحاه الله تعالى إليه من المعاني، فهو ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم]، وقال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[(٢)].

يقول ابن تيمية: فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن... إلى أن يقول: فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤][(٣)].

وقد اتفق العلماء على أن الأخذ بالسنة واجب، والعمل بها حتم، وتحكيمها فرض، بل جاء عن مكحول التابعي أنه قال: القرآن أحوج إلى السنة، من السنة إلى القرآن[(٤)].

وقد كثر عن التابعين النقول التي تدل على شدة متابعتهم للسنة، قال ربيعة للزهري: إذا سُئلت عن مسألة فكيف تصنع؟ قال: أحدِّث فيها بما جاء عن النبي ﷺ؛ فإن لم يكن عند النبي ﷺ فعن أصحابه، فإن لم يكن عند أصحابه اجتهدت رأيي[(٥)].

ومما يدل على عظيم احتفائهم وعنايتهم بالمروي عنه ﷺ: أنه قل أن نجدهم يخالفون ما صح عنه ﷺ من تفسيره، وفيما يلي بعض الأمثلة الدالة على ذلك:

أ ـ فمن هذا ما جاء عنه ﷺ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]. قال ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضلال»[(٦)]. وبذلك

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٢٨)؛ الموافقات (٤/ ١٢).
(٢) سنن أبي داود، رقم (٤٦٠٤).
(٣) الفتاوى (١٣/ ٣٦٣).
(٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٢٩)؛ تفسير الطبري (١/ ٣٠).
(٥) جامع بيان العلم وفضله (٢/ ٧٥)؛ تفسير التابعين (٢/ ٦٣٧).
(٦) موارد الظمآن في زوائد ابن حبان، رقم (٢٢٤).

فسرها: مجاهدٌ[(١)]، وسعيد بن جبير[(٢)] وغيرهما. قال ابن حاتم: لا أعلم خلافاً بين المفسرين في تفسير ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ باليهود، و﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ بالنصارى[(٣)].

ب ـ ومنه أيضاً ما صح عنه ﷺ في بيان قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. قال ﷺ: «هو سواد الليل وبياض النهار»[(٤)]، ولم يخالف في ذلك أحد من التابعين، وبه قال الحسن[(٥)]، وقتادة[(٦)].

جـ ـ من ذلك ما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في تفسير معنى الظلم الذي ورد في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]. قال ﷺ حين شق ذلك على أصحابه فقالوا: أيُّنا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال: «ليس بذلك، ألم تسمعوا قول لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ﴾[(٧)] [لقمان: ١٣]». وهذا هو المنقول عن التابعين قال به إبراهيم النخعي، وقتادة، ومجاهد، وسعيد بن جبير[(٨)].

د ـ ومنه ما جاء عنه ﷺ في تفسيره للسبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعًا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]. قال ﷺ لأبي سعيد بن المعلى: «ألا أعلمك أعظم سورة في القرآن قبل أن أخرج من المسجد؟» فذهب النبي ﷺ ليخرج، فذكرته، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته»[(٩)]. وهذا التفسير هو المروي عن سعيد بن جبير، والحسن، ومجاهد، وقتادة[(١٠)].

هـ ـ ومن ذلك: بيانه ﷺ لمعنى: الأمة الوسط، التي وردت في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. ففي الحديث عن النبي ﷺ في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةً وَسَطًا﴾ قال: «عدُولاً»[(١١)]، وبهذا التفسير قال مجاهد، وعطاء

---

(١) تفسير الطبري (١/ ١٨٨).
(٢) الدر المنثور (١/ ٤١).
(٣) تفسير ابن أبي حاتم، رقم (٢٢)؛ تفسير التابعين (٢/ ٦٣٨).
(٤) البخاري، كتاب التفسير؛ الفتح (٨/ ١٨٢).
(٥) تفسير الطبري (٣/ ٥١٠).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) البخاري، كتاب التفسير؛ الفتح (٨/ ٢٩٤).
(٨) تفسير التابعين (٢/ ٦٣٩).
(٩) البخاري، كتاب التفسير؛ الفتح (٨/ ٣٨١).
(١٠) تفسير التابعين (٢/ ٦٤١).
(١١) مجمع الزوائد (٦/ ٣١٦)؛ رواه أحمد (٣/ ٩) صحيح.

وقتادة[١]. هذه بعض الأمثلة التي اعتمدها التابعون في تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية.

٣ ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة:

إن التابعين ما علموا كيفية التلقي من الكتاب والسنة، وكذلك الاجتهاد، ونحو ذلك إلا بسبب تربيتهم على أيدي الصحابة وخبرتهم بمناهجهم الاستدلالية، وتعلمهم لطرق الاستنباط وتلقيهم الرواية النبوية، ورؤيتهم التطبيق العملي لذلك كله، ولقد استوعب التابعون رسالة الصحابة وعرفوا فضلهم، فها هو مجاهد يقول: العلماء أصحاب محمد ﷺ[٢]، وكان التابعون يقدمون قول الصحابي على قولهم؛ يقول الشعبي: إذا اختلف الناس في شيء فانظر كيف صنع عمر؟ فإن عمر لم يكن يصنع شيئاً حتى يشاور، فقال أشعث ـ راوي الأثر ـ: فذكرت ذلك لابن سيرين فقال: إذا رأيت الرجل يخبرك أنه أعلم من عمر فاحذره[٣]. وكان منهج التابعين في الأخذ عن الصحابة يدور حول:

أ ـ **إذا كان تفسير الصحابي يرفعه للنبي ﷺ**، فهذا هو المطلب الرئيس، والغاية القصوى، وليس بعده قول، وكذلك ما كان من تفسير الصحابي، وهو وارد في سبب النزول بالصيغة الصريحة[٤]، وكذلك فيما لا مجال للرأي فيه، فهذا يقفون عنده لا يجاوزونه، لأن الصحابي شاهد التنزيل، ومثال ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. فقد قال فيها ابن عباس رضي الله عنهما: إن لملك الموت أعواناً من الملائكة. رواه عنه إبراهيم[٥]. ولذا جاءت الرواية من تفسير إبراهيم نفسه بالاقتصار على قول ابن عباس، ولم يزد عليه شيئاً، فقال: أعوان ملك الموت[٦]، وكذا جاء عن قتادة، ومجاهد، والربيع[٧].

ب ـ **وإذا كان التفسير الوارد عن الصحابي من باب الاجتهاد**، وجارياً على مقتضى اللغة، فإنهم في الغالب لا يخالفونه، فإن الصحابة أهل اللسان والبيان والفهم، ولأجل ذلك اعتمد مجاهد تفسير ابن عباس دون غيره عندما تعرض لتفسير قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [الأنعام:

---

(١) تفسير التابعين (٢/ ٦٤١).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٦)؛ تفسير التابعين (٢/ ٦٥١).
(٣) الحلية (٤/ ٣٢٠)؛ تفسير التابعين (٢/ ٦٥٣).
(٤) أي: سبب نزول كذا هو كذا وكذا، أو حدث كذا ونزل كذا.
(٥) تفسير الطبري (١١/ ٤١٠)؛ زاد المسير (٣/ ٥٥).
(٦) تفسير الطبري (١١/ ٤١٠).
(٧) تفسير التابعين (٢/ ٦٥٨).

٩٨]. فقد قال ابن عباس: المستقر بالأرض، والمستودع عند الرحمن(١). وجاءت رواية عن ابن عباس: أن المستقر في الرحم، والمستودع في الصلب(٢)، موافقة للرواية الثانية لشخصية أخرى، وهكذا كان حال ابن جبير في تفسير الآية(٣).

جـ - **إذا تعارضت الأقوال المنقولة عن الصحابة**، فإن التابعين يسلكون مسلك الترجيح بينها، والترجيح قد يكون باللغة، أو بالحديث، أو بقول صحابي آخر يجمع بين الأقوال، فمن الأول ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. جاء عن ابن عباس في تفسيرها أن دلوكها غروبها(٤)، وجاء عنه أن دلوكها: زيغها بعد نصف النهار(٥)، وجاء عن ابن مسعود أن دلوكها غروبها(٦)، وجاء عنه أيضاً أن دلوكها ميلها يعني: الزوال(٧). فاختار قتادة أن دلوكها زوالها، ففسرها به(٨)، مع أنه نقل القول بغروبها عن ابن مسعود(٩)، ولعل سبب هذا الاختيار هو أن اللغة تدل على أن الدلوك هو الميل، فيكون المراد صلاة الظهر، ورجحه ابن جرير، وناقش الأول(١٠).

وقد يكون الترجيح لأثر مرفوع، ومنه ما جاء عن قتادة وهو يحدث عن سعيد بن المسيب، قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين في الصلاة الوسطى، وشبك بين أصابعه(١١)، فرجح الحسن أنها صلاة العصر(١٢)، متابعاً في ذلك عدداً من الصحابة رضي الله عنهم، والمرجح هنا هو الأثر المرفوع الذي رواه الحسن عن سمرة: أن النبي ﷺ قال: «الصلاة الوسطى صلاة العصر»(١٣).

وقد يكون الترجيح بقول صحابي آخر يقدَّم به عموم الآية على ما ورد في خصوصها،

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) تفسير الطبري (١١/ ٥٧٠)؛ زاد المسير (٣/ ٩٢).
(٣) تفسير الطبري (١١/ ٥٧٠).
(٤) المصدر السابق نفسه (١٥/ ١٣٤).
(٥) فتح القدير (٣/ ٢٥٤).
(٦) زاد المسير (٥/ ٧٢).
(٧) فتح القدير (٣/ ٢٥٤).
(٨) زاد المسير (٥/ ٧٢).
(٩) المصدر السابق نفسه.
(١٠) تفسير الطبري (١٥/ ١٣٦، ١٣٧).
(١١) زاد المسير (١/ ٢٨٢).
(١٢) تفسير التابعين (٢/ ٢٨٢).
(١٣) تفسير الطبري (٥/ ١٩٤)، رقم (٥٤٣٨).

ويجمع به بين الأقوال ، فمن ذلك تفسيرهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]. فقد جاء تفسير الكوثر عن جمع من الصحابة أنه نهر في الجنة[١] ، وعن ابن عباس: أنه الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه[٢] ، وتابعه على ذلك سعيد بن جبير ، فقال أبو بشر لسعيد: إنا كنا نسمع أنه نهر في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه[٣] ، فهنا رجح ابن جبير العموم في الآية مستنداً لقول ابن عباس ، ولم يذهب إلى الخصوص في الأثر الوارد في ذلك ، أما إذا لم يكن ثمة مروي عن الصحابة في ذلك ، فعندئذ يدخل منهم من يدخل في باب الاجتهاد[٤].

وقد أدت الرواية عن الصحابة والاعتماد عليها في التفسير إلى ظهور نتائج وآثار ترتبت على ذلك؛ منها: حفظ أخبار الصحابة ومعرفة دقيق أحوالهم والتمييز بينهم ، والالتزام بمناهجهم والإفادة منها ، وتبني أقوالهم[٥].

٤ ـ اللغة العربية:

لقد تنوعت مشارب التابعين في اعتمادهم على اللغة وجعلها مصدراً من مصادر التفسير؛ وذلك لعدة أسباب؛ منها: معرفة لغة العرب ومعرفة عادات العرب وأخبارهم ، والإلمام بأشعار العرب ، ومعرفة فقه اللغة من الاشتقاق ، والإيجاز والحذف ، والتقديم والتأخير ، وغير ذلك من الأسباب[٦].

٥ ـ الاجتهاد:

ظهرت اجتهادات التابعين في التفسير ، حتى إبان عهد الصحابة ، وشملت اجتهاداتهم مواطن كثيرة ، غالبها مما سكت عنه الصحابة؛ ومن أهمها:

أ ـ بيان المراد من النص ، وذلك إذا كان النص خفيَّ الدلالة بسبب إجمال في اللفظ أو التركيب.

ب ـ استنباط بعض الأحكام من النصوص القرآنية.

جـ ـ بيان الفروق بين ما تشابه من الكلمات ، والمعاني ، والتفسير بين النظائر.

---

(١) زاد المسير (٩/ ٢٤٨).
(٢) الدر المنثور (٨/ ٦٤٩).
(٣) زاد المسير (٩/ ٢٤٨).
(٤) تفسير التابعين (٢/ ٦٦١).
(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٧٢ إلى ٦٧٧).
(٦) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٨٩ إلى ٧٠٧).

د ـ العناية الفائقة بدقائق من علم الكتاب العزيز ، كمباحث عد الآيات ، والكلمات في القرآن الكريم[١] وغيرها .

وقد كان لاجتهاد التابعين في تفسير الآيات مميزات منها :

ـ تنوع عبارات الاجتهاد وتعددها .

ـ الإيجاز غير المخلِّ .

ـ عمق التأمل ودقة التفسير .

ـ قوة الاستنباط .

خامساً: جهود عمر بن عبد العزيز والتابعين في خدمة السنة :

نهى رسول الله ﷺ عن كتابة غير القرآن في أول الأمر ، مخافة اختلاط غير القرآن به ، واشتغال الناس عن كتاب ربهم بغيره ، ثم جاء بعد ذلك الإذن النبوي بالكتابة والإباحة المطلقة لتدوين الحديث الشريف فنسخ الأمر ، وصار الأمر إلى الجواز[٢] .

وقد ثبت أن كثيراً من الصحابة قد أباحوا تدوين الحديث وكتبوه لأنفسهم ، وكتب طلابهم بين أيديهم ، وأصبحوا يتواصلون بكتابة الحديث وحفظه[٣] . وقام الجهابذة من أهل العلم ، والغيرة من المسلمين بجهود جبارة لتدوين السنة المطهرة وجمع الحديث النبوي ، وتنقيته من شوائب الوضع ، وبذلوا في ذلك مهجهم وأوقاتهم ، فأسهروا ليلهم ، وضربوا في الأرض نهارهم ، وأصَّلوا لذلك أصولاً ، وقعّدوا قواعد ، حتى أثمرت تلك الجهود المباركة هذه الدواوين العظيمة ، التي يعكف المسلمون على قراءتها وحفظها والعمل بها ، والفضل كل الفضل لله ثم لأولئك البررة الذين كانوا السبب في جمعها ، وليس لهم مكافأة أعظم من أجر الله الجزيل لهم يوم القيامة إن شاء الله تعالى[٤] .

ولعل طلائع التدوين الرسمي للحديث النبوي ، الذين قامت به جهة مسؤولة في الدولة الإسلامية ، كان على يدي عبد العزيز بن مروان ـ والد عمر ـ عندما كان أميراً على مصر كما مرّ معنا ، بيد أن التدوين الذي آتى ثماره هو ما قام به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وقد تجلى ذلك في إرشاداته لكتابة العلم وتدوين الحديث ، وأوامره للخاصة والعامة بذلك ، فمن

---

(١) تفسير التابعين (٢/ ٧١١) .

(٢) عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ ، ص ٧٤ .

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٧٥) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

إرشاداته قوله: أيها الناس قيدوا العلم بالشكر، وقيدوا العلم بالكتابة[١].

لكن أمير المؤمنين عمر لم يكتفِ بهذا الإرشاد العام والحض على حفظ العلم بكتابته، بل سعى ـ بحكمه خليفة المسلمين ـ إلى إصدار أوامره إلى بعض الأئمة العلماء بجمع سنن وأحاديث رسول الله ﷺ، وقد حمله على ذلك ما رآه عند كثير من التابعين في إباحة كتابة الحديث، وهم قد حملوا علماً كثيراً، فخشي عمر على ضياعه، خاصة وأنه ليس دائماً تتوفر الحفظة الواعون لنقله، دونما احتياج إلى كتابة الكتب والرجوع إليها للاستذكار، وثمة سبب آخر يضاهي سابقه في الأهمية، وهو: فشوّ الوضع ودسّ الأحاديث المكذوبة، وخلطها بالصحيح من كلام النبي ﷺ، بسبب الخلافات المذهبية والسياسية، وإلى هذا يشير كلام الإمام الزهري: لولا أحاديث تأتينا من قبل المشرق ننكرها لا نعرفها، ما كتبت حديثاً ولا أذنت في كتابته[٢].

ورأي الزهري هذا كان رأي كثير من أئمة ذلك العصر، حيث خافوا على الحديث النبوي من الضياع، واختلاطه بالمكذوب، مما حفز العلماء على حفظ السنة بتدوينها، وجاء رأي السلطة العليا ممثلاً بالخليفة الورع العالم المجتهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، فاتخذ خطوة حاسمة بتدوين سنن رسول الله ﷺ، وجعل من مسؤوليات الدولة حفظ السنة المطهرة[٣]. وإليك خطواته ومجهوداته في هذا الشأن:

١ ـ **كتب إلى الإمام الثبت أمير المدينة وأعلم أهل زمانه بالقضاء، أبي بكر بن حزم**، يأمره بذلك، ففي صحيح البخاري: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء، ولا تقبل إلا حديث النبي ﷺ، ولتفشوا العلم، ولتجلسوا حتى يعلم ما لم يعلم، فإن العلم لا يهلك حتى يكون سراً[٤]، وروى ابن سعد عن عبد الله بن دينار ـ قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ أو سنّة ماضية أو حديث عمرة بن عبد الرحمن، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب أهله[٥].

٢ ـ **كذلك وجّه كتاباً بهذا الشأن إلى الإمام الحجة ابن شهاب الزهري**، فقد ذكر ابن عبد البر عن ابن شهاب قال: أمرنا عمر بن عبد العزيز، بجمع السنن، فكتبناها دفتراً دفتراً،

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٧٦).
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٧٧).
(٣) أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب (ص ١٧٦ ـ ١٧٧ ـ ١٨٦).
(٤) فتح الباري (١/ ١٩٤ ـ ١٩٥).
(٥) الطبقات، أصول الدين (ص ١٧٧ ـ ١٧٩).

فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفتراً[١] ، وروى أبو عبيد أن عمر أمر ابن شهاب أن يكتب له السنّة في مصارف الزكاة الثمانية ، فلبى الزهري أمره ، وكتب له كتاباً مطولاً يوضح ذلك بالتفصيل[٢] . ومن هنا قال ابن حجر : وأول من دون الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المئة بأمر عمر بن عبد العزيز ، ثم كثر التدوين ثم التصنيف ، وحصل بذلك خير كثير ، فلله الحمد[٣] .

٣ ـ **بل إن عمر وجه أوامره إلى أهل المدينة جميعاً يأمرهم ويحثهم على جمع حديث** رسول الله ﷺ ، يشارك في هذا كل من لديه علم ، ولو كان بضعة أحاديث ، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة : أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه ، فإني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله[٤] .

٤ ـ **ولم يقف عمر عند ذلك ، بل عمَّمَ أوامره إلى جميع الأمصار في الدولة الإسلامية** ، ليقوم كل عالم بجمع وتدوين ما عنده من حديث رسول الله ﷺ ، وما سمعه من أصحابه الكرام[٥] ، وروي عنه : انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه واحفظوه ، فإني أخاف دروس العلم وذهاب العلماء[٦] .

وقد اهتم عمر رضي الله عنه باللغة العربية : فشجع أهل البلاد المفتوحة على تعلّمها وإتقانها ، وكان يغدق عليهم ـ لذلك ـ العطايا ، كما أنه يعاقب من يلحن بالعربية وينقص من عطائه ، لما يعلم من أهمية العربية في فهم كتاب الله والسنة النبوية الشريفة[٧] .

*** منهج عمر بن عبد العزيز وطريقته في التدوين :**

اتبع عمر في جمع الحديث النبوي وتدوينه منهجاً سديداً قويماً ، وسلك فيه شروطاً صارمة ، ووضع له أبعاداً هادفة مفيدة . ويتجلى ذلك في أربعة أمور :

١ ـ حسن اختياره للقائمين بهذا الأمر :

فأبو بكر بن حزم هو أحد أوعية العلم ومن أعلام عصره ، قال فيه الإمام مالك : ما رأيت مثل ابن حزم أعظم مروءة ولا أتمَّ حالاً ، ولا رأيت من أوتي مثل ما أوتي : ولاية المدينة ،

---

(١) جامع بيان العلم (١/ ٩١ ـ ٩٢) .
(٢) الأموال (ص ٢٣١ ـ ٢٣٢) .
(٣) فتح الباري (١/ ٢٠٨)؛ أصول الحديث (ص ١٧٨ ، ١٨٠) .
(٤) سنن الدارمي (١/ ١٣٧) .
(٥) عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ (ص ٧٩) .
(٦) فتح الباري (١/ ١٩٥)؛ أصول الحديث (ص ١٧٨) .
(٧) عمر بن عبد العزيز ، للشرقاوي (ص ١٧٨) .

والقضاء، والموسم. وقال: كان رجل صدق، كثير الحديث. وقال ابن سعد: كان ثقة عالماً كبير الحديث توفي ١٢٠ هـ[١].

وأما الزهري، فهو العالم العَلَم، حافظ زمانه، وشهرته ملأت الآفاق، قال فيه الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من ابن شهاب، يحدث في الترغيب والترهيب، فتقول: لا يحسن إلا هذا، وإن حدَّث عن العرب والأنساب، قلت: لا يحسن إلا هذا. وإن حدّث عن القرآن والسنة، كان حديثه. وقال عمر بن عبد العزيز: عليكم بابن شهاب، فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه[٢].

٢ ـ أنه طلب ممّن يدوّن له السنة جمع الأحاديث مطلقاً وتدوينها:

وتتبع أحاديث أناس مخصوصين لما امتازوا بتدوين أحاديث معينة لأهميتها: فقد أمر ابن حزم بتدوين حديث عَمْرَة بنت عبد الرحمن لأنها من أثبت الناس بأم المؤمنين عائشة، والسيدة عائشة هي أعلم الناس بأحوال سيدنا رسول الله ﷺ وشؤونه الخاصة داخل بيته ومع أهله[٣].

وعمرة هذه هي: عمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زُرارة الأنصارية النّجارية المدنية الفقيهة، تربية عائشة وتلميذتها، وجدّها سعد من قدماء الصحابة، وهو أخو النقيب الكبير أسعد بن زرارة، ذكرها ابن المديني فضخَّم أمرها وقال: عمرة إحدى الثقات العلماء بعائشة، الأثبات فيها[٤]. وقال الزهري: أتيتها فوجدتها بحراً لا يُنْزَف[٥]. توفيت عام ٩٨ هـ، وقيل: ١٠٦ هـ[٦].

وذكرت إحدى الروايات أنه أمر ابن حزم بجمع وتدوين حديث عمر بن الخطاب. وذلك لما يقصده ابن عبد العزيز من تتبع سيرة الفاروق وأقضيته وسياسته في الصدقات، وكتبه إلى عماله فيها، وقد طلب ذلك أيضاً من سالم بن عبد الله بن عمر. وكل ذلك واضح من النهج الذي سلكه عمر بن عبد العزيز في الاقتداء بجده رضي الله عنهما[٧]. كذلك كتب إلى آل عمرو بن حزم أن

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣١٣ ـ ٣١٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٢٨)؛ عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار الشيخ، (ص ٨٠).
(٣) عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ، (ص ٨١).
(٤) المصدر السابق نفسه؛ تهذيب التهذيب (١٢/ ٤٦٦).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٠٨)؛ نساء لهن تاريخ (ص ١٥٥).
(٦) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٠٨).
(٧) عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ، (ص ٨١).

ينسخوا له كتاب النبي ﷺ لهم في الصدقات ، كي يسير عليه في خلافته وفي تسيير أمور رعيته[١] .

٣ ـ أنه ألزم من يدوّن السنة النبوية أن يميز الصحيح من السقيم :

ويتحرى الثابت من الحديث ، وذلك واضح في رواية الدارمي ؛ حيث يقول عمر لابن حزم : اكتب إليَّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمر . وعند الإمام أحمد في العلل : اكتب إليَّ من الحديث بما ثبت عندك عن رسول الله ﷺ وحديث عَمْرَة[٢] . وهذه نقطة عظيمة الأهمية في تأسيس منهج التدوين على أسس راسخة ، ثابتة صحيحة ، قويمة مستقيمة[٣] .

٤ ـ تثبته من صحة الحديث والتحديث :

فعمر من كبار العلماء ، وليس بأقل شأناً في العلم ممن أمرهم بالتدوين ، لذلك قام بمشاركة العلماء في مناقشة بعض ما جمعوه ، زيادة في التثبت[٤] ، من ذلك ما رواه أبو الزناد عبد الله بن ذكوان القرشي قال : رأيت عمر بن عبد العزيز جمع الفقهاء ، فجمعوا له أشياء من السنن ، فإذا جاء الشيء الذي ليس العمل عليه قال : هذه زيادة ليس العمل عليها[٥] .

*** ثمرة هذا التدوين :**

لقد آتت هذه الجهود الباكرة المباركة بعض أكلها ، وتمثل ذلك بتلك الدفاتر التي جمعها الإمام الزهري ، فأمر عمر بن عبد العزيز بنسخها عدة نسخ ، ثم أرسل إلى كل بلد في دولته الكبيرة دفتراً منها ، ويلاحظ أن كثيراً من العلماء جمع لنفسه مسموعاته ، ليعود إليها كلما وجد في نفسه الحاجة إلى إتقان حفظها ، أما التدوين الرسمي الذي تولّته الدولة ، وعممت ثمرته على الأمصار ، فكان بأمر عمر بن عبد العزيز .

ومن الثمرات الطيبة ـ أيضاً ـ ذلك المنهج السديد الذي اتبعه أمير المؤمنين عمر ، بوضع الأسس والنقاط الهامة أثناء التدوين ، فكانت نواة لمنهج واسع متكامل جاء بعده ، وهذا كله ناتج من دقة فهمه ، وغزارة علمه ، ونفاذ بصيرته ، وقبل ذلك وبعده توفيق الله تعالى له ، ولئن كان عمر بن الخطاب قد أشار على الصديق بجمع القرآن ، ففعل ، فكان لهما الفضل الكبير على

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) نقلاً عن مقدمة المسند (ص ٢٠ ، ٢٣) .
(٣) عمر بن عبد العزيز ، لعبد الستار الشيخ (ص ٨٢) .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) أصول الحديث (ص ٨٢) .

الأمة. ثم جاء عثمان فجمع الناس على مصحف واحد، وحرف واحد، ولهجة واحدة هي لهجة قريش، فإن الله سبحانه قد ادّخر لعمر بن عبد العزيز ـ نحسب ذلك ولا نزكي على الله أحداً ـ تلك المنقبة العظيمة، والمكرمة الجليلة، في إصدار أوامر الخلافة بجمع السنة وتنقيحها وتدوينها، وجعل من أولويات الدولة حماية السنة التي هي المصدر الثاني للتشريع. وهذا من توفيق الله للعظماء، وكبار المصلحين، عندما تخلص سرائرهم لله، يوفقهم الله للحق ويدلهم على الخيرات، ويسدّد خطواتهم، ويهيِّئ لهم من أمرهم رشداً[١].

قال الشاعر الليبي أحمد رفيق المهدوي:

فإذا أحبَّ اللهُ باطنَ عبدهِ ظهرتْ عليه مواهبُ الفتّاح
وإذا صفتْ لله نيةُ مصلحٍ مالَ العبادُ عليه بالأرواحِ[٢]

ويعتبر (التدوين الرسمي) بحق أحد الأعمال العظيمة والإنجازات الكبيرة التي تحققت في عهد عمر بن عبد العزيز[٣] رحمه الله.

*** جهود التابعين في خدمة السنة النبوية الشريفة:**

تحمَّل التابعون الحديث النبوي عن الصحابة وضبطوا الإسناد مع الدقة والإتقان، وأصبح الحديث أمانة في أعناقهم، عليهم أن يجتهدوا في تبليغها وإيصالها إلى من وراءهم، لا سيما وقد ظهر في عصرهم بسبب الخلافات السياسية والكلامية وبسبب الزندقة المتمثلة في التظاهر بالإسلام مع كراهيته، ديناً، ودولة، وبسبب التعصب للجنس، واللغة والقبيلة، والبلد، وبسبب التكسب والارتزاق عن طريق القصص والوعظ، وبسبب الجهل من بعض الزهاد والعباد وغير ذلك من الأسباب، ظهر الكذب والوضع في الحديث، فانبرى هؤلاء يؤدون الأمانة ويقومون بواجبهم في مواجهة الكذابين والوضّاعين، وكانت لهم في ذلك جهود ضخمة مشكورة[٤] يمكن تلخيصها في الآتي:

١ ـ الالتزام بالإسناد ومطالبة الغير به:

أ ـ قال ابن سيرين: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم[٥].

---

(١) عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ (ص ٨٣).
(٢) الثمار الزكية للحركة السنوسية (ص ١٩٨).
(٣) عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ (ص ٨٣).
(٤) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي، للشايجي (ص ٥٤)، هذه الرسالة مع صغر حجمها ولكنها قيمة.
(٥) مسلم في مقدمته، باب بيان الإسناد من الدين (١/ ١٥).

ب ـ جاء عن عتبة بن أبي الحكم: أنه كان عند إسحاق بن أبي فروة وعنده الزهري ، قال: فجعل ابن أبي فروة يقول: قال رسول الله ﷺ: ... ، فقال له الزهري: قاتلك الله يا بن أبي فروة ما أجرأك على الله ! لا تسند حديثك ، تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة(١).

٢ ـ عقد الحلقات العلمية:

يقول ابن سيرين: قدمت الكوفة ، وللشعبي حلقة علمية عظيمة ، والصحابة يومئذ كثير(٢). وعن ابن شهاب قال: كان يقص لنا سعيد بن جبير كل يوم مرتين: بعد الفجر ، وبعد العصر(٣).

٣ ـ الحرص على أداء الحديث على وجهه:

يعني روايته بلفظه ، فإن لم يتيسر ذلك رووه بالمعنى مراعين شروطه وضوابطه المعروفة(٤). فعن ابن عون قال: كان إبراهيم ، والشعبي ، والحسن ، يأتون بالحديث على المعاني ، وكان القاسم ، وابن سيرين ، ورجاء يعيدون الحديث على حروفه(٥). وقال ليث بن أبي سليم: كان طاووس يعد الحديث حرفاً حرفاً(٦) ، وقال جرير بن حازم: سمعت الحسن يحدث بالحديث: الأصل واحد ، والكلام مختلق(٧).

٤ ـ وضع معايير علمية لمعرفة حال الرواة تجريحاً وتعديلاً:

ـ مثل مقابلة روايات الضابطين ببعضها: كقول ابن شهاب الزهري: إذا حدثتني عَمْرَة ثم حدثني عروة صدق عندي حديث عمرة حديث عروة ، فلما تبحرتهما إذا عروة بحر لا ينزف(٨).

ـ أو مقابلة حديث الراوي بحديث نفسه ولكن على فترات متباعدة: كما جاء أن هشام بن عبد الملك أراد التأكد من حفظ الزهري ، فاختبره بنفسه؛ حيث سأله أن يملي على بعض ولده ، فدعا بكاتب ، فأملى عليه أربعمئة حديث ، ثم إن هشاماً قال له بعد شهر أو نحوه: يا أبا بكر إن ذلك الكتاب ضاع ، فدعا بكاتب فأملاها عليه ، ثم قابله هشام بالكتاب الأول فما غادر حرفاً(٩).

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم (ص ٦).
(٢) تاريخ الإسلام (ص ١٢٦) حوادث ١٠٤ هـ.
(٣) سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٣٦).
(٤) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي (ص ٥٨).
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٥٩).
(٦) المصدر السابق نفسه (٥/ ٤٦٥).
(٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/ ٢١).
(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٦).
(٩) السنة ومكانتها في التشريع للدكتور مصطفى السباعي (ص ٢٠٩).

ـ **أو بقلب الأسانيد والمتون**: كما جاء عن حماد بن سلمة قال: كنت أسمع أن القصاص لا يحفظون الحديث، فكنت أقلب الأحاديث على ثابت: أجعل أنساً لابن أبي ليلى، وبالعكس، أشوشها عليه فيجيء بها على الاستواء[١].

ـ **ومن معرفة المبتدع بإعراضه عن السنة إلى القرآن**: عن أبي قلابة، قال: إذا حدثت الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا، وهات كتاب الله؛ فاعلم أنه ضال[٢].

ـ **ومن ضرورة حفظ القرآن قبل الاشتغال بالحديث**: عن حفص بن غياث قال: أتيت الأعمش فقلت: حدثني، قال: أتحفظ القرآن؟ قلت: لا. قال: اذهب، فاحفظ القرآن، ثمّ هلمّ أحدثك، قال: فذهبت فحفظت القرآن، ثم جئته فاستقرأني، فقرأته، فحدثني.

٥ ـ إجابة المستفتين، والقضاء بين الناس:

كان من جهود التابعين في خدمة السنة أداء: إجابة المستفتين، والقضاء بها بين الناس، هذا علقمة بن قيس النخعي يتفقه به أئمة، كإبراهيم، والشعبي، ويتصدى للإمامة والفتيا بعد علي وابن مسعود، وكان يشبه بابن مسعود في هديه، ودله، وسمته، وكان طلبته يسألونه ويفقهون به، والصحابة متوافرون[٣]. وعن أبي الزناد قال: كان الفقهاء السبعة الذين يسألون بالمدينة، ويُنتهى إلى قولهم: سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعروة، والقاسم، وعبيد الله بن عبد الله، وخارجة بن زيد، وسليمان بن يسار[٤]. ولا شك أن إجابة المستفتين والقضاء بين الناس ما كان لهما أن يظهرا على أرض الواقع مع الدعة والراحة والنوم، وإنما تطلبا جهداً ووقتاً ونفقة للإعداد والتحضير، ثم الأداء[٥].

٦ ـ بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج[٦]:

كان من جهود التابعين في خدمة الحديث النبوي أداء بيان حال الرواة لمعرفة من يحتج بحديثه ومن لا يحتج:

أ ـ عن محمد بن سيرين قال: أدركت أهل الكوفة وهم يقدمون خمسة: من بدأ بالحارث

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٢٢).
(٢) المصدر السابق نفسه (٤/ ٧٤٢).
(٣) المحدث الفاصل، باب أوصاف الطالب وآدابه (ص ٢٠٣).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٣٨).
(٥) التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي (ص ٦٤).
(٦) المصدر السابق نفسه.

الأعور ثنى بعبيدة السلماني ، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث ، ثم علقمة ، ثم مسروق ، ثم شريح[(١)] .

ب ـ وعن قتادة قال: إذا اجتمع لي أربعة لم ألتفت إلى غيرهم ، ولم أبالِ من خالفهم: الحسن ، وابن المسيب ، وإبراهيم ، وعطاء؛ هؤلاء أئمة الأمصار[(٢)] .

هذه هي أهم الجهود التي بذلوها في خدمة الحديث النبوي ، ومن أراد التوسع فليراجع السنة قبل التدوين[(٣)] للدكتور محمد عجاج الخطيب ، والتابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي .

سادساً: منهج التزكية والسلوك عند التابعين ، مدرسة الحسن البصري مثالاً:

*** الحسن البصري في عهد عمر بن عبد العزيز والدولة الأموية:**

يعتبر الحسن البصري من المعاصرين لعمر بن عبد العزيز ، كما أنه كان له تأثير واضح في الحياة الدينية والاجتماعية في عهد الدولة الأموية ، والحسن البصري هو أبو سعيد الحسن بن يسار ـ مولى زيد بن ثابت رضي الله عنه ـ من كبار التابعين ، وإمام أهل البصرة ، وحبر الأمة وقتها ، وأمه (خيرة) مولاة أم المؤمنين أم سلمة ـ رضي الله عنها. ولد عام ٢١ هـ في المدينة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ويقال: الحسن أرضعته أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ حيث كانت أمه ـ خيرة ـ تخرج لشراء بعض الحاجيات ، فيبكي الطفل فتأخذه أم سلمة بين يديها ، وتضعه في حجرها ، وتلقمه ثديها ، فيدر الثدي لبناً ، فيرضع الحسن ، وبذلك تكون أمه من الرضاعة ، وقد كانت فصاحته وعلمه من هذه البركة ، ومن البديهي أن يتعرف الطفل الصغير على بيوت أمهات المؤمنين وينهل من معينهن ، ويتأدب بأدبهن ويتخلق بأخلاقهن ، ومن جهة أخرى يتتلمذ على كبار الصحابة في مسجد رسول الله ﷺ ، كأبي موسى الأشعري ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وجابر بن عبد الله رضي الله عنهم أجمعين .

وانتقل مع أبويه فيما بعد إلى (البصرة) ، وإليها ينسب ، فيقال: الحسن البصري ، وكان عمره وقتها أربع عشرة سنة ، فلزم مسجد البصرة ينهل من معين علمائها وخاصة حلقة حبر الأمة وعالمها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وما هو إلا قليل حتى التف الناس حوله ، وقصدوه من كل حدب وصوب ، وكما قيل فيه كان قوله كفعله ، لا يقول ما لا يفعل؛ سريرته كعلانيته ،

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٩١) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٥/ ٨٣) .
(٣) السنة قبل التدوين (ص ١٤٤ إلى ١٩٩) .

إذا أمر بمعروف كان أعمل الناس به ، وإذا نهى عن منكر كان أترك الناس له ، مستغنياً عما في أيدي الناس ، زاهداً به ، والناس محتاجون إليه بما عنده[١] .

١ ـ أسباب تأثيره في قلوب الناس :

جمع الله فيه من الفضائل والمواهب ما استطاع به أن يؤثِّر في قلوب الناس ، ويرفع به قيمة الدين وأهل الدين في المجتمع ، فقد كان واسع العلم غزير المادة في التفسير والحديث ، ولم يكن لأحد في ذلك العصر أن ينشر دعوته ويقوم بالإصلاح ، إلا إذا كان متوفراً على هذين العلمين ، وقد أدرك الصحابة وعاصر كثيراً منهم ، ويظهر من حياته ومواعظه أنه درس هذا العصر دراسة عميقة وأدرك روحه وعرف كيف تطور المجتمع الإسلامي ، ومن أين انحرف ، وكان واسع الاطلاع ، دقيق الملاحظة للحياة ومختلف الطبقات وعوائدها وأخلاقها وعِللها وأدوائها ، كطبيب مارس العلاج مدة[٢] .

وكان مع ذلك غاية في الفصاحة وحلاوة المنطق والتأثير في مستمعيه ، يقول أبو عمرو بن العلاء : ما رأيت أفصح من الحسن البصري ، والحجاج بن يوسف ، والحسن أفصح منه[٣] ، وكان آية في اتساع المعلومات ووفور العلم ، قال الربيع بن أنس : اختلفت إلى الحسن عشر سنين ، وما من يوم إلا أسمع منه ما لم أسمع قبله . وقال محمد بن سعد : كان الحسن جامعاً عالماً رفيعاً فقيهاً ، ثقة مأموناً ، عابداً ناسكاً ، كثير العلم ، فصيحاً ، جميلاً وسيماً ، وقدم مكة فأجلس على سرير ، واجتمع الناس إليه ، وقالوا : لم نرَ مثل هذا قط ، وقد وصفه ثابت بن قُرة ـ كما نقل عنه أبو حيان التوحيدي . فقال : كان من ذراري النجوم علماً وتقوى ، وزهداً وورعاً ، وعفة ورقَّة ، وفقهاً ومعرفة ، يجمع مجلسه ضروباً من الناس ، هذا يأخذ عنه الحديث ، وهذا يلقفُ منه التأويل[٤] ، وهذا يسمع منه الحلال والحرام ، وهذا يحكي به الفتيا ، وهذا يتعلم الحكم والقضاء ، وهذا يسمع الوعظ ، وهو في جميع ذلك كالبحر اللَّجلاج تدفقاً ، وكالسِّراج الوهاج تألقاً ، ولا تُنسَ مواقفه ومشاهده بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عند الأمراء وأشباه الأمرء ، بالكلام الفصل واللفظ الجزل[٥] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٦٣ إلى ٥٨٨) ، حياة الحسن البصري ، د. روضة الحضري؛ الحسن البصري إمام عصره وعلامة زمانه لمرزوق علي إبراهيم؛ الحسن البصري ، مصطفى سعيد الخن؛ الزهد ، للحسن البصري . د. محمد عبد الرحيم محمد .

(٢) رجال الفكر والدعوة (١/ ٦٧) .

(٣) نظرات في التصوف الإسلامي ، د. محمد القهوجي (ص ٢٢١) .

(٤) التأويل : التفسير .

(٥) رجال الفكر والدعوة (١/ ٦٨) .

وكان فوق ذلك كله ـ وهو سر تأثيره في القلوب، وسحره في النفوس، وخضوع الناس له ـ أنه كان صاحب عاطفة قوية، وروح ملتهبة، وكان من كبار المخلصين، وكان الذي يقوله يخرج من القلب فيدخل في القلب، وكان إذا ذكر الصحابة أو وصف الآخرة، أدمع العيون وحرك القلوب[١]، قال عنه مطر الوراق: لما ظهر الحسن جاء كأنَّما كان في الآخرة فهو يخبر عمَّا عاين[٢]. وقال عوف: ما رأيت رجلاً أعلم بطريق الجنة من الحسن[٣]. فقد كان يتذوق الإيمان، ويتكلم عن عاطفة ووجدان، لذلك كانت حلقته في البصرة أوسع الحلقات، وانجذب الناس إليه انجذاب الحديد إلى المغناطيس ـ وذلك شأن أهل القلوب والإخلاص في كل زمان ـ.

وكان من أعظم ما امتاز به هو أنَّ كلامه كان أشبه ما سمع الناس بكلام النبوة، وقال الغزالي في إحياء علوم الدين: ولقد كان الحسن البصريُّ رحمه الله أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأقربهم هدياً من الصحابة رضي الله عنهم، اتّفقت الكلمة في حقه على ذلك[٤].

وكانت نتيجة المواهب العظيمة والفضائل الكثيرة، أنه كان صاحب شخصية قوية جذابة حبيبة إلى النفوس، وكان الناس مأخوذين بسحرها، خاضعين لعظمتها، حتى قال ثابت بن قرّة الحكيم الحرّاني: إن الحسن من أفراد الأمة المحمدية التي تتباهى بهم على الأمم الأخرى[٥].

وكان من أعظم أسباب تأثير الحسن البصري في المجتمع، ونفوذه في القلوب والعقول، أنه ضرب على الوتر الحساس، ونزل أعماق المجتمع، ووصف أمراضه، وانتقده انتقاد الحكيم الرفيق، والناصح الشفيق، لقد كان عصره يغُصُّ بالدعاة والوعاظ، ولكنَّ المجتمع لم يتأثر لأحد كتأثره بالحسن، لأنه كان يَمسُّ قلبه وينزل في صميم الحياة، ويعارض التيار، لأنه كان ينعى على الإخلاد إلى الحياة والانهماك في الشهوات، وقد انتشر هذا المرض في الحياة، إنه كان يذكر بالموت ويستحضر الآخرة، والمترفون يتناسون ذلك ويُعلِّلون نفوسهم بالأماني الكاذبة والأحلام اللذيذة، ويتضايقون بذكر ما يكدِّر عليهم الحياة ويُعكِّر صفو عيشهم، فكان دائماً في صراع مع الجاهلية، والجاهلية لا تخضع إلا لمن صارعها، ولا تعترف إلا بوجود

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٣).

(٣) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٧٥).

(٤) رجال الفكر والدعوة (١/ ٦٨).

(٥) المصدر السابق نفسه.

الرجل الذي يحاربها، وكان الحسن البصري هو ذاك الرجل، فعظم تأثيره وكثر التائبون والمُقْلعون عن المعاصي والحياة الجاهلية التي كانوا يعيشونها، وانطلقت موجة الإصلاح قوية مؤثرة، لأن الحسن لم يقتصر على مواعظ وخطب كان يُلقيها، بل كان يُعنى بتربية من يتصل به ويجالسه. فكان جامعاً بين الدعوة والإرشاد، وبين التربية العملية والتزكية الخُلقية والروحية، فاهتدى به خلائق لا يحصيهم إلا الله، وذاقوا حلاوة الإيمان وتحلوا بحقيقة الإسلام[١].

٢ ـ ملامح التصوف السني عند الحسن البصري:

يعتبر الحسن البصري من علماء السلوك النادرين، وممن اهتموا بأمراض النفوس وعلاجها، وإحياء القلوب وإمدادها بالإيمان والمعاني الربانية السامية، وكان رحمه الله سليم العقيدة، متقيداً بالكتاب والسنة في تعليمه وتربيته، ولا شك أن الأساس في التصوف السني هو الالتزام بالكتاب والسنة وفق منهج السلف الصالح في العقيدة والعبادة والسلوك والمعاملة، وسنرى ذلك من خلال سيرة الحسن.

ومن الأمور التي اهتم بها الحسن رحمه الله:

أ ـ قسوة القلب وموته وإحياؤه:

قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي قال: أدنه من الذكر[٢]، وقال: إن القلوب تموت وتحيا، فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أحييت فأتبعوه بالتطوع[٣]، إن قسوة القلب ذمها المولى ـ عز وجل ـ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة: ٧٤]، ثم بين وجه كونها أشد قسوة، بقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٧٤]. وقال رسول الله ﷺ: «ولا تكثروا الكلام بغير ذكر الله، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله القلب القاسي»[٤].

وأما أسباب القسوة فكثيرة؛ منها: كثرة الكلام بغير ذكر الله، نقض العهد مع الله ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ﴾ [المائدة: ١٣]، ومنها: كثرة الضحك، ومنها: كثرة الأكل لا سيما من الحرام، ومنها: كثرة الذنوب[٥]، وغيرها، وقد ذكر الكثير منها الحسن البصري في كلامه.

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٧٥).

(٢) الزهد، للحسن البصري (ص ١٢٣).

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٢٤).

(٤) سنن الترمذي، رقم (٢٤١١) حسن غريب.

(٥) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٢٦١، ٢٦٢).

وأما مزيلات القسوة فمتعددة منها:

ـ كثرة ذكر الله يتواطأ عليه القلب واللسان:

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال رسول الله ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: فما جلاؤها يا رسول الله! قال: «تلاوة كتاب الله وكثرة ذكره»[١].

وكان الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يقول: أيها الناس إني أعظكم ولست بخيركم ولا أصلحكم وإني لكثير الإسراف على نفسي، غير محكم لها، ولا حاملها على الواجب في طاعة ربها، ولو كان المؤمن لا يعظ أخاه إلا بعد إحكام أمر نفسه لعدم الواعظون، وقل المذكرون، ولما وجد من يدعو إلى الله جل ثناؤه، ويرغب في طاعته وينهى عن معصيته، ولكن في اجتماع أهل البصائر ومذاكرة المؤمنين بعضهم بعضاً حياة لقلوب المتقين وإذكار من الغفلة، وأمن من النسيان، فالزموا عافاكم الله مجلس الذكر، فرب كلمة مسموعة، ومحتقر نافع، ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢] [آل عمران: ١٠٢].

وكان يقول: سبحان من أذاق قلوب العارفين من حلاوة الانقطاع إليه، ولذة الخدمة له، ما علق همهم بذكره وشغل قلوبهم عن غيره، فلا شيء ألذ عندهم من مناجاته، ولا أقر إلى أعينهم من خدمته، ولا أخف على ألسنتهم من ذكره سبحانه وتعالى مما يقول الظالمون علواً كبيراً[٣].

وكان يقول: تفقد الحلاوة في ثلاثة أشياء: في الصلاة والقراءة والذكر، فإن وجدت ذلك فامض وأبشر، وإلا فاعلم أن بابك مغلق فعالج فتحه[٤].

ومن أفضل الذكر العمل بالقرآن وتلاوته، وكان الحسن البصري يقول: من أحب أن يعلم ما هو فيه، فليعرض عمله على القرآن، ليتبين الخسران من الرجحان[٥]، وكان يقول: رحم الله عبداً عرض نفسه على كتاب الله، فإن وافق أمره حمد الله وسأله المزيد، وإن خالف استعتب ورجع من قريب[٦]، وكان يقول: أيها الناس! إن هذا القرآن شفاء للمؤمنين، وإمام للمتقين

---

(١) البيهقي في الشعب، رقم (١٤٠٢)؛ العلل المتناهية، لابن الجوزي (٢/ ٨٢) الحديث فيه ضعف.
(٢) الزهد، للحسن البصري (ص ٧٩).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ١٤٢).
(٦) المصدر السابق نفسه.

فمن اهتدى به هُدي ، ومن صرف عنه شقي وابتلي[١] . وكان يقول : قراء القرآن ثلاثة نفر : قوم اتخذوه بضاعة يطلبون به ما عند الناس ، وقوم أجادوا حروفه وضيعوا حدوده استدروا به أموال الولاة واستطالوا به على الناس ـ وقد كثر هذا الجنس من حملة القرآن ـ فلا كثَّر الله جمعهم ولا أبعد غيرهم ، وقوم قرؤوا القرآن فتدبَّروا آياته وتداووا به[٢] . وأما قيام الليل فكان يقول فيه : إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار فاعلم أنك محروم ، قد كبلتك الخطايا والذنوب[٣] . وقال له رجل : يا أبا سعيد : أعياني قيام الليل فما أطيقه؟ فقال : يا بن أخي ، استغفر الله وتب إليه ، فإنها علامة سوء[٤] ، وقال : إن الرجل ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل[٥] .

ـ كثرة ذكر الموت :

قال رسول الله ﷺ : «أكثروا ذكر هاذم اللذات»[٦] . وقال الحسن البصري : فضح الموت الدنيا ، فلم يترك فيها لذي لب فرحاً[٧] . وعن صالح بن رسم قال : سمعت الحسن يقول : رحم الله رجلاً لم يغره كثرة ما يرى من كثرة الناس ، ابن آدم إنك تموت وحدك وتدخل القبر وحدك ، وتبعث وحدك وتحاسب وحدك ، ابن آدم وأنت المعنّى وإياك يراد[٨] . وقال الحسن : ما أكثر عبد ذكر الموت إلا رأى ذلك في عمله ، ولا طال أمل عبد قط إلا أساء العمل[٩] .

وقيل : رأى الحسن شيخاً في جنازة فلما فرغ من الدفن ، قال له الحسن : يا شيخ ، أسألك بربك : أتظن أن هذا الميت يود أن يرد إلى الدنيا فيتزيد من عمله الصالح ، ويستغفر الله من ذنوبه السالفة ؟ فقال الشيخ : اللهم نعم ، فقال الحسن : فما بالنا لا نكون كهذا الميت ، ثم انصرف ، وهو يقول : أي موعظة ! ما أنفعها لو كان بالقلوب حياة ! ولكن لا حياة لمن تنادي[١٠] .

وقال : حقيق على من عرف أن الموت مورده والقيامة موعده ، والوقوف بين يدي الجبار مشهده : أن تطول في الدنيا حسرته ، وفي العمل الصالح رغبته[١١] . وكان يقول : ما رأيت يقيناً

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ١٤٧).
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ١٤٨).
(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٤٦).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) سنن الترمذي ، رقم (٢٣٠٧)؛ سنن ابن ماجه ، رقم (٤٢٥٨).
(٧) الزهد، للحسن البصري (ص ٢٠).
(٨) المصدر السابق نفسه، (ص ٢١).
(٩) المصدر السابق نفسه.
(١٠) المصدر السابق نفسه.
(١١) المصدر السابق نفسه، (ص ٢٢).

لا شك فيه أصبح شكاً لا يقين فيه من يقيننا بالموت وعملنا لغيره[١]. وكان يقول: عباد الله! إن الله سبحانه لم يجعل لأعمالكم أجلاً دون الموت، فعليكم بالمداومة، فإنه جل ثناؤه يقول: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وكان يقول: ابن آدم! إنك تموت وحدك، وتحاسب وحدك، ابن آدم، لو أن الناس كلهم أطاعوا الله وعصيت أنت لم تنفعك طاعتهم، ولو عصوا الله وأطعت أنت لم تضرك معصيتهم، ابن آدم: ذنبك ذنبك، فإنما هو لحمك ودمك، فإن سلمت من ذنبك سلم لك لحمك ودمك، وإن تكن الأخرى فإنما هي نار لا تطفأ وجسم لا يبلى، ونفس لا تموت[٢]. وكان يقول: لولا ثلاثة ما طأطأ ابن آدم رأسه: الموت والمرض والفقر، وإنه بعد ذلك لوثاب[٣].

وكان الحسن إذا تلا هذه الآية: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣] قال: من قال ذا؟ قال: من خلقها وهو أعلم بها[٤]. وقال: إياكم وما شغل من الدنيا، فإن الدنيا كثيرة الاشتغال، ولا يفتح رجل على نفسه باب شغل، إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب[٥].

ـ زيارة القبور والتفكر في حال أهلها:

قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور، فإنها تذكِّر الموت»[٦]، وفي رواية: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكر الآخرة»[٧]، وكان الحسن البصري كثير الزيارة للقبور، فلما ماتت النوار بنت أعين بن ضبعية المجاشعي امرأة الفرزدق، وكانت قد أوصت أن يصلي عليها الحسن البصري، فشهدها أعيان أهل البصرة مع الحسن، والحسن على بغلته، والفرزدق على بعيره، فسار فقال الحسن للفرزدق: ماذا يقول الناس؟ قال: يقولون: شهد هذه الجنازة اليوم خير الناس (يعنونك) وشر الناس؛ يعنونني، فقال له: يا أبا فراس، لستُ بخير الناس، ولستَ أنت بشرِّ الناس، ثم قال الحسن: ما أعددت لهذا اليوم؟ قال: شهادة أن لا إلٰه إلا الله منذ ثمانين سنة، فلما أن صلى عليها الحسن مالوا إلى قبرها، فأنشأ الفرزدق يقول:

أخافُ وراءَ القبرِ إن لمْ يعافِني ... أشدَّ من القبرِ التهاباً وأضيقا
إذا جاءني يومَ القيامةِ قائدٌ ... عنيفٌ وسوّاقٌ يسوقُ الفرزدقا

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٢٣).
(٣) المصدر السابق نفسه (ص ٢٤).
(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٢٥).
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ٢٦).
(٦) مسلم، رقم (٩٧٦).
(٧) مسلم (٢/ ٦٧٢)؛ سنن الترمذي (١٨٦٩).

لقد خابَ مِنْ أولادِ دارٍ من مشى إلى النارِ مغلولَ القلادةِ أزرقا
يساقُ إلى نارِ الجحيمِ مُسَرْبلاً سرابيلَ قطرانٍ لباساً مخرَّقا
إذا شربُوا فيها الصديدَ رأيتَهُم يذوبون من حرِّ الصديدِ تمزُّقَا

قال: فبكى الحسن حتى بلّ الثرى، ثم التزم الفرزدق وقال: لقد كنت من أبغض الناس إليَّ، وإنك اليوم من أحب الناس إلي[١].

وكان الحسن يتعظ بالمقابر ويتدبر في أحوالها، فعن عوانة قال: قال الحسن: قدم علينا بشر بن مروان ـ أخو عبد الملك بن مروان الخليفة ـ أمير المصرين، وأشب الناس، وأقام عندنا أربعين يوماً، ثم طعن في قدميه فمات، وأخرجناه إلى قبره، فلما صرنا إلى الجبان فإذا نحن بأربعة سودان يحملون صاحباً لهم إلى قبره، فوضعنا السرير فصلينا عليه، ووضعوا صاحبهم فصلوا عليه، ثم حملنا بشراً إلى قبره، وحملوا صاحبهم إلى قبره، ودفنا بشراً ودفنوا صاحبهم ثم انصرفوا وانصرفنا، ثم التفت التفاتة فلم أعرف قبر بشر من قبر الحبشي، فلم أر شيئاً قط كان أعجب منه[٢].

وقد ذكر العلماء أموراً أخرى تزيل قسوة القلوب؛ كالإحسان إلى اليتامى والمساكين، والنظر في ديار الهالكين والاعتبار بمنازل الغابرين[٣].

ب ـ حثه على الإخلاص، وطاعة الله، وإصلاح ذات البين، والتفكر:

ـ الإخلاص:

إن لإخلاص العمل تأثيراً عظيماً في مكارم الأخلاق، فهو يمد قلب صاحبه بقوّة، تجعله ينهض للمكارم ابتغاء وجه الله، غير منتظر من أحد جزاءً ولا شكوراً، يشرح صدره للحلم والعفو ومعالي الأخلاق امتثالاً لأمر الله، وطلباً لرضاه والفوز بنعيم الآخرة، فهو إن أبغض فبغضه لله وهكذا في شأنه كله[٤]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام]. فكان الحسن يقول: من تزيَّن للناس بما لا يعلمه الله منه شانه ذلك[٥]. وكان يقول: روي عن بعض الصالحين أنه كان يقول: أفضل الزهد إخفاء الزهد[٦]. وقيل: وعظ يوماً، فتنفس رجل الصعداء، فقال: يا بن أخي! ما عساك

---

(١) الحسن البصري، د. مصطفى الخن (ص ٣٤٥) نقلاً عن البداية والنهاية.
(٢) البيان والتبيين (٣/ ١٤٧)؛ الحسن البصري، د. مصطفى الخن (ص ٣٤٩).
(٣) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/ ٢٦٤ إلى ٢٧٠).
(٤) الأخلاق بين الطبع والتطبع (ص ٢١).
(٥) حياة الحسن البصري، روضة الحصري (ص ١٧٠).
(٦) المصدر السابق نفسه.

أردت بما صنعت؟ إن كنت صادقاً فقد شهرت نفسك ، وإن كنت كاذباً فقد أهلكتها ، ولقد كان الناس يجتهدون في الخفاء وما يسمع لأحدهم صوت ، ولقد كان الرجل ممن كان قبلكم يستكمل القرآن فلا يشعر به جاره ، ولقد كان الآخر يتفقه في الدين ولا يطلع عليه صديقه ، ولقد قيل لبعضهم : ما أقل التفاتك في صلاتك وأحسن خشوعك؟ فقال : يا بن أخي وما يدريك أين كان قلبي[(١)]؟! وكان يقول : نظر رجاء بن حيوة إلى رجل يتناعس بعد الصبح ، فقال : انتبه عافاك الله لا يظن ظان أن ذلك عن سهر وصلاة فيحبط عملك[(٢)].

وقال الحسن : ولقد حُدثت أن رجلاً مر برجل يقرأ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. فقال : والله لأعبدن الله عبادة أُذكَر بها في الدنيا ، فلزم الصلاة واعتكف على الصيام حتى كان لا يفطر ولا يرى إلا مصلياً وذاكراً ، وكلما مر على قوم قالوا : ألا ترون هذا المرائي ما أكثر رياءه ، فأقبل على نفسه وقال : ثكلتكِ أمك لا أراك تذكري إلا بِشرٍّ ولا أراك أُصِبتِ إلا بفساد نيتكِ وفساد معتقدكِ ، وأنك لم تريدي الله بعملك ، ثم بقي على عمله لم يزد عليه شيئاً إلا أن نيته انقلبت[(٣)] ، فتغير الحال ووضع الله له القبول ـ ولا يمر بقوم إلا قالوا : يرحم الله هذا ، ثم يقولون : الآن الآن.

وكان الحسن يقول : أخلصوا لله أعمالكم[(٤)] ، وكان يقول : ابن آدم تلبس لُبسة العابدين ، وتفعل أفعال الفاسقين ، وتخبت إخبات المريدين ، وتنظر نظر المغترين ، ويحك! ما هذه خصال المخلصين ، إنك تقوم يوم القيامة بين يدي من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[(٥)] ، وكان يقول : روي أن سعيد بن جبير رأى رجلاً متماوتاً في العبادة ، فقال : يا بن أخي ! إن الإسلام حيّ فأحيه ولا تمته أماتك الله ولا أحياك ، وكان يقول : من ذم نفسه في الملأ فقد مدحها وبئس ما صنع[(٦)].

ـ الحث على طاعة الله :

قال تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]. وكان

---

(١) الزهد ، للحسن البصري (ص ١٥٩).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) انقلبت : صارت على الضد مما كانت عليه ، أي : حسنت.
(٤) الزهد للحسن البصري (ص ١٦٠).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) المصدر السابق نفسه.

الحسن يقول في قول الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قال: يعطون ما أعطوا ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ قال: يعملون ما عملوا من أعمال البر وهم يخشون ألاَّ ينجيهم من عذاب ربهم عز وجل[١]. وعنه أنه قال: إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداوماً في طاعة الله فبغاك وبغاك ـ أي: طلبك مرة بعد مرة ـ فرآك مداوماً وملّك ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك[٢]. وعن الحسن قال: قال هرم بن حيان: ما رأيت مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها[٣].

ومن القصص التي حدثت للحسن: لما ولي عمر بن هبيرة العراق أرسل إلى الحسن وإلى الشعبي فأمر لهما ببيت، وكانا فيه شهراً ـ أو نحوه ـ ثم إن الخادم غدا ذات يوم فقال: إن الأمير دخل عليكما، فجاء عمر يتوكأ على عصا له، فسلم ثم جلس معظماً لهما، فقال: إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك ينفذ كتاباً أعرف أن في إنفاذهِ الهلكة، فإن أطعته عصيت الله، وإن عصيته أطعت الله عز وجل، فهل تريا لي في متابعتي إياه فرجاً؟ فتكلم الشعبي فانحط في حبل ابن هبيرة، فقال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أيها الأمير، قد قال الشعبي ما قد سمعت، قال: ما تقول أنت يا أبا سعيد؟ فقال: أقول: يا عمر بن هبيرة يوشك أن ينزل بك ملك من ملائكة الله تعالى فظ غليظ لا يعصي الله ما أمره، فيخرجك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك، يا عمر بن هبيرة! إن تتق الله يعصمك من يزيد بن عبد الملك، ولا يعصمك يزيد بن عبد الملك من الله عز وجل، يا عمر بن هبيرة! لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظر تمقت فيغلق بها باب المغفرة دونك، يا عمر بن هبيرة! لقد أدركت ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله على الدنيا وهي مقبلة أشد إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة، يا عمر بن هبيرة! إني أخوفك مقاماً خوفكه الله تعالى فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾، يا عمر بن هبيرة! إن تك مع الله تعالى في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكلك الله إليه.

قال: فبكى عمر وقام بعبرته، فلما كان من الغد أرسل إليهما بإذنهما وجوائزهما، وكثر منه ما للحسن، وكان في جائزته للشعبي بعض الإقتار، فخرج الشعبي إلى المسجد، فقال: يا أيها الناس! من استطاع منكم أن يؤثر الله تعالى على خلقه فليفعل، فوالذي نفسي بيده ما علم الحسن منه شيئاً فجهلته، ولكن أردت وجد ابن هبيرة، فأقصاني الله منه[٤]. وقال الحسن: لا تخالفوا

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٧٤).
(٢) المصدر السابق نفسه (ص ٧٥).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) الزهد، الحسن البصري، (ص ٧٦).

الله عن أمره ، فإن خلافاً عن أمره عمران دار قد قضى الله عليها بالخراب[١] . وقال الحسن في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا﴾ قال: المتوجه بقلبه وعمله إلى الله عز وجل[٢] . وكان يقول: رحم الله امرأً كان قوياً فأعمل قوته في طاعة الله ، أو كان ضعيفاً فكفَّ عن معاصي الله[٣] .

ـ الاعتبار والتفكر :

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] . وقال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] . فالتأمل والتفكر في الكون والنفس وآيات الله المنظورة داعٍ قوي للإيمان ، لما في هذه الموجدات من عظمة الله الخالق الدالة على قدرة خالقها وعظمته ، وما فيها: من الحسن والانتظام والإحكام الذي يحيِّر الألباب ، الدال على سعة علم الله ، وشمول حكمته ، وما فيها من أصناف المنافع والنعم الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى ، الدالة على سعة رحمة الله ، وجوده وبره ، وذلك يدعو إلى تعظيم مبدعها وبارئها وشكره واللهج بذكره ، وإخلاص الدين له وهذا هو روح الإيمان وسره[٤] ، فعبادة التفكر والاعتبار دعا إليهما الحسن البصري وحث الناس عليها ، فقال رحمه الله: إن من أفضل العمل الورع والتفكر[٥] ، وقال: من عرف ربه أحبه ، ومن أبصر الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتى يغفل ، وإذا فكر حزن[٦] . وكان يقول: رحم الله امرأً نظر ففكر ، وفكر فاعتبر ، واعتبر فأبصر وأبصر فصبر ، لقد أبصر أقوام ثم لم يصبروا ، فذهب الجزع بقلوبهم ، فلم يدركوا ما طلبوا ولا رجعوا إلى ما فارقوا ، فخسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين[٧] ، وقال: تفكر ساعة خير من قيام ليلة[٨] ، وكان يقول: الفكرة مرآة تريك حسناتك من سيئتك ، فمن اعتمد عليها أفلح ، ومن أغفلها افتتضح[٩] .

ـ العلم والعلماء :

وكان يقول: الفهم وعاء العلم ، والعلم دليل العمل ، والعمل قائد الخير ، والهوى مركب

---

(١) المصدر السابق نفسه .
(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٧٧) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) شجرة الإيمان ، للسعدي ، (ص ٤٩) الوسطية في القرآن ، (ص ٢٣٩) .
(٥) الزهد ، الحسن البصري ، (ص ٨٢) .
(٦) المصدر السابق نفسه ، (ص ٨٣) .
(٧) المصدر السابق نفسه .
(٨) المصدر السابق نفسه .
(٩) المصدر السابق نفسه .

المعاصي ، والمال داء المتكبرين ، والدنيا سوق الآخرة ، والويل كل الويل لمن قوي بنعم الله على معاصيه[١] ، وقال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه ، وفي لسانه وبصره وبره[٢] .

جـ ـ النهي عن طول الأمل وذم الكبر:

ـ النهي عن طول الأمل: قال الحسن: إن المؤمن في الدنيا غريب لا يجزم ذلها ولا ينافس أهلها في غرها ، الناس منه في راحة ، ونفسه منه في شغل ، طوبى لعبدٍ كسب طيباً ، وقدم الفضل ليوم فقره وفاقته ، ووجهوا هذا الفضل حيث وجهه الله ، ولا تلقوها هاهنا فيما يضركم[٣] . وكان يقول: ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل[٤] ، ومن درر كلامه قوله: يا بن آدم إنما أنت أيام ، كلما ذهب يوم ذهب بعضك[٥] .

ـ النهي عن الكبر: قال الحسن: يا بن آدم، كيف تتكبر وأنت من سبيل البول مرتين[٦] ؟! وقيل: رأى الحسن نعيم بن رضوان يمشي مشية المتكبر ، فقال: انظروا إلى هذا ليس فيه عضو إلا ولله تعالى فيه نعمة وللشيطان لعنة[٧] .

٣ ـ من تلاميذ الحسن البصري الذين اشتهروا بعلم السلوك:

كان الحسن البصري من علماء أهل السنة واهتم رحمه الله بعلم السلوك ، وكان له مجلس خاص في منزله لا يكاد يتكلم فيه إلا في معاني الزهد والنسك[٨] ، وقد تأثر بمدرسة الحسن البصري مجموعة خيرة ، لكوكبة نيرة ، ونجوماً ساطعة من علماء أهل السنة ، منهم:

أ ـ أيوب السختياني:

هو الإمام الحافظ سيد العلماء ، أبو بكر بن أبي تميمة كيسان[٩] ، كان ثقة ثبتاً في

---

(١) المصدر السابق نفسه، (ص ٩٢).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه، (ص ٨١).
(٤) المصدر السابق نفسه، (ص ٨٢).
(٥) المصدر السابق نفسه، (ص ٨١).
(٦) المصدر السابق نفسه، (ص ٩٠).
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٩).
(٩) المصدر السابق نفسه (٦/ ١٥).

الحديث ، جامعاً عدلاً ، ورعاً ، كثير العلم[١] ، وكان إذا سئل عن شيء ليس عنده فيه شيء قال: أسأل أهل العلم. وكان كثيراً ما يقول: لا أدري. حتى قال حماد بن زيد: ما رأيت أحداً أكثر من قول: لا أدري من أيوب ويونس ، وكان يحب ستر زهده ويقول: لأن يستر الرجل زهده خير له من أن يظهره[٢] ، وحج أيوب أربعين حجة ، وكان عبيد الله بن عمر يرتاح قلبه في موسم الحج بلقاء أقوام نور الله قلوبهم بالإيمان ، منهم أيوب[٣] ، وكان صديقاً ليزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فلما تولى يزيد الخلافة قال أيوب: اللهم أنسه ذكري[٤] ، وكان شديد التبسم في وجوه الناس[٥].

* من مواقف وكلمات أيوب:

- تعظيمه لأهل السنة: قال أيوب: إنه ليبلغني موت الرجل من أهل السنة فكأنما يسقط عضو من أعضائي[٦].

- موقفه من أهل الأهواء والبدع: قال: ما ازداد صاحب بدعة اجتهاداً إلا ازداد من الله بعداً[٧]. وعن أيوب قال: قال أبو قلابة: لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ، فإني لا آمن من أن يغمسوكم في ضلالتهم أو يلبسوا عليكم ما كنتم تعرفون[٨]. قال أيوب: وكان والله من الفقهاء ذوي الألباب[٩].

- محبته للقاء إخوانه في الله: قال: إنه يزيدني في حب الموسم وحضوره أن ألقى إخواناً لي فيه لا ألقاهم في غيرِهِ[١٠].

- عبادته: كان من العباد المشهورين بحسن العبادة وكثرتها ، وكان شديد الحرص على إخفائها عن الناس وتصفيتها وإخلاصها لرب الناس[١١] ، وكان من سادات أهل البصرة ، وعبّاد

---

(١) الطبقات (٧/ ٢٤٦).
(٢) تاريخ التصوف الإسلامي ، د. بدوي ، (ص ١٨٩).
(٣) الحلية (٣/ ٤).
(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٦).
(٥) تاريخ التصوف الإسلامي ، (ص ١٨٩).
(٦) الحلية (٣/ ٩).
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) الإمام أيوب السختياني ، د. سليمان العربي ، (ص ٤٧).
(٩) البدع والنهي عنها ، لابن وضاح ، (ص ٤٨).
(١٠) الإمام أيوب السختياني ، (ص ٤٨).
(١١) المصدر السابق نفسه، (ص ٥٠).

أتباع التابعين وفقهائهم ممن اشتهر بالفضل والعلم والنسك[١] ، وكان كثير الحج والعمرة رحمه الله لوصية رسول الله ﷺ بذلك: «تابعوا بين الحج والعمرة»[٢] ، وحج أيوب أربعين سنة[٣] ، وكان يقوم الليل يخفي ذاك ، فإذا كان قبل الصبح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة[٤].

ـ الزهد: قال أيوب: الزهد في الدنيا ثلاثة أشياء: أحبها إلى الله ، وأعلاها عند الله ، وأعظمها عند الله تعالى، الزهد في عبادة من عبد دون الله من كل ملك وصنم وحجر ووثن، ثم الزهد فيما حرم الله تعالى من الأخذ والإعطاء، ثم يقبل علينا فيقول: زهدكم هذا يا معشر القراء فهو أخسه عند الله ، الزهد في حلال الله عز وجل[٥].

ـ شهادة الحسن البصري فيه: قال فيه الحسن: هذا سيد الفتيان[٦] ، وقال: أيوب سيد شباب أهل البصرة[٧] ، وأما شهادة أيوب في شيخه الحسن فقد قال: كان الحسن يتكلم بكلام كأنه الدر ، فتكلم قومٌ من بعده بكلام يخرج من أفواههم كأنه القيء[٨]. وقال: جالست الحسن أربع سنين فما سألته هيبة له[٩].

ـ وفاته: بعد عمر قضاه في عبادة الله تعلماً وتعليماً وتربية وخشية لله ، وتمسكاً بالسنة وتعظيماً لأهلها وقمعاً لأهل البدع والأهواء وإخلاص العلم والعمل لله ، توفي في مرض الطاعون بالبصرة عام ١٣١ هـ[١٠] ، وروى أبو نعيم بسنده إلى حماد بن زيد قال: غدا علي ميمون أبو حمزة يوم الجمعة قبل الصلاة ، فقال: إني رأيت البارحة أبا بكر وعمر في النوم فقلت لهما: ما جاء بكما؟ قالا: جئنا نصلي على أيوب السختياني. قال: ولم يكن علم بموته ، فقلت له: قد مات أيوب البارحة[١١].

---

(١) مشاهير علماء الأمصار ، (ص ١٥٠) ، رقم (١١٨٣).
(٢) مسند أحمد ، رقم (١٦٧) الحديث صحيح بشواهد.
(٣) حلية الأولياء (٣/ ٥).
(٤) المعرفة والتاريخ (٢/ ٢٤١)؛ الإمام أيوب السختياني ، (ص ٥٢).
(٥) حلية الأولياء (٣/ ٧).
(٦) طبقات ابن سعد (٧/ ٢٤٧)؛ الإمام أيوب ، (ص ٧٥).
(٧) حلية الأولياء (٣/ ٣)؛ الإمام أيوب ، (ص ٧٥).
(٨) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٧).
(٩) حلية الأولياء (٣/ ١١)؛ الإمام أيوب ، (ص ٧٥).
(١٠) الوافي بالوفيات (١٠/ ٥٤ ، ٥٥)؛ الإمام أيوب ، (ص ٩٦).
(١١) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٣).

ب ـ مالك بن دينار:

علم العلماء الأبرار، معدود من ثقات التابعين، ومن أعيان كتبة المصاحف، كان من ذلك بلغته[(١)].

* من مواقفه وأقواله:

ـ عدم تأثره بالمدح والذم: قال: مذ عرفت الناس لم أفرح بمدحهم ولم أكره ذمهم؛ لأن حامدهم مفرط، وذامهم مفرط، إذا تعلم العالم العلم للعمل كسره، وإذا تعلمه لغير العمل زاده فخراً[(٢)].

ـ حزن القلب: قال: إذا لم يكن في القلب حزن خرب. وقال: من تباعد من زهرة الدنيا، فذاك الغالب هواه[(٣)].

ـ جاء يسرق فسرقناه: قيل: دخل عليه لص، فما وجد ما يأخذ، فناداه مالك: لم تجد شيئاً من الدنيا؛ فترغب في شيء من الآخرة؟ قال: نعم. قال: توضأ، وصل ركعتين، ففعل ثم جلس وخرج إلى المسجد، فسأل: من ذا؟ قال: جاء ليسرق فسرقناه[(٤)].

ـ أطيب شيء من الدنيا معرفة الله: قال: خرج أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها، قيل: وما هو؟ قال: معرفة الله.

ـ محبة أنس بن مالك له: قال مالك بن دينار: أتينا أنساً أنا وثابت ويزيد الرقاشي، فنظر إلينا فقال: ما أشبهكم بأصحاب محمد ﷺ، لأنتم أحب إلي من عدة ولدي إلا أن يكون في الفضل مثلكم، إني لأدعو لكم في الأسحار[(٥)].

ـ مصدر كسبه: كان ينسخ المصحف في أربعة أشهر، فيدع أجرته عند البقال فيأكله، وكان أدم مالك بن دينار في كل سنة بفلسين ملح[(٦)].

ـ وفاته: توفي سنة ١٢٧ هـ، وقيل: ١٣٠ هـ[(٧)]. فمالك بن دينار من علماء أهل السنة، ولا ينظر لمن ألصق به آثاراً واهية نسبها إليه وزعم أنه خلط الروحية الإسلامية بعناصر غير

---

(١) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٦٢).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٦٣).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٦٤).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) المصدر السابق نفسه.

إسلامية وكتابية على وجه التخصيص[١]. بل الثابت من سيرته بأنه من أعلام السلوك ومن تلاميذ الحسن البصري ، وأنس بن مالك والأحنف بن قيس وسعيد بن جبير ، ومحمد بن سيرين ، والقاسم بن محمد[٢] وغيرهم من علماء أهل السنة.

جـ ـ محمد بن واسع :

الإمام الرباني ، القدوة[٣] ، ترجمت لـه في حديثي عن الفتوحات فـي عهد عبد الملك ، وكان من ضمن جيش قتيبة بن مسلم وقد قام مدة في خراسان[٤]. قال عنه مالك بن دينار: القراء ثلاثة: فقارئ للرحمن ، وقارئ للدنيا ، وقارئ للملوك ، ويا هؤلاء ! محمد بن واسع عندي من قراء الرحمن[٥] ، وكان الحسن البصري يسميه زين القراء[٦] ، ومن أقواله: إذا أقبل العبد بقلبه على الله أقبل الله بقلوب العباد عليه. وقال: يكفي من الدعاء مع الورع يسير[٧] العمل.

هؤلاء هم أشهر تلاميذ الحسن البصري في علم السلوك ، والذين كان لهم تأثير كبير في حياة الناس ، واليوم نحن في أشد الحاجة لإحياء هذا العلم الذي أصبح نادراً وتصدَّر له بَعْدُ المحسوبون على العلم من أصحاب العقائد الفاسدة والتصورات السقيمة والأفكار المنحرفة ، فالأمة في حاجة ماسة لمنهج تربوي سني تستلهم أصوله وفروعه من كتاب الله وسنة رسوله وهدي الصحابة الكرام ومن سار على نهجهم من العلماء الراسخين؛ لكي تقف أمام الهجمة المادية ، والطغيان الشهواني ، الذي يبث في وسائل الإعلام العالمية والإقليمية والقُطرية ، كما أن من عوامل نهوض الأمة كبح شهواتها ، وتطهير نفوسها من أمراضها وإحياء القلوب بالمعاني الرفيعة والأعمال القلبية ، كالرجاء والخوف والإخلاص والإنابة لله رب العالمين.

٤ ـ براءة الحسن البصري من الاعتزال:

يزعم المعتزلة أن الحسن البصري قال بالقدر على مذهبهم وأنه منهم ، فيروون عن داود بن أبي هند أنه قال: سمعت الحسن يقول: كل شيء بقضاء وقدر إلا المعاصي[٨]. ويوردون رسائل أرسلها إلى عبد الملك بن مروان وفيها قوله بالقدر على مذهب المعتزلة ، ويقولون: إن رسائله

---

(١) تاريخ التصوف الإسلامي ، (ص ٢٠٧).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ٣٦٢).
(٣) المصدر السابق نفسه (٦/ ١١٩).
(٤) تاريخ التصوف الإسلامي ، ص ٢١٧؛ الحلية (٢/ ٣٥٣).
(٥) الحلية (٢/ ٣٤٥)؛ تاريخ التصوف الإسلامي ، (ص ٢١٤).
(٦) تاريخ التصوف الإسلامي ، (ص ٢١٤).
(٧) سير أعلام النبلاء (٦/ ١٢١).
(٨) المنية والأمل ، لابن المرتضى ، (ص ١٢)؛ القضاء والقدر ، د. المحمود ، (ص ١٨٥).

مشهورة[١]. وقد تحمس الشيخ محمد أبو زهرة ليثبت أن الحسن البصري كان يقول بالقدر على مذهب المعتزلة[٢]، والرد على هذه الدعاوى الخالية من الحجج والبراهين والأدلة كالتالي:

أ ـ **أن المعتزلة أنفسهم لا يقطعون بنسبة الحسن إليهم**، ولذا نرى ابن المرتضى لما ذكر الحسن وقوله في القدر قال: (فإن قلت: فقد روى أيوب: أتيت الحسن، فكلمته في القدر فكف عن ذلك، قلت: فقد روى أنه خوفه بالسلطان فكف عن الخوض فيه)[٣]. وهل يخاف الحسن السلطان وهو الرجل الذي يجهر بالحق دائماً ؟!

ب ـ **أما بالنسبة للرسالة المنسوبة إليه فيقول عنها الشهرستاني**: ورأيت رسالة نسبت إلى الحسن البصري كتبها إلى عبد الملك بن مروان، وقد سأله بالقول بالقدر والجبر فأجابه فيها بما يوافق مذهب القدرية، واستدل فيها بآيات من القرآن الكريم ودلائل من العقل، ولعلها لواصل بن عطاء، فما كان الحسن ممن يخالف السلف في أن القدر خيره وشره من الله ـ تعالى ـ فإن هذه الكلمات المجمع عليها عندهم[٤]. وهذه الرسالة لم تصح نسبتها إلى الحسن، والمعتزلة ينسبون إلى الحسن أقوالاً بروايات منقطعة، فالمرتضى حين ذكر أهل العدل والتوحيد عد منهم الحسن البصري وترجم له ترجمة طويلة، ولما أراد أن يثبت أنه من أهل العدل قال: فمن تصريحه بالعدل، ما رواه علي بن الجعد قال: سمعت الحسن يقول: من زعم أن المعاصي من الله عز وجل جاء يوم القيامة مسوداً وجهه وقرأ: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠]. وعلي بن الجعد الذي يقول: سمعت الحسن؛ لم يسمع منه ولم يلقه[٥]، فهذه رواية منقطعة[٦].

جـ ـ **وابن قتيبة يذكر عن الحسن البصري أنه تكلم في شيء من القدر**، ثم رجع عنه، ولكنه يذكر بعد ذلك مباشرة أن عطاء بن يسار ومعبداً الجهني كانا يأتيان الحسن، فيسألانه ويقولان: يا أبا سعيد إن الملوك يسفكون دماء المسلمين، ويأخذون الأموال، ويفعلون ويفعلون، ويقولون: إنما تجري أعمالنا على قدر الله ! فقال: كذب أعداء الله[٧]، قال ابن قتيبة: فتعلق عليه بمثل هذا وأشباهه[٨].

---

(١) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس، (ص ١٨٦).
(٢) تاريخ الجدل، (ص ٣٢١ـ٣٢٢).
(٣) المنية والأمل، (ص ١٥).
(٤) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة، (ص ١٨٦).
(٥) المصدر السابق نفسه، (ص ١٨٧).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) المصدر السابق نفسه.

ويشبه هذا ما يروى عن الحسن: أنه قال ـ وهو محق في قوله ـ: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ إلى العرب وهم قدرية مجبرة يحملون ذنوبهم على الله ، ويقولون: إن الله سبحانه قد شاء ما نحن فيه وحملنا عليه وأمرنا به ، فقال عز وجل: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨][1]. فهل كلام الحسن ـ رحمه الله ـ في الروايتين دل على أنه قدري؟

إن الجواب على ذلك واضح بداهة لأنه يرد على الذين يحتجون بالقدر على كفرهم ومعاصيهم ، ولا شك أن هذا الاحتجاج باطل ، وكلام الحسن حق[2]. وقد أشار ابن تيمية إلى أنه قال: قد اتهم بمذهب القدر غير واحد ، ولم يكونوا قدرية ، بل كانوا لا يقبلون الاحتجاج على المعاصي بالقدر ، كما قيل للإمام أحمد: كان ابن أبي ذؤيب قدرياً ، فقال: الناس كل من شدد عليهم بالمعاصي قالوا: هذا قدري. وقد قيل: لهذا السبب نسب إلى الحسن القدر[3].

د ـ وهناك روايات تنفي هذا الزعم ، فعن عمر مولى غفرة قال: كان أهل القدر ينتحلون الحسن بن أبي الحسن ، وكان قوله مخالفاً لهم؛ كان يقول: يا بن آدم ، لا ترضِ أحداً بسخط الله ، ولا تطيعنّ أحداً في معصية الله ، ولا تحمدن أحداً على فضل الله ، ولا تلومن أحداً فيما لم يؤتك الله ، إن الله خلق الخلق والخلائق ، فمضوا على ما خلقهم عليه ، فمن كان يظن أنه مزداد بحرصه في رزقه فليزدد بحرصه في عمره ، أو يغير لونه ، أو يزيد في أركانه أو بنانه[4].

هـ ـ ومعلوم أن المعتزلة أجمعوا على أصولهم الخمسة ، والحسن البصري يعتبر القول بالمنزلة بين المنزلتين بدعة تخرج صاحبها عن عقيدة الجماعة ، ولذلك اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن لما خالفه في هذا الأصل ، فكيف مع هذا يعتبر الحسن من علمائهم المنتسبين إليهم[5]؟!.

و ـ وقد اشتهر عن بعض المعتزلة القدرية أنهم يكذبون على الحسن البصري ، فقد ذكر عبد الله بن أحمد في كتاب السنة عدة روايات تدل على ذلك ، فمن ذلك ما رواه عن حميد قال: قدم الحسن مكة فقال فقهاء مكة الحسن بن مسلم وعبد الله بن عبيد: لو كلمت الحسن فأخلانا يوماً. فكلمت الحسن فقلت: يا أبا سعيد إخوانك يحبون أن تجلس لهم يوماً ، قال: نعم ونعمة عين ، فواعدهم يوماً فجاؤوا فاجتمعوا ، وتكلم الحسن وما رأيته قبل ذلك اليوم ولا بعده أبلغ

---

(١) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس ، (ص ١٨٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) منهاج السنة (١/ ٣٦٢)؛ القضاء والقدر ، (ص ١٨٨).
(٤) الطبقات الكبرى ، لابن سعد (٧/ ١٧٥).
(٥) موقف المعتزلة من السنة النبوية ، (ص ٢٧).

منه ذلك اليوم ، فسألوه عن صحيفة طويلة ، فلم يخطئ فيها شيئاً إلا في مسألة ، فقال له رجل : يا أبا سعيد من خلق الشيطان؟ قال : سبحان الله ، سبحان الله ، وهل من خالق غير الله ، ثم قال : إن الله خلق الشيطان وخلق الشر والخير ، فقال رجل منهم : قاتلهم الله يكذبون على الشيخ[١] .

وقال حميد لمن نقل عن عمرو بن عبيد حديثاً رواه الحسن : لا تأخذ عن هذا؛ فإنه يكذب على الحسن[٢] . وروى عبد الله بن أحمد عن حماد بن زيد قال : قيل لأيوب : إن عمراً (أي عمرو بن عبيد) روى عن الحسن أنه قال : لا يجلد السكران من النبيذ ، قال : كذب ، أنا سمعت الحسن يقول : يجلد السكران من النبيذ[٣] .

فهذه الروايات وغيرها ، تدل على أن دعوى أن الحسن البصري ـ رحمه الله ـ كان قدرياً أو كان يقول بقولهم ليست صحيحة[٤] . وإنما غرض المعتزلة هو التشرف بانتسابه إليهم ، وإلا فكيف عدّوه منهم[٥] ؟! والمعتزلة ذكروا مع الحسن غيره ، بل وعدّوا من الطبقة الأولى من طبقاتهم الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة[٦] . وواضح أن إدراج هؤلاء ضمن المعتزلة إنما قصد به بيان أن المعتزلة هي أتقى الفرق وأبرها[٧] . ومعلوم لدى طلاب العلم وعموم المسلمين أن الخلفاء الراشدين والصحابة الكرام براء من تهمة الاعتزال ، وإنما هم سادة علماء أهل السنة والجماعة الذين ساروا على منهاج النبوة . .

٥ ـ الإمام العادل في نظر الحسن البصري :

عندما جاء عمر بن عبد العزيز للخلافة نجد الحسن البصري قريباً من الخليفة الجديد يتعهده بالوعظ والإرشاد ، ويرسم له منهاجاً للإمام العادل ، وهذا دور إيجابي من الحسن ـ رحمه الله ـ يبين العمل المطلوب من العالم الرباني الذي يسعى لمساعدة المصلحين من أصحاب القرار لنصرة الإسلام ، وهذا يدلنا على تكامل شخصية الحسن الإسلامية فقد شارك في الجهاد والتعليم والتربية ، وكان رائد مدرسة الإصلاح الاجتماعي بين الناس في حياتهم ، واهتم بأمراض القلوب ، وعلاجها ، وكانت له مواقفه السياسية من الثورات ، ومن الحكام الظالمين ، وهنا تتجلى شخصيته السياسية أكثر في قربه من عمر بن عبد العزيز وشد أزره والوقوف بجانبه

---

(١) السنة ، لعبد الله بن الإمام أحمد (٢/ ١٢٦) .
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٣١) .
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٣٢) .
(٤) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ، (ص ١٨٩) .
(٥) المصدر السابق نفسه .
(٦) المصدر السابق نفسه .
(٧) مذاهب الإسلاميين ، عبد الرحمن بدوي (١/ ٤٠) .

والتنظير لمعالم الإصلاح والتجديد الراشدي الذي قاده عمر بن عبد العزيز ، فقد جاء في رسالته التي كتبها إلى عمر بن عبد العزيز: اعلم يا أمير المؤمنين: أن الله جعل الإمام العادل قوَّام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل مفسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصفة[١] كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعي الشفيق على إبله ، الرفيق الذي يرتاد لها أطيب المرعى ويزودها عن مراتع الهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر[٢].

والإمام العادل ، يا أمير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صغيراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ، ويدخر لهم بعد مماته. والإمام العادل ، يا أمير المؤمنين ، كالأم الشفيقة البرة الرفيقة بولدها: حملته كرهاً ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً تسهر بسهره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتفطمه أخرى ، وتفرح بعافيته ، وتغتم بشكايته. والإمام العادل ، يا أمير المؤمنين وصي اليتامىٰ ، وخازن المساكين: يربي صغيرهم ، ويمون كبيرهم ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح: تصلح الجوانح بصلاحه وتفسد بفساده ، والإمام العادل ، يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويسمعهم ، وينظر إلى الله ويريهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تكن يا أمير المؤمنين ، فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدَّد المال وشرد العيال ، فأفقر أهله ، وفرق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها؟! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص لهم؟!

واذكر ، يا أمير المؤمنين ، الموت وما بعده وقلة أشياعك عنده ، وأنصارك عليه: فتزود له ولما بعده من الفزع الأكبر ، واعلم يا أمير المؤمنين ، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثواؤك ، ويفارقك أحباؤك ، ويُسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ، واذكر ، يا أمير المؤمنين ، إذا بعثر ما في القبور ، وحُصل ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن ، يا أمير المؤمنين ، وأنت في مهل قبل حلول الأجل ، وانقطاع الأمل.

لا تحكم ، يا أمير المؤمنين ، في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاً[٣] ،

---

(١) النصفة: اسم من الإنصاف.
(٢) القر: البرد.
(٣) الإل: العهد.

ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك ، وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغُرنَّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيّباتك في آخرتك. لا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين وقد عنت الوجوه للحي القيوم.

إني يا أمير ، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النهى من قبلي ، فلم آلك[1] شفقة ونصحاً ، فأنزل كتابي إليك كمداوٍ حبيبه يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له من ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته[2].

والمعاني الرئيسة في هذه الرسالة:

أ ـ أن أهم صفة في الإمام هي العدل ، ولكنه عدل ممزوج بالرحمة الأبوية.

ب ـ وأن أولى الناس باتباع حدود الله هو الإمام ، لأنه إن لم يتبعها ، فأجدر بالرعية ألا يتبعوها.

جـ ـ وأن الإمام هو المنفذ للقصاص ، فلا يحق له أن يقتل أحداً بغير حق. إن في القصاص حياة ، فكيف يقضي على الحياة من وُكل إليه أمر توفير الحياة؟.

د ـ أن صلاح الرعية بصلاح الإمام وفسادها بفساده ، فمسؤوليته عن أفعاله هي في الوقت نفسه مسؤوليته عن أفعال كل رعيته ، فما أعظم مسؤوليته إذاً!.

هـ ـ وتظهر هذه المسؤولية خصوصاً في تعيين الولاة ، فما يرتكبه ولاة الإمام وعُمّاله الإمام هو أول مسؤول عنها ، ولهذا يجب على الإمام ألا يسلط المستكبرين على المستضعفين ، لأن المستكبرين لا يرعون الحرمات ولا يراقبون الله في أعمالهم وأحكامهم، فإذا عيّن الإمام واحداً من هؤلاء ، فقد تحمل مع أوزاره الخاصة أوزارهم[3].

٦ ـ الحسن البصري يصف الدنيا لعمر بن عبد العزيز:

كتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز واصفاً له الدنيا:

أما بعد: يا أمير المؤمنين! فإن الدنيا دار ظعن وانتقال ، وليست بدار إقامة على حال ، وإنما

---

(١) أي: لم أقصر.
(٢) الحسن البصري ، لابن الجوزي ، (ص ٥٦)؛ العقد الفريد ، لابن عبد ربه (١/ ١٢)؛ تاريخ التصوف الإسلامي ، (ص ١٧٩).
(٣) تاريخ التصوف الإسلامي ، (ص ١٨٠).

أنزل إليها آدم عقوبة فاحذرها ، فإن الراغب فيها تارك ، والغني فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختبرها اللبيب الحاذق وجدها تذل من أعزها ، وتفرق من جمعها ، فهي كالسم يأكله من لا يعرفه ويرغب فيه من يجهله ، وفيه والله حتفه ، فكن فيها يا أمير المؤمنين كالمداوي جراحه يحتمي قليلاً ، مخافة ما يكره طويلاً ، الصبر على لأوائها أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذرها ، ولم يغتر بزينتها ، فإنها غدارة ختالة خداعة ، قد تعرضت بآمالها وتزينت لخطَّابها ، فهي كالعروس العيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، وهي والذي بعث محمداً بالحق لأزواجها قاتلة ، فاتق يا أمير المؤمنين صرعتها ، واحذر عثرتها ، فالرخاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مؤد إلى الهلكة والفناء ، واعلم يا أمير المؤمنين أن أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موفق ، والمتمسك بها هالك غرق ، والفطن اللبيب من خاف ما خوفه الله ، وحذر ما حذره ، وفرَّ من دار الفناء إلى دار البقاء ، فعند الموت يأتيه اليقين ، الدنيا يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لها يجمع من لا عقل له ، وبها يغتر من لا علم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالمداوي جراحه ، يصبر على مرارة الدواء ، لما يرجو من العافية ، ويخاف من سوء عاقبة الدار ، والدنيا ـ وايم الله ، يا أمير المؤمنين ـ حلم ، والآخرة يقظة ، والمتوسط بينهما الموت ، والعباد في أضغاث أحلام ، وإني قائل لك يا أمير المؤمنين ما قال الحكيم:

فـــإنْ تنـــجُ مـــن ذي عظيمـــةٍ وإلا فـــإنِّـــي لا إخـــالـــكَ نـــاجيـــا

ولما وصل كتابه إلى عمر بن عبد العزيز بكى وانتحب حتى رحمه من كان عنده ، وقال: يرحم الله الحسن؛ فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة ، وينبهنا من الغفلة ، ولله دره من مشفق ما أنصحه ، وواعظ ما أصدقه وأفصحه.

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز: وصلت مواعظك النافعة فاستشفيت بها ، ولقد وصفت الدنيا بصفتها ، والعاقل من كان فيها على وجل ، فكأن كل من كتب عليه الموت من أهلها قد مات ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فلما وصل كتابه إلى الحسن قال: لله درّ أمير المؤمنين من قائلٍ حق وقابلٍ وعظ ، لقد أعظم الله جل ثناؤه بولايته المنة ، ورحم بسلطانه الأمة ، وجعله بركة ورحمة[١]. وكتب إليه: أما بعد: فإن الهول الأعظم ، والأمر المطلوب أمامك ، ولابد من مشاهدتك ذلك ، إما بنجاة أو بعطب[٢].

---

(١) الزهد ، للحسن البصري ، (ص ١٦٩).
(٢) المصدر السابق نفسه.

٧ ـ موقفه من الثورات التي حدثت في عهده:

كان يرى أن تغيير الفساد لا يكون بالسيف، وإنما يكون بالتوبة والرجوع إلى الله والنصح لأصحاب الأمور وقد قال: وما أعجب أمر من يحاول أن يغير بالسيف، فإن التغيير لا يكون إلا بالتوبة[(١)]، وقد قال رسول الله ﷺ في وجوب الصبر على ما تكرهه منهم: «من رأى من أمير شيئاً يكرهه فليصبر، فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية»[(٢)].

ويرى بعد فقهه لهذا الحديث وأمثاله أن تسلط الحكام عقوبة من الله تعالى تحتاج لصبر، ويقول: لو أن الناس إذا ابتلوا من قِبل سلطانهم صبروا ما لبثوا أن يُفرج عنهم، ولكنهم يجزعون إلى السيف فيوكلون إليه، فوالله ما جاؤوا بيوم خير قطّ[(٣)].

وكان موقفه من ثورة ابن الأشعث كما مر معنا، وكان يرى أن ولاة الأمور طالما أنهم يقيمون الجمعة والجماعة والفيء، والثغور[(٤)] والحدود، فلا يجوز الخروج عليهم[(٥)].

وقد علق المودودي على منهج الحسن البصري في التعامل مع الثورات بأنه كان يشك بجدواها[(٦)].

وكان موقفه من ثورة يزيد بن المهلب: أنه ينظر إليها بقلق شديد، خصوصاً وأن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز كان قد حبس يزيد بن المهلب لفساده، ولأنه إن تولى أموال المسلمين[(٧)] فسينفقها في ملذاته، ويرى الحسن أن غضبة ابن المهلب غضبة لنفسه ومطامعه، فيذهب الحسن إلى حيث اجتمع الناس في الجامع يتوكأ على عاتق معاذ بن سعد، وهو يقول له: انظر هل ترى رجلاً نعرفه؟ وسر الحسن عندما لم ير في المجموع رجلاً من أصحابه[(٨)].

وتزداد جرأة الحسن وصدعه بالحق، ويتقدم من المنبر ويزيد يخطب. وقال بصوت مرتفع يخاطب ابن المهلب: والله لقد رأيناك والياً ومولى عليك، فما ينبغي لك ذلك. ويقف موقفاً أشد جرأة من سابقه؛ فقد خرج على الناس وقد نصبوا الرايات، واصطفوا صفين، وهم ينتظرون خروج يزيد بن المهلب، ويقولون: يدعونا لسنة العمرين، فقال الحسن: إنما كان يزيد

---

(١) الطبقات الكبرى (٧/ ١٢٥، ١٣١).
(٢) البخاري، رقم (٦٧٢٤)، مسلم، رقم (١٨٤٩).
(٣) شذرات الذهب (١/ ١٣٧)؛ حياة الحسن البصري، د. روضة، (ص ١٩١).
(٤) حياة الحسن البصري، روضة الحصري، (ص ١٩٤).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) الخلافة والملك، للمودودي، (ص ١٤٩).
(٧) حياة الحسن البصري، للحصري، (ص ١٩٦).
(٨) تاريخ الطبري (٧/ ٤٩١).

بالأمس يضرب أعناق هؤلاء الذين ترون ، ثم يسرح بهم إلى بني مروان يريد بهلاك هؤلاء رضاهم ، فلما غضب غضبة نصب قصباً ، ثم وضع عليها خرقاً ثم قال: إني قد خالفتهم فخالفوهم ، وقال: أدعوكم إلى سنة العمرين ، وإن من سنة العمرين أن يوضع قيد في رجله ثم يرد إلى السجن ويوضع في جبة[(١)] .

وتزداد مواعظ الحسن وكراهيته للثورة ، فيخطب الناس ويقول: أيها الناس ، الزموا رحالكم وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير ، ليس لأهلها بباقٍ ، وليس عنهم فيما اكتسبوا براضٍ ، إنه لم يكن إلا كان أكثر أهلها الخطباء ، والسفراء والسفهاء ، وأهل التيه والخيلاء ، وليس يسلم منها إلا المجهول الخفي ، والمعروف التقي[(٢)] .

وعلى أثر هذه الخطبة ، يهدد مروان بن المهلب خليفة يزيد في الثورة ، فيقول: لقد بلغني أن هذا الشيخ الضال المرائي يثبط الناس ، والله لو أن جاره نزع من خص داره قصبة لظل يرعف أنفه ، والله ليكُفنّ عن ذكرنا وعن وجهه علينا سقاط الأبلة[(٣)] ، وعلوج فرات البصرة ، أو لأنخين عليه مبرداً خشناً[(٤)] . ووقف الناس مع الحسن وقالوا له: لو أرادوك ثم شئت لمنعناك ، فأجابهم بقوله: فقد خالفتكم إذاً إلى ما نهيتكم عنه ، آمركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غيري ، وأدعوكم إلى أن لا يقتل بعضكم بعضاً دوني[(٥)]؟!

هذا هو موقف الحسن من كل فتنة يسعى لجمع شمل المؤمنين وينهى عن كل فرقة بينهم[(٦)] ، وعن سلم بن أبي الذّيّال قال: سأل رجل الحسن وهو يسمع وأناس من أهل الشام ، فقال: يا أبا سعيد ما تقول في الفتن مثل يزيد بن المهلب وابن الأشعث؟ فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء ، فقال رجل من أهل الشام: ولا مع أمير المؤمنين يا أبا سعيد ؟ قال: نعم ولا مع أمير المؤمنين[(٧)] .

وقد سلك الحسن منهج السلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم يؤيد الثورة المسلحة لأسباب:

---

(١) وفيات الأعيان (٣/ ٢٨٠)؛ حياة الحسن البصري ، (ص ١٩٧).
(٢) تاريخ الطبري (٧/ ٤٩٨).
(٣) أبلته: بضمتين مشددة: أصحابه وقبيلته.
(٤) تاريخ الطبري (٧/ ٤٩٨).
(٥) المصدر السابق نفسه (٧/ ٤٩٩).
(٦) حياة الحسن البصري ، للحصري ، (ص ١٩٨).
(٧) الطبقات الكبرى (٧/ ١٢١)؛ حياة الحسن ، (ص ١٩٨).

أ ـ أن الدعوة إلى الخروج عليهم يتبعها فوضى في الأمور ، واضطراب الأمن وفساد الأحوال ، وفوضى ساعة يرتكب فيها المظالم ما لا يرتكب في استبداد السنين .

ب ـ رأى أن كثرة الخروج على الولاة يضعف الدولة الإسلامية ، ويجعل بأس المسلمين بينهم شديداً ، فيكلب فيهم عدوهم ، ويخرب عليهم حقوقهم .

جـ ـ ولأنه رأى أن الدماء تراق في الخروج بدون حق يقام ، ومظلمة تدفع ، والناس يخرجون من يد ظالم إلى أظلم .

د ـ وجد أن الطريق المعبّد لإصلاح هذا الأمر : إصلاح فساد المحكومين إذا تعذر عليه إصلاح فساد الحاكم ، رأى أن الفساد عمّ الاثنين وتغلغل في الفريقين ، فاعتقد أن الحكام لون من ألوان الشعب ، ومظهر لحاله ، فلن يتغيروا ما لم يتغير الشعب ، والملازمة ثابتة بينهما[١] .

٨ ـ كيف يضل قوم هذا فيهم؟! :

قال خالد بن صفوان : لقيت مسلمة بن عبد الملك ، فقال : يا خالد ، أخبرني عن حسن أهل البصرة؟ قلت : أصلحك الله ، أُخبرك عنه بعلم ، أنا جاره إلى جانبه وجليسه في مجلسه وأعلم من قبلي به : أشبه الناس سريرة بعلانية ، وأشبهه قولاً بفعل ، إن قعد على أمر قام به ، وإن قام على أمر قعد عليه ، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به ، وإن نهى عن شيء كان أشرك الناس له ، رأيته مستغنياً عن الناس ، ورأيت الناس محتاجين إليه ، قال : حسبك ، كيف يضل قوم هذا فيهم[٢] ؟! .

ومن أقوال الحسن البصري : ما رواه هشام بن حسّان : سمعت الحسن يحلف بالله ، ما أعز أحد الدرهم إلا أذلهُ الله[٣] ، وقال : بئس الرفيقان ، الدينار والدرهم ، لا ينفعانك حتى يُفارقاك[٤] .

٩ ـ وفاة الحسن البصري :

مرض الحسن البصري مرض الموت وابنه إلى جانبه يمرضه ويعنى به وهو على سريره يسترجع ويكثر من الاسترجاع ، فيقول له ابنه : أمثلك يسترجع على الدنيا؟ فيجيبه بقوله : يا بني ! لا أسترجع إلا على نفسي التي لم أصب بمثلها[٥] .

---

(١) تاريخ الجدل ، ص ٣٢٤ .
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٧٦) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه .
(٥) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٧) .

وعن أبان بن محبر عن الحسن أنه لما حضره الموت دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد! زودنا منك كلمات تنفعنا بهن. قال: إني مزودكم ثلاث كلمات: ثم قوموا عني ودعوني ولما توجهت له، ما نهيتم عنه من أمر، فكونوا من أترك الناس له، وما أمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به، واعلموا أن خطاكم خطوتان: خطوة لكم وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون وأين تروحون[(١)]. وقبل أن يسلم الحسن روحه أغمي عليه ثم أفاق إفاقة فقال: لقد نبهتموني من جنان وعيون ومقام كريم[(٢)].

وفي ليلة الجمعة وفي مستهل رجب سنة عشر ومئة[(٣)]، أسلم الروح إلى بارئها، وعاش نحواً من ثمانٍ وثمانين سنة. كما قال ابنه عبد الله[(٤)]، وقبيل وفاته قال رجل لابن سيرين: رأيت كأن طائراً أخذ أحسن حصاة في المسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن[(٥)]. وقام بتغسيله تلميذاه: أيوب السختياني، وحميد الطويل، وصلى عليه عقيب الجمعة النضر بن عمر المقري[(٦)].

قال حميد الطويل: توفي الحسن عشية الخميس وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره وحملناه بعد صلاة الجمعة ودفناه، فتبع الناس كلهم جنازته، واشتغلوا به، فلم تقم صلاة العصر بالجامع، ولا أعلم أنها تركت منذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأنهم تبعوا كلهم الجنازة، حتى لم يبق بالمسجد من يصل العصر[(٧)].

رحم الله الحسن البصري النموذج الرفيع لورثة الأنبياء والعلماء الربانيين، فقد كان من الرجال العظماء، قلما تجد له مثيلاً زهداً، وورعاً، وعلماً، وحكماً، وشجاعة، وأدباً[(٨)]، وكان من العلماء الذين نشطوا في دولة الفقهاء التي قادها عمر بن عبد العزيز، ولم يبخل بوقت ولا نصيحة ولا موعظة ولا توجيه ولا إرشاد.

سابعاً: عمر والفتوح ورفع الحصار عن القسطنطينية:

عندما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كان من أول أعماله إيقاف التوسع في المناطق النائية

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٥٤).
(٢) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٧).
(٣) تذكرة الحفاظ، (ص ٧٢)؛ حياة الحسن البصري، (ص ٢٠٢).
(٤) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٧).
(٥) وفيات الأعيان (٢/ ٧٢)؛ الطبقات الكبرى (٧/ ١٢٩).
(٦) تاريخ الذهبي؛ نقلاً عن حياة الحسن البصري، د. روضة، (ص ٢٠٢).
(٧) سير أعلام النبلاء (٤/ ٥٨٧).
(٨) حياة الحسن البصري، (ص ٥٠٣).

في أطراف الدولة ، ومحاولة سحب القوات الإسلامية من مناطق القتال ، وأول أعماله في هذا المضمار كان في القوات التي عُني الخليفة سليمان بحشدها وإنفاذها بقيادة أخيه مسلمة لفتح القسطنطينية ، وظلت تحاصرها مدة سنتين لاقت فيها مصاعب كثيرة دون أن تفلح في تحقيق هدفها ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة: كتب بقفل مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ، وقد كان سليمان أغزاه إياها برّاً وبحراً. فاشتد عليهم المقام وجاعوا حتى أكلوا الدواب من الجهد والجوع ، حتى يتنحى الرجل عن دابته فتقطع بالسوق. . ولجّ سليمان في أمرهم ، فكان ذلك يغم عمر ، فلما ولي ، رأى أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل شيء من أمور المسلمين ثم يؤخر فعله ساعة ، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب[(١)].

وقد وجه عمر بن عبد العزيز إلى مسلمة وهو بأرض الروم يأمره بالقفول منها بمن معه من المسلمين ، فوجه إليهم خيلاً عتاقاً وطعاماً كثيراً وحث الناس على معونتهم ، فكان الذي وجه إليه الخيل العتاق فيما قيل: خمسمئة رأس[(٢)]. ويروي خليفة: أنه في سنة ٩٩ هـ حمل عمر بن عبد العزيز الطعام والدواب إلى مسلمة بن عبد الملك إلى بلاد الروم ، وأمر من كان له هناك حميم أن يبعث إليه ، وبعث معه بعثاً فأغاث الناس ، وأذن لهم بالقفول[(٣)].

وفي الأندلس ولّى عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني ، وعهد إليه: بإخلاء الأندلس من جند الإسلام إشفاقاً عليهم ، إذ خشي تغلب العدو عليهم. . لانقطاعهم من وراء البحر من المسلمين[(٤)]. غير أن السمح لم ير الانسحاب الكامل من الأندلس ، وكتب إلى الخليفة يقول: إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فاضرب عن ذلك ، وأزال الأندلس عن عمالة إفريقية[(٥)].

وفي المشرق ، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الرحمن والي خراسان يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم ، فأبوا وقالوا: لا يسعنا مرو (قاعدة خراسان). فكتب إلى عمر بذلك ، فكتب إليه عمر ، اللهم إني قد قضيت الذي عليّ فلا تغزُ بالمسلمين ، فحسبهم الذي فتح الله عليهم[(٦)]. ويقتصر خليفة بن خياط على القول بأن عمر بن عبد العزيز كتب إلى

---

(١) ابن عبد الحكم ، (ص ٣٢).
(٢) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، للعلي ، (ص ١٤٠).
(٣) تاريخ خليفة ، (ص ٣٢٦)؛ تاريخ الإسلام ، للذهبي؛ نقلاً عن العلي ، (ص ١٤٠).
(٤) تاريخ افتتاح الأندلس ، لابن القوطية ، (ص ١٢ ـ ١٣).
(٥) فجر الأندلس ، لحسين مؤنس ، (ص ١٣٦ ـ ١٣٧)؛ عمر بن عبد العزيز ، صالح العلي، (ص ١٤٠).
(٦) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، للعلي ، (ص ١٤١).

الجراح بن عبد الله الحكمي: «لا تغزُ، وتمسكوا بما في أيديكم»[١].

وفي جبهة بلاد السند: كتب عمر بن عبد العزيز إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم، ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه، فأسلم جيشبة بن داهر، والملوك، وتسموا بأسماء العرب، وكان عمرو بن مسلم الباهلي عامل عمر على ذلك الثغر[٢].

إن إيقاف عمر بن عبد العزيز التوسع القائم على استخدام المُقاتلة في الأطراف النائية للدولة، وعمله على إحلال الحوار السلمي في إخماد الحركات المسلحة للمعارضة، لا يعني أنه أراد إلغاء المؤسسة العسكرية التي تمتد جذورها إلى زمن الرسول ﷺ، وكان لها الدور الأكبر في حماية الدولة وتوسيعها وتثبيت الأمن والاستقرار فيها، والواقع أن التنظيمات المتصلة بالمُقاتِلة كانت تمسُّ صميم الحياة المدنية، ولا غنى لأي دولة عن مؤسسة الجيش في حفظ حدودها والمخاطر التي قد تتعرض لها، لذلك كان لابد من إبقاء الجند والمؤسسات المتصلة به، فظلت الأمصار، وهي مراكز إقامة المقاتلة العرب، قائمة دون أن يلغيها، أو يبدلها، أو يدخل تعديلات في تنظيماتها السكانية والإدارية، وقضت الأحوال أن يتابع خلال مدة خلافته القصيرة، استمرار الحركات العسكرية المحدودة النطاق في عدد من الجبهات.

ففي أذربيجان أغار الترك على المسلمين: فقتلوا من المسلمين جماعة ونالوا منهم، فَوَجَّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي، فقتل أولئك الترك، فلم يفلت منهم إلا اليسير، فقدم منهم على عمر بخناصرة خمسون أسيراً[٣].

وفي سنة ١٠٠ هـ أغارت الروم في البحر على ساحل اللاذقية، فهدموا مدينتها وسَبَوْا أهلها، فأمر ببنائها وتحصينها[٤].

وفي ١٠١ هـ: أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي، وعمرو بن قيس الكندي من أهل حمص، الصائفة[٥]. وأمر بترحيل أهل طرندة[٦] وهم كارهون، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو[٧]. وأراد أن يهدم المصيصة لتعرُّضها لغارات الروم، ثم أمسك عن

---

(١) تاريخ خليفة، (ص ٣٢٦)؛ وعمر بن عبد العزيز، للعلي، (ص ١٤١).
(٢) فتوح البلدان، (ص ٤٢).
(٣) تاريخ خليفة، (ص ٣٢٦)؛ عمر بن عبد العزيز، للعلي، (ص ١٤٢).
(٤) فتوح البلدان، (ص ٢٠).
(٥) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، للعلي، (ص ١٤٢).
(٦) طرندة: من الأماكن القريبة من الدولة الرومانية.
(٧) فتوح البلدان، (ص ٢٢٠).

ذلك وبنى لأهلها مسجداً جامعاً من ناحية كفريا واتخذ فيه صهريجاً وكان اسمه عليه مكتوباً[١]. وجعلها مركزاً متقدماً لدرء الخطر عن إنطاكية من غزوات الروم المتكررة[٢].

ورغم أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان قد حد من النشاط العسكري مع الروم، وسحب الجيش الذي كان يحاصر القسطنطينية وبعض الحصون المتقدمة في بلاد الروم، إلا أنه كان حازماً شديداً في أخذ الحق والدفاع عنه، وهذا ما تشير إليه رواية ابن عبد الحكم، حيث يذكر أنه عندما أرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز رسولاً إلى ملك الروم، وقص عليه قصة رجل أسير في بلد الروم ـ وقد مرت معنا ـ أجبر على ترك الإسلام واعتناق النصرانية، قائلين له: إن لم تفعل سملت عينك، فاختار دينه على بصره، فسملت عيناه، فأرسل الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ملك الروم وقال له: أقسم بالله، لئن لم ترسله إلي لأبعثن إليك من الجنود جنوداً يكون أولهم عندك وآخرهم عندي[٣]، فاستجاب ملك الروم لطلبه، وبعث بالرجل إليه[٤].

وكانت سياسة عمر بن عبد العزيز المرحلية تقوم على ضبط الثغور وحدود الدولة الإسلامية والاهتمام بفتح العقول، وإحياء القلوب وتطهير النفوس للشعوب الجديدة التي دخلت في الإسلام، ولذلك بدأ يرسل سرايا الدعاة والعلماء للبدو القاطنين داخل الدولة الإسلامية وللشعوب التي كانت في أشد حاجة لتعاليم الإسلام.

ثامناً: الاهتمام بالدعوة الشاملة:

ركز عمر جهوده بالبناء الداخلي للدولة لترسيخ وحدتها وأمنها ونشر العلم وتوصيله لكل أفراد الأمة ما أمكن لذلك سبيلاً، كما اهتم بنشر العدل بين الرعية وإزاحة الضغائن والأحقاد من بين المسلمين، وقد استهدف عمر بن العزيز قلوب الناس وعقولهم ونفوسهم بتعاليم الإسلام ووضع مشروعاً كبيراً لتحقيق ذلك الهدف العظيم، ولم يكن عمر بالإنسان الذي تستهويه المشاريع الكبرى، فيقف عند حدود الخيال لا يتعداه، بل حول مشروعه إلى برنامج عملي قابلاً للتطبيق، بعدما مهد الظروف، وأحاط برامجه بالضمانات العملية، وهيَّأ له الأسباب، مما جعله يحيله إلى واقع مشهود، وقد ساعده على نجاح مشروعه الدعوي التربوي العلمي أمور؛ منها:

١ ـ وضع قانون التفرغ للدعاة:

حيث ألزم الدولة بكفالة عدد من العلماء والدعاة والمفكرين، كي تتيح لهم التفرغ الكامل

---

(١) المصدر السابق نفسه، (ص ١٦٣).
(٢) العلاقات العربية البيزنطية، (ص ١١٩).
(٣) المصدر السابق نفسه، (ص ١٣١).
(٤) المصدر السابق نفسه.

لإنجاز مشاريع فكرية دعوية التي يعكفون عليها باختيار أو بتوجيه من الدولة ، فأجرى الأرزاق على العلماء ، ورتّب لهم الرواتب ليتفرغوا لنشر العلم ويكفوا مؤونة الاكتساب[١] ، فقارئ القرآن الذي حفظه وقام يقرئه للناس ويعلمهم أحكامه ، والمحدث الذي يعقد مجالس الإملاء وينشر الحديث النبوي ، والفقيه الذي ينظر في الكتب ويستنبط منها ويعلم الناس أمور دينهم ليعبدوا الله على بصيرة ، والطالب الذي يتفرغ للعلم أو البحث والدرس ، كل أولئك قد يشغلهم أمر ذويهم وأبنائهم وسدّ حاجتهم وتدبير أمور معاشهم ، فقام عمر بقطع هذا الهاجس عنهم ، وكفل لهم ولمن يعولون ما يعيشون به حياة كريمة ، تتكفل به الدولة ، ويؤخذ من بيت المال ، ونعمّا ما فعل رضي الله عنه ، فبذلك شجع كل من وجد في نفسه الإمكانية لنشر العلم وخدمة الدين والأمة[٢] .

وكان يمنح من بيت المال مبلغاً قدره مئة دينار لكل من انقطع إلى مسجد جامع في أي بلد إسلامي ، لغرض التفقه ونشر العلم ، وتدريس القرآن وتلاوته[٣] . وعن أبي بكر بن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: مُرْ لأهل الصلاح من بيت المال بما يُغنيهم لئلا يشغلهم شيء عن تلاوة القرآن وما حملوا من الأحاديث[٤] . وعن أبي مريم قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: انظروا إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه ، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا ، فأعطِ كل رجل منهم مئة دينار ، يستعينون بها على ما هم عليه ، من بيت مال المسلمين ، حين يأتيك كتابي هذا ، وإن خير الخير أعجله . والسلام عليك[٥] .

وفرض الرزق لمن يحدث الناس بمغازي رسول الله ﷺ ومناقب أصحابه ، وللقصّاص والواعظين كذلك ، وذكر ابن شبة أن عمر بن عبد العزيز أمر رجلاً ـ وهو بالمدينة ـ أن يقص على الناس ، وجعل له دينارين كل شهر ، فلما قدم هشام بن عبد الملك جعل له ستة دنانير كل سنة[٦] .

ومما جاء في كتبه بشأن إجراء الرزق على طلبة العلم لينقطعوا عن الشواغل ، ما ذكره ابن

---

(١) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، (ص ١٨٤).
(٢) عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، (ص ٧٢).
(٣) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر ، (ص ١٨٤).
(٤) أصول الحديث ، (ص ١٧٨)؛ عمر بن عبد العزيز لعبد الستار الشيخ (ص ٧٢).
(٥) البداية والنهاية؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، لعبد الستار الشيخ ، (ص٧٢).
(٦) أخبار المدينة؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز ، لعبد الستار الشيخ ، (ص٧٣).

عبد البر عن يحيىٰ بن أبي كثير قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن أجْرُوا على طلبة العلم الرزق، وفرّغوهم للطلب[(١)].

٢ ـ حض العلماء على نشر العلم وعلانيته:

واتخاذ المساجد مراكز لتعليم الناس أمور دينهم، وإقراء طلبة العلم وإسماعهم، وإملاء الحديث النبوي، وإحياء السنة[(٢)]. قال عكرمة بن عمار وهو من أهل اليمن: سمعت كتاب عمر بن عبد العزيز يقول: أما بعد: فَأْمُر أهل العلم أن ينشروا العلم في مساجدهم، فإن السنة كانت قد أميتت[(٣)]. وأسند ابن عبد البر عن جعفر بن برقان الرَّقي ـ نسبة إلى الرقة شمال شرقي سورية ـ قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: أما بعد فَمُرْ أهل الفقه والعلم من عندك، فلينشروا ما علمهم الله في مجالسهم، ومساجدهم[(٤)].

٣ ـ توجيه الأمة إلى أهميـة العلم:

وفي ذلك يقول: إن استطعت فكن عالماً، فإن لم تستطع فكن متعلماً، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تبغضهم. ثم قال: لقد جعل الله له مخرجاً إن قبل[(٥)].

٤ ـ إرسال العلماء الربانيين إلىٰ شمال إفريقية:

كان عمر بن عبد العزيز يرسل العلماء إلى الأمصار، بل البوادي ليعلّموا أهلها شرع الله، ويفقهوهم فيه، فقد بعث يزيد بن أبي مالك والحارث بن محمد إلى البادية ليعلما الناس السنة، وأجرى عليهم الرزق، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث، وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً. فذكر ذلك لعمر فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر الله فينا مثل الحارث[(٦)]. وقد عبر عمر بهذا الجواب عما يجب أن يتحلى به الحاكم المسلم من مرونة فكرية، وعدم جمود على الأشكال، حيث أعلن أن أخذ الأموال لقاء الخدمات العلمية أمر لا بأس به، وسأل الله ـ من جهة أخرى ـ أن يكثر أولئك الذين يقومون بهذه الخدمات دون أجر إلا أجر الله[(٧)].

---

(١) جامع بيان العلم (١/ ٢٢٨)؛ عمر بن عبد العزيز، عبد الستار الشيخ، (ص ٧٣).
(٢) عمر بن عبد العزيز، لعبد الستار، (ص ٧٣).
(٣) أصول الحديث، (ص ١٧٨)؛ عمر بن العزيز، لعبد الستار الشيخ، (ص ٧٣).
(٤) جامع البيان العلم(١/ ١٤٩).
(٥) ابن عبد الحكم؛ نقلاً عن عمر بن عبد بن العزيز، للزحيلي، (ص ٧٤).
(٦) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ١٦٠)؛ ملامح الانقلاب، (ص ١٨٤).
(٧) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر، ص ١٨٤.

وقد بعث عمر إلى مصر الإمام المفتي الثبت ، عالم المدينة (نافعاً) مولى ابن عمر ، وراويته ، فعن ابن عبد الله بن عمر : بعث عمر بن عبد العزيز نافعاً مولى ابن عمر إلى أهل مصر يعلمهم السنن[١] ، وأرسل عشرة من فقهاء المدرسة المصرية من رجال التابعين إلى إفريقية ، ليفقهوا أهلها ويعلموهم ، وينشروا بينهم حديث رسول الله ﷺ ، لينالهم من الخير مثل الذي عمّ إخوانهم من أهل الحجاز والشام والعراق ، وكانت معاقل العلم[٢] ، وتطلع إلى شمال إفريقية ، ليغزو القلوب والعقول والنفوس بدين الله ، فأرسل العلماء الربانيين العشرة بعد أن وضع أهدافاً لخطته التعليمية في ذلك الإقليم ؛ منها :

أ ـ اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم .

ب ـ وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية ، ومحو الأمية في أوساط القبائل البربرية ، حتى يسهل عليها بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما .

جـ ـ الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذي هو حبل الله المتين ، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب ، وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده .

د ـ البلاغ الواضح البين لعقائد أهل السنة .

هـ ـ تعليم الناس الحلال والحرام[٣] .

ولقد بدأت بركات عهد عمر بن عبد العزيز على الشمال الإفريقي بتعيين أمير صالح عليه ، وبإرسال الفقهاء والعلماء الربانيين ، وإليك ترجمة الأمير والفقهاء :

ـ إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر :

ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية في المحرم سنة (٩٩ ـ ١٠٠ هـ) فكان خير أمير ، قال ابن خلدون : وأسلم جميع البربر في أيامه ، وأرسل معه عشرة من فقهاء التابعين وعلمائهم يفقهون الناس في أمور الدين ، ويبينون لهم الحلال والحرام[٤] .

وكان هذا الأمير في غاية الزهد والتواضع ، حريصاً على نشر العلم ، وسار في أهل البلاد بسيرة العدل ، وكان شديد الحفظ لحديث رسول الله ﷺ ، فقد روى عنه ابن عساكر : أنه قال : ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن ، أخرج له البخاري ومسلم

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ٩٧٩)؛ تذكرة الحفاظ (١/ ١٠٠) .
(٢) عمر بن عبد العزيز ، لعبد الستار الشيخ ، (ص ٦٩) .
(٣) الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي ، للصّلابي ، (ص ٣٠٦ ، ٣٠٧) .
(٤) تاريخ الفتح العربي في ليبية ، (ص ١٤٨) .

وأبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وأحمد ، وغيرهم. ومكث في القيروان معلماً للناس ، ناشراً للسنة ، لمدة ثلاث وثلاثين سنة؛ حيث توفي بها سنة ١٣١ هـ[١] ، وقد جمعت شخصية إسماعيل رحمه الله ، الكفاءة ، والعلم والورع ، فأنتجت هذه الثمار التي ساهمت في ترسيخ الإسلام في شمال إفريقية ، وينبغي لنا أن نهتم بتحقيق هذه الصفات وغيرها في نفوس القادة والولاة.

ـ بكر بن سوادة الجذامي ، أبو ثمامة(ت ١٢٨ هـ بإفريقية):

أقام في الشمال الإفريقي أكثر من ثلاثين سنة محدثاً ومفتياً ، وفقيهاً ، وقد انتفع به أهلها ، ورووا عنه ، أدخل على القيروان حديث عدد من الصحابة ، منهم: عقبة بن عامر ، وسهل بن سعد الساعدي ، وسفيان بن وهب الخولاني ، كما روى عن جماعة من التابعين؛ منهم: سعيد بن المسيب ، وابن شهاب الزهري ، وقد قارب شيوخه الأربعين ، وروى عنه كثير من أهل القيروان منهم عبد الرحمن بن زياد ، وأبو زرعة الإفريقي وكان ثقة في حديثه ، أخرج له مسلم والأربعة ، والبخاري تعليقاً ، وأحمد ، والطبراني ، وغيرهم ، وعداده في المصريين رغم طول مكثه بالقيروان ووفاته بها[٢].

ـ جُعثلُ بن عاهان الرُّعيني القتباني ، أبو سعيد(ت حوالي ١١٥ هـ):

عده أبو العرب وابن حجر وغيرهما في التابعين ، ولم يذكروا عمن روى من الصحابة ، وكان محدثاً ، فقيهاً مقرئاً ، تولى قضاء الجند بالقيروان ، وبث فيها علماً كثيراً لمدة زادت عن خمسة عشر عاماً ، وروى عنه من أهل القيروان عبيد الله بن زحر ، وعبد الرحمن بن زياد ، وبكر بن سواد الجذامي وهو زميله في البعثة العلمية ، ووثقه أكثر النقاد ، وأخرج له الأربعة وأحمد وغيرهم: توفي في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١١٥ هـ[٣].

ـ حبان بن جبلة القرشي:

مولاهم ، ودفع الوهم بأن عمر رضي الله عنه أرسله لتفقيه أهل مصر (ت ١٢٥ هـ) ، وقيل: ١٢٢ هـ بالقيروان ، أدخل في الشمال الإفريقي حديث جملة من الصحابة؛ منهم: ابن عباس ، وابن عمر ، وعبد الله بن عمرو ، ووالده عمرو ، وبقي يبث العلم في عاصمة الشمال الإفريقي في مدينة القيروان أكثر من خمس وعشرين سنة ، انتفع به أهلها ، وروى عنه كثير منهم ، كعبد الرحمن بن زياد ، وعبيد الله بن زحر ، وموسى بن علي بن رباح وغيرهم ، وهو عند النقاد ثقة

---

(١) مدرسة الحديث بالقيروان (٣/ ١٤ إلى ٢٢).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه.

في حديثه ، أخرج له البخاري في الأدب المفرد وابن سنجر في مسنده والحاكم في المستدرك وغيرهم[(١)] .

ـ سعد بن مسعود التجيبي : أبو مسعود (ت بالقيروان) :

يروي عن جماعة من الصحابة ، منهم : أبو الدرداء ، ويروي عن النبي ﷺ مرسلاً حتى وهم بعضهم فعده في الصحابة ، ولذلك نبهت معظم المصادر على أنه لا صحبة له ، وقد سكن القيروان وبث في الشمال الإفريقي علماً كثيراً وكانت مجالسه مليئة بالحكم والمواعظ البليغة ، وكان شديداً على الأمراء ، روى عنه من أهل القيروان : مسلم بن يسار الإفريقي ، وعبيد الله بن زحر ، وعبد الرحمن بن زياد ، في جامع ابن وهب وغيره ، وذكر الدباغ أنه توفي بالقيروان بعد أن بث فيها علماً كثيراً ، ولم يذكر تاريخ وفاته[(٢)] .

ـ طلق بن جعبان الفارسي :

وقيل : جابان ، والصواب الأول كما في الإكمال ، تابعي ، لقي عمر وسأله ، وأكثر روايته عن التابعين كان فقيهاً عالماً ، وروى عنه من أهل القيروان : موسى بن علي ، وابن أنعم ، ولم يذكروا مدة إقامته بها ولا تاريخ وفاته[(٣)] .

ـ عبد الرحمن بن رافع التنوخي ، أبو الجهم (ت بالقيروان سنة ١١٣ هـ) :

دخل القيروان في وقت مبكر ، سنة ٨٠ هـ ، وهو أجل قضاتها ، وذلك على عهد حسان بن النعمان ، واستمر يبث فيها العلم ما يقارب ثلاثاً وثلاثين سنة ، حتى انتفع به خلق كثير من أهلها وقد أدخل إلى القيروان حديث جماعة من الصحابة عرفنا منهم : عبد الله بن عمرو بن العاص ، وحدث عنه من أهل القيروان : عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ، وعبد الله بن زحر الكناني ، وبكر ابن سواد الجذامي وغيرهم . . . وهو أول من ولي قضاء القيروان وتوفي بها سنة ١١٣ هـ[(٤)] .

ـ عبد الله بن المغيرة بن أبي بردة الكناني :

كان مقيماً في القيروان قبل زمن بعثة عمر بن عبد العزيز بمدة طويلة ، معروفاً لدى أهلها مشهوراً بينهم بالعدالة والتقى ، وقد ولاه عمر بن عبد العزيز قضاء القيروان سنة ٩٩ هـ ، لما علمه من فضله ودينه وعلمه ، فاستمر في منصبه إلى أن استقال منه سنة ١٢٣ هـ ، وكان زاهداً ورعاً عالماً ، سار في أهل القيروان بالكتاب والسنة ، ونشر العلم بينهم لمدة طويلة زادت عن

---

(١) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ إلى ٢٢).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) عصر الدولتين الأموية و العباسية وظهور فكر الخوارج ، (ص ٤٥).

(٤) المصدر السابق نفسه.

خمس وعشرين سنة ، ذكره ابن حبان في الثقات ، وأثنى عليه المصنفون بالفضل والعلم والدين[١] .

- عبد الله بن يزيد المعافري الحبلي ، أبو عبد الرحمن (ت بالقيروان ١٠٠ هـ) :

دخل القيروان في زمن مبكر ، ولعل ذلك كان مع موسى بن نصير سنة ٨٦ هـ لأنه شهد فتح الأندلس ، ثم عاد إلى القيروان وسكنها وبنى بها داراً ومسجداً ، ثم عين ضمن أفراد البعثة العلمية، إلا أن وفاته كانت سنة ١٠٠ هـ، أي بعد سنة واحدة من التكليف الرسمي ، ومع ذلك فقد قال عنه المالكي : فانتفع به أهل إفريقية وبث فيها علماً كثيراً ، وأدخل إلىٰ القيروان حديث جماعة من الصحابة ممن لم يدخلها ، وزاد في إفشاء حديث من دخلها منهم ، حدث عن ابن عمر وعقبة بن عامر ، وابن عمرو ، وأبي ذر ، وروى عنه من أهلها عبد الرحمن بن زياد ، وأبو كريب جميل بن كريب القاضي (ت ١٣٩ هـ) وغيرهما ، كان رجلاً صالحاً ورعاً شديد الإقبال على نشر السنة ، وكان تأثيره في الحياة العلمية - خاصة الجانب الحديثي منها - بالقيروان كبيراً ، وقد بنى فيها مسجداً لمجالسه العلمية أجمع النقاد على توثيقه، وحديثه عند مسلم، والأربعة، وابن وهب في جامعه وأحمد وغيرهم[٢] .

- وهب بن حي المعافري :

وقد ذكر ابن أبي حاتم أن هناك من قلبه إلى : حي بن موهب ، وأن أبا زرعة قد صحح ذلك ، غزا إفريقية قديماً ، لأنه سأل ابن عباس المتوفى سنة ٦٨ هـ عن آنية أهل المغرب كما في الرياض والمعالم ، وهو من أفراد بعثة عمر ، وقد سكن القيروان ، وبث فيها علماً كثيراً وبها كانت وفاته ، وقد أدخل إلى القيروان حديث ابن عباس وغيره ، وروى عن النبي ﷺ مرسلاً ، وروى عنه من أهل القيروان عبد الرحمن بن زياد الإفريقي ، ولم تظهر المصادر حاله من حيث التعديل والجرح[٣] .

هؤلاء الفقهاء العشرة من خيرة فقهاء التابعين أرسلهم عمر بن عبد العزيز إلى الشمال الإفريقي ليفقهوا ويعلموا الناس دينهم ، فكانوا عند حسن ظنه بهم ، وكانوا للناس قدوة صالحة ، وقد سبق هؤلاء العشرة كثير من التابعين الذين قاموا بتعليم أهل البلاد أحكام الدين علماً وعملاً[٤] .

---

(١) المصدر السابق نفسه، (ص ٤٦).

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) مدرسة الحديث بالقيروان (٢/ ١٤ إلى ٢٢) .

(٤) عصر الدولتين الأموية و العباسية ، (ص ٤٧) .

وكان لهؤلاء العشرة آثار هامة في القرآن الكريم وتفسيره والحديث، وفي نشر السنة العملية والاعتقادية الصحيحة، وساعدوا ولاة أمور المسلمين على مقاومة النحل الخارجية وتركيز أحكام الإسلام بين البربر؛ فقد روى المالكي أنه لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة سنة ١٢٢ هـ، جمع حنظلة علماء إفريقية وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية ليفقهوا أهلها، فكتبوا هذه الرسالة ليقتدي بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها: . . . فإن أهل العلم بالله وبكتابه وسنه نبيه ﷺ يعلمون أنه يرجع جميع ما أنزل الله عز وجل إلى عشر آيات: آمرة، وزاجرة، ومبشرة، ومنذرة، ومخبرة، ومحكمة، ومتشابهة، وحلال، وحرام، وأمثال، فآمرة بالمعروف، وزاجرة عن المنكر، ومبشرة بالجنة، ومنذرة بالنار، ومخبرة بخبر الأولين، والآخرين، ومحكمة يعمل بها، ومتشابهة يؤمن بها، وحلال أمر أن يؤتى، وحرام أمر أن يجتنب، وأمثال واعظة، فمن يطع الآمرة وتزجره الزاجرة فقد استبشر بالمبشرة وأنذرته المنذرة، ومن يحلل الحلال ويحرم الحرام، ويرد العلم فيما اختلف فيه الناس إلى الله، مع طاعة واضحة ونية صالحة، فقد فاز وأفلح وأنجح وحيا حياة الدنيا والآخرة والسلام[١].

إن هذه الرسالة تعتبر وثيقة عظيمة الأهمية؛ إذ تدل على أصالة علم هذه البعثة العلمية، ووضوح أهدافهم الشرعية أمامها، حتى إنهم أوجزوا فحوى الرسالة، ونظراً لعظيم فائدتها عممت على أن تقرأ على منابر المساجد في جميع ضواحي إفريقية[٢].

٥ ـ رسائله الدعوية إلى الملوك في الهند وغيرها:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام على أن يملكهم بلادهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، وقد كانت سيرته بلغَتْهم، فأسلم جيشبة بن داهر[٣]، والملوك وتسمَّوا بأسماء العرب. . . وبقي ملوك السند مسلمين على بلادهم أيام عمر ويزيد بن عبد الملك[٤]. وقد أرسل عليهم عمر من يعلمهم دينهم[٥]، كما أرسل عمر برسائل إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم فيها إلى الإسلام فأسلم بعضهم[٦]، وأما أليون قيصر الروم فقد بعث إليه

(١) رياض النفوس للمالكي (١/ ١٠٢، ١٠٣).

(٢) عصر الدولتين الأموية و العباسية، (ص ٤٨).

(٣) فتوح البلدان، (ص ٤٢٨)؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، (ص ١٧٣).

(٤) الكامل في التاريخ؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، (ص ١٧٣).

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، (ص ١٧٣).

(٦) فتوح البلدان، (ص ٤١٥).

عمر وفداً برئاسة عبد الأعلى بن أبي عمرة لدعوته إلى الإسلام[(١)].

٦ ـ تشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام:

قام عمر بتشجيع غير المسلمين على الدخول في الإسلام عن طريق إعطائهم الأموال لتألفة قلوبهم، وذلك اتباعاً لسنة رسول الله ﷺ، فيذكر ابن سعد عن عيسى بن أبي عطاء رجل من أهل الشام كان على ديوان أهل المدينة، عن عمر بن عبد العزيز: أنه ربما أعطى المال من يستألف على الإسلام[(٢)]. كذلك ذكر عن عمر بن عبد العزيز أنه أعطى بطريقاً ألف دينار استألفه على الإسلام[(٣)].

٧ ـ تصحيح الوضع الخاص لأهل الذمة:

لقد كان لإنصافه لأهل الذمة الذين أسلموا بوضع الجزية عنهم أثر واضح في زيادة إقبال الذميين على الدخول في الإسلام برغم كل ما ترتب على ذلك بالنسبة لبيت المال، مثل ما فعل مع واليه على خراسان الجراح بن عبد الله الحكمي؛ حيث أرسل إليه يقول: انظر من صلى قبلك إلى القبلة، فضع عنه الجزية[(٤)]، ثم أرسل بدعوة أهل الذمة إلى الدخول في الإسلام، فمثلاً أرسل إلى عامله الجراح بن عبد الله الحكمي يأمره بدعوة أهل الجزية إلى الدخول في الإسلام، فإن أسلموا قبل إسلامهم، وأن يضع الجزية عنهم، ثم كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين[(٥)].

وقد ترتب على هذه الدعوة دخول عشرات الألوف من الناس في الإسلام طائعين؛ ففي خراسان أسلم نحو من أربعة آلاف ذمي على يد واليه الجراح بن عبد الله[(٦)]، أما في المغرب فقد أسلم عامة البربر على يد والي عمر على المغرب إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر[(٧)].

وكان ذلك دليلاً على بعد نظر عمر في الاهتمام بالدعوة إلى الإسلام عن طريق الحكمة والموعظة الحسنة، إذ كانت نتائجها لا تقل عن نتائج غيرها إيجابية، بل تتعدى ذلك إلى أنه اكتسب مسلمين جدداً دون أن يتكلف شهيداً، أو نفقة لإعداد جيوش، وهم رعاياه ويعيشون بين

---

(١) البداية و النهاية؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، (ص ١٧٣).
(٢) الطبقات (٥/ ٣٥٠)؛ عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، (ص ١٧٤).
(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٥٠).
(٤) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، (ص ١٧٤).
(٥) الطبقات (٥/ ٣٨٦).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) فتوح البلدان، للبلاذري، (ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣)، عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، (ص١٧٤).

أظهر المسلمين ، وبالتالي أولى من غيرهم بالدعوة إلى الإسلام . وبهذا يكون الإسلام قد انتشر على عهد عمر بن عبد العزيز بالحكمة والموعظة الحسنة ، والاستمرار في أسلوب الجهاد الدعوي على أيدي علماء ربانيين تخرجوا من المدارس العلمية التي نضجت في عهد الدولة الأموية ، وهؤلاء العلماء الدعاة هم الذين نفذوا مشروع عمر بن عبد العزيز الدعوي العلمي .

* * *

المبحث السادس
الإصلاحات المالية في عهد عمر بن عبد العزيز

لم تكن سياسة عمر المالية ارتجالية فهو مسؤول عن دولة ، وكان يحسب حساباً لكل خطوة يخطوها ويضع الضمانات لكل عمل يعتزم تنفيذه(١) . ولقد سار في سياسته على أمور منها :

ـ العزم على الاعتصام بالكتاب والسنة : والتضحية في سبيل ذلك ، وهذا ما يبدو واضحاً من كتبه للعمال وخطبه إلى رعيته ، ومثال ذلك قوله : سنّ رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها اعتصام بكتاب الله وقوة على دين الله ، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها ، ولا النظر في أمر خالفها(٢) .

ـ ترسيخ قيم الحق والعدل ودفع الظلم : وهذا هو أساس سياسة عمر ، فجميع الأهداف والوسائل التي اتبعها كانت تنسجم مع هذا الأساس ، وإحقاق الحق ودفع الظلم هو أصل من أصول الشريعة ، ومقصد رئيسي من مقاصدها ، قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : ٢٥] . يقول ابن القيم : فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ، وهي عدل كلها ، ورحمة كلها ومصالح كلها ، وحكمة كلها ، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور ، وعن الرحمة إلى ضدها ، وعن المصلحة إلى المفسدة ، وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة(٣) .

ولقد كان عمر يرجع للحق إذا تبين له الخطأ ، ويقول في ذلك : ما من طينة أهون عليّ فتّاً ولا كتاب أيسر عليّ رداً من كتاب قضيت به ، ثم أبصرت أن الحق في غيره ففتتها(٤) .

أولاً : أهداف السياسة الاقتصادية عند عمر :

١ ـ إعادة توزيع الدخل والثروة بشكل عادل :

لقد سعى عمر بن عبد العزيز لإعادة توزيع الدخل والثروة بالشكل العادل ، الذي يرضى الله

---

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٢٧) .
(٢) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٣٨) .
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٣) .
(٤) سيرة ومناقب عمر ، لابن الجوزي ، (ص ١١٣) .

تعالى، ويحقق قيم الحق والعدل، ورفع الظلم، والتي وضعها عمر نصب عينيه، فقد كان يراقب الانحرافات السابقة قبل خلافته، ويلاحظ آثارها السلبية على نفوس الرعية، ولقد انتقد سياسة سليمان بن عبد الملك التوزيعية، فقال له: لقد رأيتك زدت أهل الغنى وتركت أهل الفقر بفقرهم[(١)]. فقد أدرك عمر بن عبد العزيز أن التفاوت الاجتماعي هو نتيجة لسوء توزيع الثروة، فرسم سياسته الجديدة لإنصاف الفقراء والمظلومين، ولقد استخدم عمر للوصول إلى هذا الهدف بعض الوسائل العملية منها:

أ ـ منع الأمراء والكبراء من الاستئثار بثروة الأمة، ومصادرة الأملاك المغصوبة ظلماً، والتي استولى عليها الأمراء والكبراء، وإعادة هذه الأموال إلى أصحابها إذا عرفوا، أو إلى بيت المال إذا لم يعرف أصحابها، أو كانت من الأموال العامة.

ب ـ زيادة الإنفاق على الفئات الفقيرة والمحرومة ورعايتها، وتأمين مستوى الكفاية لها عن طريق الزكاة وموارد بيت المال الأخرى[(٢)].

وقد قام بتنفيذ هذه السياسة، كما مرّ معنا في سياسته في رد المظالم، ولقد كانت سياسة عمر التوزيعية تهدف على إيصال الناس إلى حد الكفاية: يلاحظ ذلك من خطبه، فقد خطب الناس يوماً فقال: وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوي نحن وهم، وأكون أنا أولهم[(٣)]. وفي خطبة أخرى: .. ما أحد منكم تبلغني حاجته إلا حرصت أن أسدّ من حاجته ما قدرت عليه، وما أحد لا يسعه ما عندي إلا وددت أنه بُدِئَ بي وبلحمتي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم[(٤)].

وقد طبق عمر هذا التطور عملياً عندما أمر بقضاء دين الغارمين، فكتب إليه عامله: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم، وله الفرس والأثاث في بيته، فأجاب عمر: لابدّ للرجل من المسلمين من مسكن يأوي إليه رأسه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، وأثاث في بيته، فهو غارم فاقضوا عنه[(٥)]، فسياسة عمر التوزيعية تهدف إلى كفاية الناس من حيث المسكن والمركب والأثاث، وهي عبارة عن حاجات أساسية، وضرورية للإنسان تصعب الحياة بدونها[(٦)].

---

(١) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ١٣٥).
(٢) السياسة الاقتصادية و المالية لعمر بن عبد العزيز، (ص ١٣٥).
(٣) الإدارة الإسلامية في عز العرب، محمد كرد علي، (ص ١٠٣).
(٤) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ٤٢).
(٥) المصدر السابق نفسه (ص ١٧١).
(٦) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، (ص ٣٨).

٢ ـ تحقيق التنمية الاقتصادية والرفاه الاجتماعي :

سعى عمر بن عبد العزيز عن طريق العديد من الوسائل لتحقيق هذا الهدف ، فقد أوجد المناخ المناسب للتنمية عن طريق حفظ الأمن والقضاء على الفتن ، ورد الحقوق لأصحابها ، وبذلك باتت الرعية مطمئنة على حقوقها ، آمنة في أوطانها ، كذلك أمر ببناء المرافق العامة ، والتي تسمى اليوم بمشاريع البنية التحتية ، ولا تقوم التنمية إلا بهذه المرافق الضرورية من أنهار وترع ومواصلات وطرق ، وقد أكد عمر على مبدأ الحرية الاقتصادية المقيدة بضوابط الشريعة ، فانتشر الناس في تجارتهم وتثمير أموالهم ، واهتم كذلك اهتماماً بالغاً بالزراعة ، حيث كان القطاع الزراعي من أكبر القطاعات على المستوى الفردي ، وله مردود كبير على ميزانية الدولة ، وقد جنى عمر والأمة كلها ثمرات هذه السياسة ، فقد عمّ الرخاء البلاد والعباد[١] ، قال رجل من ولد زيد بن الخطاب : إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفاً وذلك ثلاثون شهراً؛ فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح حتى يرجع بماله ، يتذكر من يضعه فيهم فما يجده ، فيرجع بماله ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس[٢] .

ثانياً : وسائل عمر بن عبد العزيز لتحقيق الأهداف الاقتصادية لدولته :

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق أهدافه الاقتصادية بوسائل؛ منها :

١ ـ توفير المناخ المناسب للتنمية :

وقد عمل عمر على توفير المناخ المناسب للتنمية ، وقام بالآتي :

أ ـ رد الحقوق لأصحابها :

فتوفرت أجواء الأمن والطمأنينة ، وترسخت قيم الحق والعدالة وردّ الحقوق المغتصبة إلى أبناء الأمة وسمّاها مظالم[٣] ، وقد تحدثت عن سياسته في رد المظالم والحقوق إلى أهلها ، وذكرت الكثير من المواقف في هذا الشأن .

ب ـ فتح الحرية الاقتصادية بقيود :

فقد أكد عمر على مفهوم الحرية الاقتصادية المقيدة ، وكتب إلى العمال : . . وإن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يدْعى الناس إلى الإسلام كافة ، وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر

(١) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٤).
(٢) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١٢٨).
(٣) السيرة الاقتصادية والمالية ، (ص ٤٣).

والبحر ولا يمنعون ، ولا يحبسون[(١)]. وقدم في موضوع آخر: . . . أطلق الجسور والمعابر للسابلـة يسيرون عليها دون جُعْل[(٢)] ، لأن عمال السـوء تعدوا غير ما أمروا به[(٣)].

ولم يتدخل عمر بن عبد العزيز في الأسعار ، فعن عبد الرحمن بن شوبان قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: يا أمير المؤمنين ! ما بال الأسعار غالية في زمانك وكانت في زمان ما قبلك رخيصة؟ قال: إن الذين كانوا قبلي كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم ، فلم يكونوا يجدون بُداً من أن يبيعوا ويكسروا ما في أيديهم ، وأنا لا أكلف أحداً إلا طاقته ، فباع الرجل كيف شاء ، قال: فقلت: لو أنك سعَّرت ، قال: ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر إلى الله[(٤)].

وتشدد عمر في أمر السلع المحرّمة ، ومنع التعامل بها؛ فالخمر من الخبائث التي لا يجوز التعامل فيها بين المسلمين لحرمتها ولضررها؛ حيث يؤدي شربها إلى استحلال الدم الحرام وأكل المال الحرام. ويقول عمر: فإن من نجده يشرب منه شيئاً بعد تقدمنا إليه فيه نوجعه عقوبة في ماله ونفسه ، ونجعله نكالاً لغيره[(٥)].

وقد أثمرت سياسة عمر في رد الحقوق وإطلاق الحرية الاقتصادية المنضبطة ، حيث وفرت للناس الحوافز للعمل والإنتاج ، وأزالت العوائق التي تحول دون ذلك ، وهذا أدى إلى نمو التجارة ، وبالتالي إلى زيادة حصيلة الدخل الخاضع للزكاة ، وهذا يؤدي بدوره إلى زيادة الزكاة ، ممّا يؤدي إلى رفع مستوى الطبقات الفقيرة وارتفاع قوتها الشرائية والتي ستتوجه إلى الاستهلاك ، وبالتالي إلى زيادة الطلب على السلعة ، والخدمات ، وهذا كله يؤدي إلى انتعاش الاقتصاد وارتفاع مستوى المعيشة وزيادة الرفاه[(٦)].

٢ ـ اتباع سياسة زراعية جديدة:

فقد اتبع خطوات ترمي إلى زيادة الإنتاج الزراعي للأمة ، وإليك تفصيل هذه الخطوات:

أ ـ منع بيع الأرض الخراجية:

سأل الناس عبد الملك بن مروان والوليد وسليمان أن يأذنوا لهم في شراء الأرض من أهل الذمة ، فأذنوا لهم شريطة أن يضعوا أثمانها في بيت المال ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز ، ترك

---

(١) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٩٤)؛ السياسة الاقتصادية و المالية لعمر ، (ص ٤٧).
(٢) الجعل: هو ما يجعل للشخص على عمله.
(٣) الإدارة الإسلامية ، لمحمد كرد علي ، (ص ١٠٥).
(٤) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر ، (ص ٤٨).
(٥) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١٠٣).
(٦) سياسة الإنفاق العام في الإسلام ، لعوف الكفراوي ، (ص ٣٧٢).

هذه الأشرية على حالها ، وذلك لما وقع فيها من المواريث ومهور النساء وقضاء الديون ولم يقدر على تخليصه ، وكتب كتاباً قرئ على الناس سنة المئة : أن من اشترى شيئاً بعد سنة مئة فإن بيعه مردود ، وسميت سنة مئة سنة المدة ، فتناهى الناس بعدها عن الشراء[١] . ولقد طلب أهل الأرض أن يضع عليهم الصدقة بدل الخراج ، فأجاب عمر : إني لا أعلم شيئاً أثبت لمادة الإسلام من هذه الأرض التي جعلها الله لهم فيئاً . . قال أبو عبيدة : فكأن مذهب عمر بن عبد العزيز في الأرض أنه كان يراها فيئاً ، ولهذا كان يمنع أهلها من بيعها[٢] .

وكتب إلى ميمون بن مهران : أما بعد ، فحُل بين أهل الأرض وبين بيع ما في أيديهم منها ، فإنهم إنما يبيعون فيء المسلمين[٣] . كذلك رفض عمر تحويل الأرض التي دخل أهلها في الإسلام من أرض خراج إلى أرض عشر[٤] ، وأبقى الخراج عليهم والعشر ، وقال : الخراج على الأرض ، والعشر على الحب[٥] . وبذلك حافظ على المورد الرئيس للإنتاج ، وجعله ملكاً عاماً للأمة بدلاً من تحويله إلى ملكيات صغيرة[٦] .

ب ـ العناية بالمزارعين وتخفيف الضرائب عنهم :

اعتاد بعض الخلفاء الأمويين قبل عمر بن عبد العزيز على إرهاق المزارعين بالضرائب ، فكثرت الضرائب وتنوعت ، واشتد الأمر على أهل الأرض فهجروها ، فخرجت ، فأضرّ ذلك بمالية الدولة ، ولقد لجؤوا إلى أساليب العذاب في الجباية فاضطر المزارعون إلى بيع دوابهم أو كسوتهم لشديد ما عليهم[٧] ، وعندما تولى عمر سعى إلى إلغاء جميع الضرائب المخالفة للشريعة ، وكتب بذلك إلى العمال كتباً؛ منها : فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة وجور في أحكام الله ، وسنة خبيثة استنها عليهم عمال السوء . . ولا تأخذن في الخراج إلا وزن سبعة[٨] ، ليس لها آيين ولا أجور الضرابين[٩] ، ولا هدية النيروز والمهرجان[١٠] ،

---

(١) الخراج ، للريس ، (ص ٣٩٠)؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر ، (ص ٤٩).

(٢) الأموال، لأبي عبيد ، رقم (٢٥٦) ، (ص ١٢١).

(٣) المصدر السابق نفسه، رقم (٢٥٧) ، (ص ١٢٢).

(٤) السياسة المالية والاقتصادية لعمر ، (ص ٥٠).

(٥) الأموال ، لأبي عبيد ، رقم (٢٣٥) ، (ص ١١٤).

(٦) الخراج ، للريس ، (ص ٢٣٩)؛ السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٥٠).

(٧) الضرائب في السواد ، للدوري ، ص ٥٧ .

(٨) الدرهم الذي ضربه عبد الملك وجعل كل عشرة منها وزن سبعة مثاقيل من الذهب .

(٩) الآيين : أصول إدارية ساسانية ، وهي رسوم المشاحين علىٰ أرض الخراج. وأجور الضرابين : هي أجور المختصين بالنقد من الصرافين .

(١٠) النيروز والمهرجان : عيدان عند الفرس كانوا يحضرون فيها الهدايا .

ولا ثمن الصحف ، ولا أجر الفيوج ولا أجور البيوت[١] .

وقد ألغى القبالة وكانت مألوفة في البصرة ، وألغى أسلوب الخرص[٢] . حيث كان العمال يقدرون الثمار بسعر عالٍ ويقبضونه نقداً ، وبذلك يرهقون الزراع ، فقرر عمر وضع الضريبة حسب الأسعار الفعلية ، وكتب لعامله : بلغني أن عمالك بفارس يخرصون الثمار ثم يقومونها على أهلها بسعر فوق سعر الناس الذي يتبايعون ، ثم يأخذون ذلك ورقاً على قيمتهم التي قوموها . . وقد بعثت بشر بن صفوان وعبد الله بن عجلان للنظر في ذلك ورد الثمن الذي أخذ من الناس إلى ما باع أهل الأرض به غلاتهم[٣] .

ولقد أمر عمر بإلغاء ضريبة ثابتة على أهل اليمن ، كالخراج مع أن أرضها أرض عشرية ، وكتب إلى عامله على اليمن : أما بعد ، فإنك كتبت إليَّ أنك قدمت اليمن فوجدت على أهلها ضريبة من الخراج مضروبة ثابتة في أعناقهم كالجزية يؤدونها على كل حال ، أخصبوا أو أجدبوا ، حيوا أو ماتوا ، فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين . . إذا أتاك كتابي هذا فدع ما تنكره من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ، ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغاً بي وبك وإن أحاط بمهج أنفسنا ، وإن لم ترفع إليّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[٤] ، فقد علم الله أني بها مسرور إذا كانت موافقة للحق[٥] . والسلام .

ويلاحظ من كتب عمر إلى عماله الانحرافات السابقة الظالمة وإنكار عمر لها ، وقد كان لها أثر اقتصادي سيئ حيث جعلت أصحاب الأرض يضعفوا عن أرضهم ويتركوها ، فضعف الإنتاج وترتب على ذلك خسارة للبلاد ولبيت المال ، وأما عمر بن عبد العزيز فكان مصراً على تطبيق الحق وعدم اهتمامه بالكم بل بالكيف ، فهو لا يريد إيراداً كثيراً ظالماً[٦] ، وقد ساهمت إصلاحات عمر في إلغائه للضرائب الجائرة إلى انتعاش اقتصاد الدولة .

جـ ـ الإصلاحات والإعمار وإحياء أرض الموات :

شجع عمر على إحياء الأرض الموات وعلى إصلاح الأراضي للزراعة ، وكتب بذلك إلى

---

(١) الصحف : عبارة عن أوراق تعطى براءة بالدفع . والفيوج : جمع فيج وهو رسول السلطان الذي يسعى بالكتب ، وأجور البيوت : هي أجور المخازن المحلية التي توضع فيها المواد العينية قبل نقلها للمركز .
(٢) القبالة من التقبل والتقبيل : أي تعيين شخص كفيل لتحصيل الخراج مقابل قدر معلوم يأخذه لنفسه . الخرص : الحرز .
(٣) الضرائب في السواد ، (ص ٦٥) .
(٤) الكتم : نبت يخلط بالحناء ويخضب به الشعر .
(٥) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١٢٦) ؛ الخراج للريس ، (ص ٢٢٩) .
(٦) السياسة الاقتصادية المالية لعمر ، (ص ٥٢) .

عامله على الكوفة: لا تحمل خراباً على عامر ولا عامراً على خراب(١)، انظر إلى الخراب فخذ منه ما أطاق، وأصلحه حتى يعمر، ولا تأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج في رفق وتسكين لأهل الأرض(٢). وكتب عمر: من غلب الماء على شيء فهو له. وعن حكيم بن زريق قال: قرأت كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أبي: من أحيا أرضاً ميتة ببنيان أو حرث، ما لم تكن من أموال قوم ابتاعوها من أموالهم، أو أحيوا بعضاً وتركوا بعضاً، فاجزِ للقوم إحياءهم الذي أحيوا ببنيان أو حرث(٣).

وحرص عمر على استغلال أرض الصوافي(٤)، ورأى أن ملكيتها لبيت المال، ومنع الإقطاع منها وأمر بإعطائها مزارعة على النصف، فإن لم تزرع فعلى الثلث، فإن لم تزرع فأمر بإعطائها حتى تبلغ العشر، فإن لم يزرعها أحد فأمر بمنحها، فإن لم يزرعها أحد فأمر بالإنفاق عليها من بيت المال(٥).

وقد اهتم عمر بالمزارعين ورفع الضرر عنهم، ويروى في ذلك أن جيشاً من أهل الشام مر بزرع رجل فأفسده، فأخبر الرجل عمر بذلك، فعوضه عشرة آلاف درهم(٦)، وكان يقدم القروض للمزارعين، فقد جاء في رسالته لواليه على العراق: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على عمل أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين(٧).

د ـ عمر والحمى:

منع عمر الحمى الخاص وأباح هذه الأراضي للمسلمين جميعاً، لا تختص بها طائفة على أخرى، وفي ذلك يقول: ونرى أن الحمى يباح للمسلمين عامة، وقد كانت تحمى وتجعل فيها نعم الصدقات، فيكون في ذلك قوة ونفع لأهل فرائض الصدقات، وأدخل فيها وطعن فيها طاعن من الناس، فنرى في ترك حماها والتنزه عنها خيراً، إذا كان ذلك من أمرها، وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، وإنما هو الغيث ينزله الله لعباده فهم فيه سواء(٨).

---

(١) المصدر السابق نفسه، (ص ٥٣). العامر: الأرض المزروعة.
(٢) الأموال، لأبي عبيد، رقم (١٢٠)، (ص ٥٧).
(٣) الأموال، رقم (٧١٧)، (ص ٣٦٩)؛ البنيان: هو البناء، والحرث: هو الزرع.
(٤) الصوافي: ما يستخلصه السلطان لخاصته. وقيل: الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها وماتوا ولا وارث لها، واحدها صافية.
(٥) الخراج، (ص ٩٩)؛ السياسة المالية والاقتصادية، (ص ٥٤).
(٦) سيرة ومناقب عمر، لابن الجوزي، (ص ١١٧).
(٧) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، (ص ٢٠٢).
(٨) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ٩٨).

وعندما أباح الأحماء كلها استثنى النقيع[١] الذي حماه الرسول عليه الصلاة والسلام لإبل الصدقة[٢]. فبالحمى تصبح الأرض لجماعة المسلمين ، ونفعها مصروف لهم ، فالحمى نقل الأرض من الإباحة إلى الملكية العامة ، لتبقى موقوفة على جماعة المسلمين[٣].

هـ ـ توفير مشاريع البنية التحتية :

سعى عمر بن عبد العزيز لتوفير هذه المشاريع منذ كان أميراً على المدينة حتى أصبح خليفة للمسلمين ، فاهتم بالمشاريع التي تخدم التجار والمزارعين والمسافرين ، وعندما كان والياً على المدينة كتب إليه الوليد بن عبد الملك كتاباً في تسهيل الثنايا وحفر الآبار في المدينة ، فحفر منها بئر الحفير وكانت طيبة الماء[٤].

كذلك عمل عمر بأمر الوليد فوّارة ماء ، وأجرى ماءها ، ووسع المسجد النبوي ورفع منارته وجوّف محاريبه ، وأنشأ الخانات والفنادق ودار الضيافة للحجاج والمسافرين[٥].

كما استمر حفر خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر لتسهيل نقل الطعام من مصر إلى مكة حتى أيام عمر بن عبد العزيز[٦]. وكتب إليه عامله على البصرة يعرض طلب أهلها بحفر نهر لهم ، فأذن له عمر وحفر النهر ، وسمي نهر عدي[٧].

ثالثاً: سياسة عمر بن عبد العزيز المالية في الإيرادات :

إن السياسة المالية بإيراداتها ونفقاتها تعتبر أداة هامة لتحقيق الأهداف الاقتصادية[٨] ، لذلك بدأ عمر سياسته المالية بزيادة الإنفاق على عامة الشعب ، فأنفق في رد المظالم حتى أنفذ بيت مال العراق ، وجلب إليه من الشام[٩] ، وأنفق على المشاريع الزراعية ، ومشاريع البنى الأساسية ، كما أنفق على الرعاية الاجتماعية لجميع طبقات الشعب ، وفي جانب الإيرادات سعى إلى إلغاء الضرائب الظالمة ، فرفع الجزية عمن أسلم ، وألغى الضرائب الإضافية التي كانت تؤخذ من

(١) النقيع : موضع لبلاد مزينة على ليلتين من المدينة ، وهو نقيع الخضمات الذي حماه عمر بن الخطاب لنعم الفيء وخيل المجاهدين . انظر : السياسة الاقتصادية والمالية ، (ص ٥٤).
(٢) فتح الباري(٥/ ٣٤).
(٣) الاتجاه الجماعي في التشريع الاقتصادي ، (ص ٢٤٢).
(٤) الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي ، (ص ٥٦).
(٥) خامس الخلفاء الراشدين ، للبدري ، (ص ١٧٠).
(٦) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٥٥).
(٧) المصدر السابق نفسه ، (ص ٥٧).
(٨) المصدر السابق نفسه .
(٩) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١٢٩).

المزارعين ، وألغى المكوس والقيود ، كما حافظ على حقوق بيت المال المسلوبة ، فأعاد إليه القطائع ، والمظالم ، وأوقف امتيازات الأمراء والموظفين ، وبالغ في الاقتصاد في الإنفاق الإداري والحربي(١) ، كل ذلك أدى إلى إطلاق الطاقات ، فنمت الزراعة والتجارة ، وجنى ذلك بزيادة ونمو الإيرادات ، فزادت إيرادات الزكاة والخراج والعشور ، وفاضت ميزانية الدولة ، فوجّه عمر الفائض لزيادة الإنفاق العام لتحقيق الأهداف الاقتصادية .

ونلاحظ في التاريخ كلما استقام أمر الدولة وسارت على نهج الشريعة الإسلامية الغرّاء فاض ميزانها المالي ، ولم يشعر أفرادها بعسف ولا إرهاق ، ولم تهمل مصلحة من مصالحها ، وكلما اعوج أمر الدولة ، وحادت عن سبيل الشريعة ، اختل التوازن المالي ، فميزانية الدولة مرآة عدلها وجورها ، ونظامها وفوضاها(٢) .

هذا وقد تكونت إيرادات بيت المال زمن عمر بن عبد العزيز من : الزكاة والجزية والخراج والعشور والخمس والفيء .

١ ـ الزكاة :

اهتم عمر بالزكاة وحرص عليها لأنها حق فرضه الله للفقراء والمساكين والمنقطعين ، والمستعبدين ، ولا يجوز التهاون فيه ، واهتمّ بتوزيعها على مستحقيها(٣) ، فأمر ولاته بالبحث عنهم وإعطائهم حقهم ، وفي حالة عدم وجود فقراء أو مساكين أو محتاجين أمر عمر بشراء رقاب المستعبدين وإعتاقهم من مال الزكاة(٤) . وعزم عمر على اتباع هدي النبي ﷺ في الزكاة ، وكان الولاة قبله قد تهاونوا فيها ، فأخذوها من غير حقها ، وصرفوها في غير مصارفها(٥) .

ومن مظاهر اتباعه للسنة فيها طلبه لكتاب رسول الله ﷺ في الصدقات ، ولكتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأمره بأن تنسخ هذه الكتب فنسخت له ، وكانت تشتمل على صدقة الإبل والبقر والغنم ، والذهب ، والورق ، والتمر ، والحب ، والزبيب ، وبيّنت الأنصبة لكل هذه الأصناف(٦) .

واتبع عمر السنة في مصارف الزكاة ، فاستشهد بقوله تعالى : ﴿ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ

(١) السياسة الاقتصادية والمالية لعمر ، (ص ٥٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٦٠).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) سيرة و مناقب عمر ، لابن الجوزي ، (ص ١٢٩).

(٦) الأموال ، لأبي عبيد ، رقم (٩٣٤) ، (ص ٤٤٧) ، السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٦١).

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة: ٦٠] ، ثم أمر أن توضع الصدقات كما أمر الله تعالى في كتابه[١] ، كما اتّبع عمر السنة في جباية الزكاة؛ فعين عمالاً ثقاة مؤتمنين وأمرهم بجبايتها دون ظلم أو تعدٍّ وأمرهم بكتابة براءة إلى الحول لدافعها[٢] . وأمر عمر بأخذ الزكاة من جميع الأموال التي تجب فيها ، فأخذت من عطاء العمال ومن المظالم إذا رُدّت لأصحابها ، ومن الأعطية إذا أخرجت لأهلها[٣] .

وأكد عمر على أحقية كل قوم بزكاتهم إذا لم يستغنوا[٤] ، وعندما أحضر العمال الزكاة إلى عمر أمرهم بردّها وتوزيعها في البلاد التي جمعت منها[٥] .

وكان لهذه الإصلاحات الاقتصادية في جباية الزكاة أثر على زيادتها ، ولقد ساهمت سياسته الاقتصادية إلى زيادة تحصيل الزكاة ، فتوفيره لأجواء الأمن والطمأنينة ، واهتمامه بإقامة المشاريع الأساسية للزراعة والتجارة واتّباعه لسياسة الحرية الاقتصادية المقيّدة ، وإلغاؤه للضرائب الظالمة ، أدّت جميعاً إلى ازدهار التجارة والزراعة وإلى زيادة حصيلة الزكاة[٦] .

ولقد كان عمر من الموسعين لإيتاء الزكاة ، برز هذا من خلال فقهه في زكاة الثروة الزراعية ، وزكاة الإبل العامة ، وزكاة السمك ، وزكاة العسل ، وهذا الفقه من شأنه أن يزيد الأموال الخاضعة للزكاة ، مما يؤثر على زيادة جبايتها .

وأما زيادة الدعوة زمن عمر ، ودخول أهل الذمة في الإسلام أفواجاً فالراجح أنه رفع من حصيلة الزكاة ، لأن هؤلاء المسلمين الجدد فيهم الأغنياء وفيهم الفقراء ، وسيدفع الأغنياء حقاً مفروضاً عليهم وهو الزكاة ، وأما سيرة عمر وتقواه فقد أثرت على دفع الزكاة للدولة مباشرة لزيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم ، وهذا واضح من تدافع الناس لأداء الزكاة عندما سمعوا بخلافة عمر ، وهذا يؤدي إلى زيادة حصيلة أموال الزكاة وزيادة آثارها الاقتصادية عند إنفاقها في مصارفها[٧] .

وتؤكد الروايات التاريخية أن الزكاة كانت فائضة عن حاجات الناس في ذلك الزمن ، فكان

---

(١) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص٩٤).
(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٩٩).
(٣) الأموال ، لأبي عبيد ، رقم (١٢٢٦) ، (ص ٥٢٩).
(٤) فتح الباري (٣/ ٣٢٢)؛ السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٦١).
(٥) الأموال ، رقم (١٩١٧) ، (ص ٧١٢).
(٦) ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، (ص ١٣٥).
(٧) المصدر السابق نفسه.

الرجل يأتي بزكاته ، فلا يجد من يأخذها[١] ، ومن أسباب هذا الفائض اندفاع أفراد المجتمع للعمل والإنتاج ، فكثر عدد المؤدِّين للزكاة ، وانخفض عدد القابضين لها[٢] .

٢ ـ الجزية :

والجزية في الاصطلاح : هي الوظيفة(الضريبة) المأخوذة من الكافر لإقامته بدار الإسلام في كل عام ، والأصل فيها الكتاب والسنة والإجماع[٣] ، وقد قام عمر بن عبد العزيز باتباع السنة في إيراد الجزية ، فقد أسقطها عمّن أسلم ، لأن الجزية فرضت على الكافرين وتسقط بالإسلام[٤] ، ومع ذلك فقد استمر بعض خلفاء بني أمية في أخذ الجزية ممن أسلم ، فأخذها الحجّاج لظنّه أنهم دخلوا الإسلام هرباً من الجزية ، ولقد أدى ذلك إلى زيادة النقمة على الحجّاج وعلى الأمويين[٥] ، وعندما تولى عمر الخلافة سارع إلى إلغاء الجزية عن المسلمين[٦] ، وتشدّد في ذلك ، وكتب إلى العمال كتاباً جاء فيه : «من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا واختتن فلا تأخذوا منه الجزية»[٧] .

ولما سمع أهل الذمة عن عدالة عمر وسيرته سارعوا للدخول في الإسلام ، فشكا عامله ذلك ، لأنه أدى إلى نقصان الجزية ، فأجابه عمر : أما بعد ، فإن الله قد بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً[٨] .

ولأن عمر اعتمد في سياسته على ترسيخ قيم الحق والعدل رفع الظلم عن أهل الذمة ، ورفق بمزارعيهم ، وفرض الجزية عليهم حسب المقدرة المالية للفرد ، فجعلها على ثلاث طبقات : للغني وللمتوسط وللفقير ، وجعل صاحب الأرض يعطي جزيته من أرضه والصانع يخرجها من كسبه والتاجر من تجارته[٩] ، وفرض الجزية حسب طاقة البلاد المالية ، فجعلها على أهل الشام أكثر منها على أهل اليمن بسبب غناهم ويسارهم[١٠] ، ورفع الجزية عن الفقراء الذين لا يستطيعون دفعها ، وأجرى عليهم رزقاً من بيت المال ، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣١)؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٦٩).
(٢) السياسة المالية والاقتصادية لعمر ، (ص ٦٩).
(٣) المغني ، لابن قدامة (١٠/ ٥٥٧).
(٤) السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٧٠).
(٥) الضرائب في السواد ، (ص ٥٨).
(٦) الطبقات (٥/ ٣٤٥)؛ الخراج ، للريس ، (ص ٢٣٠).
(٧) الأموال ، رقم (١٢٧) ، (ص ٦١).
(٨) الطبقات (٥/ ٣٨٤).
(٩) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٩٩).
(١٠) الأموال ، لأبي عبيد ، رقم (١٠٧) ، (ص ٥١).

عنه[١] ، وخفَّضَ عمر الجزية عن أهل نجران حيث أمر بإحصائهم ، فتبين له أن عددهم نقص إلى العشر ، وجزيتهم بقيت كما هي ، فأخذ منهم مئتي حلة بدلاً من ألفين ، وأسقط جزية من مات أو أسلم[٢] .

وقد كانت للإصلاحات في جباية الجزية آثار مالية لصالح بيت المال ، فإسقاط الجزية عمن أسلم أدّى إلى زيادة الثقة بين الحاكم والمحكوم ، والشعور بالعدل والإنصاف ، وبالتالي أدّى إلى إيقاف القلاقل والفتن التي كلفت الدولة نفقات طائلة ، كما أن إسلام كثير من أهل الذمة جعلهم يدفعون الزكاة بدل الجزية ، والزكاة مقدارها أكبر ، هذا مع استمرار دفع الخراج على الأرض ، أما انتشار أجواء الأمن والعدل فقد زاد الإنتاج؛ حيث اندفع الناس للإنتاج والتنمية[٣] .

٣ـ الخراج :

هو ما تأخذه الدولة من ضرائب على الأرض المفتوحة عنوة ، أو الأرض التي صالح أهلها عليها[٤] . لقد ارتفع إيراد الخراج في زمن عمر بن عبد العزيز وبلغ مئة وأربعة وعشرين مليون درهم[٥] .

وكانت هذه الزيادة في إيراد الخراج نتيجة لسياسته الإصلاحية؛ فقد منع بيع الأرض الخراجية ، فحافظ على المصدر الرئيسي للإنتاج ، كما اعتنى بالمزارعين ، ورفع عنهم الضرائب والمظالم التي كانت تعوق إنتاجهم ، واتبع سياسة الإصلاح والإعمار وإحياء الأرض الموات ، كما اهتم ببناء مشاريع البنية الأساسية للقطاع الزراعي؛ فبنى الطرق والقنوات[٦] ، فمشاريع الطرق سهلت على المزارعين تسويق إنتاجهم ، ومشاريع القنوات والآبار سهلت عليهم سقي محاصيلهم بكلفة أقل ، كل هذه الإصلاحات الخراجية أثمرت في النهاية وأدت إلى ارتفاع الخراج زمن عمر ، فقد بلغ خراج العراق في عهده مئة وأربعة وعشرين مليون درهم ، وهذا المقدار أكبر مما جبي في العهود السابقة ، فقد بلغ خراج العراق زمن الحجاج أربعين مليون درهم ، وفي عهد عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ مئة مليون درهم[٧] .

---

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر ، (ص ٧١).
(٢) الخراج ، للريس ، (ص ٢٣٢).
(٣) الخراج ، للريس ، (ص ٢٥٩)؛ السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٧٢).
(٤) معجم لغة الفقهاء ، (ص ١٩٤).
(٥) الخراج ، للريس ، (ص ٢٣٨).
(٦) السياسة المالية والاقتصادية لعمر ، (ص ٧٤).
(٧) الخراج ، للريس ، (ص ٢٣٧ ، ٢٣٨)؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر ، (ص ٧٥).

أما خراج خراسان زمن عمر بن عبد العزيز فقد كان فائضاً عن حاجات الدولة ، وبلغ الخراج زمن عمر أقصى قدر ممكن أن يبلغه في الأحوال العادية[١] . وهذا الارتفاع في مقدار الخراج يشير إلى قوة الدولة المالية ، لأن خراج العراق كان يشكل أكبر نصيب من إيراداتها[٢] ، مما ساعد على تحقيق الأهداف الاقتصادية من دعم مشاريع البنية التحتية والمشاريع الإنتاجية والإنفاق على الطبقات الفقيرة والعاجزة ، ذلك لأن إيراد الخراج يتسم بالمرونة من حيث مصارفه ، بعكس الزكاة فهي محددة المصارف[٣] .

٤ ـ العشور :

العشور في الاصطلاح : ما يؤخذ على تجارة أهل الحرب وأهل الذمة عندما يجتازون بها حدود الدولة الإسلامية[٤] ، فتؤخذ العشور من تجارة الحربي العُشر ، ومن تجارة الذمي نصف العشر ، ولا تؤخذ في السنة لنفس المال إلا مرة واحدة ، ونصابها عشرون ديناراً للذمي ، وعشرة للحربي[٥] .

وقد اهتم عمر بن عبد العزيز بإيراد العشور ، فوضح مبادئها للعمال ، وأمر بكتابة كتاب لدافعها لإعفائه منها للحول القادم ، كما منع قبض العشور ، والتي كانت تفرض على الناس بغير حق[٦] ، وقد نشطت التجارة في عهده ، وتوافرت موارد جديدة للدولة ، واستطاع أن يوظفها للإنفاق العام ، وكانت الإجراءات التي اتخذها عمر لتنشيط الحركة التجارية كالآتي :

أ ـ إلغاء الضرائب الإضافية التي كانت مفروضة على القطاع الزراعي[٧] ، وقد انعكس هذا إيجاباً على القطاع التجاري في صورة انخفاض ملحوظ في أسعار السلع الزراعية ، فزاد في الطلب عليها ، وأحدث رواجاً في تجارتها ، وفي ظل اقتصاد قوامه الزراعة فإن زيادة عرض السلع الزراعية وانخفاض أثمانها على النحو الذي واكب السياسة الرشيدة لعمر بن عبد العزيز أحدث رواجاً لا في التجارة فحسب ، ولكن في بقية قطاعات الاقتصاد الإسلامي[٨] .

---

(١) الخراج ، للريس ، (ص ٢٣٧).
(٢) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٧٦).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) معجم الفقهاء ، (ص ٣١٢).
(٥) المغني (١٠ / ٥٨٩)؛ السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٧٦).
(٦) السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٧٧).
(٧) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، (ص ١٤١).
(٨) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢١٨).

ب - إلغاء الضرائب على القطاع التجاري ، والاقتصار على العشور[١] ، وكان لهذا تأثير إيجابي على قطاع التجارة ، وقد أدى إلى تشجيع مزاولة التجارة ، وزاد من أرباح التجارة ، فزاد معها حجم المبادلات التجارية[٢].

جـ - إلغاء أسلوب العنف في تحصيل مستحقات الدولة المالية[٣] على التجار وغيرهم ، وهذا أيضاً من عوامل تشجيع التجارة وتنميتها.

د - عمل استراحات[٤] على طريق التجارات مع بلاد الشرق ، ومطالبة الولاة على البلاد التي توجد بها هذه الاستراحات بأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين المسافرين[٥] يوماً وليلة ، وأن يتعاهدوا دوابهم على حساب الدولة ، ومضاعفة هذه المدة لمن يشكو منهم علة ، وبالنسبة لمن مر بهذه الاستراحات وكان منقطعاً أو سرقت تجارته أو تلفت لأي سبب ، فكان يعطى من المال ما يكفيه للوصول إلى بلده ، ولا يخفى ما كان لهذه التسهيلات والضمانات من عوامل تشجيع للتجار وللتبادل التجاري[٦].

هـ - منع العطاء عن التجار ، حتى تكون التجارة مصدر رزقهم الوحيد فيهتموا بها أكثر وينشطوا فيها ، لا سيما وأن التجارة كانت في ذلك الوقت متعبة من حيث السفر ، والترحال ، لعدم توفر وسائل المواصلات المريحة التي نشاهدها اليوم.

و - قضاء ديون كل من أدان في غير سفه ولا سرف[٧] ، ويدخل ضمنهم التجار إن لم يكونوا جلهم ، وقد أدى هذا القرار إلى إقالة عثرات التجار الذين أفلسوا ، ومكنهم من العودة إلى مزاولة التجارة ، وخاصة تلك الفئة من التجار الذين بدؤوا تجارتهم عن طريق اقتراض رأس المال المطلوب.

ز - الحرص على ضبط ومعايرة وتوحيد المكاييل والموازين في كافة أنحاء الدولة ، وجعل ذلك من مواد القانون الأساسي للدولة.

ح - منع الولاة والأمراء من الاشتغال بالتجارة، حتى لا يكون في دخولهم السوق إفساد للمنافسة الشريفة بين التجار ، أو تأثير على الأسعار لصالحهم ، وهي محاولة من عمر بن عبد

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، (ص ٤٣٩).
(٥) كان معظم السفر لناحية المشرق لقصد التجارة.
(٦) التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، (ص ٢١٩).
(٧) الأموال ، لأبي عبيد ، (ص ٢٣٤ ، ٢٣٥).

العزيز بالبعد بالأسواق عن أي مؤثرات غير طبيعية تؤثر في تلقائية تحديد السعر[١].

ط ـ منع الاحتكار، ومن ذلك: إعادته دكاكين بحمص كانت في يد مجموعة من أهل السوق، وكان ابن الوليد بن عبد الملك قد استولى عليها، وحولها إلى ملكية خاصة له، فنزعها وأعادها إلى أصحابها[٢]، وبهذا الموقف ووجود[٣]هذه الإجراءات الإصلاحية ساهمت في ازدهار الحركة التجارية في عهد عمر بن عبد العزيز، وبذلك زادت حصيلة إيرادات العشور، وتوافرت موارد جديدة للدولة، واستطاع عمر أن ينفقها على الصالح العام.

٥ ـ خمس الغنائم والفيء:

فالغنيمة في الاصطلاح: ما استولي عليه من أموال الكفار المحاربين عنوة وقهراً حين القتال[٤]، والفيء في الاصطلاح: كل مال وصل من المشركين من غير قتال ولا بإيجاف خيل ولا ركاب[٥].

فعندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة توجه لإصلاح الأوضاع الداخلية للدولة، لذلك لم تكثر الفتوحات في زمنه؛ حيث استعاض عنها بالدعوة والقدوة الحسنة، فقد بعث بكتب للملوك والشعوب، فدخل البربر في الإسلام بدون قتال[٦]، ولهذا لم تتحقق موارد كثيرة من خمس الغنائم زمن عمر، وما كان موجوداً في بيت المال منه كان مصدره الفتوحات السابقة[٧]. ومع ذلك فقد سعى لإصلاح موازنة خمس الغنائم، فقد جعل للخمس بيت مال مستقل عن الأموال الأخرى[٨]، وأمر بوضعه في مواضعه المذكورة في سورة الأنفال، وآثر به أهل الحاجة منهم حيث كانوا[٩].

وقد أمر بعشرة آلاف دينار من سهم ذوي القربى فقسمها في بني هاشم، وساوى بين الذكر والأنثى، والصغير والكبير، فكتبت إليه فاطمة بنت الحسين تشكر له ما صنع، وتقول: يا أمير

---

(١) التطور الاقتصادي في العصر الأموي، (ص ٢١٩).
(٢) المصدر السابق نفسه، (ص ٢٢٠).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) الأموال، لأبي عبيد، رقم (٦٢٦)، (ص ٣٢٣).
(٥) الأحكام السلطانية، للماوردي، (ص ١٩٩).
(٦) السياسة المالية والاقتصادية لعمر، ص ٨١.
(٧) المصدر السابق نفسه.
(٨) المصدر السابق نفسه.
(٩) الطبقات (٥ / ٣٥٠)؛ سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ٧٢)؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر، (ص ٨٢).

المؤمنين ! قد أخدمت من كان لا خادم له ، واكتسى منهم من كان عارياً ، واستنفق من كان لا يجد ما يستنفق[١] .

ولقد تمسك عمر في حق الخمس ، فلما فتحت الأندلس قبل خلافة عمر لم يخمسوها ، فأمر عامله عليها أن يبين العنوة من أرضها ويأخذ منها الخمس[٢] .

وأما في تصرفه في الفيء ، فقد كان متبعاً للقرآن والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين ، فقد كتب كتاباً ذكر فيه عن الأموال والقرى التي أفاء الله بها على رسوله ﷺ مما لم يوجف عليه المسلمون بخيل ولا ركاب ، واستدل بآيات سورة الحشر التي نزلت في ذلك ، وبين أن ما من أحد من المسلمين إلا له حق في الفيء ، فقد ذكرت الآيات المهاجرين والأنصار ومن جاء بعدهم من المسلمين بعد الهجرة الأولى حتى تنقضي الدنيا[٣] . وهو بذلك كان موافقاً لاجتهاد عمر بن الخطاب في جعل الفيء موقوفاً على أجيال المسلمين[٤] .

ونظر عمر في مصارف الخمس فوجدها موافقة لمصارف الفيء ، فرأى أن يضمه إليه كما فعل عمر بن الخطاب[٥] ، ويصرف منها على جميع مصالح المسلمين ، وكتب في ذلك كتاباً: . . وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة اختلفوا في موضعه . . ووضع مواضع شتى ، فنظرنا فإذا هو على سهام الفيء في كتاب الله لم تخالف واحدة من الاثنتين الأخرى ، فإذا عمر بن الخطاب رحمه الله قد قضى في الفيء قضاءً قد رضي به المسلمون ، فرض للناس أعطية وأرزاقاً جارية لهم ، ورأى أن لن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك ، ورأى أن فيه لليتيم والمسكين ، وابن السبيل ، فرأى أن يُلحق الخمس بالفيء وأن يوضع مواضعه التي سمّىٰ الله وفرض . . . فاقتدوا بإمام عادل؛ فإن الآيتين متفقتان: آية الفيء ، وآية الخمس . . . فنرى أن يُجمعا جميعاً فيُجعلا فيئاً للمسلمين ولا يستأثر عليهم[٦] .

لقد ساعدت إصلاحات عمر في إيرادات الخمس والفيء على تحقيق أهداف سياسته الاقتصادية ، فتوزيعه للخمس على الأسهم المذكورة في القرآن مع إيثاره لذوي الحاجة أينما وجدوا ساعد على تحقيق إعادة توزيع الدخل والثروة ، وشعر الناس بالعدل وزوال الظلم ، بسبب هذه السياسة الرشيدة السديدة .

---

(١) الطبقات (٥ / ٣٩٠) ، و: السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٢٨).
(٢) تاريخ الإسلام ، حسن إبراهيم (١ / ٣٢٠).
(٣) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٩٧).
(٤) الخراج ، أبو يوسف ، (ص ٢٥)؛ السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٨٢).
(٥) السياسة المالية والاقتصادية لعمر ، (ص ٨٣).
(٦) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٩٧)؛ الأموال ، رقم (٨٣٨).

رابعاً: سياسة الإنفاق العام لعمر بن عبد العزيز:

١ ـ إنفاق عمر على الرعاية الاجتماعية:

لتحقيق هدف إعادة توزيع الدخل والثروة سعى عمر إلى زيادة الإنفاق على الفقراء والمحتاجين، وتأمين الرعاية الصحية والاجتماعية لهم، وهذه مطالب شرعية جاءت في القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد اهتم منذ الأيام الأولى لخلافته باتباع الشرع والتزام الحق والعدل، فأرسل إلى العلماء يستفسر، وقد كتب ابن شهاب الزهري لعمر كتاباً عن مواضع السنة في الزكاة ليعمل بها في خلافته، فذكر فيها: إن فيها نصيباً للزمنى والمقعدين (أصحاب العجز الأصلي)، ونصيباً لكل مسكين به عاهة لا يستطيع عَيْلة وتقليباً في الأرض (أصحاب العجز الطارئ؛ كالعامل الذي يصاب في عمله، والمجاهد الذي يصاب في الحرب). ونصيباً للمساكين الذين يسألون ويستطعمون الغني حتى يأخذوا كفايتهم (ولا يحتاجون بعدها إلى سؤال).. ونصيباً لمن في السجون من أهل الإسلام ممن ليس له أحد... ونصيباً لمن يحضر المساجد الذين لا عطاء لهم ولا سهم (أي ليست لهم رواتب ومعاشات منتظمة) ولا يسألون الناس... ونصيباً لمن أصابه فقر وعليه دين ولم يكن شيء منه في معصية الله، ولا يُتهم في دينه.. ونصيباً لكل مسافر ليس له مأوى، ولا أهل يأوي إليهم، فيُؤوى ويُطعم وتُعلف دابته حتى يجد منزلاً أو تقضى حاجته[1].

أ ـ الإنفاق على الفقراء والمساكين:

فقد كان يفكر في الفقراء والمساكين، ويسعى إلى إغنائهم، فقد مرت معنا قصته مع زوجته فاطمة عندما سألته عن سر بكائه، فقال لها: تقلّدت أمر أمة محمد ﷺ، فتفكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، والمظلوم المقهور، والغريب المأسور، والكبير، وذي العيال في أقطار الأرض، فعلمت أن ربي سيسألني عنهم، وأن خصمي دونهم محمد ﷺ، فخشيت ألا تثبت حجتي عند خصومته، فرحمت نفسي فبكيت[2].

هذه الحادثة تلخص سياسة عمر في الإنفاق على الفئات المحتاجة، والحادثة مليئة بالمعاني وتحتاج إلى وقفات؛ فقد شعر عمر بعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه؛ قال رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته»[3].

وقد عمل عمر على سد احتياجات الناس، جاء رجل لعمر فقام بين يديه فقال: يا أمير

---

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز، (ص ٨٣).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢)؛ سيرة ومناقب عمر، لابن عبد الحكم، (ص ٢٤٨).
(٣) البخاري، رقم (٨٩٣).

المؤمنين! اشتدت بي الحاجة ، وانتهت بي الفاقة ، والله سائلك عن مقامي غداً بين يديه ، وكان عمر قد اتكأ على قضيب ، فبكى حتى جرت دموعه على القضيب ، ثم فرض له ولعياله ، ودفع له خمسمئة دينار حتى يخرج عطاؤه[١] .

وكان رحمه الله يهتم بشأن الأرامل وبناتهن كما حدث مع المرأة العراقية التي مرّ ذكرها ، وقد قال ﷺ : «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل»[٢] .

وقد خصّص عمر داراً لإطعام الفقراء والمساكين وأبناء السبيل[٣] ، ولم يكتفِ عمر بالاعتناء بالفقراء فحسب ، بل امتدت رعايته إلى المرضى وذوي العاهات والأيتام ، فقد كتب كتاباً إلى أمصار الشام : ادفعوا إليّ كل أعمى في الديوان أو مقعد ، أو من به فالج ، أو من به زمانة ، تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة . فرفعوا إليه ، فأمر لكل أعمى بقائد ، وأمر لكل اثنين من الزمنى بخادم . . ثم كتب : ارفعوا إليّ كل يتيم ، ومن لا أحد له . . . فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعون بينهم بالسوية[٤] .

ب ـ الإنفاق على الغارمين :

من الفئات التي اهتم بها عمر الغارمون ، فقد كتب ابن شهاب الزهري لعمر عن سهم الغارمين : لمن يصاب في سبيل الله في ماله . . ولمن أصابه فقر ، وعليه دين لم يكن شيء منه في معصية الله ، ولا يُتهم في دينه[٥] . ولذلك أمر عمر بقضاء الدين عن الغارمين ، فكتبوا إليه : إنا نجد الرجل له المسكن ، والخادم ، وله الفرس ، والأثاث في بيته ، فكتب عمر : لابد للرجل من المسلمين من سكن يأوي إليه رأسه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوّه ، وأثاث في بيته ، فهو غارم فاقضوا عنه[٦] .

وكتب إليه والي الكوفة وقد اجتمعت عنده أموال ، فسأل عمر عنها فأجاب : كتبت تذكر أنه قد اجتمعت عندك أموال بعد أعطية الجند ، فأعطِ منهم من كان عليه دين في غير فساد ، أو تزوّج فلم يقدر على نقد والسلام[٧] . وكتب كتاباً قُرِئَ في مسجد الكوفة : من كانت عليه أمانة لا يقدر

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٨٩).
(٢) البخاري ، رقم (٦٠٠٦).
(٣) الطبقات (٥/ ٣٧٨).
(٤) سيرة ومناقب عمر ، لابن الجوزي ، (ص ٢٠٢).
(٥) الأموال ، أبو عبيد ، رقم (١٨٥٠)؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٢٩).
(٦) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١٧١)؛ السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٩٢).
(٧) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٦٧).

على أدائها فأعطوه من مال الله ، ومن تزوج امرأة فلم يقدر أن يسوق إليها صداقها فأعطوه من مال الله[(١)].

جـ ـ الإنفاق على الأسرى :

قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان]. اهتم عمر بن عبد العزيز بالأسرى وبالإنفاق عليهم من بيت مال المسلمين ، فقد كتب كتاباً إلى أسرى المسلمين في القسطنطينية[(٢)]، وقد تحدثت عن الكتاب في كلامي عن الحياة الاجتماعية ، واهتم بالسجناء في سجون المسلمين بسبب جرم أو قصاص ، فقد أمر عمر برعايتهم والإنفاق عليهم . وكتب عمر إلى العمال : لا تدعُنَّ في سجونكم أحداً من المسلمين في وثاق لا يستطيع أن يصلي قائماً ، ولا يبيتنّ في قيد إلا رجل مطلوب بدم ، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وإدامهم[(٣)]. وأمر لأهل السجون برزق وكسوة في الصيف والشتاء[(٤)].

د ـ الإنفاق على المسافرين وأبناء السبيل :

اهتم عمر بالمسافرين وأبناء السبيل ، فأمر عماله ببناء بيوت الضيافة على الطرق لرعاية المسافرين والاهتمام بهم ، وكتب إلى أحد عمّاله : اعمل خانات في بلادك ، فمن مرّ بك من المسلمين فاقروهم يوماً وليلة وتعهدوا دوابهم ، فمن كانت به علَّة فاقروه يومين وليلتين، فإن كان منقطعاً به فقوّوه بما يصل به إلى بلده[(٥)]. وأمر عمر بالاهتمام بالحجّاج، والإنفاق عليهم ورعاية ضعيفهم وإغناء فقيرهم[(٦)].

هـ ـ الإنفاق لفك الرقاب :

بعد أن أنفق عمر على الفقراء والمساكين ، والعاجزين ، والغارمين وأبناء السبيل وجه الأموال لفك رقاب المستعبدين ، وقال عامل صدقات إفريقية : بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً . . فاشتريت بها رقاباً ولاؤهم للمسلمين[(٧)].

---

(١) الطبقات (٥/ ٣٧٤).
(٢) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٩٣).
(٣) الخراج ، أبو يوسف ، (ص ٣١٥).
(٤) الطبقات (٥/ ٣٥٦).
(٥) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٩٤).
(٦) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٦٥).
(٧) السياسة المالية والاقتصادية ، (ص ٩٤).

و ـ الإنفاق في وجوه أخرى:

وقد مرّ معنا إنفاق عمر على العلماء لكي يتفرغوا لدعوة الناس وتعليمهم، واتسعت رعايته الاجتماعية لتشمل جميع فئات الأمة حتى الأطفال الصغار، وحدّد لهم مبلغاً من المال ليستعين به ذووهم على تربيتهم، واهتم بمواطنيه من أهل الذمة، فكان ينفق على فقرائهم ومحتاجيهم من بيت المال[(١)]، كما أنه لابد من الإشارة إلى أن سياسة عمر بن عبد العزيز الراشدة ساهمت في إغناء عدد كبير من المسلمين وزيادة ثرواتهم في المجال التجاري والزراعي وغيرها، وساهمت في سريان روح التدين وحب الآخرة في نفوس الناس، ورغبوا في الإكثار من فعل الخيرات ابتغاء مرضاة الله تعالى والرغبة فيما عند الله، فكثر الإنفاق في سبيل الله لمساعدة الفقراء والمساكين والأرامل، وبناء المرافق العامة وحفر الآبار، وتشييد المساجد وغير ذلك، وهذا يخفف الأعباء المالية على بيت مال المسلمين في العاصمة وأقاليمها الواسعة.

٢ ـ ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

كانت سياسة عمر بن عبد العزيز في ميدان الإنفاق تقوم على أساس مبدأ الترشيد الاقتصادي، أو ما يعبَّر عنه بمبدأ القوامة في الإنفاق، ومقتضاه البعد عن الإسراف والتبذير، والبُعد عن الشح والتقتير[(٢)]. ومن الخطوات التي اتخذها في مجال ترشيد الإنفاق في مصالح الدولة:

أ ـ قطع الامتيازات الخاصة بالخليفة وبأمراء الأمويين:

أعاد عمر القطائع والحقوق الخاصة إلى أصحابها، والحقوق العامة إلى بيت المال، وبدأ بنفسه وبآل بيته ـ كما مرّ معنا ـ وكان عمر لا يأخذ من بيت المال شيئاً، فقالوا له: لو أخذت ما كان يأخذ عمر بن الخطاب، قال: كان عمر لا مال له، وأنا مالي يغنيني[(٣)]. وعندما أُحضرت مراكب الخلافة لعمر بعد موت سليمان، طلب بغلته وأمر بوضع المراكب والفرش والزينة في بيت المال، وكانت عادة الخلفاء قبله أن يأخذ ورثة الخليفة الميت ما استعمل من ثيابه وعطوره ويُردّ الباقي إلى الخليفة الجديد، فلما استخلف عمر قال: ما هذا لي ولا لسليمان، ولا لكم، ولكن يا مزاحم ضُمّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين[(٤)].

وكان عمر لا يستعمل الأموال العامة لحاجته الخاصة مطلقاً؛ فمرة بعث أمير الأردن بسلتي

---

(١) المصدر السابق نفسه، (ص ٩٥و ٩٦).
(٢) المصدر السابق نفسه، (ص ٩٦).
(٣) العقد الفريد (٥/ ٢٢)؛ السياسة المالية والاقتصادية، (ص ٩٧).
(٤) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ٣٥)؛ السياسة المالية، (ص ٩٧).

رطب إلى عمر ، وقد جيء بها على دواب البريد ، فلما وصلت عمر أمر ببيعها وجعل ثمنها في علف دواب البريد[(١)] ، ومرة طلب من عامله أن يشتري له عسلاً ، فحمل له على دواب البريد ، فأمر ببيع العسل وجعل ثمنه في بيت المال ، وقال له : أفسدت علينا عسلك[(٢)] .

ب ـ ترشيد الإنفاق الإداري :

سعى عمر على تعويد أعوانه وولاته على الاقتصاد في أموال المسلمين ، فعندما طلب والي المدينة أن يُصرف له شمعٌ ، فأجابه عمر : لعمري لقد عهدتك يا بن أم حزم وأنت تخرج من بيتك في الليلة الشاتية المظلمة بغير مصباح ، ولعمري لأنت يومئذ خير منك اليوم ، ولقد كان في فتائل أهلك ما يغنيك والسلام[(٣)] . وكتب إليه أيضاً وقد طلب قراطيس للكتابة : . . . إذا جاءك كتابي هذا فأدق القلم واجمع الخطّ ، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة ، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضرّ بيت مالهم[(٤)] .

يلاحظ حرص عمر على المال العام ، ويرشد ولاته للاستغلال الأمثل لموارد الدولة ، فعمر يريد من العامل أن يستغلَّ الأوراق في الرسائل إلى أقصى درجة .

جـ ـ ترشيد الإنفاق الحربي :

خاضت الدولة الأموية حروباً خارجية وداخلية ، فكلّفت ميزانية الدولة الشيء الكثير منها حملة القسطنطينية زمن سليمان بن عبد الملك ، حيث كلفت الكثير من الأموال والشهداء دون جدوى ، فما كان من عمر بعد استخلافه إلا أن أرسل كتاباً يأمر فيه مسلمة بن عبد الملك قائد الحملة بالعودة بعد أن أصاب الجيش ضيق شديد .

وقد أدّت سيرة عمر وسياسته إلى استقرار الأوضاع الداخلية ، وتوقفت الحروب والفتن ، ولما بلغت سيرته الخوارج ، اجتمعوا وقالوا : ما ينبغي لنا أن نقاتل هذا الرجل[(٥)] ، ولقد ساهم إيقاف الحروب والفتن في إيجاد مناخ عام من الراحة والطمأنينة والاستقرار ساهم في النمو الاقتصادي للدولة ، وتحسن أوضاع الطبقات الفقيرة والمحتاجة بفضل الله ثم سياسة عمر الرشيدة .

* * *

(١) السياسة المالية والاقتصادية لعمر بن عبد العزيز ، (ص ٩٨) .
(٢) سيرة ومناقب عمر ، لابن الجوزي ، (ص ٢١٠) .
(٣) الوالي : هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم . سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٦٤) .
(٤) سيرة ومناقب عمر ، لابن الجوزي ، (ص ١٢١) .
(٥) المصدر السابق نفسه ، (ص ٨٦)؛ السياسة المالية والاقتصادية لعمر ، (ص ١١٠) .

المبحث السابع
المؤسسة القضائية في عهد عمر بن عبد العزيز وبعض اجتهاداته الفقهية

أولاً: في الأقضية والشهادات:

١ ـ في صفات القاضي:

كان عمر بن عبد العزيز يدقق في اختيار القضاة حتى لا يُبتلى الناس بقاضٍ يتخبط فيهم بغير حق، ولهذا فقط اشترط عمر بن عبد العزيز في القاضي خمسة شروط، ولا يجوز له أن يلي القضاء حتى تكتمل فيه هذه الشروط؛ وهي: العلم، والحلم، والعفة، والاستشارة، والقوة في الحق[١].

فعن مزاحم بن زفر قال: قدمت على عمر بن عبد العزيز في وفد أهل الكوفة، فسألنا عن بلدنا وأميرنا وقاضينا، ثم قال: خمس إن أخطأ القاضي منهن خصلة كانت فيه وصمة: أن يكون فهيماً، وأن يكون حليماً، وأن يكون عفيفاً، وأن يكون صليباً، وأن يكون عالماً يسأل عما لا يعلم[٢]. وفي رواية: عن يحيى بن سعيد عن عمر بن عبد العزيز قال: لا ينبغي للقاضي أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال: عفيف، حليم، عالم بما كان قبله، يستشير ذوي الرأي، لا يبالي ملامة الناس[٣]. وقد قال بهذا المعنى عمر بن الخطاب[٤]، وعلي بن أبي طالب[٥] رضي الله عنهما، وذهب الأئمة الأربعة إلى موافقة عمر بن عبد العزيز في كل أو جل هذه الصفات[٦].

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز، د. محمد شقير (٢/ ٢٨٥).

(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٩).

(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣٦٩ـ ٣٧٠).

(٤) المصنف لعبد الزراق (٨/ ٢٩٩)؛ شذرات الذهب (١/ ١٢٠).

(٥) المغني (٩/ ٣)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٨٥).

(٦) حاشية ابن عابدين (٤/ ٣٠٥)؛ روضة الطالبين (١١/ ٩٥ ـ ٩٧)؛ جواهر الإكليل (٢/ ٢٢١)؛ المغني (٩/ ٣٩ ـ ٤٣، ٥٠).

٢ ـ في حكم القاضي في ما استبان له، ويرفع ما التبس عليه:

قد يكون هناك بعض القضايا المتشابكة والتي أمرها يحيّر القاضي؛ فهل يحكم القاضي فيها وإن لم يظهر له الحق، أم يتركها لمن هو أعلم منه؟

لقد قرر عمر بن عبد العزيز قراراً هو درس في القضاء يجب أن يعمل به إلى يوم القيامة، ذلك أنه يرى أن القاضي إن تبين له الحق حكم به، وإن لم يظهر له فلا يترك القضية وإنما يرفعها إلى من هو فوقه لينظرها[١].

عن ميمون بن مهران: أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز يشكو شدة الحكم والجباية ـ وكان قاضي الجزيرة وعلى خراجها ـ قال: فكتب إليه عمر: إني لم أكلفك ما يُعنتك، أجب الطيب، واقضِ بما استبان لك من الحق، فإذا التبس عليك أمر فارفعه إليّ، فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه، ما قام دين ولا دنيا[٢].

وهذا الأثر يبين أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يجعل الناس في العلم ولا في الفهم سواء، بل هم درجات في ذلك، والذي يولى القضاء عليه أن يحكم بين الناس الذين ولي أمرهم، وذلك إذا ظهر له الحق، فإذا شق عليه أمر من هذه القضايا فعليه أن يستشير أهل العلم في بلاده، فإن لم يجد عندهم معرفة لهذا الأمر رفعه إلى من هو أعلم منه أو إلى ولي الأمر ليحوِّل هذه القضية إلى غيره، أو ليحكم فيها إن كان من أهل العلم[٣].

وكان عمر بن عبد العزيز له مجالس علمية يستشير فيها العلماء والفقهاء وأصحاب الرأي في أمور الدين والدنيا، وقد أعرب عن إدراكه العميق لما يأتي عن التقاء الأفكار من نتائج فكرية إيجابية، عندما سأله رجاء بن حيوة: يا أمير المؤمنين نهارك كله مشغول، وهذا جزء من الليل وأنت تسمر معنا؟ فقال عمر: يا رجاء، إن ملاقاة الرجال تلقيح لألبابها، وإن المشورة والمناظرة باب رحمة ومفتاح بركة، لا يضل معهما رأي ولا يقعد معهما حزم[٤]. وإني وجدتُ ملاقاة الرجال تلقيحاً لألبابهم[٥].

٣ ـ في الرفق بالحمقى والنهي عن العقوبة في الغضب:

كتب عمر بن عبد العزيز: من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى أمراء الأجناد.

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٨٧).
(٢) الخراج، لأبي يوسف، (ص ٢٤٠و ٢٤١).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٨٨).
(٤) ملامح الانقلاب الإسلامي، (ص ١٨٦)؛ عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، (ص ١٢٤).
(٥) ملامح الانقلاب الإسلامي، (ص ١٨٦).

أما بعد.. فإذا حضرك الخصم الجاهل الخرق ممن قدر الله أن يوليك أمره، وأن تبتلى به، فرأيت منه سوء رِعة، وسوء سيرة في الحق عليه، والحظ له، فسدده ما استطعت، وبصِّره وارفق به وعلمه، فإن اهتدى وأبصر وعلم كانت نعمة من الله وفضلاً، وإن هو لم يبصر ولم يعلم كانت حجة اتخذت بها عليه، فإن رأيت أنه أتى ذنباً استحل فيه عقوبة فلا تعاقبه بغضب من نفسك، ولكن عاقبه وأنت تتحرى الحق على قدر ذنبه بالغاً ما بلغ، وإن لم يبلغ ذلك إلا قدر جلدة واحدة تجلده إياها، وإن كان ذنبه فوق ذلك، ورأيت عليه من العقوبة قتلاً فما دونه فأرجعه إلى السجن، ولا يسرعن بك إلى عقوبته حضور من يحضرك[١]. وكان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام، ثم عاقبه كراهة أن يعجل في أول غضبه[٢].

إن العقوبة أثناء الغضب يحتمل أن يتجاوز القاضي فيها الحق تحت تأثير الغضب فيظلم المذنب، وخوفاً من التعدي في العقوبة فقد طلب عمر بن عبد العزيز من القاضي أن يحبس المذنب حتى يذهب غضب القاضي، ثم يحكم عليه وهو في هدوء على قدر ذنبه[٣].

٤ ـ خطأ الوالي في العفو خير من تعديه في العقوبة:

عن أبي عقبة: أن عمر بن عبد العزيز قال: ادرؤوا الحدود ما استطعتم في كل شبهة، فإن الوالي إذا أخطأ في العفو خير من أن يتعدى في العقوبة[٤].

٥ ـ في ترك العمل بالظن:

ولى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المعيطي على جند قنسرين، والفرات بن مسلم على خراجها، فتباغيا.. ولما قدم قابل، وقدم الوليد ومعه رؤوس أنباط قنسرين كتب عمر إلى الفرات أن اقدم، فقدم، وإنه لقاعد خلف سرير عمر، إذ دخل الأنباط فقال لهم عمر: ماذا أعددتم لأميركم في نُزله لمسيره إليّ. قالوا: وهل قدم يا أمير المؤمنين؟ قال: ما علمتم به؟ قالوا: لا والله يا أمير المؤمنين، فأقبل عمر بوجهه على الوليد، فقال: يا وليد: إن رجلاً ملك قنسرين وأرضها خرج يسير في سلطانه وأرضه حتى انتهى إليَّ لا يعلم به أحد، ولا ينفر أحداً ولا يروعه، لخليق أن يكون متواضعاً عفيفاً، قال الوليد: أجل والله يا أمير المؤمنين، إنه لعفيف وإني له لظالم، وأستغفر الله وأتوب إليه، فقال عمر: ما أحسن الاعتراف، وأبين فضله على الإصرار، وردهما عمر على عملهما.

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، (ص ٦٨، ٦٩).
(٢) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، (ص ٢٣٦).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٠).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، (ص ١٢٣)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩١).

فكتب إليه الوليد ـ وكان مرائياً ـ خديعة لعمر وتزيناً بما هو ليس عليه: إني قدرت نفقتي لشهر فوجدتها كذا وكذا درهماً، ورزقي يزيد على ما أحتاج إليه، فإن رأى أمير المؤمنين أن يحط فضل ذلك، فقال عمر: أراد الوليد أن يتزين عندنا بما لا أظنه عليه، ولو كنت عازلاً أحداً على ظن لعزلته، ثم أمر بحط رزقه الذي سأله، ثم أمر بالكتاب إلى يزيد بن عبد الملك وهو ولي عهده: إن الوليد بن هشام كتب إليَّ كتاباً ظني أنه تزين بما ليس هو عليه، ولو أمضيت شيئاً على ظني ما عمل لي أبداً، ولكني آخذ بالظاهر وعند الله علم الغيوب، فأنا أقسم عليك إن حدث بي حادث وأفضى هذا الأمر إليك فسألك أن ترد إليه رزقه وذكر أني نقضته فلا يظفر منك بهذا أبداً، فإنما خادع بالله والله خادعه، فلما مات عمر واستخلف يزيد كتب الوليد: إن عمر نقصني وظلمني، فغضب يزيد وبعث إليه فعزله، وأغرمه كل رزق جرى عليه في ولاية عمر ويزيد كلها، فلم يلِ له عملاً حتى هلك[١].

٦ ـ في الهدية لولاة الأمر:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى اعتبار الهدية لولاة الأمر من خلفاء وولاة الأقاليم وقضاة وغيرهم رشوة، وقد رفض الهدية مع شدة حاجته إليها، وأمر الناس بعدم تقديم الهدايا لولاة الأمر، كما أمر الولاة بأن لا يقبلوا شيئاً من الهدايا[٢]، عن فرات بن مسلم قال: اشتهى عمر بن عبد العزيز التفاح، فبعث فلم يجد شيئاً يشترون له به، فركب وركبنا معه، فمر بدير فتلقاه غلمان للديرانيين معهم أطباق فيها تفاح، فوقف على طبق منها فتناول تفاحة فشمها ثم أعادها إلى الطبق، ثم قال: ادخلوا ديركم لا أعلمكم بعثتم إلى أحد من أصحابي بشيء، قال: فحركت بغلتي فلحقته، فقلت: يا أمير المؤمنين، اشتهيت التفاح فلم يجدوه لك، فأُهدي لك فرددته! قال: لا حاجة لي فيه، فقلت: ألم يكن رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر يقبلون الهدية؟. قال: إنها لأولئك هدية، وهي للعمال بعدهم رشوة[٣].

٧ ـ في نقض الأحكام إذا خالفت النصوص الشرعية:

كتب عمر بن عبد العزيز برد أحكام من أحكام الحجاج مخالفة لأحكام الناس[٤]. وقد وافق عمر بن عبد العزيز في رد الأحكام إذا خالفت كتاب الله أو سنة نبيه أو الإجماع، وذهب الأئمة الثلاثة مالك والشافعي وأحمد أنه ينقضي الحكم إذا خالف الكتاب والسنة أو الإجماع[٥].

---

(١) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ١٢٩ ـ ١٣١).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٥).
(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٣٧٧).
(٤) حلية الأولياء (٥/ ٢٧٠).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٩٩).

٨ ـ فيمَنْ ضيع أمانته فعليه اليمين بعدم التفريط:

كتب وهب بن منبه إلى عمر بن عبد العزيز: إني فقدت من بيت مال اليمن دنانير. فكتب إليه عمر: أما بعد فإني لست أتهم دينك ولا أمانتك، ولكن أتهم تضييعك وتفريطك، وإنما أنا حجيج المسلمين في مالهم، وإنما لا أشحهم يمينك[١]، فاحلف لهم، والسلام[٢].

٩ ـ في أثر البينة الغائبة على تأخير القضاء:

كان عند عمر بن عبد العزيز نفر من قريش يختصمون إليه، فقضى بينهم، فقال المقضي عليه: أصلحك الله! إن لي بينة غائبة، فقال عمر: إني لا أؤخر القضاء بعد أن رأيت الحق لصاحبه، ولكن انطلق أنت؛ فإن أتيتني ببينة وحق هو أحق من حقهم، فأنا أول من رد قضاءه على نفسه[٣].

١٠ ـ نفقة البعير الضال:

عن الشعبي قال: أضل رجل بعيراً، فوجده عند رجل قد أنفق عليه، أعلفه وأسمنه، فاختصما إلى عمر بن عبد العزيز، وهو يومئذ أمير على المدينة، فقضى لصاحب البعير ببعيره وقضى عليه بالنفقة[٤].

١١ ـ في حرية اللقيط:

جاء كتاب عمر بن عبد العزيز إلى أهل مكة: إن اللقيط حر[٥].

١٢ ـ شهادة الرجل لأخيه أو لأبيه:

إن عمر بن عبد العزيز كتب: أن أجِزِ شهادة الرجل لأخيه إذا كان عدلاً[٦].

ثانياً: في الدماء والقصاص:

١ ـ تخيير الأولياء في قتل العَمْد بين العفو والدية والقتل:

كتب عمر بن عبد العزيز في امرأة قتلت رجلاً: إن أحب الأولياء أن يعفوا؛ فإن أحبوا أن

---

(١) أي: لابد من حلف اليمين بأنه لم يفرط، فإن حلف فلا ضمان عليه لأنه مؤتمن.
(٢) سيرة عمر، لابن الجوزي، (ص ١٠٤ و ١٠٥).
(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٦).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٦/ ٣١٢).
(٥) المصدر السابق نفسه (٦/ ٥٣١).
(٦) المصدر السابق نفسه (٨/ ٣٤٢ ـ ٣٤٣).

يعفوا عفوا ، وإن أحبوا أن يقتلوا قتلوا ، وإن أحبوا أن يأخذوا الدية أخذوها وأعطوا امرأته ميراثها من الدية[(١)] .

٢ ـ في التأني حتى يبلغ ولي المقتول :

كتب عمر بن عبد العزيز في رجل قُتل وله ولد صغير ، فكتب أن يتأنى بالصغير حتى يبلغ[(٢)] .

٣ ـ في عفو بعض الأولياء يسقط القود :

عن الزهري قال : وكتب به عمر بن عبد العزيز أيضاً : إذا عفا أحدهم فالدية[(٣)] .

٤ ـ في القتل بعد أخذ الدية :

قال عمر بن عبد العزيز : والاعتداء الذي ذكر الله : أن الرجل يأخذ العقل ، أو يقتص ، أو يقضي السلطان فيما بين الجارح والمجروح ، أو يعدو بعضهم بعد أن يستوعب حقه ، فمن فعل ذلك فقد اعتدى والحكم فيه إلى السلطان بالذي يرى فيه من العقوبة ، ولو عفا عنه لم يكن لأحد من طلبة الحق أن يعفو عنه بعد اعتدائه ، إلا فإذن السلطان ، وعلى تلك المنزلة كل شيء من هذا النحو ، فإنه بلغنا أن هذا الأمر الذي أنزل الله فيه : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ . . . ﴾ [النساء : ٥٩] الآية ، وما كان من جرح فوق الأدنى ودون الأقصى فهو يرى فيه بحساب الدية[(٤)] .

٥ ـ في القتيل يوجد في السوق :

كتب عدي بن أرطأة قاضي البصرة إلى عمر بن عبد العزيز : إني وجدت قتيلاً في سوق الجزارين ، قال : أما القتيل فديته من بيت المال[(٥)] .

٦ ـ في القتل في الزحام :

إذا قتل الإنسان بسبب ازدحام الناس ولم يعلم من قتله ؛ فهل يذهب دمه هدراً؟ إن عمر بن عبد العزيز يرى أن من مات بهذا السبب فديته في بيت المال[(٦)] . فعن عمر بن عبد العزيز : أنه

---

(١) المحلى (١٠/ ٣٦١) ؛ فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١١) .

(٢) مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١١) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٩/ ٣١٨) .

(٤) المصدر السابق نفسه (١٠/ ١٦ ، ١٧) .

(٥) المصدر السابق نفسه (٩/ ٤٥٩) .

(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٣٦) .

كتب في رجلين ماتا في الزحام: أن يوديا من بيت المال، فإنما قتله يد أو رجل[١].

ثالثاً: في الديات:

١ ـ مقدار الدية:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد أن الدية كانت على عهد رسول الله ﷺ مئة بعير[٢].

٢ ـ في دية اللسان:

عن سليمان بن موسى قال: في كتاب عمر بن عبد العزيز في الأجناد: ما قطع في اللسان، فبلغ أن يمنع الكلام كله، ففيه الدية كاملة، وما نقص دون ذلك فبحسابه[٣].

٣ ـ في دية الصوت والحنجرة:

حيث إن الصوت مصدره الحنجرة، وإن إتلافها قد يذهب بالصوت ومن ثم فلا كلام، فقد رأى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن فيها الدية كاملة إذا انقطع الصوت من ضربة[٤]، عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: في الحنجرة إذا كسرت فانقطع الصوت الدية كاملة[٥].

٤ ـ في دية الذكر:

وأما الذكر فلأهميته للرجل ولأنه إذا ذهب انقطعت شهوته وذهب نسله، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أنه إذا ذهب كله ففيه الدية كاملة، وما كان دون ذلك فبحسابه، فعن عمر بن عبد العزيز: في الذكر الدية، فما كان دون ذلك فبحسابه[٦].

٥ ـ في دية إفضاء المرأة:

إذا أصاب الرجل المرأة فأفضاها فقد ينتج عن ذلك منع اللذة والجماع، وقد نتج عنه حبس الحاجتين والولد، ونظراً لخطورة هذا الأمر فقد جعل فيه عمر بن عبد العزيز الدية كاملة، وفي رواية عنه: أنه جعل فيه ثلث الدية[٧]، ويمكن الجمع بين الروايتين بأن عمر بن عبد العزيز

---

(١) المحلى (١٠/ ٤١٨).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٩/ ١٢٨).

(٣) المصنف لعبد الرزاق (٩/ ٣٥٧)؛ فقه عمر (٢/ ٦٦).

(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٩).

(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٩/ ١٧٠)؛ فقه عمر (٢/ ٦٩).

(٦) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٧٢).

(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٧).

يجعل في إفضاء المرأة الدية كاملة إذا حبس الحاجتين والولد ، وثلث الدية إذا لم يحبس الحاجتين والولد[١] .

٦ ـ في دية الأنف :

نظراً للمصالح المترتبة على وجود الأنف من التنفس عن طريقه ومعرفة الروائح والتمييز بينها ، إضافة إلى جمال الوجه بوجود الأنف ، والتشويه الحاصل بقطعه ، كما أن العرب ترى في جدع الأنف إهانة لا يعدلها إهانة ، لذلك فقد جعل عمر بن عبد العزيز فيه الدية كاملة إذا جدع من أصله ، وأن ما كان دون ذلك فبحسابه[٢] .

٧ ـ في دية الأذن :

حيث إن الأذن تؤدي نصف منفعة السمع ، ولأنها مما يكون في الإنسان منه اثنتان؛ فإن عمر بن عبد العزيز يرى إذا استؤصلت أو ذهبت منفعتها ففيها نصف الدية؛ حيث إن قوله : في الأذن نصف الدية ، يتناول ذهاب سمعها ويتناول استئصالها[٣] .

٨ ـ في دية الرجل :

لما كان الإنسان لا يستطيع المشي إلا بالرجلين ، وأنه بالرجل الواحدة يكون قعيداً ، ولأن الرجل مما يكون في الإنسان منه اثنتان ، فقد جعل عمر بن عبد العزيز في الرجل نصف الدية[٤] .

٩ ـ في دية ما بين الحاجبين :

هناك بعض الجزئيات في الديات لم يتعرض لها العلماء قبل عمر بن عبد العزيز ، وهاهو عمر بن عبد العزيز يرى فيها رأيه ، من هذه الأمور دية الكسر إذا وقع بين الحاجبين وشان الوجه ولم ينقل منها للعظام[٥] ، فقد قال : . . فإن كان بين الحاجبين كسر شان الوجه ولم ينقل منها للعظام فربع الدية[٦] .

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٧٧) .

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٧٦) .

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٨٠) .

(٤) مصنف ابن أبي شيبة (٢٠٩٩) .

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٨٨) .

(٦) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٢٠) .

١٠ ـ في دية الجبهة إذا هشمت:

قال عمر بن عبد العزيز: في الجبهة إذا هشمت وفيها غوص من داخل مئة وخمسون ديناراً[١].

١١ ـ في دية الذقن:

وأما الذقن إذا كسرت فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن فيها ثلث الدية ، فقد قال: في الذقن ثلث الدية[٢] . هكذا يقرر عمر بن عبد العزيز باجتهاده وبرأيه السديد أموراً لم يُسبق إليها؛ منها: دية الذقن إذا كسرت فإنه جعل فيها ثلث الدية نظراً لأهميتها؛ حيث يمتنع مع كسرها مضغ الطعام وفتح الفم . ويبدو أن هذا القول تفرد به[٣] .

١٢ ـ في دية الأصابع:

نظراً لأهمية الأصابع وخاصة أصابع اليد ، فقد رأى عمر بن عبد العزيز أن في كل أصبع من أصابع اليد أو الرجل عشر الدية ، وفي كل قصبة من قصب الأصابع ثلث دية الأصبع إلا الإبهام لأنه قصبتان ففي كل قصبة منه نصف دية الأصبع ، فعن عمر بن عبد العزيز: في كل أصبع عشر من الإبل ، أو عدل ذلك من ذهب أو ورق[٤] .

١٣ ـ في دية الظفر:

حتى الظفر لم يغفل عنه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه؛ فقد جعل فيه إذا اسود أو سقط عشر دية الأصبع عشرة دنانير ، فعن عمر بن عبد العزيز: أنه اجتمع له في الظفر إذا نزع فعرّ[٥] ، أو سقط أو اسودَّ ، العشر في دية الأصبع ، عشرة دنانير[٦] .

رابعاً: في الحدود:

١ ـ أهمية إقامة الحدود:

حيث إن إقامة الحدود سبب في حفظ دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ، واستتباب الأمن في بلادهم ، فقد أكد عمر بن عبد العزيز على إقامة الحدود حتى جعلها من حيث الأهمية كإقامة

---

(١) المصدر السابق نفسه (٩/ ٢٩١).
(٢) مصنف عبد الرزاق (٩/ ٣٦١)؛ مصنف ابن أبي شيبة (٩/ ١٧٩).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٩٦).
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٠٠).
(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٠٢).
(٦) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٠٣).

الصلاة والزكاة[١] ، فقد كتب عمر بن عبد العزيز: إن إقامة الحدود عندي كإقامة الصلاة والزكاة[٢] .

٢ ـ في منع الرجوع عن الحدود بعد بلوغها الإمام:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى مسائل الحدود إذا رفعت إلى الإمام أو القاضي؛ فإنها تكون قد بلغت حداً لا يمكن الرجوع فيه ، بل يجب تنفيذ ما ثبت من الحدود[٣] .

٣ ـ في اجتماع أكثر من حد على رجل واحد:

قد يأتي الرجل بعدة جرائم قبل أن يقام عليه الحد؛ مثل: أن يزني ويسرق ويقتل ، فهل القتل كافٍ عن الحدود الأخرى فيأتي عليها؟ أم أنها تقام عليه الحدود ثم يقتل؟ إن الرواية عن عمر بن عبد العزيز تدل على أنه يقيم عليه الحدود أولاً ثم يقتله[٤] .

٤ ـ في عدم القطع أو الصلب إلا بعد مراجعة الخليفة:

رأى عمر بن عبد العزيز أن على الولاة مراجعة الخليفة في قضايا القتل والصلب ، وأن لا يُقتل أحد ولا يُصلب إلا بعد موافقة الخليفة على ذلك[٥] .

٥ ـ يشترط في المقذوف لحدِّه أن يكون مسلماً:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أنه لا حد في قذف كافر ، وذلك لأن الكفر أكبر من الزنىٰ المقذوف به ، فلا حاجة إلى إثبات براءته من هذا الذنب ما دام فيه أكبر منه وهو الكفر[٦] ، فعن طارق بن عبد الرحمن ومطرف بن طريف قالا: كنا عند الشعبي ، فرفع إليه رجلان ، مسلم ونصراني ، قذف كل واحد منهما صاحبه ، فضرب النصراني للمسلم ثمانين ، وقال للنصراني: لَمَا فيك أعظم من قذف هذا ، فتركه ، فرفع ذلك إلى عبد الحميد بن زيد ، فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز فذكر ما صنع الشعبي ، فكتب عمر يحسِّن ما صنع الشعبي[٧] . هكذا يرى عمر بن عبد العزيز: أنه لا حد على قذف الكافر إذ ليس بعد الكفر ذنب ، ولأن الكافر فيه الكفر

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ١١١).
(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٧٨).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١١٣).
(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ١١٧).
(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٢٠)؛ سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١١٤و ١١٥).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٠).
(٧) المصنف ، لعبد الرزاق (٦/ ٦٤ ـ ٦٥) ، (٧/ ١٣٠ ـ ١٣١).

وهو أكبر مما قذف به ، إذ لو وجد فيه الزنىٰ فهو أقل من الكفر ، إذاً فلا حد على من قذف الكافر[١] .

٦ ـ عدم سقوط الحد بقذف الرجل ابنه :

إذا قذف الرجل ابنه ، فهل يقام عليه الحد أم لا يقام؟ وهل من حق الأب على ابنه أن يقذفه بما ليس فيه؟ وإذا كان عليه حد؛ فهل يسقط عنه إذا عفا الابن؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن من قذف ابنه يقام عليه الحد ، إلا أنه إذا عفا الولد عن والده فلا يقام عليه الحد[٢] ، فعن ابن جريج قال: أخبرني رزيق ـ صاحب أيلة ـ أنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز في رجل افترى على ابنه ، فكتب بحد الأب إلا أن يعفو عنه ابنه[٣] .

٧ ـ عقوبة قذف النصرانية تحت المسلم :

إذا كانت النصرانية تحت مسلم ، ونظراً لأن قذفها يتعدى لزوجها المسلم أو ابنها المسلم؛ فإن عمر بن عبد العزيز يجلد من قذفها دون الحد[٤] . فعن أبي إسحاق الشيباني عن عمر بن عبد العزيز في رجل قذف نصرانية لها ولد مسلم ، فجلده عمر بضعة وثلاثين سوطاً[٥] . وقد وافق عمر بن عبد العزيز في رأيه هذا الزهري ، وقال قتادة: يجلد الحد[٦] . وقد اتفق أصحاب المذاهب الأربعة على أنه لا يحد ، وأما المالكية فقالوا: ينكل به من أجل أولادها المسلمين[٧] .

٨ ـ قذف المرأة للرجل بنفسها :

عن عمر بن عبد العزيز: أنه أتته امرأة فقالت: إن فلاناً استكرهني على نفسي ، فقال: هل سمعك أحد أو رآك؟ قالت: لا ، فجلدها بالرجل[٨] . هذه مسألة لا تتناول عقوبة الزنىٰ ، وإنما هي خاصة بالقذف ، فالمرأة التي تدَّعي على الرجل أنه استكرهها على الزنىٰ ، هي بكلامها هذا تعتبر قاذفة له بنفسها ، وعليها حد القذف إلا أن تأتي ببينة تدرأ عنها هذا الحد ، فسماع صياح المرأة هو عند عمر بن عبد العزيز يعفيها من حد القذف ، أو أن يكون أحد رآها ، وقد وافق

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٠).
(٢) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٣٣).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٩/ ٥٠٤).
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٣٦).
(٥) مصنف عبد الرزاق (٧/ ١٣٠).
(٦) المصدر السابق نفسه (٧/ ١٢٩ ـ ١٣٠).
(٧) المغني (٨/ ٢١٦)؛ فقه عمر (٢/ ١٤٠).
(٨) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٠).

عمر بن عبد العزيز في جلدها إن لم يكن لها بينة وافقه الزهري وقتادة وربيعة ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري[١].

٩ ـ قطع السارق قبل خروجه بسرقته:

ذهب عمر بن عبد العزيز بأنه لا قطع على السارق حتى يخرج بسرقته، فعن عمر بن عبد العزيز قال: لا يقطع حتى يخرج بالمتاع من البيت[٢].

١٠ ـ النباش سارق يستحق القطع:

إن من الناس من يأتي أموراً تشمئز منها النفوس، حتى الميت في قبره لم يسلم من بعض المنحرفين، فهناك سارق يحفر القبر ويأخذ أكفان الميت، وهذا عمر بن عبد العزيز يرى أن النباش سارق يستحق القطع، لأن من سرق من الأموات كمن سرق من الأحياء[٣]، فعن معمر قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز قطع نباشاً[٤].

١١ ـ عقوبة شرب الخمر للمرّة الثانية:

عن عبادة بن نسي قال: شهدت عمر بن عبد العزيز يضرب رجلاً حداً في خمر، فخلع ثيابه ثم ضربه ثمانين رأيت منها ما بضع ومنها ما لم يبضع، ثم قال: إنك إن عدت الثانية ضربتك ثم ألزمتك الحبس حتى تُحدث خيراً. قال: يا أمير المؤمنين! أتوب إلى الله أن أعود في هذا أبداً، فتركه عمر[٥].

١٢ ـ عقوبة ساقي الخمر:

إن من يوفِّر الخمر أو يقدمها لمن يشربها ينبغي أن لا تقل عقوبته عن شاربها؛ لأنه تسبب في إيصالها لمن يشربها، ولذلك فقد جلد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ساقي الشراب مع الذين يشربون[٦]، فعن ابن التميمي: أن عمر بن عبد العزيز وجد قوماً على شراب، ووجد معهم ساقياً، فضربه معهم[٧].

---

(١) المحلى (١١/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٤٦).
(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٤٧).
(٤) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٥)؛ فقه عمر (٢/ ١٥٧).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٥٩).
(٧) المصنف لعبد الرزاق (٩/ ٢٣٠).

١٣ ـ إتلاف أواني الخمر مع الخمر:

عن هارون بن محمد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز بخناصرة يأمر بزقاق الخمر أن تشقق وبالقوارير أن تكسر[١].

١٤ ـ إدخال الكفار الخمر إلى بلاد المسلمين:

إذا كان الكفار يعتقدون حل الخمر ويشربونها في بلادهم، فإذا جاؤوا إلى بلاد المسلمين ومعهم الخمر؛ فهل يسمح لهم بدخولها معهم؟ أو يسمح بتوفيرها لهم ليشربوها في بلاد المسلمين؟ إن علىٰ الكفار في بلاد المسلمين أن يصبروا عن الخمر ما داموا يرغبون في العيش في بلاد المسلمين، وإذا كان لكل دولة نظمها والداخل إليها يجب أن يراعيها، ولأن هذا نظام دولة الإسلام وهو أيضاً نظام رب العالمين فهو أحق بالرعاية والالتزام، ومن هذا المنطلق نجد عمر بن عبد العزيز يمنع أهل الذمة من إدخال الخمر معهم إلى بلاد المسلمين؛ فقد كتب عمر في خلافته: أن لا يدخل أهل الذمة بالخمر أمصار المسلمين، فكانوا لا يدخلونها[٢].

١٥ ـ في عقوبة الساحر:

عن همام عن يحيىٰ: أن عامل عُمان كتب إلى عمر بن عبد العزيز في ساحرة أخذها، فكتب إليه عمر: إن اعترفت أو قامت عليها البينة فاقتلها[٣]. وهذا مذهب الأئمة الثلاثة: أبي حنيفة ومالك وأحمد[٤]، وقد كتب عمر بن الخطاب في خلافته إلى الولاة أن اقتلوا كل ساحر وساحرة[٥].

١٦ ـ استتابة المرتد:

المسلمون لا يكرهون أحداً على الإسلام، ولكنهم أيضاً لا يقبلون التلاعب بالدين، فمن دخل في دين الإسلام طائعاً مختاراً، أو ولد في الإسلام ثم كفر بعد إيمانه، فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن يستتاب ويدعى إلى الإسلام ثلاثة أيام، فإن تاب ورجع إلى الإسلام قبل منه، فإن أبى ضربت عنقه[٦].

---

(١) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٣٦٥).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٦٤).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ١٣٥).
(٤) حاشية ابن عابدين (١/ ٣١)؛ المغني (٨/ ١٥٣)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٧٦).
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ١٣٦).
(٦) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٣٥١)؛ مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١٧١).

١٧ ـ طريقة استتابة المرتد:

عن عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان عن أبيه، قال: كنت عاملاً لعمر بن عبد العزيز، فكتبت إليه أن رجلاً كان يهودياً فأسلم، ثم تهوَّد فرجع عن الإسلام، فكتب إليَّ عمر: أن ادعه إلى الإسلام، فإن أسلم فخل سبيله وإن أبى فادع بالخشبة فأضجعه عليها، ثم ادعه، فإن أبى فأوثقه ثم ضع الحربة على قلبه ثم ادعه، فإن رجع فخلِّ سبيله وإن أبى فاقتله. قال: ففعل ذلك به حتى وضع الحربة على قلبه، فأسلم فخلى سبيله[١]. قال الدكتور محمد شقير: لم أر قولاً لغير عمر بن عبد العزيز بهذا التفصيل، وذهب الأئمة الأربعة إلى أن المرتد يقتل بعد استتابته إذا لم يرجع إلى الإسلام[٢].

١٨ ـ عقوبة المرتدة:

رأى عمر بن عبد العزيز أن تستتاب المرتدة، فإن تابت وإلا تسترق وتباع على غير أهل دينها[٣]. وهذا رأي قتادة قال: تُسبى وتباع، وكذلك فعل أبو بكر بنساء أهل الردة[٤]، وروي عن الحسن قال: لا تقتلوا النساء إذا هنّ ارتددن عن الإسلام، ولكن يدعين إلى الإسلام، فإن هن أبين سبين فيجعلن إماء المسلمين ولا يقتلن[٥].

خامساً: في التعزيرات:

١ ـ في الحد الأقصى للضرب تعزيراً:

العقوبة بالجلد تنقسم إلى قسمين: حد وتعزير، فالحد قد نص الشارع الحكيم عليه، فمقداره محدد، لا مجال لأحد أن يزيد عليه أو ينقص منه، وأما الجلد تعزيراً فهو عقوبة لإتيان أمر لا حد فيه، أو أي جناية لا حد فيها فهو متروك للحاكم ليحدد مقداره حسب ما يرى، إلا أن عمر بن عبد العزيز جعل لذلك حداً أقصى لا تجوز الزيادة عليه على قولين[٦]:

الأول: لا تجوز الزيادة على ثلاثين جلدة، فعن محمد بن قيس: أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامله بمصر: لا تبلغ العقوبة أكثر من ثلاثين سوطاً إلا في حد من حدود الله[٧].

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (١٢/ ٢٧٤).
(٢) روضة الطالبين (١٠/ ٧٥)؛ حاشية ابن عابدين (٣/ ٢٨٩).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨١).
(٤) مصنف عبد الرزاق (١٠/ ١٧٦).
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (١٠/ ١٤٠).
(٦) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨٨).
(٧) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٣٦٥).

وفي القول الثاني: لا يبلغ بالجلد تعزيراً أقل الحدود؛ فعلى هذه الرواية لا يزاد للحر عن تسع وثلاثين جلدة، ولا يزاد للعبد على تسع عشرة جلدة، لأن العشرين للعبد والأربعين للحر هي أقل الحدود[١]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: أن عاقبوا الناس على قدر ذنوبهم، وإن بلغ ذلك سوطاً واحداً، وإياكم أن تبلغوا بأحد حداً من حدود الله[٢].

٢ ـ النهي عن أخذ الناس بالمظنة وضربهم على التهمة:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى عدم جواز الأخذ بالظن أو الضرب على التهمة، فهو يقرر بهذا مبدأ العدالة وترجيح التحقيق العادل على التحقيق الحازم، وذلك خوفاً من أن يظلم بريء، فقد فضل عمر بن عبد العزيز أن يلقوا الله بخيانتهم على أن يلقى الله بدمائهم[٣].

عن إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني قال: حدثني أبي عن جدي، قال: لما ولاني عمر بن عبد العزيز الموصل، قدمتها فوجدتها من أكبر البلاد سرقاً ونقباً[٤]، فكتبت إلى عمر أعلمه حال البلد، وأسأله أخذ الناس بالمظنة وأضربهم على التهمة، أو أخذهم بالبينة وما جرت عليه عادة الناس، فكتب إليَّ أن آخذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله، قال يحيى: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقاً ونقباً[٥].

وكتب عدي بن أرطأة إلى عمر بن عبد العزيز: .... أما بعد، أصلح الله أمير المؤمنين، فإن قبلي أناساً من العمال قد اقتطعوا من مال الله عز وجل، مالاً عظيماً لست أرجو استخراجه من أيديهم إلا أن أمسهم بشيء من العذاب، فإن رأى أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أن يأذن لي في ذلك أفعل. قال: فأجابه: أما بعد؛ فالعجب كل العجب من استئذانك إياي في عذاب بشر كأني لك جنة من عذاب، وكأن رضائي عنك ينجيك من سخط الله عز وجل، فانظر من قامت عليه بينة عدول فخذه بما قامت عليه البينة، ومن أقر لك بشيء فخذه بما أقرَّ به، ومن أنكر فاستحلفه بالله العظيم، وخل سبيله، وايم الله، لأن يلقوا الله عز وجل بخيانتهم أحب إليَّ من أن ألقى الله بدمائهم[٦].

وهكذا يقرر عمر بن عبد العزيز الأخذ بالتحقيق العادل لا بالتحقيق الحازم. وقد قال بعدم

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ١٨٩).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، (ص ١١٧).
(٣) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢١٢).
(٤) النقب: التعب في أي شيء كان.
(٥) حلية الأولياء (٥/ ٢٧١)؛ وسيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، ص (١١٧ ـ ١١٨).
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، (ص ٥٥).

الأخذ بالمظنة والضرب على التهمة كل من عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وعطاء[١] .

٣ـ النهي عن المثلة :

حلق الرأس جعله الله نسكاً وسنة ـ في الحج والعمرة ـ كما أن رسول الله ﷺ نهى عن حلق اللحية ، ولكن بعض الناس خالفوا ذلك كله وجعلوا حلق الرأس واللحية عقوبة ، وهذا عمر بن عبد العزيز ينهى عن هذا العمل ويسميه المثلة[٢] . فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل له : إياك والمثلة: جز الرأس واللحية[٣] . ومذهب الأئمة الأربعة: أن لا يجوز التعزير بحلق اللحية ، وعند مالك وأبي حنيفة : ولا يحلق الرأس[٤] .

سادساً: في أحكام السجناء :

١ ـ تعجيل النظر في أمر المتهمين :

أمر عمر بن عبد العزيز بتعجيل النظر في أمور المتهمين ، فمن كان عليه أدب فيؤدب ويطلق سراحه ، ومن لم يثبت عليه قضية يخلى سبيله ، ويرى أن إقامة الحدود سبب لقلة السجناء؛ لأنه يكون زاجراً لأهل الفسق والزعارة[٥] ، فعن جعفر بن برقان قال: كتب إلينا عمر بن عبد العزيز: . . . . فلو أمرت بإقامة الحدود لقلَّ أهل الحبس ، ولخاف أهل الفسق والزعارة ، ولتناهوا عما هم عليه ، إنما يكثر أهل الحبس لقلة النظر في أمورهم ، إنما هو حبس وليس نظر ، فمر ولاتك جميعاً بالنظر في أمر أهل الحبوس في كل الأيام ، فمن كان عليه أُدِّبَ وأطلق ، ومن لم تكن له قضية خلي عنه[٦] .

٢ ـ في الاهتمام بأمور المسجونين :

قام عمر بن عبد العزيز رحمه الله بالإصلاح على كل طريق ، وحقق العدل على كل صعيد ، فقد اهتم بأمر المسجونين اهتماماً شديداً ، وأصدر تعليماته بتعهدهم بكل ما يحتاجونه من طعام وأدم وكسوة وغير ذلك[٧] ، وعن جعفر بن برقان قال: كتب عمر بن عبد العزيز: . . . وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم في طعامهم وأدمهم. . . فمر بالتقدير لهم ما يقوتهم في طعامهم وأدمهم ، وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر يدفع ذلك إليهم ، فإنك إن أجريت عليهم

---

(١) مصنف عبد الرزاق (١٠/ ٢١٧ ـ ٢١٩)؛ فقه عمر (٢ـ ٢١٣).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢١٥).
(٣) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٨٠).
(٤) مغني المحتاج (٤/ ١٩٢)؛ جواهر الإكليل (٢/ ٢٢٥).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٥).
(٦) الخراج لأبي يوسف ، ص (٣٠١)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٥).
(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٦).

الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة[١]، وولِّ ذلك رجلاً من أهل الخير والصلاح، ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل، ويدفع ذلك إليه في يده... وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء، وفي الصيف قميص وإزار، وتزاد المرأة مقنعة... ومن مات منهم ولم يكن له ولي ولا قرابة؛ يغسل ويكفن من بيت المال ويصلى عليه ويدفن[٢].

وكتب إلى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق... ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال.... وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي، فإن من ارتشى صنع ما أمر به[٣].

٣ـ سجن خاص بالنساء:

يمضي عمر بن عبد العزيز قدماً في تنظيم السجون والاهتمام بأمر المسجونين وتعاهدهم، فيأمر بأن يجعل للنساء حبس خاص بعيداً عن الاختلاط بالرجال، مما يؤكد على اختيار أهل الدين والأمانة، ليتولوا أمور السجناء[٤].

فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أمراء الأجناد: وانظروا من في السجون ممن قام عليه الحق فلا تحبسه حتى تقيمه عليه، ومن أشكل أمره اكتب إلي فيه، واستوثق من أهل الزعارات؛ فإن الحبس لهم نكال، ولا تعد في العقوبة، ويعاهد مريضهم ممن لا أحد له ولا مال، وإذا حبست قوماً في دين فلا تجمع بينهم وبين أهل الزعارات في بيت واحد ولا حبس واحد، واجعل للنساء حبساً على حدة، وانظر من تجعل على حبسك ممن تثق به ومن لا يرتشي؛ فإن من ارتشى صنع ما أمر به[٥].

ومما سبق نلاحظ اهتمام عمر بن عبد العزيز بالسجناء، وحرصه على إقامة العدل فيهم، وإصلاح ما أفسده من قبله في التعامل معهم.

سابعاً: في أحكام الجهاد:

١ ـ سِنُّ من يشرع له الاشتراك في القتال:

كان شباب الرعيل الأول من المسلمين يتسابقون ويتنافسون على الاشتراك في القتال، وإذا لم يسمح لأحدهم بالاشتراك في القتال فإنه يتحسر ويحاول إقناع ولي الأمر بأنه يستطيع القتال،

---

(١) الجلاوزة: جمع جلاوز، وهو الشرطي.
(٢) الخراج، لأبي يوسف، ص (٣٠٠ ـ ٣٠١).
(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٣٥٦).
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٢٢٨).
(٥) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٦٢)؛ فقه عمر (٢/ ٢٢٨).

وقد حدد عمر بن عبد العزيز سن من يسمح له بالقتال ، والفرض له مع المقاتلة ، حدده بخمس عشرة سنة ، ومن كان دون ذلك فيكون فرضه في الذرية ولا يسمح له بالاشتراك في القتال[١] .

٢ ـ كيفية بداية قتال غير المسلمين :

عن صفوان بن عمرو قال: جاءنا كتاب عمر بن عبد العزيز وهو خليفة إلى عامله: أن لا تقاتلن حصناً من حصون الروم ولا جماعة من جماعتهم حتى تدعوهم إلى الإسلام ، فإن قبلوا فاكفف عنهم ، وإن أبوا فالجزية ، فإن أبوا فانبذ إليهم على سواء[٢] .

٣ ـ في مدة الرباط :

الرباط في سبيل الله من أحب الأعمال إلى الله تعالى ، ويترتب عليه الأجر الوفير من الله سبحانه وتعالى ، وقد ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن مدة الرباط أربعون يوماً ، فقد قال: تمام الرباط أربعون يوماً[٣] .

٤ ـ في حكم تصرف المقاتل في ماله :

قال عمر بن عبد العزيز : إذا كان الرجل في الحرب على ظهر فرسه يقاتل ، فما صنع في ماله فهو جائز[٤] .

٥ ـ في بيع الخيل للعدو :

بيع السلاح ونقله أو الخيل أو ما يقوي الأعداء ويشد من أزرهم ويقويهم على حرب المسلمين ، جريمة في حق من يفعله ، وينبغي حجز هذه الأشياء وما في حكمها حتى لا تصل إلى العدو ، ومن هذا المنطلق منع عمر بن عبد العزيز حمل الخيل إلى الهند باعتبارها بلد من بلدان المشركين في زمن عمر بن عبد العزيز ، والعداوة لا تخفى بين أهل الإسلام وأهل الشرك[٥] .

٦ ـ افتداء أسارى المسلمين ولو كثر الثمن :

أكد عمر بن عبد العزيز على وجوب فك أسارى المسلمين في رسائله إلى عماله ، بأن يفادوهم مهما بلغ ذلك من المال ، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض عماله : أن فادِ بأسارى

---

(١) فقه عمر ، د. شقير (٢/ ٤١٥) .
(٢) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٥) .
(٣) المصدر السابق نفسه؛ فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٤) .
(٤) الطبقات الكبرى ، لابن سعد (٥/ ٣٥٢) .
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٢٧) .

المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[(١)] ، وعن ربيعة بن عطاء عن عمر بن عبد العزيز: أنه أعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم ، وأخذ المسلم[(٢)]. وفي رواية: أن فادوا بأسارى المسلمين وإن أحاط ذلك بجميع مالهم[(٣)].

٧ ـ افتداء الرجل والمرأة والعبد والذمي:

عن ربيعة بن عطاء قال: كتب عمر بن عبد العزيز معي وبعث بمال إلى ساحل عدن: أن افتدِ الرجل والمرأة والعبد والذمي[(٤)].

مما تقدم يظهر عدل عمر بن عبد العزيز جلياً؛ حيث أمر بافتداء من يعيش على أرض المسلمين حتى ولو كان عبداً أو ذمياً؛ لأن الذمي له أن يحفظ ويدافع عنه ويفتدىٰ لو وقع في الأسر ، وهذا أكبر دليل على وفاء المسلمين بذمتهم إلى أبعد مما يتصوره أحد[(٥)].

٨ ـ كراهة قتل الأسرى:

عن معمر قال: أخبرني رجل من أهل الشام ممن كان يحرس عمر بن عبد العزيز: ما رأيت عمر بن عبد العزيز قتل أسيراً قط ، إلا واحداً من الترك قال: جيء بأسرى من الترك ، قال: فأمر بهم أن يسترقوا ، فقال رجل ممن جاء بهم: يا أمير المؤمنين لو كنت رأيت هذا ـ لأحدهم ـ وهو يقتل في المسلمين لكثر بكاؤك عليهم. قال: فدونك فاقتله ، قال: فقام إليه فقتله[(٦)].

لقد كره عمر بن عبد العزيز قتل الأسرى ، ومنع ذلك ، إلا واحداً قتل كثيراً من المسلمين ، ولكنه أذن في أن يسترقوا[(٧)].

ثامناً: في النكاح والطلاق:

١ ـ زواج المرأة بغير ولي:

عن سفيان ، عن رجل من أهل الجزيرة ، عن عمر بن عبد العزيز: أن رجلاً تزوج امرأة ولها ولي هو أدنى منه بدروب الروم ، فرد عمر النكاح ، وقال: الولي وإلا فالسلطان[(٨)].

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٣١١ ـ ٣١٢).
(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٣٥٤).
(٣) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، ص (١٢٠).
(٤) الطبقات الكبرى (٥/ ٣٥٣).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٣٦).
(٦) مصنف عبد الرزاق (٥/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).
(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (٢/ ٤٣٨).
(٨) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ١٣٢)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٠٥).

٢ ـ تزويج الوليين للمرأة على رجلين:

عن ثابت بن قيس الغفاري قال: كتبت إلى عمر بن عبد العزيز في جارية من جهينة؛ زوَّجها وليها رجلاً من قيس، وزوجها آخر رجلاً من جهينة، فكتب عمر بن عبد العزيز: أن أدخل عليها شهوداً عدولاً، وخيرها، فأيهما اختارت فهو زوجها.

٣ ـ زواج الرجل بالمرأة بعد الفجور بها:

إذا زنى رجل بامرأة، ثم بدا له أن يتزوجها؛ فهل يحل له ذلك؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى جواز ذلك إذا رأى منها خيراً، وهذا رأي رشيد لأنه يسد كثيراً من أبواب الشر؛ لأنه لا فرق بين من فجر بها ومن لم يفجر بها، فلو قلنا: لا يجوز ذلك، فغير هذا الرجل أولى بأن لا يقبلها، وفي هذا شرور ومفاسد عظيمة[١]، عن يحيى بن سعيد قال: بلغني أن عمر بن عبد العزيز سئل عن امرأة أصابت خطيئة، ثم رأى منها خيراً، أينكحها الرجل؟ فقال له: الظن كما بلغني، أي: إنها له[٢].

٤ ـ نكاح امرأة الأسير:

عن عمر بن عبد العزيز قال: لا تنكح امرأة الأسير أبداً ما دام أسيراً[٣]. فالأسير المسلم إنما وقع في الأسر نتيجة لإقدامه وبلائه في قتال الأعداء رفعاً لراية الإسلام، أو دفاعاً عن بلاد المسلمين، وتقديراً لهذا الموقف النبيل حيث ضحى بنفسه في سبيل دينه، فإن على امرأته أن تقدر له ذلك، وأن تصبر حتى يفك الله أسره ثم يعود إليها، خاصة وأن بقاءه في الأسر وغيبته هذه ليست من اختياره، كما أن إطلاق سراحه محتمل في كل وقت، ولذلك كله كان من العدل والإنصاف ألاَّ تتزوج امرأة الأسير ما دام أسيراً[٤].

٥ ـ نكاح امرأة المفقود:

إذا فقد الرجل وانقطعت أخباره، فلا يدرى أحي هو أم ميت؛ فهل تبقى زوجته تنتظره؟ وما مدة الانتظار؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين وبعدها تتزوج[٥]، وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطأة: أن امرأة المفقود تعتد أربع سنين[٦]، والظاهر أن

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤١٢).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٢٥٠)؛ فقه عمر (١/ ٤١٢).
(٣) الطبقات الكبرى، لابن سعد (٥/ ٣٥١).
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤١٧).
(٥) المصدر السابق نفسه (١/ ٤١٨).
(٦) المحلى (١٠/ ١٣٨).

عمر بن عبد العزيز يرى جواز زواج امرأة المفقود بعد مضي السنين الأربع ، والعدة بعدها أربعة أشهر وعشراً[١] .

٦ ـ صداق المطلقة قبل الدخول بها في مرض زوجها :

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن لها نصف المهر ، فلا تأثير لتطليق زوجها في حال المرض[٢] ، فعن عمر بن عبد العزيز قال : لها نصف الصداق ولا ميراث لها ولا عدة عليها[٣] .

٧ ـ اشتراط الرجل لنفسه شيئاً عند زواج ابنته :

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن المهر للمرأة ، وإن اشترط والدها شيئاً لنفسه فهو للمرأة دون الأب[٤] ، وعن الأوزاعي : أن رجلاً زوج ابنته على ألف دينار ، وشرط لنفسه ألف دينار ، فقضى عمر بن عبد العزيز للمرأة بألفي دينار دون الأب[٥] .

٨ ـ في اللعب بالطلاق جد :

يرى عمر بن عبد العزيز : أن الرجل يحاسب على الطلاق سواء كان جاداً أوهازلاً ، فعن سليمان بن حبيب المحاربي قال : كتب إليّ عمر بن عبد العزيز : مهما أقلت السفهاء عن شيء ، فلا تقيلوهم الطلاق والعتاق[٦] .

٩ ـ في طلاق المكره :

قد يحصل للإنسان بعض مواقف يكره فيها على الطلاق كأن يستحلف بالطلاق على أن يفعل كذا أو يترك كذا ، وقد يكره ويهدد إذا لم يطلق امرأته ، فهل هذا النوع من الطلاق على هذه الصفة يقع ؟ ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن طلاق المكره لا يقع[٧] ، عن عمر بن عبد العزيز قال : لا طلاق ولا عتاق على مكره[٨] .

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤١٨) .
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٢٣) .
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٣٣١ ـ ٣٣٢) .
(٤) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٢٥) .
(٥) مصنف ابن أبي شيبة (٤/ ٢٠١) .
(٦) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٠٦) .
(٧) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٣٤) .
(٨) مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٤٩) .

١٠ ـ في تطليق الرجل نصف تطليقة:

قيل لعمر بن عبد العزيز: الرجل يطلق امرأته نصف تطليقة، قال: هو تطليقة[١].

١١ ـ تطليق المرأة نفسها إذا جعل أمرها بيدها:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن الطلاق يقع، وأن هذا الطلاق وإن كان ثلاثاً يعتبر واحدة، وهو أحق بها إن أراد مراجعتها، فقد كتب عمر بن عبد العزيز في رجل من بني تميم جعل أمر امرأته بيدها، قال: إن ردت الأمر عليه فلا شيء، وإن طلقت نفسها فهي واحدة وهو أحق بها[٢].

١٢ ـ إسلام المرأة تحت الكافر:

إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر فإنها تخرج منه، ويفرق بينهما، فعن معمر بن سليمان عن أبيه: أن الحسن وعمر بن عبد العزيز قالا في النصرانية تسلم تحت زوجها، قالا: الإسلام أخرجها منه[٣]. فمتى أسلمت المرأة وبقي الرجل على الكفر فلابد من التفريق بينهما، حتى لا تكون للكافر ولاية على مسلمة، لأن هذا غير مقبول في شرع الله، فعن عمر بن عبد العزيز يرى أنه إذا أسلمت المرأة تحت الرجل الكافر؛ فإنها تخرج منه ويفرق بينهما[٤]، وهذا التفريق لا يأتي إلا بعد عرض الإسلام عليه، فإن أسلم فهي امرأته وإن أبى فإن عمر بن عبد العزيز يرى أن ذلك تطليقة بائنة[٥]. وأما إذا أسلم ولا زالت امرأته في العدة فهو أحق بها[٦].

١٣ ـ مدة انتظار الغائب:

ذهب عمر بن عبد العزيز إلى أن هناك حداً أقصى لمدة الغيبة وهو سنتان، وبعدها إما أن يقفل الغائب إلى زوجته، وإما أن يطلقها، فقد كتب: من غاب عن امرأته سنتين فليطلق أو ليقفل[٧] إليها[٨].

هذه بعض الاجتهادات الفقهية والفتاوى والأحكام القضائية التي مارسها عمر بن عبد العزيز

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٥٣)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٤١).
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٥/ ٥٧).
(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ٩٠)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٥٠).
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٥١).
(٥) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٥٢).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٥٥).
(٨) المصدر السابق نفسه.

والتي تدل على تبحره في المسائل الشرعية وقدرته على الاجتهاد وإصدار الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله وممَّن سبقه من الخلفاء الراشدين وعلماء الأمة ، وقد قام الدكتور محمد شقير بجمع فقه عمر بن عبد العزيز ، في مجلدين؛ فمن أراد التوسع فليرجع إلى هذه الرسالة العلمية التي نال بها صاحبها درجة الدكتوراه من المعهد العالي للقضاء بالرياض في المملكة العربية السعودية.

* * *

المبحث الثامن
الفقه الإداري عند عمر بن عبد العزيز وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله

أولاً: أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز:

اختار عمر لسياسة الرعية وأعمال الحق بين الناس الولاة الثقات الخيرين الأبرار ممن اشتهروا بالأمانة والعلم والقوة والتواضع وعفة النفس، والعدالة، وحسن الخلق والرحمة والقدوة الحسنة ومشاورة الآخرين والنصح وعدم الأنانية والكفاءة والذكاء و الحكمة، وقد قال ابن كثير في ولاة عمر بن عبد العزيز: وقد صرَّح كثير من الأئمة بأن كل من استعمله عمر بن عبد العزيز ثقة[١]. ومن هؤلاء:

١ ـ الجراح بن عبد الله الحكمي (ولي خراسان وسجستان):

قال عنه الذهبي: مقدم الجيوش، فارس الكتائب، أبو عقبة الجراح بن عبد الله الحكمي ولي البصرة من جهة الحجاج، ثم ولي خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز وكان بطلاً شجاعاً مهيباً، عابداً، قارئاً، كبير القدر[٢]. قال الجراح الحكمي: تركت الذنوب حياءً أربعين سنة، ثم أدركني الورع[٣]. كان على خراسان كلها حربها وصلاتها ومالها[٤]. قتل عام ١١٢ هـ في خلافة هشام، فعن سليم بن عامر: دخلت على الجراح فرفع يديه، فرفع الأمراء أيديهم، فمكث طويلاً، ثم قال لي: يا أبا يحيى، هل تدري ما كنا فيه؟ قلت: لا، وجدتكم في رغبة فرفعت يدي معكم، قال: سألنا الله الشهادة، فوالله ما بقي منهم أحد في تلك الغزاة حتى استشهد[٥]. قال خليفة: زحف الجراح من برذعة[٦] سنة اثنتي عشر إلى ابن خاقا، فاقتتلوا قتالاً

---

(١) البداية والنهاية؛ نقلاً عن عمر بن عبد العزيز، عبد الستار، (ص ٢٧٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٨٩).
(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ١٩٠).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) برذعة: قصبة أذربيجان.

شديداً ، فقتل الجراح في رمضان ، وغلبت الخرز على أذربيجان وبلغوا إلى قريب الموصل[١] ، وكان البلاء بمقتل الجراح على المسلمين عظيماً ، بكوا عليه في كل جند[٢] .

٢ ـ عدي بن أرطأة الفزاري (والي البصرة):

كان أمير البصرة لعمر بن عبد العزيز ، حدَّث عن عمرو بن عبسة وأبي أمامة ، قال عباد بن منصور: خطبنا عدي على منبر المدائن حتى بكى وأبكانا[٣]. وكان عمر بن عبد العزيز يتفقده بالنصائح والمواعظ ، قال معمر: كتب عمر إلى عدي بن أرطأة: إنك غررتني بعمامتك السوداء ، ومجالستك القراء ، وقد أظهرنا الله على كثير مما تكتمون ، أما تمشون بين القبور[٤]؟!

قدم عدي على البصرة ، فقيَّد يزيد بن المهلب ، ونفذه إلى عمر بن عبد العزيز ، فلما مات عمر ، انفلت ، ودعا إلى نفسه وتسمى بالقحطاني ، ونصب رايات سوداً ، وقال: أدعو إلى سيرة عمر بن الخطاب ، فحاربه مسلمة بن عبد الملك ، وقتله ، ثم وثب ولده معاوية فقتل عدياً ، وجماعة صبراً ، سنة اثنتين ومئة[٥]. قال الدارقطني: يحتج بحديثه.

٣ ـ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب (والي الكوفة):

الإمام الثقة الأمير العادل أبو عمر العدوي الخطابي المدني ، ولي إمرة الكوفة لعمر بن عبد العزيز ، كان قليل الرواية ، كبير القدر ، توفي سنة ١١٥ هـ[٦] .

٤ ـ عمر بن هبيرة (والي الجزيرة):

كان من الدهاة الشجعان ، وكان رجل أهل الشام ، ولاَّه عمر الجزيرة (١٠٠ هـ) ، فتوجه إليها وغزا الروم من ناحية أرمينية ، فهزمهم وأسر منهم خلقاً كثيراً ، واستمر على الجزيرة إلى خلافة يزيد بن عبد الملك ، فولاه إمارة العراق وخراسان ، ثم عزله هشام بخالد القسري فقيده ، وألبسه عباءة وسجنه ، فتحيل غلمانه ونقبوا سرباً وأخرجوه منه ، فهرب واستجار بالأمير مسلمة بن عبد الملك ، فأجاره ، ثم لم يلبث أن مات سنة سبع ومئة تقريباً[٧] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٩٠).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه (٥/ ٥٣).
(٤) المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) المصدر السابق نفسه(٥/ ١٤٩).
(٧) المصدر السابق نفسه (٤/ ٥٦٢).

٥ ـ أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم (والي المدينة):

وهو أحد الأئمة الأثبات الثقات ، أمير المدينة ثم قاضي المدينة ، قيل : كان أعلم أهل زمانه بالقضاء ، روى عن أبيه وعباد بن تميم وعن سلمان الأغر وخالته عمرة بنت عبد الرحمن وطائفة وعداده في صغار التابعين[١] ، روى عطاف بن خالد عن أمه عن زوجة ابن حزم : أنه ما اضطجع على فراشه منذ أربعين سنة[٢] ، وقيل : كان رزقه في الشهر ثلاثمئة دينار[٣] .

٦ ـ عبد العزيز بن عبد الله بن أسيد الأموي (والي مكة):

أقر عمر على مكة عبد العزيز بن عبد الله الأموي والي سليمان بن عبد الملك ، وثقه النسائي وابن حبان ؛ توفي في خلافة هشام بن عبد الملك[٤] .

٧ ـ رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي (والي مصر):

ذكر ابن تغري بردى خبراً انفرد به وهو : أن عمر بن عبد العزيز أقر على مصر عبد الملك بن رفاعة بن خالد بن ثابت الفهمي المصري الذي كان حسن السيرة عفيفاً عن الأموال ، ثقة فاضلاً عادلاً بين الرعية ، روى عنه الليث بن سعد وغيره ، ثم عزله في شهر ربيع الأول سنة تسع وتسعين دون أن يذكر سبب عزله[٥] ، وولى مكانه أيوب بن شرحبيل بن أكسوم بن أبرهة بن الصباح[٦] .

٨ ـ إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي (والي المغرب):

كان صالحاً فاضلاً زاهداً ، قدم إفريقية سنة (٩٩ هـ) ، ويقال : سنة (١٠٠ هـ) ، كان حسن السيرة ، سار فيهم بالحق فأسلم على يديه عامة البربر ، وكان حريصاً على إسلامهم ، وكان عمر يرسل إليه بالرسائل لدعوة أهل الذمة للدخول في الإسلام ، فيقرؤها عليهم ، توفي إسماعيل بن عبيد الله سنة (١٣٢ هـ)[٧] .

٩ ـ السمح بن مالك (بالأندلس):

الأمير الشهير ، استعمله عمر على الأندلس وأمره أن يميز أرضها و يخرج منها ما كان فتحه

---

(١) المصدر السابق نفسه (٥/ ٣١٤).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) تاريخ خليفة ، ص (٣٢٣)؛ عمر وسياسته في رد المظالم ، (ص ٢٧٣).
(٥) عمر وسياسته في رد المظالم ، (ص ٢٨٩).
(٦) المصدر السابق نفسه.
(٧) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٩٣).

عنوة فيأخذ منه الخمس ، وأن يكتب إليه بصفة الأندلس ، فقدمها سنة (١٠٠ هـ) ، وفعل ما أمره به عمر ، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة[١] .

هؤلاء من أشهر ولاة عمر بن عبد العزيز الذين عينهم على الأقاليم والولايات ، والذين كانوا عند حسن الظن .

ثانياً : حرص عمر بن عبد العزيز على انتقاء عماله من أهل الخير والصلاح :

إن عمال الخليفة وأمراء البلدان بخاصة هم نواب الخليفة في أقاليمهم ، والواسطة بينه وبين رعيته ، ومهما كان الخليفة على درجة من الدراية في تصريف أمور السياسة إلا أنه لا يستطيع تحقيق النجاح إلا إذا اختار عماله بعناية تامة ، لذا عني عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ عناية فائقة باختياره عماله وولاته ، وحين نتبع أخباره في هذا الصدد نجد أن له شروطاً لابد من تحققها فيمن يختار العمل عنده ، ومن أهم هذه الشروط : التقوى ، والأمانة ، وحسن التدين ، فلما عزل خالد بن الريان ـ الذي كان رئيساً للحرس في عهد الوليد بن سليمان ـ نظر عمر في وجوه الحرس فدعا عمرو بن المهاجر الأنصاري فقال : والله إنك لتعلم يا عمرو أنه ما بيني وبينك قرابة إلا الإسلام ، ولكني سمعتك تكثر تلاوة القرآن ، ورأيتك تصلي في موضع تظن أنه لا يراك أحد ، فرأيتك تحسن الصلاة ، خذ هذا السيف قد وليتك حرسي[٢] .

وكان يكتب إلى عماله : إياكم أن تستعملوا على شيء من أعمالنا إلا أهل القرآن ، فإنه إذا لم يكن عند أهل القرآن خير ، فغيرهم أحرى بأن لا يكون عندهم خير[٣] .

وإذا شك في أمر من ينوي توليته لم يقدم على توليته حتى يتبين له حاله ، فحين ولي الخلافة وفد عليه بلال بن أبي بردة فهنأه وقال : من كانت الخلافة ـ يا أمير المؤمنين ـ شرفته فقد شرفتها ، ومن كانت زانته فقد زنتها ، واستشهد بأبيات من الشعر في مدح عمر ، فجزاه عمر خيراً ، ولزم بلال المسجد يصلي ، ويقرأ ليله ونهاره ، فهم عمر أن يوليه العراق ، ثم قال : هذا رجل له فضل ، فدسَّ إليه ثقة له فقال له : إن عملت لك في ولاية العراق ما تعطيني؟ فضمن له مالاً جليلاً ، فأخبر بذلك عمر ، فنفاه وأخرجه[٤] .

وكان يكره أن يولي أحداً ممن غمس نفسه في الظلم أو عمل مع الظلمة لا سيما الحجاج[٥] ، وإذا كان مَنْ قَبْلَ عمر يجعل للعصبية والقرابة من البيت الأموي وزناً في تولية العمل ، فإنه لم

---

(١) عمر بن عبد العزيز ، لعبد الستار الشيخ ، (ص ٢٧١) .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ٣١) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٨)؛ سراج الملوك ، للطرطوشي ، (ص ٢٥٥) .
(٤) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ١٨٢) .
(٥) أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ١٨٢) .

يكن شيء من ذلك في ميزان عمر ، فحدث الأوزاعي أن عمر بن عبد العزيز جلس في بيته وعنده أشراف بني أمية ، فقال: أتحبون أن أولي كل رجل منكم جنداً من هذه الأجناد؟ فقال رجل منهم: تعرض علينا ما لا تفعله؟ قال: ترون بساطي هذا؟ إني لأعلم أنه يصير إلى بِلى ، وإني أكره أن تدنسوا عليه بأرجلكم ، فكيف أوليكم ديني؟ وأوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم تحكمون فيهم؟! هيهات هيهات[١].

وقد كان لهذا النهج الذي تميزت به سياسة عمر بن عبد العزيز في اختيار الولاة والعمال أثر في الاستقرار السياسي في الأقاليم ، حيث رضي الناس سير عماله وحمدوا فعالهم ، إذ لم يكن في عماله من هو على شاكلة الحجاج يتعامل مع الناس بالشدة ويأخذهم بالتهمة ، كما لم يكن منهم صاحب عصبية يرفع أناساً ويضع آخرين فيجدوا عليه في أنفسهم[٢].

ثالثاً: الإشراف المباشر على إدارة شؤون الدولة:

أشرف عمر بن عبد العزيز بنفسه على ما يتم في دولته من أعمال صغرت أو كبرت ، وكان يتابع عماله في أقاليمهم ، وساعده على ذلك أجهزة الدولة التي طورها عبد الملك بن مروان ، كالبريد ، وجهاز الاستخبارات الكبير الممتد في أطراف الدولة ، والذي كان الخلفاء يستخدمونه في جمع المعلومات.

وعلى الرغم من عناية عمر بن عبد العزيز في اختيار الولاة ، إلا أن هذا لم يمنعه من العمل على متابعة أمر الرعية وتصريف شؤون الدولة ، وقد اشتهر عنه الدأب والجد في العمل حتى أصبح شعاره: لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد ، فقد قيل له: يا أمير المؤمنين! لو ركبت فتروحت ، قال: فمن يجزي عني عمل ذلك اليوم؟ قيل: تجزيه من الغد ، قال: فَدَحَنِي عمل يوم واحد ، فكيف إذ اجتمع علي عمل يومين[٣]. وقال ميمون بن مهران: كنت ليلة في سمر عمر بن عبد العزيز ، فقلت: يا أمير المؤمنين! ما بقاؤك على ما أرى؟ أنت بالنهار في حوائج الناس وأمورهم ، وأنت معنا الآن ثم الله أعلم ما تخلو عليه[٤] ، فقد كان ـ رحمه الله ـ يمضي الكثير من وقته لرسم سياسته الإصلاحية التي شملت مختلف الحياة السياسية والاقتصادية والإدارية ، وغيرها.. حتى خلف رحمه الله كمّاً هائلاً من تلك السياسات التي تمثل مواد نظام حكمه الإصلاحي الشامل ، وقد بعث بهذه السياسات إلى عماله لتنفيذها في مختلف الأقاليم ، وكثيراً ما يردفها بتوجيهات تربوية يذكر فيها عماله بعظم الأمانة الملقاة على عواتقهم ، ويخوفهم

---

(١) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣٢).
(٢) أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ١٨٣).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، (ص ٥٥).
(٤) الطبقات (٥/ ٣٧١).

بالله ويأمرهم بمراقبته وتقواه فيما يعملون ويذرون[١].

وقد كان لمواعظ عمر وتوجيهاته أثر في نفوس عماله أشد من وقع السياط ، وأبلغ من أوامر العزل والإعفاء ، فكتبَ مرة إلى أحدهم : يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار مع خلود الأبد ، وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء. فلما قرأ عامله الكتاب ، طوى البلاد حتى قدم على عمر ، فقال له : ما أقدمك؟ قال : خلعت قلبي بكتابك ، لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله تعالى[٢].

ولم يكتفِ عمر ببعث تلك السياسات والتوجيهات إلى عماله ، بل كان يحرص على متابعة تنفيذها ، وتحقق آثارها على رعيته. فلا يفتأ يسأل القادمين عن ذلك ، فقال زياد بن أبي زياد المدني حين قدم على عمر من المدينة : فسألني عن صلحاء أهل المدينة ورجالهم ونسائهم . . . وسألني عن أمور كان أمر بها بالمدينة فأخبرته[٣].

وخرج عمر بن عبد العزيز يوماً فركب هو ومزاحم ، وكان كثيراً ما يركب فيلقى الركبان ويتحسس الأخبار عن القرى ، فلقيهما راكب من أهل المدينة وسألاه عن الناس وما وراءه ، فقال لهما : إن شئتما جمعت لكما خبري وإن شئتما بعضته تبعيضاً ، فقالا : بل اجمعه ، فقال : إني تركت المدينة والظالم بها مقهور ، والمظلوم بها منصور، والغني موفور ، والعائل مجبور ، فسُرَّ عمر بذلك وقال : والله لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إلي مما طلعت عليه الشمس[٤].

وحين قدم عليه رجل من خراسان وأراد العودة إلى بلاده؛ طلب من عمر أن يحمله على البريد ، فقال له عمر وقد اطمأن لسيرته : هل لك أن تعمل لنا عملاً وأحملك؟ فقال الرجل : نعم. فقال عمر : لا تأتِ على عامل لنا إلا نظرت في سيرته ، فإن كانت حسنة لم تكتب بها ، وإن كانت قبيحة كتبت بها. قال مزاحم: فما زال كتاب منه يجيئنا في عامل فنعزله حتى قدم خراسان[٥].

ونلاحظ أن عمر بن عبد العزيز كان يهتم بمصادر متنوعة بجمع المعلومات ، لعلمه أن المعرفة الدقيقة بأمور الرعية والولاة تحتاج لجمع المعلومات الصحيحة التي يبني عليها

---

(١) أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ١٨٦).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٨٧).
(٤) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١١٥).
(٥) تاريخ دمشق؛ نقلاً عن أثر العلماء في الحياة السياسية ، (ص ١٨٨).

التوجيهات والأوامر والنواهي النافعة للأمة والدولة. لقد آتت هذه المتابعة الدقيقة من عمر لعماله والتوجيهات التفصيلية لهم ثمارها في استقرار أحوال الأقاليم ، كما أن هذه التوجيهات والمتابعة من عمر جعلت العمال والولاة في حالة تحفز دائمة للعمل؛ حيث كانت تلك التوجيهات تقع في نفوسهم بمكان ، فحدث إبراهيم بن جعفر عن أبيه قال: رأيت أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم يعمل بالليل كله وبالنهار لاستحثاث عمر إياه[١].

وكان رحمه الله يرسل المفتشين في الأقاليم ليأتوه بالأخبار: فقد بعث إلى خراسان ثلاثة مفتشين ، يبحثون في ظلامات الناس من نظام خراجها ، الذي قرره عدي بن أرطأة على الأهالي ، وأرسل مفتشاً إلى العراق ، ليأتيه بأخبار الولاة والناس فيها[٢]. ولقد أعلن عمر في إطار متابعته لشؤون الدولة ما يمكن تسميته بالرقابة العامة ، إذ كتب لأهل الموسم في يوم الحج الأكبر: . . . إني بريء من ظلم من ظلمكم . . . ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني ، وأنا معوِّل كل مظلوم ، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ، ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم . . . ألا وأيما وارد في أمر يصلح الله به ، خاصة أو عامة ، فله ما بين مئة دينار إلى ثلاثمئة دينار ، على قدر ما نوى من الحسبة[٣]. فقد أعلن في أكبر تجمع إسلامي ، بل شجع مادياً ومعنوياً على مراقبته ، ومراقبة عماله ، والإفصاح عن كل ما لا يوافق الكتاب والسنة ، وبطبيعة الحال فالأمة الإسلامية لا تحتاج إلى غير تعاليم الكتاب والسنة ، إذا كان الالتزام بها هدفاً منشوداً[٤].

رابعاً: **التخطيط في إدارة عمر بن عبد العزيز:**

يعرف التخطيط في معناه العام بأنه: العملية التي تتخذ لتلبية احتياجات المستقبل ، وتحديد وسائل تحقيقها[٥] ، كما عرف التخطيط بأنه: الجسر بين الحاضر والمستقبل ، ومن هذا التعريف العام يمكن أن نقول: إن التخطيط في الإسلام هو الاستعداد في الحاضر لما يواجهه الإنسان في عمله ، أو حياته في المستقبل[٦].

وعمر بن عبد العزيز لم يكن ليتخذ قراراً دونما تخطيط ، وتوخٍّ لعواقب الأمور ، وأخذها بعين الاعتبار ، ولعل من أهم المؤشرات على إدراك عمر لأهمية التخطيط والتفكير في الأمور

---

(١) الطبقات (٥/ ٣٤٧)؛ أثر العلماء ، (ص ١٨٨).
(٢) عمر بن عبد العزيز ، للزحيلي ، (ص ١٨٢).
(٣) عمر ، لابن الجوزي ، (ص ٩٠).
(٤) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز ، (ص ٤١٣).
(٥) الإدارة ، المنيف ، (ص ١٤٧).
(٦) الإدارة في الإسلام ، للضحيان ، (ص ٧١).

قوله لرجاء: يا رجاء ! إني لي عقلاً أخاف أن يعذبني الله عليه[١] .

وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد على الله ثم جمع المعلومات والقدرة على حسن قراءتها ، واستشراف المستقبل وتحقيق الأهداف المطلوبة ، ففي ذلك يقول عمر: من عمل على غير علم كان يفسد أكثر مما يصلح[٢] ، وقد كان عمر بن عبد العزيز في تخطيطه يضع الأهداف ويختار السياسات ، ويحدد الإجراءات ويبلور العمل في خططه؛ ففي إطار بلورة الأهداف كان هناك هدف رئيسي يسعى عمر لتحقيقه؛ ألا وهو الإصلاح والتجديد الراشدي على منهاج النبوة والخلافة الراشدة ، والقيام بكل مقومات هذا المشروع الإصلاحي من إقامة العدل والحق وإزالة الظلم ، وإعادة الانسجام بين الإنسان وبين الكون والحياة وخالقهما في إطار الفهم الشمولي للإسلام ، وأما اختيار السياسات كأحد مقومات التخطيط ، فإنه قد تجلى ذلك في تطبيقات عمر للتخطيط الإداري ، ولا أدل على ذلك من عزم عمر على الاكتفاء بالكتاب الكريم والسنة الشريفة[٣] ، وأنه غير مستعد للاستماع إلى أي جدل في مسائل الشرع ، والدين ، على أساس أنه حاكم منفذ ، وأن الشرع من جانبه على نفسه وعلى رعيته ، كما ألزم الرعية بالتمسك بذلك الشرع القويم[٤] . هذا في إطار تحديد واختيار السياسة العامة .

أما تحديد الإجراءات كأحد مقومات التخطيط أيضاً ، فإن ذلك يتضح من خلال الإجراءات التي حددها لتنفيذ هذه السياسة من اللقاء الأول مع الأمة عند وضعه شروطاً لصحبته ، والتي قد بينتها فيما مضى ، وأما بلورة طريقة العمل ، فإنه قد وضح بأنه منفذ وليس مبتدع ـ أي منفذ لتعاليم الدين وأن الطاعة لمن أطاع الله[٥] ـ وأن يكون أساس العمل إقامة العدل والإصلاح والإحسان بدلاً من الظلم والفجور والعدوان[٦] .

وقد مارس عمر التخطيط من حيث الشمول ، وشمل تخطيطه كافة المجالات ، فلم يترك مجالاً إلا طرق بابه ، في أمور السياسة والحكم ، والقضاء والاقتصاد ، والتربية والتعليم ، والنواحي الاجتماعية فضلاً عن التخطيط للأمور العامة ، كما اهتم ببعض الأقاليم بشكل

---

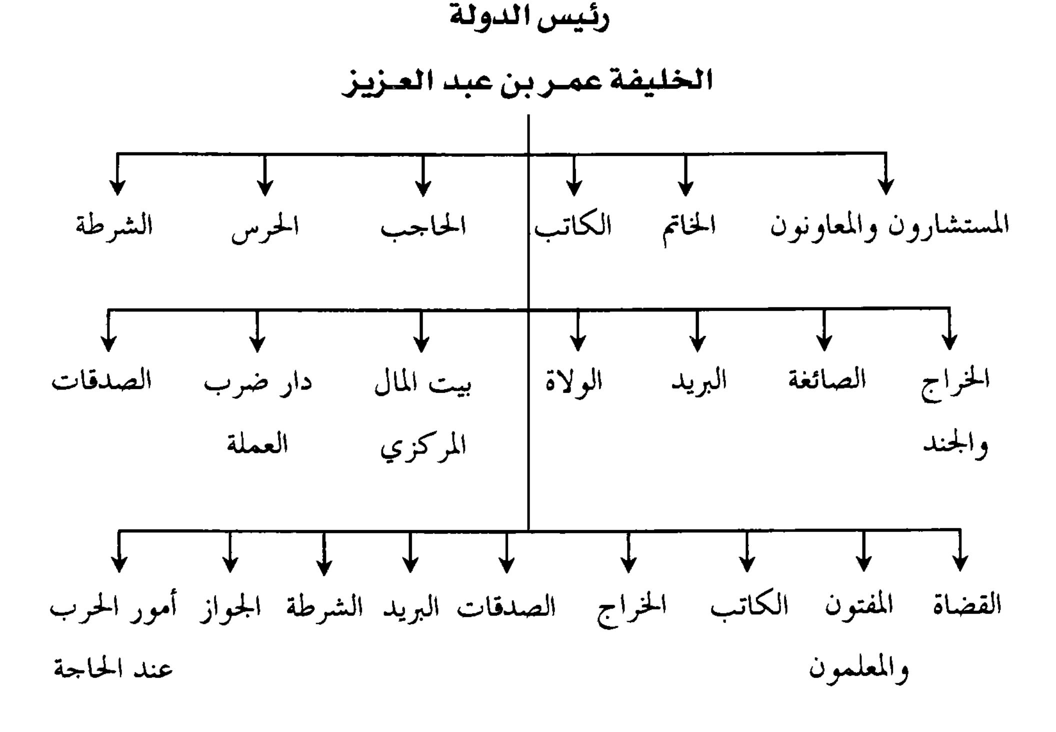
(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ٢٦٦).
(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٢٥٠).
(٣) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٣٥).
(٤) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز ، (ص ٣٩٧).
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز ، (ص ٣٥و ٣٦).
(٦) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٠٢).

منفصل؛ مثل: خراسان والعراق، واهتم بمؤسسات تنظيمية أخرى مثل القضاء، وبيت المال، وولاة الخراج، وغير ذلك[١].

خامساً: التنظيم في إدارة عمر بن عبد العزيز:

إن التنظيم يأتي مكملاً للتخطيط لبناء المتطلبات الإجرائية لتنفيذ الخطط، وقد جعل عمر بن عبد العزيز التنظيم أهم أولويات العمل الإداري، ورسخ مفهوم التنظيم في سلوكه الإداري.

فمن حيث التنظيم الهيكلي للعمل، نجده قد جزّأ أعمال الدولة إلى أربعة أجزاء رئيسية، تأتي تحت مسؤولية أربعة أركان؛ هم: الوالي والقاضي وصاحب بيت المال والخليفة[٢]؛ بالإضافة إلى تنظيمات أخرى؛ مثل: الخراج والجند والكتاب والشرطة والحرس وصاحب الخاتم والحاجب وغير ذلك، وفيما يلي اللائحة التنظيمية لمسؤوليات العمل في عهد عمر بن عبد العزيز[٣].



(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز (ص ٤٠٠).
(٢) المصدر السابق نفسه، (ص ٤٠١).
(٣) المصدر السابق نفسه.

وأما فيما يتعلق بالتنظيم من حيث الإجراءات والعلاقات بين الخليفة والولاة والعمال، وتحديد أوجه العمل وأساليب التنفيذ؛ فإنه يمكننا القول: إن الكثير من كتب عمر لعماله تسعى لتحقيق هذا الغرض وإيضاح هذا الجانب التنظيمي من العملية الإدارية، فعلى سبيل المثال: أوضح أسلوب التعامل بينه وبين المظلومين، وكيفية الاتصال بينه وبينهم، إذ أباح دخول المظلومين عليه من غير إذن.

ومن صور التنظيم إعادة الكثير من الأمور والقضايا إلى ما كانت عليه في عهد الرسول (عليه الصلاة والسلام) والخلفاء الراشدين، ومثال ذلك: أمره بإرجاع مزرعته في خيبر إلى ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ، وتم الشيء نفسه بشأن (فدك)[١]؛ إذ كتب إلى أبي بكر بن حزم واليه على المدينة يقول: إني نظرت في أمر فدك، فإذا هو لا يصلح، فرأيت أن أردها على ما كانت عليه في عهد رسول الله ﷺ، وأبي بكر وعمر وعثمان، فاقْبِضها ولِّها رجلاً يقوم فيها بالحق، وسلام عليك[٢].

كما كتب إلى عماله بكل ما يتعلق بتنظيم الأمور المالية والصدقات والضرائب والأخماس والزكاة في الأموال والممتلكات، وتنظيم العمالة التجارية، ومن ليس له الحق في ممارسة التجارة[٣] وغير ذلك.

كما اهتم عمر بتنظيم أمور القضاء باعتباره السبيل الرئيسي للفصل بين الناس في منازعتهم وحماية حقوقهم، فكان لكل مصر أو ولاية قاضٍ يقضي بما في الكتاب والسنة، وكان قضاته في كل مصر أجل وأفقه وأصلح علماء ذلك المصر[٤]، كعامر بن شرحبيل الشعبي[٥] بالكوفة، والحارث بن يمجد الأشعري[٦] بحمص، وعمر بن سليمان بن خبيب المحاربي بدمشق[٧] وغيرهم، كما كان عمر يمارس القضاء بنفسه[٨].

وكان الاعتبار الأساسي في التنظيم القضائي في نظر عمر هو مراجعة الحق، فالرجوع إلى

---

(١) فدك: هي قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل: ثلاثة، أفاءها الله على رسوله لما نزل خيبر، وهي خالصة لرسول الله ﷺ، لأنها مما لم يطأ عليه خيل ولا ركاب، فيها عين فوَّارة ونخل كثير.

(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، (ص ١٣١).

(٣) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ٧٨ـ٨٣).

(٤) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز، (ص ٤٠٣).

(٥) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، (ص ٢٧٧).

(٦) المصدر السابق نفسه، (ص ٢٨٥).

(٧) المصدر السابق نفسه.

(٨) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، (ص ٤٠٣).

الحق خير من التمادي في الباطل[١] ، وعندما اشتكى أهل سمرقند من قتيبة بن مسلم ، عين لهم قاضياً ليحكم في هذه القضية ، وقد مرت معنا ، وفي هذه الحادثة أدرك عمر بن عبد العزيز مبدأ الفصل بين السلطات على أتم وجه ، ذلك بأنه حينما عرف مظلمة أهل سمرقند لم يبتَّ هو بها ، مع أنه كان يسعه ذلك ، وهو خليفة المسلمين ، ولم يعهد بذلك إلى عامله على سمرقند سليمان بن أبي السري ، مخافة أن يجمح به الهوى ، أو أن تأخذه العزة بالإثم ، ولأنه عامل باسم الخليفة الذي أبى هو نفسه أن يبتَّ بالخلاف ، ولم يفوض ذلك إلى القائد العسكري ، بل أمر بأن يجلس لهم القاضي؛ لأن القاضي لا يتأثر بالاعتبارات العسكرية أو السياسية ، ولا يأبه إلا لحكم الله ، يطبق أوامر الشريعة كما وردت ، وهكذا تحقق ظن عمر بن عبد العزيز ، وحكم القاضي بأن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم ، أي أنه أمرهم بالجلاء ، لأن الاحتلال وقع بصورة غير مشروعة[٢] .

كما شملت تطبيقات عمر لتنظيم بيت الخلافة ، أنه أعاد تنظيمه بما يتوافق مع نظرته في أنه واحد من عامة المسلمين ، وأنه ليس في حاجة إلى أبهة الملك ، فانصرف عن كل مظاهر الخلافة التي سادت قبله ، وألغى بعض الوظائف ، كصاحب الشرطة الذي يسير بين يدي الخليفة بالحربة ، كعادته مع الخلفاء السابقين له ، وقال له عمر : تنحَّ عني ما لي ولك؟ إنما أنا رجل من المسلمين ، ثم سار وسار معه الناس[٣] .

سادساً : الوقاية من الفساد الإداري في عهد عمر بن عبد العزيز :

سعى عمر بن عبد العزيز لتحقيق السلامة من الفساد الإداري ، بالحرص على سبل الوقاية منه ، وسدّ المنافذ على السموم الإدارية؛ مثل : الخيانة ، والكذب والرشوة والهدايا للمسؤولين والأمراء والإسراف وممارسة الولاة والأمراء للتجارة واحتجاب الولاة والأمراء عن الناس ، ومعرفة أحوالهم ، والظلم للناس والجور عليهم ، وغير ذلك ، وإليك شيء من التفصيل :

١ ـ التوسعة على العمال في الأرزاق :

كان أول إجراء إداري رأى فيه عمر الوقاية من الخيانة : أن وسَّع على العمال في العطاء ، رغم تقتيره على نفسه وأهله ، وأراد بذلك أن يغنيهم عن الخيانة[٤] ، فقد كان يوسِّع على عماله في النفقة ، يعطي الرجل منهم في الشهر مئة دينار ، ومئتي دينار ، وكان يتأول أنهم إذا كانوا في كفاية تفرغوا لأشغال المسلمين ، فقيل له: لو أنفقت على عيالك ، كما تنفق على عمالك؟

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي(١/ ٤٠٧) .

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ٦٥) .

(٤) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، (ص ٣١٤).

فقال: لا أمنعهم حقاً لهم، ولا أعطيهم حق غيرهم، وكان أهله قد بقوا في جهد عظيم، فاعتذر بأن معهم سلفاً كثيراً قبل ذلك[١]، وبهذا الإجراء ألا وهو التوسع على عماله يحقق عمر أمرين هامَّين:

أ ـ سد منفذ الخيانة، وما يدفع العمال من حاجة إلى الخيانة وسرقة أموال المسلمين.

ب ـ ضمان فراغ الولاة والعمال والأمراء لأشغال المسلمين وحوائجهم[٢].

٢ ـ حرصه على الوقاية من الكذب:

قال ميمون بن مهران: دخلت على عمر بن عبد العزيز وعنده عامله على الكوفة، فإذا هو متغيظ عليه، فقلت: ما له يا أمير المؤمنين؟ قال: أبلغني أنه قال: لا أجد شاهد زور إلا قطعت لسانه. قال: فقلت: يا أمير المؤمنين! إنه لم يكن بفاعل. قال: فقال: انظروا إلى هذا الشيخ ـ مستنكراً ما قال ميمون ـ إن منزلتين أحسنهما الكذب لمنزلتا سوء[٣]. والمقصود: فإن الكذب أحد منازل السوء، وبذلك يسعى عمر إلى قطع دابر الفساد الإداري بالتحذير من الوقاية عما يجرُّ إليه الكذب والتحايل في اتخاذ القرارات[٤].

٣ ـ الامتناع عن أخذ الهدايا والهبات:

رد على من قال له: ألم يكن رسول الله ﷺ يقبل الهدية؟ قال: بلى، ولكنها لنا ولمن بعدنا رشوة[٥]، كما أبطل عمر أخذ الهدايا التي كان الولاة الأمويون يأخذونها وبخاصة هدايا النيروز والمهرجان، وهي هدايا تعطى في مناسبات وأعياد الفرس، فكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله كتاباً، يقرأ على الناس، يبطل فيه أخذ التوابع والهدايا، التي كانت تؤخذ منهم في النيروز والمهرجان وغيرها من الأثمان والأجور[٦]، كما أنذر ولاته وعماله من أن يتخذ أحد منهم تلبية طلبات الخليفة أو أحد أهله شيئاً مسلَّماً به، ومن ذلك ما حدث عندما أرسلت فاطمة بنت عبد الملك إلى ابن معدي كرب[٧]، تطلب عسلاً من عسل سينين أو لبنان، فبعث إليها، فكتب إليه عمر: وايم الله لئن عدت لمثلها، لا تعمل لي عملاً أبداً، ولا أنظر إلى وجهك[٨].

---

(١) البداية والنهاية؛ نقلاً عن النموذج الإداري، (ص ٣١٥).

(٢) النموذج الإداري، (ص ٣١٥).

(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، (ص ١٣٤).

(٤) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، (ص ٣١٦).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، (ص ١٨٩).

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، (ص ١٣٦).

(٧) لم تمدنا المصادر ما إذا كان ابن معدي كرب عامل لبنان وسينين (سيناء).

(٨) المعرفة والتاريخ، للبسوي (١/ ٥٨٠)؛ النموذج الإداري، (ص ٣١٧).

٤ ـ النهي عن الإسراف والتبذير:

فقد اتخذ قرارات تنم على حرص شديد على أموال المسلمين، فكان أول إجراء له بعد توليه الخلافة هو انصرافه عن مظاهر الخلافة، إذ قربت إليه المراكب، فقال: ما هذه؟ فقالوا: مراكب لم تركب قط، يركبها الخليفة أول ما يلي، فتركها وخرج يلتمس بغلته، وقال: يا مزاحم ـ يعني مولاه ـ ضم هذه إلى بيت مال المسلمين، ونصبت له سرادقات وحجر لم يجلس فيها أحد قط، يجلس فيها الخليفة أول ما يلي، قال: يا مزاحم ضم هذه إلى أموال المسلمين، ثم ركب بغلته، وانصرف إلى الفرش والوطاء الذي لم يجلس عليه أحد قط، يفرش للخلفاء أول ما يلون، فجعل يدفع ذلك برجله، حتى يفضي إلى الحصير، ثم قال: يا مزاحم ضم هذه لأموال المسلمين[١].

وأخذ إجراء آخر لمحاربة الإسراف في الدولة، فحين قال له ـ ميمون بن مهران ـ وهما ينظران في أمور الناس: ما بال هذه الطوامير[٢] التي تكتب فيها بالقلم الجليل، وتمد فيها وهي من بيت مال المسلمين؟ فكتب إلى العمال: ألا يكتبوا في طومار ولا يمد فيه، قال: فكانت كتبه شبراً أو نحو ذلك[٣]. وقد مر معنا كتابه لأبي بكر بن محمد بن حزم الأنصاري والي المدينة في قصة الشموع، وتوجيه عمر له في ذلك، وكيف يكتب له، عندما قال: إذا جاءك كتابي هذا فأدق القلم، واجمع الخط، واجمع الحوائج الكثيرة في الصحيفة الواحدة، فإنه لا حاجة للمسلمين في فضل قول أضر ببيت مالهم والسلام عليك[٤].

ذلك هو شأن عمر في كل أمر يخص مال المسلمين، صغر أو كبر، ومع كافة الولاة، فإنه من المسلم به أن عمر لم يكن كذلك مع والي المدينة فحسب، بل هو كذلك مع غيره من الولاة والعمال، فكان يسعى للتوفير والاقتصاد في الإنفاق من بيت المال، ليحول بذلك دون الإسراف والبذخ[٥].

٥ ـ منع الولاة والعمال من ممارسة التجارة:

قال في كتاب له إلى عماله: نرى أن لا يتجر إمام ولا يحل لعامل تجارة في سلطانه الذي هو

---

(١) سيرة عمر، لابن عبد الحكم، (ص ٣٣).

(٢) طوامير: جمع طومار، وهو الصحيفة. لسان العرب (١/ ٥٠٣).

(٣) سيرة عمر، لابن الجوزي، (ص ٨٨).

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، (ص ٥٥).

(٥) النموذج الإداري، (ص ٣١٩).

عليه ، فإن الأمير متى يتجر يستأثر ويصيب أموراً فيها عنت، وإن حرص أن لا يفعل[1] ، وذلك إدراك منه أن ممارسة العمال والولاة للتجارة ، لا تخلو من أحد أمرين ، إن لم يكن الاثنان معاً : فإما أن ينشغل في تجارته ومتابعتها عن أمور واحتياجات المسلمين ، وإما أن تحدث محاباة له في التجارة لموقعه ، ويصيب أموراً ليست له من الحق في شيء ، وبهذا القرار سد عمر منفذاً خطيراً قد يؤدي إلى فساد إداري قلَّ ما تتوارى عواقبه[2] .

وبعد ثمانية قرون جاء ابن خلدون وكتب في مقدمته العظيمة بعد تجارب طويلة ودراسة واسعة ، ما يصدق عمر بن عبد العزيز في نظرته الصادقة ، وحكمته البالغة قال : إن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا، معسرة للجباية[3] .

٦ ـ فتح قنوات الاتصال بين الوالي والرعية :

كانت الحاشية حول الخلفاء قبل عمر بن عبد العزيز قد حجبت الناس عن الوصول إلى الخليفة ، وقد بنى الحاشية سياجاً من حديد لا ينفذ منه إليه إلا ما يشتهون وما تسمح به مصالحهم ، أما عمر بن عبد العزيز فقد أعلن بالجوائز والمكافأة المالية لمن يخبره بحقيقة الحال ، أو يشير عليه بشيء فيه مصلحة للمسلمين ومصلحة لدولتهم ، وكتب إلى أهل المواسم : أما بعد ، فأيما رجل قدم إلينا في رد مظلمة أو أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من أمر الدين ، فله ما بين مئة دينار إلى ثلاثمئة بقدر ما يرى الحسبة وبعد السفر ، لعل الله يجيء به حقاً أو يميت باطلاً ، أو يفتح به من ورائه خيراً[4] .

كما أمر العمال والولاة ، بأن يحرصوا على فتح قنوات الاتصال بينهم وبين الرعية ، ويسمعوا منهم ويتعرفوا على أحوالهم ، فإن ذلك يمنع ممارسة الظلم والتعدي على حقوق الآخرين ، ويتيح لكل فرد طلب ما يريد دون اللجوء إلى أساليب وطرق لا تمت للإسلام بصلة[5] .

٧ ـ محاسبته لولاة من قبله عن أموال بيت المال :

لما تولى عمر بن عبد العزيز أمر بالقبض على والي خراسان يزيد بن المهلب ، ولما مثل بين يديه ، سأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك . فقال : كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان ما لا سمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن عبد الحكم، (ص ٨٣).
(٢) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، (ص ٣٢٠).
(٣) مقدمة ابن خلدون؛ نقلاً عن رجال الفكر والدعوة، للندوي(١/ ٤٦).
(٤) رجال الفكر والدعوة (١/ ٤٧).
(٥) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، (ص ٣٢٠).

يكن ليأخذ بشيء ولا بأمر أكرهه. فقال له: ما أجد في أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأدِّ ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها ، فرده إلى محبسه ، وبقي فيه حتى بلغه مرض عمر[١] ، وقد كان عمر بن عبد العزيز يتحسس أخبار ولاته ويراقبهم ويحاسبهم على تقصيرهم؛ فقد كتب إلى أحدهم يقول: (لقد كثر شاكوك ، وقل شاكروك ، فإما عدلت ، وإما اعتزلت[٢] ، والسلام).

سابعاً: المركزية واللامركزية في إدارة عمر بن عبد العزيز:

أخذ عمر بن عبد العزيز بمبدأ الجمع والموازنة بين المركزية واللامركزية خلال إدارته للدولة ، بتطبيق أحدهما بحسب الموقف تبعاً لمعايير محددة ، فإننا نورد بعض المواقف والإجراءات التي توضح ذلك ، فقد كان من الأوامر التي تدل على تطبيقه للمركزية ما ضمنه رسالته إلى عامله على الكوفة ، إذ قال: . . . فإني قد وليتك من ذلك ما ولاني الله ، ولا تعجل دوني بقطع ولا صلب حتى تراجعني فيه[٣].

وهنا رجح عمر أن مصلحة الأمة في تطبيق المركزية في هذه المسألة البالغة الأهمية ، فقد يسبق السيف العذل ، فلا مصلحة للأمة في التعجيل في أمور القتل والصلب، وكل سيلقي جزاءه طال الوقت أم قصر ، فقد كان عمر يرجح التحقيق العادل على التحقيق الصارم[٤] ، فما بالك به في أمر أهم ، وهو إزهاق الأرواح[٥].

وهناك أمور أخرى أعم وأشمل ، أوضح عمر لعماله وولاته وقضاته أنه لابد من الرجوع إليه فيها، متخذاً أسلوب المركزية فيها ، وهي كل ما تبتلى به الأمة ، وليس لها سابقة في قرآن أو سنة ، إذ كتب إلى عماله يبين لهم سياسته ، فقال: . . . وأما ما حدث من الأمور التي تبتلى الأمة بها ، مما لم يحكمه القرآن ولا سنة النبي ﷺ ، فإن والي أمر المسلمين وإمام عامتهم ، لا يقدم فيها بين يديه ، ولا يقضي فيها دونه ، وعلى من دونه رفع ذلك إليه ، والتسليم لما قضى[٦] ، وفي مجال آخر رأى ضرورة أسلوب المركزية ، حيث جعل للعراق أكثر من والٍ ، وأصبحت خراسان وسجستان وعمان كل منها مرتبطة بالخليفة مباشرة ، كما عين والياً على الأندلس من

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٦٠ و٤٦١ و٤٦٢).
(٢) عمر بن عبد العزيز ، لعبد الستار الشيخ ، (ص ٢٧٥).
(٣) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري ، (ص ٣٢٢).
(٤) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، (ص ٣٢٣).
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، (ص ٦٣).

قبله رغبة منه في الاعتناء بإقليم الأندلس دون الارتباط بوالي إفريقية[١]. هذا مما يدل على أن عمر بن عبد العزيز كان يأخذ بالمركزية وضرورة الرجوع إليه.

ـ وأما ما يدل على ممارسته اللامركزية فنورد المواقف التالية:

روي أن عمر كتب إلى عروة بن محمد عامله على اليمن، يقول: أما بعد: فإني أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم فتراجعني ولا تعرف بعد مسافة ما بيني وبينك، ولا تعرف أحداث الموت، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة، لكتبت، ارددها عفراء أو سوداء، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني[٢].

ويبدو في هذا القرار دقة متناهية في تحديد الشيء المرغوب فيه من المركزية واللامركزية، وما حداه هنا إلى تبني اللامركزية من مصلحة للأمة[٣].

وهذا موقف آخر فيه دلالة على رغبة عمر في اتباع اللامركزية فقد كتب إلى عدي بن أرطأة يقول: أما بعد: فإنك لن تزال تعنِّي إلي رجلاً ـ أي يتعبه بإرساله إليه ـ من المسلمين في الحر والبرد، تسألني عن السنة، كأنك إنما تعظمني بذلك، وايم الله لحسبك بالحسن، (يعني ـ الحسن البصري ـ) فإذا أتاك كتابي هذا فسل الحسن لي ولك وللمسلمين[٤].

فكان عمر يؤثر اللامركزية وعدم مراجعته في المسائل الروتينية طالما هناك من يثق بعلمه، مثل: الحسن البصري رحمه الله، فالحسن أهل لأن يسأل لعمر، ولعدي الوالي وللمسلمين كافة[٥]، وفي هذا الموقف لفتة عمرية في تقدير وتبجيل واحترام العلماء الربانيين كالحسن البصري وإنزاله مقامه اللائق به، فالأمم تنهض عندما تحترم علماءها الربانيين وتنزلهم المنازل التي يستحقونها.

لقد مارس عمر مبدأ الموازنة بين المركزية واللامركزية، وكانت له معايير وعوامل تدفعه إلى أي شيء منها؛ يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ ـ ارتباط الموقف أو الإجراء بمصلحة عامة أو خاصة.

٢ ـ أهمية الأمر الذي سيحدد فيه ممارسة المركزية أو اللامركزية؛ فالإجراء الذي يتعلق بالقتل والصلب مثلاً حري أن تكون المركزية فيه أصلح.

---

(١) الإدارة في العصر الأموي، نجدة الخماش، (ص ١٠٧).
(٢) الطبقات (٥/ ٢٨١).
(٣) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر، (ص ٣٢٤).
(٤) المصدر السابق نفسه (ص ٣٢٤)؛ حلية الأولياء (٥/ ٣٠٧).
(٥) المصدر السابق نفسه.

٣ ـ مستجدات الأمور مما لم يرد في القرآن أو السنة ؛ فهي من الأهمية بمكان .

٤ ـ مراعاة البعد الجغرافي بين الخليفة والولاة .

٥ ـ مراعاة الوقت وما قد ينجم عن ذلك من ضرر قد يصل إلى الموت .

٦ ـ وجود من يعتمد عليه ويطمئن له ولعلمه ويثق به .

٧ ـ التأثير على سرعة وسلامة الإنجاز في العمل .

٨ ـ مراعاة منح الثقة للقضاة والولاة والعمال[١] .

في ظل هذه المعايير جمع عمر بن عبد العزيز في ممارسته الإدارية بين المركزية واللامركزية ، بالموازنة بينهما ، وتحديد الدرجة الملائمة في ممارسته لكل منهما ، وبذلك يتوافق عمر مع منظري وعلماء الإدارة في إدراك أبعاد هذا المبدأ[٢] .

ثامناً : مبدأ المرونة في إدارة عمر بن عبد العزيز :

مارس عمر بن عبد العزيز المرونة في التفاهم والحوار والفكر وتنفيذ الأوامر والتقيد بها ، ومن تلك الشواهد : ما روى ميمون بن مهران : أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال : يا أبت ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل ؟ فوالله ما كنت أبالي لو غلت بي وبك القدور في ذلك . قال : يا بني إنما أروض الناس رياضة الصعب ، وإني لا أريد أن أحيي الأمور من العدل ، فأؤخر ذلك ، حتى أخرج معه طمعاً من طمع الدنيا ، فينفروا لهذه ويسكنوا لهذه[٣] .

وقال عمر : ما طاوعني الناس على ما أردت من الحق ، حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً[٤] ، فقد أبدى بهذا الإعلان منذ توليه الخلافة ، أن تحقيق الأهداف يتطلب شيئاً من المرونة والتغاضي ، فليس الأمر كما يرى ولده بأن لا مانع لديه من أن تغلي بهم القدور في سبيل تحقيق العدل ، بصرف النظر عن أي اعتبار آخر[٥] .

وهذا موقف آخر مع ابنه عبد الملك وإليك ما دار بينهم من حوار :

الابن : ما يؤمنك أن تؤتى في منامك ، وقد رفعت إليك مظالم لم تقضِ حق الله فيها؟

الأب : يا بني إن نفسي مطيتي ، إن لم أرفق بها لم تبلغني ، إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم

---

(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، (ص ٣٢٦) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، (ص ٨٨) .

(٤) المصدر السابق نفسه .

(٥) النموذج الإداري المستخلص ، (ص ٣٢٨) .

يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا ، وإني لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي ، إن الله جل ثناؤه لو أراد أن ينزل القرآن جملة لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتى أسكن الإيمان في قلوبهم .

يا بني . . . ما أنا فيه مِنْ أمر هو أهم إلي من أهل بيتك (الأمويين) ، هم أهل القدرة والعدد وقبلهم ما قبلهم ، فلو جمعت ذلك في يوم واحد خشيت انتشاره علي ، ولكني أنصف من الرجل والاثنين ، فيبلغ ذلك من وراءه ، فيكون أنجح له[١] .

في الآثار السابقة ، يقدم لنا عمر فقهه الحاذق في إدارة الحركات الإصلاحية التجديدية ، وتسيير البرامج التي تستهدف إسقاط الظلم والاستغلال ونشر العدل والمساواة[٢] . ففي قوله : إني لو أتعبت نفسي وأعواني لم يك ذلك إلا قليلاً حتى أسقط ويسقطوا ؛ فبيَّن رحمه الله : أن طاقة الإنسان محدودة ، وأن القابلية على تحمل الجد الصارم لها حدودها هي الأخرى ، والإنسان في تقبله لالتزاماته في حاجة ضرورية إلى وقتٍ كافٍ لتمثل هذه الالتزامات من الداخل ، وتحويلها إلى مبادئ وقيم ممزوجة بدم الإنسان وأعصابه ، ومتشكلة في بنيته وخلاياه ، وبدون هذا سوف لن تجتاز هذه الالتزامات حدود الإنسان الباطنية ، وستظل هناك مكدسة على أعتاب الحس الخارجي ، وطالما ظل هذا التكديس يزداد ثقلاً يوماً بعد يوم ، فسوف يأتي يوم لا محالة يسقط فيه الإنسان تحت وطأة هذا الثقل المتزايد غير المتمثل[٣] . . .

ومما يلفت النظر عبارته : . . ولكني أنصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجح له . إن عمر هنا يؤكد على أهمية الإنجاز وعلى دوره في تحقيق ـ الإصلاح والتجديد ـ ، فكثيرون هم أولئك الذين طرحوا أقوالاً أعلنوا فيها عن عزمهم على إحداث ثورة حقيقية وانقلاب يجتث الجذور العفنة ويبدأ الزرع من جديد ، ولكن هؤلاء ما لبثوا أن سقطوا وسقطت مبادئهم ؛ لأنهم طرحوا أقوالاً . . . أما عمر هذا المصلح الكبير والفقيه الحاذق ، فإنه يريد أن يطرح أفعالاً ، ولا يطرحها بالعنف والإكراه ودونما تخطيط ، وإنما لينصف الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءهما حتى يسري الإصلاح في نفوس الأمة أنى كانت سريان الضياء في الظلام .

ثم إن عمر هذا الذكي المرن لم يشأ أن يخرج شيئاً إلا ومعه طرف من الدنيا يستلين به القلوب[٤] ، ولا يمكن لأحد أن يقول : إن هذا يمثل تنازلاً من عمر بن عبد العزيز عن أهداف إصلاحاته الشاملة صوب إصلاح جزئي يقوم على الترقيع . . . لأن ما عرفنا عمر منذ حمل

(١) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، (ص ١٠٦) .
(٢) ملامح الانقلاب ، (ص ١٧٣) .
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) المصدر السابق نفسه ، (ص ١٧٤) .

مسؤولية أمته ، يسعى إلى التنازل ، ولو شبراً واحداً ، عن الأهداف التي طرحها القرآن الكريم والسنة ، ولكنه هنا يقدم فقه الأسلوب الحيوي الذي تتأتى به تلك الأهداف كاملة . . .

إن الضغط المستمر يولد الانفجار ، ومهما كان سخف هذا الانفجار وعبثه فإنه لابد وأن يحرق ويدمر ، وإذا كان بإمكان القادة والمسؤولين تجاوز هذا الحريق والدمار عن طريق الالتزام بأسلوب حيوي ينسجم وبنية الإنسان النفسية ، فلماذا لا يسلكوه[١]؟ فعندما قال له ابنه عبد الملك: يا أمير المؤمنين ! انفذ لأمر الله وإن جاشت بي وبك القدور ، فماذا كان جواب الخليفة المرن ؟ يا بني ! إن بادهت الناس بما تقول أحوجوني إلى السيف ، ولا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف ، لا خير في خير لا يحيا إلا بالسيف[٢] .

إن خليفة بهذه المرونة وبهذا الذكاء لا يمكن أن يجزع عن أهدافه يوماً[٣] ، ومما مضى يتضح أدلة مرونة عمر في إدارته فيما يتعلق بتنفيذ السياسة العامة ، سياسة إقامة العدل ونشر الإسلام ، وبناء دولة العقيدة[٤] ، وإليك هذه الشواهد في تنفيذ مبدأ المرونة :

١ ـ فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها :

خرج عمر على حرسه يوماً ، فقال: أيكم يعرف هذا الرجل الذي بعثناه إلى مصر ؟ قالوا: كلنا نعرفه ـ وكان قد كلف رجلاً بمهمة إلى مصر قبل وقت ليس ببعيد ـ قال: فليذهب إليه أحدثكم سناً فليدعه ـ قال: وذلك في يوم جمعة ، فذهب إليه الرجل ، فظن الرسول أن عمر بن عبد العزيز استبطأه فقال له: لا تعجلني حتى أشد عليَّ ثيابي ، فشد عليه ثيابه ، فأتى عمر ، فقال: لا روع عليك ، إن اليوم يوم الجمعة ، فلا تبرح حتى تصلي الجمعة ، وقد بعثناك لأمر عجلة من أمر المسلمين ، فلا يحملنك استعجالنا إياك أن تؤخر الصلاة عن ميقاتها[٥] ، فأبدى عمر في هذا الموقف مرونة في التنفيذ ، رغم أنه أرسل مندوبه لأمر يهم المسلمين إنجازه على عجل[٦] .

٢ ـ هلا أقمت حتى تفطر ثم تخرج :

استدعى عمر بن عبد العزيز عامله على خراسان ، فما كان من العامل إلا أن أسرع بالمغادرة إلى الخليفة تنفيذاً لأمره ، وعندما وصل إلى مقر الخلافة في دمشق ورأى الخليفة ملامح التعب

---

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) الكامل في التاريخ؛ نقلاً عن ملامح الانقلاب ، (ص ١٧٥).
(٣) ملامح الانقلاب ، (ص ١٧٥).
(٤) النموذج الإداري ، (ص ٣٢٩).
(٥) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، (ص ١٠٦).
(٦) النموذج الإداري ، (ص ٣٣٠).

والإجهاد على وجهه ، سأله : متى خرجت ؟ فقال : في شهر رمضان ، فقال له عمر : قد صدق من وصفك بالجفاء ! ! هلا أقمت حتى تفطر ، ثم تخرج[١] .

٣ ـ لا تعنت الناس ولا تعسرهم ولا تشق عليهم :

ذكر ابن سعد أن ـ ميمون بن مهران ـ وكان على ديوان دمشق ، قال : فرضوا لرجل زمِن[٢] ، فقلت : الزمن ينبغي أن يحسن إليه ، فأما أن يأخذ فريضة رجل صحيح فلا . فشكوني إلى عمر بن عبد العزيز ، فقالوا له : إنه يتعنتنا ويشق علينا ، ويعسرنا . قال : فكتب إلي : إذا أتاك هذا فلا تعنت الناس ولا تعسرهم ، ولا تشق عليهم ؛ فإني لا أحب ذلك[٣] ، وقد كتب إليه عمر انطلاقاً من مبدأ المرونة وتسهيل الأمور .

٤ ـ المرونة في الحوار والتفاهم :

فقد كان الحوار الهادئ ومقارعة الحجة بالحجة أسلوبه في حواره ومناظراته ـ كما مر معنا مع الخوارج ـ فقد حدث أن : دخل على عمر أناس من الحرورية ، فذاكروه شيئاً ، فأشار إليه بعض جلسائه أن يرعبهم ، ويتغير عليهم ، فلم يزل عمر بن عبد العزيز يرفق بهم حتى أخذ عليهم ، ورضوا منه أن يرزقهم ويكسوهم ما بقي ، فخرجوا على ذلك ، فلما خرجوا ضرب عمر ركبة رجل يليه من أصحابه ، فقال : يا فلان إذا قدرت على دواء تشفي به صاحبك ، دون الكي فلا تكوينَّه أبداً[٤] ، وأبدى مرونة في كافة أساليب التعامل معهم[٥] .

٥ ـ المرونة الفكرية :

كان عمر يتحلى بالمرونة الفكرية ، متجنباً الجمود والتشدد ، فقد حدث ـ كما مر معنا ـ أن أرسل عمر يزيد بن أبي مالك ، والحارث بن محمد ، ليعلما الناس السنة وأجرى عليهم الأرزاق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث ، وقال : ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً ، فذكر ذلك لعمر ، فقال : ما نعلم بما صنع يزيد بأساً ، وأكثر الله فينا مثل الحارث[٦] . فلم يتخذ موقفاً محدداً تجاه العالِمَيْن ، رغم اختلاف موقفهما تجاه قبول الأجر على تعليم الناس ، فأيد أخذ الأجر على التعليم ، وأنه لا بأس فيه ، ثم دعا الله أن يكثر من أمثال الحارث ، فاتضحت مرونته في تأييد الموقفين في آن واحد ، رغم اختلافهما ، ويأتي ذلك في إطار ما عبر عنه عن قناعته

---

(١) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري ، (ص ٣٣٠) .
(٢) الزمن : هو المبتلى بالعاهة . لسان العرب (١٣/ ١١٩) .
(٣) الطبقات (٥/ ٣٨٠) .
(٤) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، (ص ٧٦ ، ٧٨) .
(٥) النموذج الإداري ، (ص ٣٣١) .
(٦) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، (ص ١٣٧) .

التامة ، أن مبدأ المرونة مطلوب وضروري حتى قال: ما يسرني لو أن أصحاب محمد ﷺ لم يختلفوا ، لأنهم لو لم يختلفوا، لم تكن رخصة[١] . وقال: ما يسرني باختلاف أصحاب النبي ﷺ ، حمر النعم[٢] .

فهذه أدلة على تطبيق عمر لمبدأ المرونة في إدارته ، ولم تكن المرونة عائقاً لتنفيذ القرارات ، وتحقيق الأهداف المرسومة ، والوصول إلى المرامي والتطلعات[٣] .

تاسعاً: أهمية الوقت في إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز يقضي جل وقته ، إن لم يكن كله في تسيير أمور الدولة ، أو في عمل فيه مصلحة الأمة ، أو في أداء حق الله من العبادة ، فكان يقضي ليلته في الصلاة والمناجاة ، وكان لا يكلم أحداً بعد أن يوتر[٤] ، وفي إطار اغتنام الوقت نسب إلى عمر قوله: إن الليل والنهار يعملان فيك ـ أي: في الإنسان ـ فاعمل فيهما[٥]، وكان يغتنم الوقت في الأعمال الصالحة وفي سرعة التوجيه والبت السريع في الأمور واتخاذ القرارت الإدارية، وتلافي كل ما من شأنه تأخير أي عمل أو مصلحة ، فإن أهم الأدلة على ذلك ما كان منه من سرعة إجراءاته لإصدار ثلاثة قرارات ، تحدث عنها ابن عبد الحكم ورواها قائلاً:

فلما دفن سليمان ـ وكان دفنه عقب صلاة المغرب ـ دعا عمر بدواة وقرطاس ، فكتب ثلاثة كتب ، لم يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يؤخرها ، فأمضاها من فوره ، فأخذ الناس في كتابته إياها هنالك في همزه؛ يقولون: ما هذه العجلة؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله؟! هذا حب السلطان. هذا الذي يكره ما دخل فيه ، ولم يكن بعمر عجلة ولا محبة لما صار إليه ، ولكنه حاسب نفسه ، ورأى أن تأخير ذلك لا يسعه.

وكان الكتاب الأول عن أمر لا يمسه هو شخصياً في شيء ، بقدر ما يمس المسلمين المجاهدين في القسطنطينية بعد أن أصابهم من الجوع والضنك ، واشتد بهم الأمر أمام عدوهم ، فأمر برجوع مسلمة بن عبد الملك من القسطنطينية ورفع الحصار؛ فقد رأى عمر أنه لا يسعه فيما بينه وبين الله عز وجل أن يلبي شيئاً من أمور المسلمين ، ثم يؤخر قفلهم ساعة ، فذلك الذي حمله على تعجيل الكتاب[٦] ، حقاً إن الحال الذي كان عليه مجاهدو القسطنطينية لا يحتمل

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ٢٧٥).
(٢) الطبقات (٥/ ٣٨١).
(٣) النموذج الإداري ، (ص ٣٣٢).
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ٢١٠ ، ٢١١).
(٥) الإدارة في التراث الإسلامي ، البرعي وعابدين (١/ ٢٧٩).
(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، (ص ٣٢).

التأخير في قرار عودتهم على الإطلاق ، فكان الإجراء المناسب في الوقت المناسب[1] .

وكتب بعزل أسامة بن زيد التنوخي ـ وكان على خراج مصر ـ فعزله لظلمه وغشمه وتسلطه .

كما كتب بعزل يزيد بن أبي مسلم عن إفريقية لظلمه[2] .

وكان عمر يهتم بالوقت من حيث اختيار الوقت المناسب لإعلان التوجيهات أو القرارات الإدارية وسهولة إبلاغها ، فكان حين يستخدم البلاغة لإبلاغ الناس يراعي الوقت الأكثر ملاءمة ؛ سواء من حيث كثرة المجتمعين ، أم من حيث قدسية المكان وحرمته ، وبالتالي زيادة الاهتمام بما يكون فيه ، ألا وهو الموسم السنوي موسم الحج ، ليخطب في المسلمين أو يكتب إلى المسلمين في يوم حجهم الأكبر بما يراه على قدر كبير من الأهمية من أمورهم ، إذ يتحقق باختيار ذلك الوقت المناسب أمران :

أحدهما : نشر التوجيه أو القرار أو الإجراء في أكبر عدد من المسلمين ، من كل بلد من بلدانهم .

والثاني : سرعة الانتشار الذي يحققها إعلان القرار أو التوجيه في هذا الجمع في ذلك الوقت[3] .

ومن ذلك كتابه إلى أهل الموسم الذي جاء فيه : أما بعد : فإني أشهد الله وأبرأ إليه في الشهر الحرام والبلد الحرام ، ويوم الحج الأكبر أني بريء من ظلم من ظلمكم ، وعدوان من اعتدى عليكم ، أن أكون أمرت بذلك أو رضيته أو تعمدته إلا أن يكون وهماً مني ، أو أمراً خفي عليَّ لم أتعهده ، وأرجو أن يكون ذلك موضوعاً عني مغفوراً لي إذا علم مني الحرص والاجتهاد ، ألا وإنه لا إذن على مظلوم دوني وأنا معول كل مظلوم ، ألا وأي عامل من عمالي رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم ، وقد صيرتُ أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم ، ألا وإنه لا دولة بين أغنيائكم ، ولا أثرة على فقرائكم في شيء من فيئكم ، ألا وأيما وارد ورد في أمر يصلح الله به خاصاً أو عاماً من هذا الدين فله ما بين مئتي دينار إلى ثلاثمئة دينار على قدر ما نوى من الحسنة وتجشم من المشقة ، رحم الله امرأً لم يتعاظمه سفر يجيء الله به حقاً لمن وراءه ، ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم ، وأموراً من

---

(١) النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر ، (ص ٣٣٧) .
(٢) المصدر السابق نفسه ، (ص ٣٣٧و٣٣٨) .
(٣) المصدر السابق نفسه ، (ص ٣٣٩) .

الباطل أماتها الله عنكم ، وكان الله هو المتوحد بذلك ، فلا تحمدوا غيره ، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري ، والسلام[١] .

فهذا كتاب عظيم من أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في محاربة الظلم وإقرار العدل ، فهو قد سعى جاهداً في رد المظالم التي عرف عنها ، ولكنه يتوقع أن هناك مظالم لم تصل إليه ، فكتب هذا الكتاب وأعلنه في موسم الحج الذي يضم وفوداً من أغلب بلاد المسلمين ، لتبرأ ذمته من مظالم خفية لم تبلغه ، وأعلن في هذا الكتاب براءته من الولاة الذين يقع منهم شيء من الظلم ، وربط طاعتهم بطاعة الله تعالى ، فهو بهذا يجعل كل فرد من أفراد الأمة رقيباً على أمير بلده ، يسعى في تثبيته إذا استقام ، وفي تقويمه إذا انحرف . . .

ومن أروع ما جاء في هذا الكتاب تخصيص مبلغ من المال لمن يسعى في إصلاح أمور الأمة ، وفي ذلك ضمان النفقة لمن أراد أن يسافر من أجل ذلك حتى لا يفقد به التفكر في تأمين تلك النفقة ، ثم يختم كتابه بشكر الله جلَّ وعلا على ما وفقه إليه من الإصلاح الذي تحقق على يديه ، وهذا مثل من الإخلاص القوي لله تعالى بحيث يتلاشى حظ النفس ، ولا يكون إلا لطف الله جل وعلا وتوفيقه ومعونته[٢] .

فهذا دليل على تطبيق عمر لمبدأ تحري ومراعاة أهمية الوقت ، حيث لم يقتصر عمر في إدارته للوقت على اغتنام الوقت وإدراك أهميته ، بل كانت إدارة كاملة لكل مقتضيات اغتنام الوقت وكل ما يتعلق به من ضرورة سرعة اتخاذ القرارات والتوجيه في الأوقات المناسبة ، والعمل على تلافي التأخير وأسبابه ودوافعه[٣] .

عاشراً: مبدأ تقسيم العمل في إدارة عمر بن عبد العزيز:

كان عمر بن عبد العزيز قد أشار بصراحة إلى مبدأ تقسيم العمل ومهام المسؤولية للدولة ، فقد كان في كتابه إلى عقبة بن زرعة الطائي ، بعد أن ولاه خراج خراسان: . . . إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها ، فالوالي ركن ، والقاضي ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع: أنا ـ يعني الخليفة[٤] .

هذا من حيث التقسيم الرئيسي العام ، فبالإضافة إلى الأركان الرئيسية لإدارته ، وهي: الولاية ويمثلها الوالي للإقليم ، والقضاء ويمثله القاضي ، ومالية الدولة ويمثلها رجل أو

---

(١) حلية الأولياء (٥/ ٢٩٢_٢٩٣).
(٢) التاريخ الإسلامي (١٦/ ١٥١).
(٣) النموذج الإداري ، (ص ٣٤٠).
(٤) تاريخ الطبري ؛ نقلاً عن النموذج الإداري ، (ص ٣٤٢).

صاحب بيت المال ، والرابع السلطة العليا للدولة رجل الدولة أو الخليفة ويمثلها أمير المؤمنين .

إلا أن هناك تقسيمات فرعية لمهام الدولة؛ منها ما يتعلق بإمارة الجهاد ، فقد كان منصور بن غالب على ولاية الحرب[(١)] ، وعلى الصائفة كل من الوليد بن هشام ، وعمرو بن قيس السكوني[(٢)] . وقسم آخر وهو ما يتعلق بالأمن الداخلي ، إذ استعمل عمر بن يزيد بن بشر الكلبي على الشرطة[(٣)] ، وولى الحرس عمر بن مهاجر بن أبي مسلم الأنصاري ، وحاجبه حبيش مولاه ، وأنشأ نقاط العبور وولى عليها ، مثل جواز مصر ، وكان عليها عمر بن رزيق الأيلي ، وهي ما يعرف الآن بنقاط الجمارك[(٤)] ، وقسم ثالث يختص بالكتابة (الكتاب) ، ومنهم ليث بن أبي رقية ابن أم الحكم بنت أبي سفيان[(٥)]، والخاتم وعليه نعيم بن سلامة[(٦)]، وقسم يتولى متابعة الشؤون المالية، وله تفريعات؛ منها: الخراج، ومن ولاته على الخراج عقبة بن زرعة الطائي[(٧)] ، والصدقات إذ وليها لعمر عبد الله بن عبد الرحمن بن عتبة القرشي[(٨)] . وهي تمثل مؤسسة النقد في الوقت الراهن، وليها لعمر ابن أبي حملة القرشي[(٩)] ، وكذلك الخراج المركزي وكان عليه صالح بن جبير الغداني[(١٠)] .

وأما في مجال التعليم والتثقيف فقد أنشأ عمر مجالس التعليم الدائمة في المساجد ، وكلف من يقوم بالتفقيه والتعليم المتنقل في البداية ، كما كلف أناساً بالدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأقام دور الإفتاء؛ إذ جعل الفتيا في مصر إلى ثلاث فقهاء[(١١)] .

بالإضافة إلى ما سبق فقد كان هناك ولايات أخرى ، مثل: ولاية الصلاة وولاية الحج وتسيير أموره ، والبريد، وغير ذلك مما لا يسعفنا المقام بالإحاطة والتفصيل له ، وهكذا كان عمر بن

---

(١) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ٧١).
(٢) تاريخ خليفة ، (ص ٣٢٤).
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، (ص ٣٤٤).
(٥) تاريخ خليفة ، (ص ٣٢٤).
(٦) المصدر السابق نفسه ، (ص ٣٢٥).
(٧) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن النموذج الإداري ، (ص ٣٤٤).
(٨) أمراء دمشق في الإسلام ، (ص ٤٨).
(٩) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم ، (ص ٢٩٥ .)
(١٠) تاريخ خليفة ، (ص ٣٢٤).
(١١) البداية والنهاية؛ نقلاً عن النموذج الإداري ، (ص ٣٤٤).

عبد العزيز يطبق مبدأ تقسيم العمل في دولته[1] ، فقد كان رحمه الله رجل دولة من الطراز الأول.

هذا وقد كان عمر بن عبد العزيز في كثير من الأحيان يعطي الولاة الحق في تعيين وزرائهم ، وتشكيل مجالس شوراهم ، ولهم حق الإشراف على جيش الولاية ، والحفاظ على الأمن الداخلي في الولاية ، والنفقات اللازمة لكل ولاية مع الأشراف والمتابعة . . . إلخ. هذه بعض الملامح والمعالم من فقه عمر بن عبد العزيز في إدارته للدولة.

ـ من أسباب نجاح مشروع عمر بن عبد العزيز الإصلاحي:

كانت هناك عوامل متعددة ساهمت في نجاح مشروعه الإصلاحي؛ منها:

١ ـ صفاته الشخصية؛ من العلم والورع والخشية والزهد والتواضع والحلم والصفح والعفو والحزم والعدل ، مع قدرات إدارية كبيرة في فن التخطيط والتنظيم والقيادة والتوجيه ومعرفة الناس.

٢ ـ امتلاكه لرؤية إصلاحية تجديدية واضحة المعالم ، هدفها الرجوع بالدولة والأمة لمنهج الخلافة الراشدة على منهاج النبوة.

٣ ـ التفاف الأمة حول هذا المشروع عندما لمست صدق المشرف عليه وإخلاصه.

٤ ـ وجود كوكبة من العلماء الربانيين في عهده كانوا مؤهلين لقيادة الدولة والأمة ، فلما جاءت الفرصة بوصول عمر بن عبد العزيز للحكم وأتاح لهم المجال؛ أبدعوا وأثبتوا جدارتهم فيما أسند لهم من مهام كبرى ، وهذا درس مهم في أهمية تكامل العلم الشرعي ، والأمانة والتقوى مع القدرات القيادية في شخصية العلماء الربانيين ، فذلك يساعدهم على تحكيم شرع الله من خلال مناصب الدولة وقيادة الجماهير والتفاهم حول المشروع الإسلامي الكبير.

٥ ـ الحرص على تحكيم الشرع في كل صغيرة وكبيرة ، على مستوى الدولة والأمة ، فيأتي بذلك التوفيق الرباني ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

ـ أثر الالتزام بأحكام القرآن والسنة الشريفة على دولة عمر بن عبد العزيز رحمه الله:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وفي حياة الأمم والشعوب؛ تعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق ، وأوضح مكان لسنن الله وقوانينه كتاب الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

---

(١) النموذج الإداري ، (ص ٣٤٥).

وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله ﷺ بالمطالعة في سنته ﷺ، فقد كان يقتنص الفرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته ﷺ (العضباء) كانت لا تسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم ﷺ كاشفاً عن سنة من سنن الله: «حق على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»[1].

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير، وفي الأزمنة من التاريخ والسير؛ قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران]، وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكر؛ قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس].

● **من خصائص السنن الإلٰهية:**

١ ـ أنها قدر سابق:

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] أي: أن حكم الله تعالى وأمره الذي يقدره كائن لا محالة وواقع لا حيد عنه، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

٢ ـ أنها لا تتحول ولا تتبدل:

قال تعالى: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح].

٣ ـ أنها ماضية لا تتوقف:

قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

٤ ـ أنها لا تخالف ولا تنفع مخالفتها:

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ

---

(١) البخاري، كتاب الجهاد والسير، رقم (٢٨٧٢).

وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [غافر].

٥ ـ أنها لا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتّعظ بها المتقون:

قال تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران].

٦ ـ أنها تسري على البر والفاجر:

فالمؤمنون ـ والأنبياء أعلاهم قدراً ـ تسري عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه[1].

● **وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية: أما الآثار الدنيوية التي ظهرت في دولة عمر بن عبد العزيز فهي:**

١ ـ الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد أن عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ مكن الله له في الأرض تمكيناً عظيماً بسبب حرصه على إقامة شرع الله تعالى في نفسه وأهله ومن حوله، وقومه وأمته، وأخلص لله في مشروعه الإصلاحي الراشدي، فأيده الله عز وجل وشد أزره، فقد أخذ بشروط التمكين وعمل بها؛ فتحقق له وعد الله، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ﴾ [النور: ٥٥]. وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله.

٢ ـ الأمن والاستقرار:

كانت الثورات في العهد الأموي على أشدها ضد النظام السائد، وخصوصاً من الخوارج، إلا أنَّ عمر بن عبد العزيز استطاع بالحوار والنقاش أن يقنع الكثير منهم، ولقد تميز عهده بالأمن والاستقرار بسبب عدله في الحكم ورفعه للمظالم، واحترامه الكبير لكل شرائح المجتمع، وحرصه على تطبيق الشريعة في كافة شؤون الحياة؛ قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

---

(١) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٦٧، ٦٦٩).

٣ـ النصر والفتح المبين:

إن عمر بن عبد العزيز حرص على نصرة دين الله بكل ما يملك، وتحققت فيه سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج]؛ فقد وعد الله من ينصره؛ ونصره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر من يحكم بغير ما أنزل الله ولا يتكلم بما لا يعلم[١]. كما نرى في حياتنا المعاصرة.

٤ ـ العز والشرف:

إن الشرف الكبير والعز العظيم الذي سطر في كتب التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز بسبب تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإن من يعتز بالانتساب لكتاب الله الذي به تشرف الأمة ويعلو ذكرها وضع رجله على الطريق الصحيح، وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يتمسك بكتابه وسنة رسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، قال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في تفسيره هذه الآية: فيه شرفكم[٢]. فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام.

٥ ـ بركة العيش ورغد الحياة في عهده:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

إن إقامة شرع الله تعالى وتطبيق أحكامه يجلب للأمة بركات مادية ومعنوية، فمن حقق الإيمان والتقوى يكرمه الله بهذا العطاء الرباني الكبير. والبركات التي يعد الله بها الذين يؤمنون ويتقون في توكيد ويقين، ألوان شتى، لا يفصلها النص ولا يحددها، وإيماء النص القرآني يصور الفيض الهابط من كل مكان، النابع من كل مكان بلا تحديد ولا تفصيل ولا بيان؛ فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، وما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع الخيال[٣].

ولقد لامس الناس وشاهدوا هذه البركات في عهد عمر بن عبد العزيز؛ سواء كانت مادية أو معنوية، وفوجئ الناس أن بركة العيش ورغد الحياة قد عم جميع الناس، ومالية الدولة قويت،

---

(١) صفحات مشرقة من التاريخ، للصَّلابي (٢/ ٣٠٦).
(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ١٧٠).
(٣) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٣٩).

واطمأن الناس في كل رقعة من رقع خلافة الدولة الأموية الواسعة ، حتى عز وجود من يستحق الزكاة ويقبلها ، وأصبحت هذه مشكلة للأغنياء وأصحاب الأموال تطلب حلاً سريعاً ، قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم فلم نجد بها فقيراً ، ولم نجد من يأخذها مني ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس ، فاشتريت بها رقاباً ، فأعتقتهم وولاؤهم للمسلمين(١) .

وقال رجل من ولد زيد بن الخطاب: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصف ، فذلك ثلاثون شهراً ، فما مات حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم ، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما يبرح بماله يتذكر من يضعه فيهم فما يجده فيرجع بماله ، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس(٢) . فهذه الفوائد العامة من بركات الحكومة الإسلامية التي تطبق شرع الله تعالى .

٦ ـ انتشار الفضائل وانزواء الرذائل :

بين الشريعة وبين الخلق أوثق الرباط وأمتن العرى ، كيف لا ، والرسالة من غاياتها العظمى: تزكية الأخلاق وتربية الفضائل؛ قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. فمعنى (يزكيهم) أي: يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن المنكر لتزكو نفوسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به حال شركهم وجاهليتهم(٣) .

ولقد اهتم عمر بن عبد العزيز بنشر الفضائل ، وحارب الرذائل وتحركت معه مدرسة الوعظ والإرشاد والتزكية والتربية ، والتي كان من روادها الحسن البصري ، وأيوب السختياني ، ومالك بن دينار وغيرهم ، وقد حققت هذه المدرسة نتائج باهرة في نشر الفضائل وانزواء الرذائل .

وقد حدث في عهد عمر بن عبد العزيز تجديد كبير في توجه الأمة والمجتمع الإسلامي والتطور في الأذواق والأخلاق والميول والرغبات في هذه المدة القصيرة؛ فقد حدَّث الطبري في تاريخه: كان الوليد صاحب بناء واتخاذ المصانع والضياع ، وكان الناس يلتقون في زمانه فإنما يسأل بعضهم بعضاً عن البناء والمصانع ، فولي سليمان فكان صاحب نكاح وطعام ، فكان الناس يسأل بعضهم بعضاً عن التزويج والجواري ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز كانوا يلتقون فيقول

---

(١) رجال الفكر والدعوة(١/ ٥٨) .

(٢) المصدر السابق نفسه .

(٣) تفسير ابن كثير(١/ ٤٠١)؛ الحكم والتحاكم (٢/ ٦٩١) .

الرجل للرجل: ما وراءك الليلة ؟ وكم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ ومتى ختمت ؟ وما تصوم من الشهر[١]؟

٧ـ الهداية والتثبيت:

جاء عن عمر بن عبد العزيز في خطابه الذي أرسل ليقرأ على الحجاج في موسم الحج: . . . ولولا أن أشغلكم عن مناسككم لرسمت لكم أموراً من الحق أحياها الله لكم ، وأموراً من الباطل أماتها الله عنكم ، وكان الله هو المتوحد بذلك؛ فلا تحمدوا غيره ، فإنه لو وكلني إلى نفسي كنت كغيري والسلام عليكم[٢].

ولا شك أن عمر بن عبد العزيز حرص على تحكيم شرع الله في دولته وبذلك منحه الله نعمة عظيمة؛ ألا وهي الهداية والتثبيت على الحق ، قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. ثم قال سبحانه وتعالى بعدها: ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء] ، والأمر الذي وعظوا به ووعدوا الخير لأجله: هو تحكيم الشريعة والانقياد للرسول ﷺ ، فلو أنهم امتثلوا لما أمروا لثبت الله أقدامهم على الحق فلا يضطربون في دينهم ، ولآتاهم الهداية التي لا عوج فيها بحيث توصلهم إلى الأجر العظيم[٣].

إن الهداية والثبات على الأمر ، هبة يهبها الله لمن تمخض قلبه لأمره ، وانقادت جوارحه لحكمه[٤].

إن خلافة عمر بن عبد العزيز حجة تاريخية على من لا يزال يردد ترديد الببغاء للكلمات والأصوات القائلة: إن الدولة التي تقوم على الأحكام الإسلامية والشريعة عرضة للمشاكل والأزمات ، وعرضة للانهيار في كل ساعة ، وأنها ليست إلا حلماً من الأحلام ، ولا يزال التاريخ يتحدى هؤلاء ويقول لهم[٥]: ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

ومما أدهشني في دراستي التاريخية تواصل الأجيال الإسلامية فيما بينها عبر حلقات متماسكة تؤثر بعضها في بعض؛ فالسلطان نور الدين زنكي ، المتوفى (٥٦٨ هـ) كتب له الشيخ العلامة

---

(١) تاريخ الطبري؛ نقلاً عن رجال الفكرة والدعوة (١/ ٥٩).
(٢) حلية الأولياء (٥/ ٢٩٢ـ٢٩٣).
(٣) فتح القدير (١/ ٤٨٥).
(٤) الحكم والتحاكم (٢/ ٦٩٠).
(٥) رجال الفكر والدعوة (١/ ٥٩).

أبو حفص معين الدين عمر بن محمد بن خضر الإربلي سيرة عمر بن عبد العزيز لكي يسير نور الدين على منهاجها ، ولقد آتت معالم الإصلاح والتجديد الراشدي في عهد عمر بن عبد العزيز ثمارها في الدولة الزنكية عندما وجدت العالم الكبير الذي رسم ملامح المشروع الإصلاحي وهو الشيخ أبو حفص معين الدين ، وأقتنع القائد العسكري والزعيم السياسي بسلامة المنهج وهو نور الدين زنكي ، فقد قال أبو حفص في مقدمة كتابه ـ عن عمر بن عبد العزيز وتقديمه ذلك الكتاب لنور الدين :

« . . . علماً منه أن الاقتداء عن سلف الفضلاء والعقلاء يكمل الأجر ويبقي الذكر ، واتباع سنن المهديين الراشدين يصلح السريرة ويحسن السيرة ، وأن الله سبحانه وتعالى أمر نبيه ﷺ بالاقتداء بسلفه من الأنبياء ؛ فقال عز من قائل : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام: ٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ ﴾ [هود: ١٢٠].

فلذلك اشتد حرصه ـ أدام الله سعادته ـ على جمع السير الصالحة والآثار الواضحة ، فحينئذ رأيت حقاً عليّ بذل الوسع في مساعدته واستنفاذ القوة في معاضدته بحكم صدق الولاء وأكيد الإخاء ، فصرفت وجه همتي إلى جمع سيرة السعيد الرشيد عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ ، والتجأت إلى الله الكريم جل اسمه أن يحسن معونتي وييُسِّر ما صرفت إليه عزيمتي ، فحين شرح الله صدري لذلك ، ولاحت أمارات المعونة ، بادرت إلى جمع هذه السيرة برسم خزانته المعمورة ، معاونة على البر والتقوى»[(١)].

لقد قدم هذا الشيخ الجليل منهاجاً علمياً لنور الدين زنكي من خلال سيرة عمر بن عبد العزيز ، فبنى دولة العقيدة. وحكم الشريعة ، وأقام العدل ورفع الضرائب والمكوس عن الأمة ، وعمل على إحياء السنة وقمع البدعة ، وعمق هوية الأمة ، وفجر روح الجهاد فيها ونشر العلم ، وساهم في تحقيق الازدهار والرخاء ، وكان نسيج وحده في زهده وورعه وعبادته وصدقه وإخلاصه ، ومن أراد التوسع فليراجع «الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري» ، عهد نور الدين وصلاح الدين ، لمحمد حامد الناصر .

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله ونواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة عمر بن عبد العزيز ، ودولة نور الدين زنكي ودولة يوسف بن تاشفين ودولة محمد الفاتح ؛ لهي سنن من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تتبدل ولا تتغير ، فأي قيادة مسلمة تسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم مخلصة لله في

---

(١) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (١/ ٢).

قصدها ، مستوعبة لسنن الله في الأرض؛ فإنها تصل إليه ولو بعد حين ، وترى آثار ذلك التحكيم على أفرادها ومجتمعاتها ودولها وحكامها .

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك الذين سبقونا بالإيمان في جهادهم وعلمهم وتربيتهم ، وسعيهم الدؤوب لتحكيم شرع الله ، وأخذهم بسنن الله وفقهه ، ومراعاة التدرج والمرحلية والارتقاء بالشعوب نحو الكمالات الإسلامية المنشودة ، إن التوفيقات الربانية العظيمة في تاريخ أمتنا يجريها الله تعالى على يدي من أخلص لربه ودينه ، وأقام شرعه وقصد رضاه وجعله فوق كل اعتبار .

● الأيام الأخيرة في حياة عمر بن عبد العزيز ووفاته رحمه الله :

١ ـ آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز :

كانت آخر خطبة خطبها بخناصرة ، فقال فيها : أيها الناس ، إنكم لم تخلقوا عبثاً ولن تتركوا سدى ، وإن لكم معاداً ينزل الله فيه للحكم فيكم ، والفصل بينكم ، وقد خاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحرم الجنة التي عرضها السموات والأرض ، ألا واعلموا أنما الأمان غداً لمن حذر الله وخافه ، وباع نافداً بباقٍ ، وقليلاً بكثير ، وخوفاً بأمان ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها بعدكم الباقون كذلك حتى ترد إلى خير الوارثين .

وفي كل يوم تشيعون غادياً ورائحاً إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجله ، فتغيبونه في صدع من الأرض ، ثم تدعونه غير موسد ولا ممهد ، قد فارق الأحبة ، وخلع الأسباب ، فسكن التراب وواجه الحساب ، فهو مرتهن بعمله ، فقير إلى ما قدم ، غني عما ترك ، فاتقوا الله قبل نزول الموت وانقضاء مواقعه ، وايم الله إني لأقول لكم هذه المقالة وما أعلم عند أحد من الذنوب أكثر مما عندي ، فأستغفر الله وأتوب إليه ، وما منكم من أحد تبلغنا عنه حاجة إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه ، وما منكم أحد يسعه ما عندنا إلا وددت أنه سداي ولحمتي ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء ، وايم الله لو أردت غير هذا من النضارة والعيش ، لكان اللسان مني به ذلولاً عالماً بأسبابه ، ولكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنة عادلة ، يدل فيها على طاعته ، وينهى عن معصيته .

ثم رفع طرف ردائه فبكى حتى شهق ، وأبكى الناس حوله ، ثم نزل فكانت إياها لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله [١] .

---

(١) تاريخ الطبري (٧/ ٤٧٥).

٢ ـ سقيه السم :

اختلفت الروايات عن سبب مرض وموت عمر بن عبد العزيز؛ فعلى حين تذكر الروايات أن سبب مرضه وموته هو الخوف من الله تعالى والاهتمام بأمر الناس كما روي عن زوجته فاطمة بنت عبد الملك، وكما ذكر ابن سعد في الطبقات عن ابن لهيعة(١)، إلا أنه قد ذكر سبب آخر لموته؛ وهو: أنه سقي السم، وذلك أن بني أمية قد تبرموا وضاقوا ذرعاً من سياسة عمر بن عبد العزيز التي قامت على العدل، وحرمتهم من ملذاتهم وتمتعهم بميزات لا ينالها غيرهم، بل جعل بني أمية مثل أقصى الناس في أطراف دولة الإسلام، ورد المظالم التي كانت في أيديهم، وحال بينهم وبين ما يشتهون، فكاد له بعض بني أمية بوضع السم في شرابه(٢).

وهذا ليس من المستبعد أو المستغرب أن يعمد أحد هؤلاء إلى سقيه السم ليتخلص منه، وليكن ذلك عن طريق خادمه الذي يقدم له الطعام والشراب، فقد روي: أنهم وعدوا غلامه بألف دينار وأن يعتق إن هو نفذ الخطة، فكان الغلام يضطرب كلما هم بذلك، ثم إنهم هددوا الغلام بالقتل إن هو لم يفعل، فلما كان مدفوعاً بين الترغيب والترهيب حمل السم فوق ظفره، ثم لما أراد تقديم الشراب لعمر قذف السم فيه ثم قدمه إلى عمر، فشربه ثم أحس به منذ أن وقع في بطنه(٣).

وعن مجاهد قال: قال لي عمر بن عبد العزيز: ما يقول الناس في؟ قلت: يقولون: إنك مسحور. قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلاماً له فقال له: ويحك ما حملك على أن تسقيني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها وعلى أن أعتق، قال: هاتِ الألف، فجاء بها فألقاها عمر في بيت المال. وقال: اذهب حيث لا يراك أحد(٤).

فالسبب المباشر لمرضه وموته هو ـ كما ذكرت الروايات ـ كان بسبب سقيه السم(٥)، ففي عفوه عن غلامه الذي وضع له السم وتسبب في قتله وهو قادر على أن يقتله شر قتلة، وفي عدم استفهامه من الغلام عمَّن أمره بوضع السم ـ وقد كان يستطيع إرغام الغلام والاعتراف بذلك ثم يأمر بالقصاص منهم جميعاً ـ مثل عجيب في العفو، وسبب ذلك لأنه كان يوقن أن ما عند الله خير، وأنه إن عفا عنه حصل له الثواب من الله تعالى على عفوه، وإن انتصر منه فأقام عليه الحد لم يأثم، ولكنه لا يحصل على أجر العفو، ونظراً إلى أن أغلى شيء عنده في هذه الحياة أن يرتفع

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٣)؛ الحلية (٥/ ٣٤٢).
(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٣).
(٣) سيرة عمر، لابن الجوزي، (ص ٣١٦، ٣١٧).
(٤) تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٠).
(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٤).

رصيده من الحسنات؛ فإنه قد فضل العفو على انتصاره للنفس[(١)].

٣ ـ شراء عمر موضع قبره:

بلغ من تواضع عمر بن عبد العزيز رحمه الله: أنه عندما ذكروا له ذلك الموضع الرابع في حجرة عائشة، والتي فيها قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر، فقالوا: لو دنوت من المدينة حتى تدفن معهم، قال: والله لا يعذبني الله عذاباً ـ إلا النار فإني لا صبر بي عليها ـ أحب إلي من أن يعلم الله من قلبي أني أراني لذلك أهلاً[(٢)].

ويأبى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ إلا أن يشتري موضع قبره من ماله الخاص، وذلك بسبب ورعه ومحاسبته الشديدة لنفسه، فقد جاءت الروايات: أنه قال لمن حوله ـ وهو في مرض موته ـ: اشتروا من الراهب موضع قبري، فقال له النصراني: والله يا أمير المؤمنين إني لأتبرك بقربك وجوارك، وإنها لخيرة أن يكون قبرك في أرضي، قد أحللتك، ويأبى عمر قائلاً: إن بعتموني موضع قبري وإلا تحولت عنكم، ثم دعا بالثمن الذي اختلفت الروايات في مقداره؛ فقيل: ديناران، وقيل: ستة، وقيل: ثلاثين، دعا بالثمن فوضعه في يد النصراني، فقال أصحاب الأرض: لولا أنا نكره أن يتحول عنّا ما قبلنا الثمن[(٣)].

٤ ـ وصيته لولي عهده يزيد بن عبد الملك:

كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن عبد الملك ـ وهو في مرض الموت ـ قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله عمر ـ أمير المؤمنين ـ إلى يزيد بن عبد الملك، السلام عليك:

فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو. أما بعد: فإني كتبت إليك وأنا دنف[(٤)] من وجعي، وقد علمت أني مسؤول عما وليت يحاسبني عليه مليك الدنيا والآخرة، ولست أستطيع أن أخفي عليه من عملي شيئاً، يقول تعالى فيما يقول: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] فإن يرضى عني الرحيم فقد أفلحت ونجوت من الهول الطويل، وإن سخط علي فيا ويح نفسي إلى ما أصير، أسأل الله الذي لا إلٰه إلا هو، أن يجيرني من النار برحمته، وأن يمنَّ علي برضوانه والجنة. وعليك بتقوى الله، والرعية الرعية، فإنك لن تبقى بعدي إلا قليلاً حتى تلحق باللطيف الخبير[(٥)].

---

(١) التاريخ الإسلامي(١٦/ ٢٢٩).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، (ص ٣٢١ـ٣٢٤)؛ فقه عمر بن عبد العزيز(١/ ٤٥).
(٣) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، (ص ٣٢٢ـ ٣٢٣).
(٤) دنف: براه المرض حتى أشفى على الموت.
(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز، لابن الجوزي، (ص ٣١٨ـ ٣١٩)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٧).

وجاء في رواية: . . . فإن سليمان بن عبد الملك ، كان عبداً من عباد الله ، قبضه الله واستخلفني وبايع لي من قبله ، وليزيد بن عبد الملك إن كان من بعدي ، ولو كان الذي أنا فيه لاتخاذ أزواج ، أو اعتقاد أموال كان الله قد بلغ بي أحسن ما بلغ بأحد من خلقه ، ولكني أخاف حساباً شديداً ومسألة لطيفة ، إلا ما أعان الله عليه ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

لقد نصح عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ لولي عهده يزيد بن عبد الملك ما وسعه النصح ، وبذل ما يقدر عليه من التخويف والتهديد من عاقبة الأمر ، مع ضرب الأمثلة والاعتبار بالسابقين ، فقد نصح وبلَّغ أتم البلاغ[(١)] .

٥ ـ وصيته لأولاده عند الموت :

لما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين إنك قد أفغرت أفواه ولدك من هذا المال ، فلو أوصيت بهم إليَّ وإلى نظرائي من قومك فكفوك مؤونتهم ، فلما سمع مقالته قال: أجلسوني ، فأجلسوه فقال: قد سمعت مقالتك يا مسلمة ، أما قولك: إني قد أفغرت أفواه ولدي من هذا المال ، فوالله ما ظلمتهم حقاً هو لهم ، ولم أكن لأعطيهم شيئاً لغيرهم ، وأما ما قلت في الوصية ؛ فإن وصيتي فيهم: ﴿ إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦]. وإنما ولد عمر بين أحد رجلين: إما صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله ، ادع لي بَنِيَّ ، فأتوه ، فلما رآهم ترقرقت عيناه ، وقال: بنفسي فتية تركتهم عالة لا شيء لهم ـ وبكى ـ ، يا بني إني قد تركت لكم خيراً كثيراً ، لا تمرون بأحد من المسلمين وأهل ذمتهم إلا رأوا لكم حقاً ، يا بني إني قد مثلت بين الأمرين: إما أن تستغنوا وأدخل النار ، أو تفتقروا وأدخل الجنة ، فأرى أن تفتقروا إلى ذلك أحبّ إلي ، قوموا عصمكم الله ، قوموا رزقكم الله[(٢)] .

وجاء في رواية: أن عمر وصى مسلمة أن يحضر موته وأن يلي غسله وتكفينه ، وأن يمشي معه إلى قبره ، وأن يكون مما يلي إدخاله في لحده ، ثم نظر إليه وقال: انظر يا مسلمة بأي منزل تركتني ، وعلى أي حال أسلمتني إليه الدنيا ، فقال له مسلمة: هذه مئة ألف دينار ، فأوصِ فيها بما أحببت ، قال: أو خير من ذلك يا مسلمة؟ أن تردها من حيث أخذتها ، قال مسلمة: جزاك الله عنا خيراً يا أمير ، والله لقد ألنت قلوباً قاسية ، وجعلت لنا ذكراً في الصالحين[(٣)] .

وفي الأثرين الماضيين دروس وعبر ؛ ففي الخبر الأول مثل من ورع أمير المؤمنين عمر بن

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٤٧).

(٢) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١١٥ ، ١١٦)؛ التاريخ الإسلامي (١٦/ ٢٢٠).

(٣) سيرة عمر ، لابن عبد الحكم ، (ص ١٢٢ ، ١٢٣)؛ التاريخ الإسلامي (١٦/ ٢٢٢).

عبد العزيز ـ رحمه الله تعالى ـ حتى في وصيته لأولاده بعد موته ، حيث لم يرضَ لنفسه أن يفارق الدنيا وقد حمل ذمته شيئاً لا يدري على أي وضع يكون تنفيذه ، فربما تصور أنه لو أوصى بهم أحد أقاربه لأعطاهم من مصدر لا يحل ، فيلحقه بذلك شيء من الإثم ، فلجأ إلى الله تعالى وفوض أمرهم إليه ، لقد تصور في معاملة أولاده وقوعه بين أمرين : أن يغنيهم في الحياة الدنيا ، وذلك يمنحهم شيئاً من المال العام للمسلمين ، فيتعرض بذلك للفحات النار ، أو أن يكتفي بالإنفاق عليهم من المورد القليل الحلال الخالي من الشبهات فيتعرض بذلك لنفحات الجنة ، فاختار الطريق الأخير مع ثقته أن لن يضيعهم ، وقد أشار إلى أنه ترك لهم السمعة العالية ، حيث سيكونون موضع احترام وعطف جميع المسلمين وأهل الذمة ، وأكرم بذلك من تركة ! إنها تركة عظيمة لا تقدر بها أموال الدنيا عند أصحاب الأفكار النيرة والعقول المبصرة .

وفي قوله : (إنما ولد عمر بين رجلين : إما رجل صالح فسيغنيه الله ، وإما غير ذلك فلن أكون أول من أعانه بالمال على معصية الله) لفتة جليلة إلى معية الله تعالى لأوليائه بالحفظ أخذاً من قول الله تعالى : ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ ، وإشارة إلى أن الأمر المهم أن يبذل الوالد أقصى جهده في تربية أولاده على الصلاح ليحفظهم الله تعالى ، وليس المهم أن يسعى في جمع المال لهم حتى يغتنوا من بعده ، لأنهم إن لم يكونوا صالحين فسيكون ذلك المال عوناً لهم على معصية الله تعالى[١] .

وأما في الأثر الثاني فيوجه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ابن عمه مسلمة بن عبد الملك إلى التحري في اكتساب المال ، ويبين له أن إنفاق المال بالصدقة أو الهدية لا يجعله حلالاً ، بل لابد من التحري في كسبه ، فإذا لم يكن للإنسان حق فيه وجب عليه أن يرده إلى مستحقيه ، ولا يبرئ ساحته أن يتصدق به أو يهديه[٢] .

٦ ـ وصيته إلى من يغسله ويكفنه :

عن رافع بن حفص المدني أن عمر قال لرجاء : إذا أنا مت وغسلتموني وكفنتموني وصليتم علي وأدخلتموني لحدي ، فاجذب اللبنة من عند رأسي ، فإن رأيت وجهي إلى القبلة فاحمدوا الله وأثنوا عليه ، وإن رأيت قد زويت عنها ، فاخرج إلى المسلمين ما داموا عند لحدي حتى يستوهبوني من ربي ، قال : فلما وضع في لحده وأقبل باللبن على وجهه جذبت اللبنة من عند رأسه فإذا وجهه إلى القبلة ، فحمدنا الله وأثنينا عليه[٣] .

---

(١) التاريخ الإسلامي (١٦/ ٢٢٢).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٤٤ ، ٦٤٥).

٧ ـ كراهته تهوين الموت عليه:

قال عمر بن عبد العزيز: ما أحبّ أن يخفف عني سكرات الموت لأنه آخر ما يرفع للمؤمن من الأجر(١). وفي رواية: ما أحب أن يخفف عني سكرات الموت؛ لأنه آخر ما يكفر به عن المرء المؤمن(٢).

٨ ـ حاله لما احتضر:

لما احتضر عمر بن عبد العزيز، قال: اخرجوا عني فلا يبقين عندي أحد. وكان عنده مسلمة بن عبد الملك، فخرجوا، وقعد مسلمة وفاطمة زوجه أخت مسلمة على الباب، فسمعوه يقول: مرحباً بهذه الوجوه، ليست وجوه إنس ولا بوجوه جان(٣)، وجاء في رواية: . . . قالت فاطمة بنت عبد الملك: كنت أسمع عمر يقول في أيام مرضه: اللهم أخفِ عنهم موتي ولو ساعة من نهار، فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده، وجلست في بيت بيني وبينه باب، فسمعته يقول: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. ثم هدأ فجعلت لا أسمع له صوتاً ولا حساً ولا كلاماً. فقلت لوصيف كان يخدمه: لو دخلت على أمير المؤمنين، فدخل وصاح، فقمت ودخلت عليه وقد أقبل بوجهه إلى القبلة وأغمض عينيه بإحدى يديه وأغمض فمه بالأخرى، ومات رحمه الله(٤).

وجاء في رواية: أن عمر بن عبد العزيز لما كان مرضه الذي هلك فيه قال لهم: أجلسوني، فأجلسوه، ثم قال: أنا الذي أمرتني فقصرت، ونهيتني فعصيت، ولكن لا إله إلا الله، ثم رفع رأسه وأحدَّ النظر فقالوا له: إنك لتنظر نظراً شديداً، فقال: إني لأرى حضرة ليست بإنس ولا جن، ثم قبض(٥). وكان نقش خاتمه: عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله.

٩ ـ تاريخ وفاته:

توفي الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر ليال بقين من رجب سنة (١٠١ هـ) على أصح الروايات، واستمر معه المرض عشرين يوماً، وتوفي بدير سمعان من أرض المعرة بالشام بعد خلافة استمرت سنتين وخمسة أشهر وأربعة أيام، وتوفي وهو ابن تسع وثلاثين سنة وخمسة أشهر، وعلى أصح الروايات كان عمره لما توفي أربعين سنة(٦).

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٤٨).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٥٢).

(٤) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٥٣).

(٥) المصدر السابق نفسه (٢/ ٦٥٤).

(٦) تاريخ القضاعي، (ص ٣٦٣).

١٠ ـ الأموال التي تركها عمر بن عبد العزيز:

اختلفت الروايات على مقدار تركة عمر بن عبد العزيز حين توفي ، ولكن الروايات متفقة على قلة التركة وانعدامها[١] ، ومن هذه الروايات ما رواه عمر بن حفص المعيطي قال: حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: كم ترك لكم من المال؟ فتبسم وقال: حدثني مولى لنا كان يتولى نفقته ، قال: قال لي عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ حين احتضر: كم عندك من المال ؟ قلت: أربعة عشر ديناراً ، قال: فقال: تحتملون بها من منزل إلى منزل ، فقلت: كم ترك من النحلة؟ قال: ترك لنا نحلة ستمئة دينار ورثناها عنه عن اختيار عبد الملك ، وتركنا اثني عشر ذكراً وست نسوة ، فقسمناها على خمس عشرة[٢]. والصحيح أن الذكور الذين ورثوه هم أحد عشر ذكراً ، لوفاة ابنه عبد الملك قبله[٣].

وقال ابن الجوزي: بلغني أن المنصور قال لعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: عظني. قال: مات عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ وخلَّف أحد عشر ابناً ، وبلغت تركته سبعة عشر ديناراً ، كفن منها بخمسة دنانير ، وثمن موضع قبره ديناران ، وقسم الباقي على بنيه ، وأصاب كل واحد من ولده تسعة عشر درهماً ، ومات هشام بن عبد الملك وخلف أحد عشر ابناً فقسمت تركته وأصاب كل واحد من تركته ألف ألف ، ورأيت رجلاً من ولد عمر بن عبد العزيز قد حمل في يوم واحد على مئة فرس في سبيل الله عز وجل ، ورأيت رجلاً من ولد هشام يتصدق عليه[٤].

وممّا مضى يظهر لنا جلياً أن المال الذي ورثه عمر بن عبد العزيز من أبيه ـ وهو مال كثير ـ أخذ في التناقص حتى توفي ـ رحمه الله ورضي الله عنه[٥].

١١ ـ ثناء الناس على عمر بن عبد العزيز بعد وفاته:

أ ـ مسلمة بن عبد الملك: حين توفي عمر ورآه مسجى ، قال: يرحمك الله ! لقد لينت لنا قلوباً قاسية ، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً[٦].

ب ـ فاطمة بنت عبد الملك: فعن وهيب بن الورد ، قال: بلغنا أن عمر بن عبد العزيز لما

---

(١) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٠)؛ تذكرة الحفاظ (١/ ١١٨).

(٢) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، (ص ٣٣٧).

(٣) فقه عمر بن عبد العزيز(١/ ٥٥).

(٤) سيرة عمر ، لابن الجوزي ، (ص ٣٣٨).

(٥) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٦).

(٦) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ٣٢٩).

توفي جاء الفقهاء إلى زوجته يعزونها ، فقالوا لها: جئناك لنعزيك بعمر ، فقد عمت مصيبة الأمة ، فأخبرينا يرحمك الله عن عمر: كيف كانت حاله في بيته؟ فإن أعلم الناس بالرجل أهله. فقالت: والله ما كان عمر بأكثركم صلاة ولا صياماً ولكني والله ما رأيت عبداً لله قط أشد خوفاً لله من عمر ، والله إن كان ليكون من المكان الذي ينتهي إليه سرور الرجل بأهله ، بيني وبينه لحاف ، فيخطر على قلبه الشيء من أمر الله ، فينتفض كما ينتفض طائر وقع في الماء ، ثم يرتفع بكاؤه حتى أقول: والله لتخرجن نفسه ، فأطرح اللحاف عني وعنه ، رحمة له وأنا أقول: يا ليتنا كان بيننا وبين هذه الإمارة بعد المشرقين ، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها[١].

جـ ـ **الحسن البصري**: لما أتى الحسن موت عمر بن عبد العزيز ، قال: إنا لله وإنا إليه راجعون ، يا صاحب كل خير[٢].

د ـ **مكحول**: ما رأيت أزهد ولا أخوف لله من عمر بن عبد العزيز.

هـ ـ **يزيد بن حوشب**: ما رأيت أخوف من الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز[٣] ، كأن النار لم تخلق إلا لهما[٤].

و ـ **بكاء الرهبان عليه**: عن الأوزاعي قال: شهدت جنازة عمر بن عبد العزيز ، ثم خرجت أريد مدينة قنسرين ، فمررت على راهب فقال: يا هذا أحسبك شهدت وفاة هذا الرجل ، قال: فقلت له: نعم ، فأرخى عينيه فبكى سجاماً ، فقلت له: ما يبكيك ولست من أهل دينه؟ فقال: إني لست أبكي عليه ، ولكن أبكي على نور كان في الأرض فطفئ[٥].

ز ـ **ملك الروم وبطارقته**: بعث عمر بن عبد العزيز وفداً إلى ملك الروم في أمر من مصالح المسلمين ، وحق يدعوه إليه ، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه وهو جالس على سرير ملكه ، والتاج على رأسه والبطارقة على يمينه وشماله والناس على مراتبهم بين يديه ، فأدى إليه ما قصدوه له فتلقاهم بجميل وأجابهم بأحسن الجواب ، وانصرفوا عنه في ذلك اليوم ، فلما كان في غداة غد أتاهم رسوله ، فدخلوا عليه ، فإذا هو قد نزل عن سريره ووضع التاج عن رأسه ، وقد تغيرت صفاته التي شاهدوه عليها كأنه في مصيبة ، فقال: هل تدرون لماذا دعوتكم؟ قالوا: لا ، قال: إن صاحب مصلحتي التي تلي العرب جاء في كتابه في هذا الوقت: أن ملك العرب

---

(١) البداية والنهاية؛ نقلاً عن ملامح الانقلاب ، (ص ٥٦).

(٢) فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٣).

(٣) تاريخ الخلفاء ، للسيوطي؛ نقلاً عن ملامح الانقلاب ، (ص ٥٥).

(٤) صفة الصفوة (٣/ ١٥٦).

(٥) سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، (ص ٣٣١).

الرجل الصالح قد مات ، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا ، فقال: ألكم تبكون ، أو لدينكم ، أو له ؟ قالوا: نبكي لأنفسنا ولديننا وله ، قال: لا تبكوا له ، وابكوا لأنفسكم ما بدا لكم ، فإنه خرج إلى خير مما خلف ، وقد كان يخاف أن يدع طاعة الله ، فلم يكن الله ليجمع عليه مخافة الدنيا ومخافته ، لقد بلغني من بره وفضله وصدقه ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً ، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكني عجبت من هذا الذي صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها ، حتى صار مثل الراهب ، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلاً[١] .

١٢ ـ ما نسب إليه من كرامات عند موته:

يحكى عن حسين القصار[٢] قال: كنت أجلب الغنم في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فمررت يوماً براعٍ وفي غنمه نحو من ثلاثين ذئباً حسبتها كلاباً ، فقلت له: يا راعي ما ترجوه بهذه الكلاب كلها؟ فقال: يا بني إنها ليست كلاباً إنما هي ذئاب. قلت: يا سبحان الله ذئب في غنم لا يضرها ، فقال: يا بني إذا صلح الرأس فليس على الجسد من بأس[٣] .

ويبدو أن مثل هذه القصص من المبالغات ، وإلا فإننا في عهد النبوة وقيام الدولة في المدينة وعهد الخلافة لم نسمع بأن الذئاب كانت ترعى مع الغنم .

وقد رئيت له منامات صالحة ، وتأسف عليه الخاصة والعامة ، لا سيما العلماء والزهاد والعباد[٤] .

١٣ ـ ما قيل فيه من رثاء:

أ ـ قال فيه كثير عزّة:

عمّت صنائعُه فعمَّ هلاكُه ... فالناسُ فيه كلُّهم مأجورُ
والناسُ مأتمُهُم عليه واحدٌ ... في كلِّ دارٍ رنَّةٌ وزفيرُ
يثني عليك لسانُ من لم تولِه ... خيراً لأنَّك بالثناءِ جديرُ
ردتْ صنائعُه عليه حياتَهُ ... فكأنَّه من نشرِها منشورُ[٥]

---

(١) مروج الذهب (٣/ ١٩٥)؛ فقه عمر بن عبد العزيز (١/ ٥٤).
(٢) لعله جسر القصاب: اختلف فيه ، والأكثرون على تضعيفه .
(٣) الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز (٢/ ٦٧٠).
(٤) البداية والنهاية (١٢/ ٧١٨).
(٥) المصدر السابق نفسه.

ب ـ وقال جرير:

ينعـي النعـاةُ أميـرَ المـؤمنيـن لَنَـا ... يـا خيـرَ مـن حـجَّ بيـتَ اللهِ واعتمـرا
حملـتَ أمـراً عظيمـاً فـاضطلعـتَ بـه ... وقمـتَ فيـه بـأمـرِ الله يـا عمـرا
الشمـسُ كـاسفـةٌ[1] ليسـت بطـالعـةٍ ... تبكـي عليـكَ نجـومُ الليـلِ والقمـرا[2]

جـ ـ وقال محارب بن دثار:

لـو أعظـمَ المـوتُ خلقـاً أن يـواقِعَـه ... لعـدلِـهِ لـم يصبْـك المـوتُ يـا عمـرُ
كـم مـن شـريعـةِ عـدلٍ قـد نعشـتَ لهـم ... كـادتْ تمـوتُ وأخـرى منـك تنتظـرُ
يـا لهـفَ نفسـي ولهـفَ الـواجـديـن معـي ... علـى العـدولِ التـي تغتـالهـا الحفـرُ
وأنـت تتبعهـم لـم تـألُ مجتهـداً ... سقيـاً لهـا سنـنٌ بـالحـقِّ تفتقـرُ
لـو كنـتُ أملـكُ والأقـدار غـالبـةٌ ... تـأتـي رواحـاً وتبيـانـاً وتبتكـرُ[3]

رحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وأعلى ذكره في المصلحين؛ فهذه معالم من سيرته الإصلاحية التجديدية الراشدية التي سار بها على منهاج النبوة، وقد حفظ الله لنا هذه السيرة، ولم تهملها الليالي، ولم تفصلها عنا حواجز الزمن ولا أسوار القرون؛ فلعلها تجد من يسير على نهجه من حكامنا وزعمائنا وقادتنا، وما ذلك على الله بعزيز في جيلنا أو في غيره.

* * *

(١) المصدر السابق نفسه (١٢/ ٧١٩).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) المصدر السابق نفسه.

أهم المصادر والمراجع

١ ـ أثر العلماء في الحياة السياسية في الدولة الأموية ، د. عبد الله بن عبد الرحمن بن زيد الخرعان ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ.

٢ ـ أخبار مكة ، للفاكهي ، عبد الله بن محمد ، تحقيق: عبد الملك بن دهيش.

٣ ـ أدب الدنيا والدين ، للماوردي ، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي.

٤ ـ آراء المعتزلة الأصولية ، د. علي بن سعد بن صالح الضويحي ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م.

٥ ـ أصول الحديث ، محمد عجاج الخطيب.

٦ ـ إعلام الموقعين ، لابن القيم ، شمس الدين ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٧ م.

٧ ـ أقوال التابعين في مسائل التوحيد والإيمان ، عبد العزيز عبد الله المبدل ، دار التوحيد ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م.

٨ ـ الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، لابن بطة العكبري ، تحقيق ودراسة: رضا بن نعسان معطي ، طبعة دار الراية ، الرياض.

٩ ـ الآثار الواردة عن عمر بن عبد العزيز في العقيدة ، حياة محمد جبريل ، الجامعة الإسلامية ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م.

١٠ ـ الإدارة الإسلامية في عز العرب ، محمد كرد علي ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، مطبعة مصر ، ١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ م.

١١ ـ الإدارة في الإسلام الفكر والتطبيق ، د. عبد الرحمن إبراهيم الضحيان ، دار الشروق ، ١٤٠٧ هـ.

١٢ ـ الاعتصام ، للشاطبي ، ضبطه وصححه: أحمد عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، عام ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م.

١٣ ـ الإمام أيوب السختياني ، د. سليمان عبد العزيز العريني ، مكتبة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م.

١٤ ـ الأموال ، لأبي عبيد ، القاسم بن سلام ، الطبعة الثانية ، تحقيق وتعليق : محمد خليل هراس ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

١٥ ـ الانتصار للصحب والآل من افتراءات السَّماوي الضّال ، د. إبراهيم الرحيلي ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .

١٦ ـ البداية والنهاية ، أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي ، دار الرّيان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .

١٧ ـ البدع والنهي عنها ، لابن وضاح الأندلسي ، تحقيق : محمد أحمد دهمان ، دار الأصفهاني ، جدة .

١٨ ـ البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، أبو عبد الله محمد المرَّاكشي ابن عِذَارى .

١٩ ـ البيان والتبيين ، للجاحظ ، أبي عمر عثمان بن عمرو بن بحر ، تحقيق عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ، ١٣٩٥ هـ .

٢٠ ـ التابعون وجهودهم في خدمة الحديث النبوي ، للشايجي ، دار اليقين ، المنصورة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠١ م .

٢١ ـ التاريخ الإسلامي ، محمود شاكر ، المكتب الإسلامي ، الطبعة السابعة ، ١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م .

٢٢ ـ التجديد في الفكر الإسلامي ، د. عدنان محمد أسامة ، دار ابن الجوزي ، الرياض ، الطبعة الأولى ، رجب ١٤٢٤ هـ .

٢٣ ـ التطور الاقتصادي في العصر الأموي ، د. عصام هشام عيدروس الجفري ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، السعودية .

٢٤ ـ الثمار الزكية للحركة السنوسية ، د. علي محمد الصَّلاَّبي ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠١ م .

٢٥ ـ الثمر الداني في تقريب المعاني ، شرح رسالة أبي زيد .

٢٦ ـ الجامع لأحكام القرآن ، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، طبعة ثالثة ـ عن طبعة دار الكتب المصرية .

٢٧ ـ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ، للخطيب البغدادي ، المكتبة البلدية بالإسكندرية .

٢٨ ـ الجوانب التربوية في حياة الخليفة عمر بن عبد العزيز ، جامعة اليرموك ، الأردن ، رسالة ماجستير .

٢٩ ـ **الحسن البصري** ، مصطفى سعيد الخن ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م.
٣٠ ـ **الحسن البصري إمام عصره وعلامة زمانه** ، مرزوق علي إبراهيم ، دار الفضيلة ، القاهرة.
٣١ ـ **الحسن والحسين** ، سيدا شباب أهل الجنة ، محمد رضا ، المكتبة العصرية ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.
٣٢ ـ **الحكم والتحاكم في خطاب الوحي** ، د. عبد العزيز مصطفى كامل ، دار طيبة ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٥ م.
٣٣ ـ **الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي** ، عبد الله محمد السيف ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م.
٣٤ ـ **الخراج** ، لأبي يوسف ، يعقوب بن إبراهيم ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م.
٣٥ ـ **الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية** ، محمد ضياء الدين الرّيس ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ، مكتبة دار التراث ، ١٩٨٥ م.
٣٦ ـ **الخراج** ، يحيىٰ بن آدم القرشي ، الطبعة الأولى ، تحقيق : د. حسين مؤنس ، القاهرة ، بيروت ، دار الشروق ، ١٩٨٧ م.
٣٧ ـ **الخطط** ، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧ م.
٣٨ ـ **الخوارج** ، ناصر العقل ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ.
٣٩ ـ **الدر المنثور في التفسير بالمأثور** ، للإمام السُّيوطي ، الناشر : محمد أمين دمج ، بيروت ـ لبنان.
٤٠ ـ **الدعوة إلى الله في العصر العباسي الأول** ، د. علي أحمد مشاعل ، دار العاصمة ، الطبعة الأولى ، السعودية ، عام ١٤١٤ هـ.
٤١ ـ **الدور السياسي للصفوة في صدر الإسلام** ، السيد عمر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٦ م ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
٤٢ ـ **الدولة الأموية** ، يوسف العش ، دار الفكر ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٦ هـ ـ ١٩٨٥ م.
٤٣ ـ **الرد على الجهمية والزنادقة** ، للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : د. عبد الرحمن عميرة ، طبعة دار اللواء الثانية ، عام ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م.
٤٤ ـ **الرقة والبكاء** ، موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.

٤٥ ـ الروح ، لابن القيم ، دار الكتاب العربي ، تحقيق ودراسة : الدكتور السيد الجميلي ، الطبعة الثالثة ، عام ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م ، بيروت ، لبنان .
٤٦ ـ الزهد ، للحسن البصري ، د. محمد عبد الرحيم ، دار الحديث ، مصر .
٤٧ ـ السنة ، لعبد الله بن أحمد بن حنبل ، تحقيق ودراسة : د. أكرم محمد سعيد سالم القحطاني ، رمادي للنشر ، الدمام ، الطبعة الثالثة ، عام ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .
٤٨ ـ السنة ومكانتها في التشريع ، للدكتور مصطفى السباعي ، طبعة أولى ، مطبعة المدني بمصر ، ١٣٨٠ هـ ـ ١٩٦١ م .
٤٩ ـ السياسة الاقتصادية والمالية لعمر بن عبد العزيز ، بشير كمال بشير عابدين ، رسالة ماجستير ، جامعة اليرموك ، الأردن .
٥٠ ـ الشرف والتسامي بحركة الفتح الإسلامي ، د. علي الصَّلابي ، الصحابة ، الشارقة .
٥١ ـ الشريعة ، للإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري ، تحقيق : عبد الله بن عمر بن سليمان الرميحي ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٥٢ ـ الشعر والشعراء ، لابن قتيبة ، دار الحديث ، القاهرة ، تحقيق : أحمد شاكر ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٨ م .
٥٣ ـ الضرائب في السواد في العصر الأموي ، عبد العزيز الدوري ، في بحوث ودراسات مهداة إلى عبد الكريم محمود غرايبة بمناسبة بلوغه الخامسة والستين ، عمان ، ١٩٨٨ م .
٥٤ ـ العقد الفريد ، أحمد بن محمد بن عبد ربه ، تحقيق : أحمد أمين .
٥٥ ـ العلاقات العربية البيزنطية في العصر الأموي ، صالح حسن عيد عيسى الشمري ، جامعة بغداد ، رسالة ماجستير ، عام ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م .
٥٦ ـ العلل المتناهية ، لابن الجوزي ، تحقيق : خليل الميس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٣ هـ .
٥٧ ـ الفتوى : نشأتها وتطورها ، حسين الملاح ، المكتبة العصرية ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .
٥٨ ـ الفرق بين الفرق ، أبو منصور ، عبد القاهر بن طاهر البغدادي ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد ، طبع مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة .
٥٩ ـ القدرية والمرجئة ، د. ناصر العقل ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٦٠ ـ القضاء والقدر ، عبد الرحمن المحمود ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة الثانية ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٦١ ـ القضاء والقدر ، لمحمد بن إبراهيم الحمد .

٦٢ ـ القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، للشيخ محمد الصالح العثيمين .
٦٣ ـ الكامل في التاريخ ، أبو الحسن علي بن أبي المكارم الشَّيباني المعروف بابن الأثير ، تحقيق : علي شيري ، دار إحياء التُّراث العربي ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٩ م .
٦٤ ـ الكتاب الجامع لسيرة عمر بن عبد العزيز ، لأبي حفص عمر بن الخضر المعروف بالملاء ، تحقيق : د . محمد صدقي اليورنو ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .
٦٥ ـ المجتمع الإسلامي ، دعائمه وآدابه ، د . محمد أبو عجوة ، الناشر : مكتبة مدبولي ، الطبعة الأولى ، نوفمبر ١٩٩٩ م .
٦٦ ـ المجددون في الإسلام ، عبد المتعال الصعيدي ، دار الحامي للطباعة ، مصر .
٦٧ ـ المحدث الفاصل بين الراوي والواعي ، للقاضي الحسن بن عبد الرحمن الرامهرمزي المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ، تحقيق : د . محمد عجاج الخطيب .
٦٨ ـ المحلى ، تأليف : علي بن أحمد بن سعيد بن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ هـ ، تحقيق : لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة ، بيروت .
٦٩ ـ المدينة النبوية ، فجر الإسلام والعصر الراشدي ، محمد محمد حسن شُرَّاب ، دار القلم ، دمشق ، الدار الشامية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م .
٧٠ ـ المعارف ، لابن قتيبة ، تحقيق : ثروت عكاشة ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ـ مصر .
٧١ ـ المعرفة والتاريخ ، للإمام يعقوب بن سفيان الفسوي ، تحقيق : الدكتور أكرم ضياء العمري ، مطبعة الإرشاد ، بغداد .
٧٢ ـ المغني ، لابن قدامة ، للإمام أبي محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي المتوفى سنة ٦٢٠ هـ ، نشر مكتبة الجمهورية العربية بالقاهرة .
٧٣ ـ الملل والنحل ، للشهرستاني ، محمد عبد الكريم ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٥٦ م .
٧٤ ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .
٧٥ ـ المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل ، باب ذكر المعتزلة ، لأحمد بن يحيىٰ بن المرتضى ، دار صادر ، بيروت ، مصورة عن طبعة ١٣١٦ هـ .
٧٦ ـ الموطأ ، للإمام مالك ، رواية يحيى بن يحيى الليثي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٤ م .
٧٧ ـ النموذج الإداري المستخلص من إدارة عمر بن عبد العزيز ، محمد بن مشيب بن سلمان القحطاني ، منشورات جامعة أم القرى ، طبعة عام ١٤١٨ هـ .

٧٨ـ النهاية في غريب الحديث والأثر ، لابن الأثير ، تحقيق : محمود محمد الطناجي ، الطبعة الأولى ، عام ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٦٣ م ، دار إحياء الكتب .
٧٩ـ الوسطية في القرآن الكريم ، د. علي محمد الصَّلاّبي ، دار الصحابة ، الشارقة .
٨٠ـ الوافي بالوفيات ، للصفدي .
٨١ ـ الولاة وكتاب القضاة ، أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ، مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ـ ١٩٠٨م .
٨٢ ـ انتشار الإسلام في القرن الإفريقي خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، محمود محمد هملان الجبارات ، ماجستير ، جامعة النيلين ، ١٩٩٨ م ـ ١٩٩٩ م .
٨٣ـ أنساب الأشراف ، أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري ، طبع بيروت ، عام ١٩٨٩ م .
٨٤ ـ براءة السلف مما نسب إليهم من انحراف في الاعتقاد ، عدنان عبد القادر ، دار الإيمان ، الإسكندرية .
٨٥ـ تأثير المعتزلة في الخوارج والشيعة ، عبد اللطيف بن عبد القادر الحفظي ، دار الأندلس ، الطبعة الأولى ، ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م .
٨٦ ـ تاريخ أبي زرعة ، تحقيق : شكر الله نعمة الله القوجاني ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، بدمشق .
٨٧ ـ تاريخ التصوف الإسلامي من البداية حتى نهاية القرن الثاني ، د. عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، مصر ، الكويت ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٥ م .
٨٨ـ تاريخ الجدل ، محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي .
٨٩ ـ تاريخ الخلفاء ، لجلال الدين السُّيوطي ، دار صادر، بيروت ، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ ـ ١٩٩٧ م .
٩٠ ـ تاريخ الطبري ، المسمى بتاريخ الأمم والملوك ، لأبي جعفر الطبري ، دار الفكر ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .
٩١ ـ تاريخ الفتح العربي في ليبية ، للطاهر أحمد الزاوي ، دار التراث العربي ، ليبية ، الطبعة الثالثة .
٩٢ ـ تاريخ خليفة بن خيّاط ، أبو عمر خليفة بن خيّاط بن أبي هبيرة الليثي ، تحقيق : أكرم ضياء العمري ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرّسالة ، دار القلم ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ .
٩٣ـ تذكرة الحفاظ ، للذهبي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
٩٤ـ تفسير ابن أبي حاتم .
٩٥ـ تفسير التابعين ، د. محمد بن عبد الله بن علي الخضري ، دار الوطن ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

٩٦ـ تفسير السعدي ، للشيخ عبد الرحمن السعدي ، دار ابن الجوزي ، السعودية .
٩٧ـ تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير القرشيّ ، دار الفكر ، دار القلم ، بيروت ، لبنان .
٩٨ ـ تناقض أهل الأهواء والبدع في العقيدة ، د. عفاف بنت حسن بن محمد مختار ، مكتبة الرشد ، الرياض ، عام ٢٠٠٠ م ، الطبعة الأولى .
٩٩ـ تهذيب الأسماء واللغات ، للإمام النووي .
١٠٠ـ تهذيب التهذيب ، ابن حجر العسقلاني ، حيدر آباد الدكن ، نشر دار صادر ، بيروت ، سنة ١٣٢٢ هـ .
١٠١ـ جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، لابن رجب الحنبلي، د. يوسف البقاعي ، طبعة المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٩٥ م .
١٠٢ ـ جامع بيان العلم وفضله ، لابن عبد البرّ ، تصوير : دار الكتب العلمية ، ١٣٩٨ هـ ، بيروت .
١٠٣ـ جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام ، لابن قيم الجوزية ، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .
١٠٤ ـ جواهر الإكليل شرح مختصر خليل في مذهب الإمام مالك ، للشيخ صالح عبد السميع الآبي الأزهري ، دار المعرفة ، بيروت .
١٠٥ـ حاشية ابن عابدين ، مطابع مصطفى البابي وأولاده .
١٠٦ـ حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد الغامدي، مكتبة الرشد، الطبعة الأولى، ١٩٩٢ م .
١٠٧ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
١٠٨ ـ حياة الحسن البصري ، د. روضة الحصري ، دار الكلم الطيب ، دمشق ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠٢ م .
١٠٩ـ خامس الخلفاء الراشدين الحسن بن علي بن أبي طالب ، د. علي محمد الصَّلاَّبي ، دار ابن كثير ، دمشق ، ٢٠٠٤ م ، الطبعة الأولى .
١١٠ـ دراسات في الأهواء والفرق والبدع وموقف السلف منها ، د. ناصر عبد الكريم العقل ، مركز الدراسات والإعلام ، دار إشبيلية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
١١١ـ دفاعاً عن السلفية ، عمرو عبد المنعم سليم ، مكتبة الصحابة ، الشارقة ، الإمارات ، الطبعة الرابعة ، ١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م .

١١٢ ـ دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، لأبي بكر محمد البيهقي ، تحقيق: عبد المعطي قلعجي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية ، بيروت .

١١٣ ـ دموع القرّاء ، محمد شومان ، دار النفائس ، الأردن ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣ م .

١١٤ ـ ذم الدنيا ، لابن أبي الدنيا .

١١٥ ـ رجال الفكر والدعوة للندوي ، أبو الحسن ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م ، دار ابن كثير ، دمشق .

١١٦ ـ رسالة توحيد الألوهية أساس الإسلام ، للباحث حامد عبد القادر الأحمدي ، مطبوع على الآلة الكاتبة .

١١٧ ـ روضة الطالبين وعمدة المفتين ، للإمام محيي الدين ين شرف النووي ، نشر المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

١١٨ ـ رياض النفوس للمالكي ، أبو بكر عبد الله المالكي ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة .

١١٩ ـ زاد المسير في علم التَّفسير ، لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي ابن الجوزيّ القرشي البغدادي ، المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٥ م .

١٢٠ ـ سراج الملوك ، أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد القرشي الفهري الأندلس الطرطوشي ، طبعة الإسكندرية ، المطبعة الوطنية ، ١٢٨٩ هـ ـ ١٨٧٢ م .

١٢١ ـ سنن أبي داود ، للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني ، مراجعة وتعليق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الكتب العلمية .

١٢٢ ـ سنن الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، دار الفكر ، ١٣٩٨ م .

١٢٣ ـ سياسة الإنفاق العام في الإسلام ، عوف محمود الكفراوي ، الإسكندرية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م .

١٢٤ ـ سير أعلام النبلاء ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذَّهبي ، الطبعة الثانية ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤٠٢ هـ .

١٢٥ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن الجوزي ، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى .

١٢٦ ـ سيرة عمر بن عبد العزيز ، لابن عبد الحكم ، أبي محمد عبد الله ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٣٨٧ هـ ـ ١٩٦٧ م .

١٢٧ ـ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، محمد بن محمد مخلوف ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان .

١٢٨ ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لأبي الفلاح عبد الحي ابن العماد الحنبلي .

١٢٩ ـ شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ، تحقيق : د. أحمد سعد حمدان الغامدي ، طبعة دار طيبة ، الرياض ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٤ م .

١٣٠ ـ شرح العقيدة الطحاوية ، محمد علي الأذرعي ، خرّج أحاديثها : محمّد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان .

١٣١ ـ شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، لابن القيم ، طبعة دار التراث القاهرة .

١٣٢ ـ صحيح الجامع الصغير ، للألباني ، المكتب الإسلامي

١٣٣ ـ صحيح مسلم ، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٢ م .

١٣٤ ـ صفة الصفوة ، للعلامة ابن الجوزي ، طبعة أولى ، حيدر آباد الدكن ، الهند .

١٣٥ ـ صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي ، د. علي محمد الصَّلاَّبي ، دار البيارق ، عمّان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م .

١٣٦ ـ طبقات ابن سعد ، دار صادر ، بيروت ، لبنان .

١٣٧ ـ عبد العزيز بن مروان وسيرته وأثره في أحداث العصر الأموي ، بديع محمد إبراهيم الدليمي ، د. فاروق عباس وهيب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٨ م .

١٣٨ ـ عصر الدولتين الأموية والعباسية ، للصَّلاَّبي ، مكتبة الصحابة ، الشارقة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م .

١٣٩ ـ عمر بن عبد العزيز ، صالح العلي ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م .

١٤٠ ـ عمر بن عبد العزيز ، عبد الستار الشيخ ، دار القلم ، دمشق .

١٤١ ـ عمر بن عبد العزيز ، د. وهبة الزُّحيلي ، دار قتيبة ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٩ هـ ـ ١٩٩٨ م .

١٤٢ ـ عمر بن عبد العزيز ، للشرقاوي ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

١٤٣ ـ عمر بن عبد العزيز وسياسة رد المظالم ، ماجدة فيصل ، مكتبة الطالب الجامعي ، مكة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

١٤٤ ـ عون المعبود شرح سنن أبي داود ، محمد شمس الحقّ العظيم آبادي ، ضبط وتحقيق : د. عبد الرحمن محمد عثمان ، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

١٤٥ ـ فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان .

١٤٦ ـ فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والدّراية من علم التفسير ، محمد بن علي الشوكاني ، دار الفكر .
١٤٧ ـ فتوح البلدان ، للبلاذري أحمد بن يحيىٰ بن جابر ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م .
١٤٨ ـ فجر الأندلس ، د. حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٩ م .
١٤٩ ـ فصل الخطاب في مواقف الأصحاب ، الشيخ محمد صالح أحمد الغرسي ، دار السلام ، مصر ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٦ م .
١٥٠ ـ فقه عمر بن عبد العزيز ، محمد شقير ، دار الرشد ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤ هـ ـ ٢٠٠٣ م .
١٥١ ـ في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار الشروق ، الطبعة التاسعة ، ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .
١٥٢ ـ فيض القدير شرح الجامع الصغير ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٤ م .
١٥٣ ـ قضية الثواب والعقاب ، د. جابر زايد عبد الميري ، الدار السودانية ، الخرطوم ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .
١٥٤ ـ كتاب الورع ، لابن أبي الدنيا .
١٥٥ ـ لسان العرب ، جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، دار صادر ، بيروت .
١٥٦ ـ مجموعة الفتاوى ، لتقي الدين أحمد بن تيمية الحرّاني ، دار الوفاء ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ، ١٤١٨ هـ ـ ١٩٩٧ م .
١٥٧ ـ مجموعة رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي ، تحقيق : أبي مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني ، الفاروق للنشر ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م .
١٥٨ ـ مدارج السالكين ، بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن قيم الجوزيّة ، تحقيق : محمد حامد الفقي .
١٥٩ ـ مدرسة الحديث في القيروان ، الحسين بن محمد شواط ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ .
١٦٠ ـ مذاهب الإسلاميين ، د. عبد الرحمن بدوي ، دار العلم للملايين ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٦ م .
١٦١ ـ مروج الذهب و معادن الجوهر ، لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، طبعة ١٤٠٢ هـ ـ ١٩٨٢ م .
١٦٢ ـ مستدرك الحاكم على الصحيحين ، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله النَّيسابوري ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤١١ هـ .

١٦٣ ـ مسند أحمد ، المكتب الإسلامي ، بيروت .
١٦٤ ـ مشاهير علماء الأمصار ، تأليف : محمد بن حبان ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، ١٣٧٩ هـ .
١٦٥ ـ مصنف ابن أبي شيبة ، للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي ، دار القرآن والعلوم الإنسانية ، كراتشي ، باكستان ، ١٤٠٦ هـ .
١٦٦ ـ مصنف عبد الرزاق ، عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣ هـ .
١٦٧ ـ معرفة علوم الحديث ، للحاكم النيسابوري .
١٦٨ ـ مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري ، الطبعة الثانية ، ١٣٨٩ هـ ، النهضة المصرية .
١٦٩ ـ مقدمة ابن خلدون .
١٧٠ ـ ملامح الانقلاب الإسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز ، د . عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة السابعة ، ١٤٠٥ هـ ـ ١٩٨٥ م .
١٧١ ـ من أجل صحوة إسلامية راشدة تجدد وتنهض بالدنيا ، د . يوسف القرضاوي ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٨ م .
١٧٢ ـ منهاج السنة ، لابن تيمية ، تحقيق : محمد رشاد سالم ، مؤسسة قرطبة .
١٧٣ ـ منهج أهل السنة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله الخالد ، عبد اللطيف بن محمد نور ، مكتبة الغرباء الأثرية ، المدينة النبوية ، الطبعة الأولى ، عام ١٤١٦ هـ ـ ١٩٩٥ م .
١٧٤ ـ موجز تاريخ تجديد الدين ، أبو الأعلى المودودي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ١٩٦٨ م .
١٧٥ ـ موقف أهل السنة من أهل الأهواء والبدع ، د . إبراهيم عامر الرحيلي ، مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ، الطبعة الأولى ، لعام ١٤٢٢ هـ .
١٧٦ ـ ميزان الاعتدال ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٢ هـ .
١٧٧ ـ نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام ، د . علي سامي النشار ، دار المعارف ، الطبعة السابعة .
١٧٨ ـ نظام الإسلام ، الحكم والدولة ، محمد المبارك ، بيروت ، دار الفكر ، ١٤٠١هـ .
١٧٩ ـ نظام الحكم في الإسلام بين النظرية والتطبيق ، د . أحمد عبد الله مفتاح ، دار التوزيع والنشر الإسلامية .
١٨٠ ـ نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي ، ظافر القاسمي ، دار النَّفائس ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ هـ ـ ١٩٨٧ م .

١٨١ ـ وسطية أهل السنة بين الفرق ، د. محمد باكريم ، دار الراية ، الرياض ، الطبعة الأولى ، ١٤١٥ هـ ـ ١٩٩٤ م.

١٨٢ ـ وفيات الأعيان وأبناء الزمان ، لابن خلكان أبي العباس شمس الدين أحمد ، تحقيق : إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت.

* * *

فهرس الموضوعات

المبحث الثاني
أهم صفاته ومعالم تجديده

المبحث الثالث

اهتمام عمر بن عبد العزيز بعقائد أهل السنة

المبحث الرابع

موقف عمر بن عبد العزيز من الخوارج والشيعة والقدرية والمرجئة والجهمية

المبحث السابع

المؤسسة القضائية في عهد عمر بن عبد العزيز وبعض اجتهاداته الفقهية

المبحث الثامن

الفقه الإداري عند عمر بن عبد العزيز وأيامه الأخيرة ووفاته رحمه الله

المؤلف في سطور
علي محمَّد محمَّد الصَّلاَّبي

* ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م .

* حصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كلية الدَّعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة بتقديرٍ ممتازٍ ، وكان الأول على دفعته عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م .

* نال درجة الماجستير من جامعة أم درمان الإسلاميَّة كلية أصول الدِّين قسم التَّفسير وعلوم القرآن عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م .

* نال درجة الدُّكتوراه في الدِّراسات الإسلامية .

* **صدرت له عدَّة كتب :**

١ ـ من عقيدة المسلمين في صفات ربِّ العالمين .

٢ ـ الوسطية في القرآن الكريم .

سلسلة (صفحات من التاريخ الإسلامي في الشَّمال الإفريقي) .

٣ ـ صفحاتٌ من تاريخ ليبيا الإسلاميِّ والشمال الإفريقي .

٤ ـ عصر الدَّولتين الأمويَّة ، والعباسيَّة ، وظهور فكر الخوارج .

٥ ـ الدَّولة العبيديَّة (الفاطمية) الرَّافضية .

٦ ـ فقه التَّمكين عند دولة المرابطين .

٧ ـ دولة الموحِّدين .

٨ ـ الدَّولة العثمانية ، عوامل النُّهوض ، وأسباب السُّقوط .

٩ ـ الحركة السَّنوسية في ليبيا .

(أ) الإمام محمد بن علي السَّنوسي ، ومنهجه في التَّأسيس .

(ب) محمَّد المهدي السَّنوسي ، وأحمد الشريف .

(ج) إدريس السَّنوسي ، وعمر المختار .

١٠ ـ فقه التَّمكين في القرآن الكريم .

١١ ـ السِّيرة النبوية ، عرض وقائع ، وتحليل أحداث .